

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب لطلبة دار العلوم العليا

ناتج الأدب العربي

في

العصر العباسي

بغير الاندلس والمغرب

بقلم

السيد محمد بن عبد الله

مدرس أدب بدار العلوم

الطبعة الثانية

١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م

obeykandi.com

العصر العباسي

١٣٢ - ٦٥٦ هـ

تصوير عام

للحال السياسية في هذا العصر الطويل

دالت الدولة الأموية، وآلت إلى العباسيين والعرب فريقان: - فريق يحن إلى الدولة الدائلة، ويود أن لو عاد الزمن بها على الأعقاب، وآخر يرى أن ما فعله العباسيون من استئثارهم بالخلافة على أبناء عمهم العلويين ذوي الحق الأصيل اقتراء وطغيان^(١)، فكان من الطبيعي حينئذ أن يولوا وجهة الدولة الجديدة عن العرب، إلى غيرهم في تثبيت قواعدها، وتصريف شئونها، ولم يك هناك غير سوى الفرس، وإن كانوا في عقيدتهم علويين،

(١) يزعم العباسيون أنهم أحق بالخلافة من أبناء علي، لأنهم فوق وراثتهم للعباس «وإرث النبي في عمومته دون أبناء علي من فاطمة ومن غير فاطمة بالأولى» قد تنازل لهم عن حقهم في الخلافة هؤلاء إلا أبناء، ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب نزل مقيما بقرية الحريمة بالشرارة من الشام لدى علي بن عبد الله ابن العباس، وحين دنت وفاته عنده تنازل له عن هذا الحق الذي آل بهد علي إلى ابنه محمد فأقام الدعاة وجعل عليهم النقباء وسرحهم إلى خراسان، ولكن العلويين ينكرون هذا التنازل ومن اعتمد به منهم يجعله حجة على أبناء علي من محمد بن الحنفية دون أنثائه من فاطمة المتول.

ذلك لأنهم انساقوا في تيار السلطان الجديد، ولو إلى حين، وبهذا تبدلت الدولة من عربية محضة، إلى عربية يشوبها سلطان الفرس مع سلطان الخلفاء؛ ثم كان أن أسست عاصمتها الجديدة «بغداد» في أحضان الفرس، فكان ثم زيادة في التجاور واختلاط، ولكن سلطان الفرس على ماصار له من نفوذ، لم يقو أن يتغلب في القرن الأول على سلطان الخلفاء، لقوة شخصيتهم، وفتوة دواتهم؛ والتاريخ لا يزال يحدثنا بما كان من فتك المنصور بأبي مسلم، وفتك الرشيد بالبرامكة، احتفاظا للخلافة بالنفوذ؛ ولذا عرف هذا القرن الأول، بعصر سيادة الدولة، واكتمال السلطان. غير أنه حدث في آخره حيث آلت الخلافة إلى المعتصم أخى المأمون أن عمده بحكم فتوته، وقوة بدنه، وانسياقه لاشباع هذا النهم الجسمي، بأعمال الرياضة والفروسية، إلى عدد من الأتراك الخدم، جعلهم في هذا النوع من اللهو مخالطيه ومعاونيه، وانساق في سبيل الاستكثار منهم، حتى بلغوا كما قال المؤرخون: السبعين ألفاً، وصار لهم في بغداد شغب واعتداء جأر له أهلها بالشكوى منهم والاشتمزاز. وكأنه قد وجد بغداد لما فيها من جد الأمر، ومهام الشئون ملهية له وهؤلاء، أن ينساقوا في هذه السبيل الرياضية، إلى حيث يريدون، فحجروا بهم إلى مدينة أسسها لهذا الضرب من المجون، هي مدينة «سر من رأى» أو كما قد يقولون «سامراء» فابتعد بهذا أن يلي أمور الدولة عن كتب، كما ينبغي أن يكون، وبدأ نفوذ الخليفة يتراجع فيها إلى الوراء، بقدر ما عظم نفوذ الفرس المرحبين بهذا الانصراف، ولكن الطبيعة قضت أن يستفيد أولئك الخدم الأتراك بحكم اقترابهم من الخليفة جاهاً ونفوذاً، وما هو إلا

أن عملوا على مشاركة الفرس في النفوذ، ثم ما هو إلا أن استلبوه منهم، واستبدوا به عابهم؛ ولقد زاد من نفوذ هؤلاء، بقدر ما أضعف من نفوذ الفرس، مجيء المتوكل على الله سنيا متشددا، وإيخاله في حرب الشيعة الذين كان للآمون على مذهبهم، وجاء من بعده غير معارض لهم، المعتصم، والواثق - والفرس كما علمت متشيعون مفرقون - نخات للمتوكل وان شئت فقل للخدم الأتراك الساطرة في بغداد، واعتبر هذا عصرًا ثانياً هو عصر الخدم أو العصر التركي الأول، وجعل مبدؤه تولى المتوكل على الله سنة ٢٣٢ .

لم يقف هؤلاء الخدم طوال القرن الثاني من الدولة في الاستبداد بأمورها عند حد، فتناول طغيانهم أكثر ما تناول أشخاص الخلفاء، وأول ما حدث من فظائعهم حدث المتوكل على الله، فانهم جردوه من كل سلطة، وكان قد فقد النصير من الفرس لاشتداده في محاربة التشيع، وإذا حاول الإبقاء على شيء من هيبة الخلافة، تأمر وامن ابنه المنتصر على قتله وقتلوه، فكان هذا فتحاً لطريق جديدة في التخاض من الخلفاء، وتوالت بعد هذا الحدث أحداث في التعذيب والتقتيل، والمعدون المقتلون بمعزل عن المعين والنصير^(١)، حتى فقدت بغداد مكانتها وانصرف الناس عنها بعد انصرافهم إليها، وحدثت الأمراء والولاة نفوسهم أن يستبدوا على الخلافة بما في أيديهم من أرضين فأخذ النفوذ يتقلص عن بغداد إلى الأقاليم حتى أقفرت من كل خير وضلاح، وزخرت بكل مافي الطوق

(١) قتلوا المعتز بجرحه من رجله خارج الدار وضربه الضرب المفضى إلى الموت بعد إيقافه في الشمس يضع رجلاً ويرفع أخرى من شدة الحر.

من شر وفساد، وجمال خوف الخلفاء من أولياء العهود، وخوف أولياء العهود من الخلفاء، أن يستكثر كل فريق من أولئك الخدم ليكونوا عليه حراساً، وله جنوايسيس، وفعلًا كان حتى تجت بغداد بجيوشهم، وصار من استعان بهم العوبة في أيديهم^(١)، وامتد بهم الزمن على هذا السوء قرن ضعف للدولة، وفتور أعقب قرنهما السالف، قرن الفتوة والساطان، وما زالت الحال على هذا النسق من البوار، حتى طمعت إحدى الدويلات الناشئة من هذا الضعف بالأقاليم، وهي دولة آل بويه في تخليص بغداد منهم، فخلصتها أيام المستكفي بالله، سنة ٣٣٤ وبدا بذلك عصر عباسي ثالث، هو عصر الأوطان السياسية أو الدويلات.

مهد العصر العباسي الثاني وهو عصر الضعف والاستسلام لتفكك أوصال الخلافة، واستبداد قوى النفوذ في الأقاليم، فلم يكديتنصف قرنه حتى بدت بوادر الانسلاخ عن الدولة على أيدي عدد من الأسر المختلفة الأجناس، وإن بقي معظمها لا كلها يدين بالمظهر الديني لخلفاء بني العباس. فمن الأسر الفارسية :-

السامانيون فيما وراء النهر من سنة ٢٦١ - ٣٨٩ هـ
والبويهيون بفارس والعراق من سنة ٣٢٠ - ٤٤٧ هـ
ومن التركية :-

(١) يؤيد ذلك ما رواه الفخرى عنهم من أنه لما تولى المعتز، أحضروا المنجمين وقالوا لهم :- انظروا كم يبقى الخليفة في الخلافة وكم بعيش؟ وكان في المجلس أحد الظرفاء. فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، قالوا فكم تقول؟ فقال: « ما أراد الا تراك » فلم يبق في المجلس إلا من ضحك.

الأخشيديون بمصر من سنة ٣٢٣ - ٣٥٧ هـ

والغزنويون بأفغانستان والهند من سنة ٣٥١ - ٥٨٢ هـ

ومن العربية :-

الحمانيون بالشام من سنة ٣١٧ - ٣٩٤ هـ

والفاطميون بمصر من سنة ٣٥٧ - ٥٦٧ هـ

وقد شاء تغلب القوى على الضعيف، أن ينمحي معظم الدويلات
ما ذكرنا وما لم نذكر، على أيدي ثلاث منها تحولت إلى دولات، هن الغزنوية،
وقد تغلبت على السامانية وغيرها في تلك الأصقاع، والفاطمية، وقد
تغلبت على الحمانية بعد أخذها مصر من الأخشيديين، ثم البويهية
وقد تغلبت على بغداد سنة ٣٣٤ فاعتبر هذا بدء العصر العباسي الثالث
كما ذكرنا (١) وفيه خضع المسلمون لنفوذ الأتراك شرقا والغرب غربا،

(١) جد البويهين الأقرب بويه أبو شجاع ويرجع نسبهم إلى ملوك
الفرس القدماء ويعرفون بالديلم لسكنائهم البلاد المعروفة بهذا الاسم من قديم
وقد أنجب بويه هذا في ثلاثة أنجاد، هم علي وحسن وأحمد، نبغوا في الفروسية
وأعمال الجيوش وتقدموا إلى الدولة باقطاعهم الأرضين أيام الرازي بالله المتوفى
سنة ٣٢٩ فكان علي في فارس وحسن بخوارزم وأحمد بشيراز ثم اتفقوا ثلاثتهم
على تخليص بغداد من أيدي الأتراك فساروا إليها ودخلوها أيام المستكفي بالله
فرحب بهم ولقب عليا عماد الدولة وحسنا ركن الدولة وأحمد معز الدولة ثم كان
أن بقي معز الدولة ببغداد بلقب أمير الأمراء واستمر هذا اللقب للقائم منهم
بعده في بغداد إلى أن جاء عضد الدولة فأخذ لقب الملك وكذلك كان من بعده
نبا إلى أن أخذها السلاجقة الأتراك .

والفرس وسطاء، وبقي ذلك قرناً وبمض القرن حيث دخل السلاجقة الأتراك بغداد سنة ٤٤٧ فبدأ العصر العباسي الأخير.

لم تكد الدولة البويهية والفاطمية والغزنوية تم القرن الأول من حكمها، حتى تمخض التاريخ عن دولة عظيمة هي الدولة السلجوقية، التي أنشأها رجلها الأول سلجوق بن بكبك بالتركستان سنة ٤٢٩ ولما شاهد ضعف آل بويه في بغداد، طمع في اكتساح الممالك الإسلامية، وتقرّب إلى المسلمين قبل هذا الاكتساح، بأن أسلم هو وأسرته ورجاله ثم تقدم إلى الغرب زاحفاً حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧ فكان هذا إيذان العصر العباسي الأخير، الذي مكث أكثر من قرنين، إذ بقوا بها إلى حيث أخذوا التتار منهم وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٥٦.

ومن جسام الأحداث التاريخية في هذا العصر: اختلال الغريبيين بالمشاركة لقيام الحروب الصليبية وانتهائها بتأسيس عدة إمارات بسورية وفلسطين مكثت نحو قرن من الزمان، ثم تدفق عرب الأندلس إلى المغرب والمشرق بما تتابع وقوعه عليهم من اضطهاد وتعذيب. تلك هي الحال السياسية العامة للعصر العباسي ومنها ترى أنه أربعة عصور لا يستحق هذه النسبة منها إلا العصر الأول، عصر نفوذ الخلفاء، وهذا هو الطابع العام لكل عصر في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم وما إلى الآداب والعلوم.

طابع كل عصر وأثره العام

في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم

لقد كان لتلون العصر العباسي بتلك الألوان السياسية التي حولته
أربعة عصور، الأثر الظاهر في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم.
« العصر الأول »

ففي العصر الأول عصر قوة الخلافة وسلطان بغداد، كان خلفاء
مصدر أدب وعلم، كما كانوا مصدر سياسة ونفوذ.

فهم أهل كفاح وجلاد في تثبيت سلطان الدولة الجديدة، ألمح في
إشراع الرماح، وإشهار السيوف، وتسمعه في الخطب تقذف الحمم وتطير
الشمر، وتقرؤه فيما يصدر من رسائل دامغة الحججة مفحمة البرهان،
ولذا كان عصر خطابة وكتابة وكان رجاله كتابا وخطباء.

وهم أهل حذق للأدب ومعرفة بالغة بفنونه يروون الشعر وينقدونه،
ويستمعون للشعراء ويجزلون لهم العطاء، ويؤثرون بينهم نار التنافس
والتسابق بما يبينون من فاضل ومفضل، ولهذا تراحم على أبوابهم
الشعراء من عامة الأقطار، فكانت للشعر نهضة كثر فيها القصيد وجاد.
ثم هم أهل علم يخاطبون العلماء بخالطة حوار ونقاش، عارفين بقيمتهم،
حافظين لمساكناتهم، حافزين لهم، مشجعين إياهم على مد الدولة الجديدة بما
تتطلبه حضارتها من علوم وفنون منذ عهد خليفتهم الثاني أبي جعفر
المنصور، ذلكم العبد الخضم، الذي لم يأل جهدا في وضع الأساس لنشأة
العلوم المختلفة من شرعية ولسانية، وفلسفية وقفاه من بعده خلفاؤه
الأقربون وناهيك بالرشيد والمأمون حتى عد هذا العصر عن جدارة

واستحقاق عصر النشأة العلمية في متنوع العلوم والفنون، وإنه لمعجب عاجب تمكن العرب فيه أن ينقلوا إلى لغتهم جل علوم الفرس واليونان والهنود بفضل ما خلفائه من تذهيظ حركة الترجمة وإغداق العطايا على النقلة والمترجمين^(١).

ومما يعد مظهرا جديدا في هذا العصر، مما صار للموالى فيه من رفعة شأن، ومعرفة قدر، بحكم ما لهم من فضل تأسيس الدولة، ومعاونة خلفائها في النهوض بها، بعد الذي كانوا يلاقونه على المهد الأموى من جفوة واحتقار، بل تعذيب واضطهاد^(٢)، فصاروا ينفسون عن أنفسهم

(١) كان المنصور من أحسن رواة الحديث وكان ذا ذوق في الشعر ينتقد الشعراء ويعرف المنحول والمسروق ثم كانت له دفاتر علم اشتمد حرصه عليها حتى أوصى عند وفاته ابنه المهدي بها.

وكان الرشيد أكثر سابقه رغبة في العلم كما كان حفاظا للشعر نقادا للشعراء. وكلاهما كان ذا فضل على الترجمة، الأول من حيث الابتداع والايجاد والثاني من حيث التذهيظ والتشجيع.

أما المأمون فنفضله على الترجمة وإحياء العلوم قد غطى على فضل الجميع وإن كان في الناحية الأدبية أقل من أبيه

(٢) حوادث الأمويين في عدم التسوية بين الموالى والعرب بالرغم من تمتعهم بها في صدر الاسلام كثيرة: منها أنهم كانوا يمنعون زواج المسلم منهم بالعربية ويطلقونها عليه إن فعل ويجلدونه. روى الأضاني أن رجلا من الموالى خطب بنتا من أعراب سليم وتزوجها فركب محمد بشير إلى والى المدينة يومئذ ابراهيم بن هشام فشكا إليه فأرسل إلى المولى ففرق بينه وبين زوجته وضربه مائة سوط وحلق لحيته وحاجبيه وفي ذلك يقول ابن بشير:

ويجهرون بإزاء العرب بما ترضونهم، وقابل العرب ذلك منهم بالانكار والجحود؛ ثم طالت الملاحاة بين الفريقين حتى أعلن أمر الشهوية، وعظم شأنها، كل ذلك والخلفاء يتواصون بالموالى ويطلبون لهم من أبنائهم وذوى قرباهم مثل ما كان يطلب الخلفاء الراشدون للأنصار، فكان من ذلك أن استفادوا وأفادوا في نهضة هذا العصر والسير به قدما إلى الإمام .

نعم إن إطلاق حرية البحث لهم في التشيع منذ عهد المأمون الذى كان شيعيا، والذى أباح لنفسه عن غير تقزز أن يكون أحمد بن أبي دواد وزيره معتزليا، ويحيى بن أكرم وزيره أيضا منيا، جعلهم يرسلون الفكر فى البحث الدينى من غير عنان، حتى تعددت البدع الدينية، وانتشرت الزندقة والاحاد، وغلبت الشهوات الجسمية على طائفة الماديين المستهترين، فأباحوا ما لم يكن مباحا ومدحوا ما كان قبل ذميا وشاع تسرى الجوارى ثم أعقبه تسرى الغلمان، فزينوا وحجبوا كما كانت تزين وتحجب النساء، غير أن هذا الضرب من المجون والاهو، كان مغلوبا على أمره إزاء جد الدولة وعلو شأنها كما هو الشأن الآن فى عواصم دول القوة والسلطان .

وفى المائتين للمولى نكال وفى سلب الخواجا والحدود ومنها خطبة المولاة إلى مولاها دون أبيها الذى لا ينكر ذلك ولا يتأذى منه . وحوادث الحجاج فى إيذاء الموالى جاوزت كل حد وفاقت كل معقول فقد كان يسممهم بالوشم ويحصرهم فى دوائر لا يتعدونها ويأمر ألا يؤم بالكوفة منهم أحد فلا يغير عليه الخليفة من ذلك شيئا .

العصر الثاني

وفي العصر العباسي الثاني، أخذ كل ما ذكرنا يتراجع إلى الوراء، لأن منشأ تقدمه كما رأيت، كان قوة الخلفاء، وأنهم علماء أدباء، وأن أولياء عهدهم وأعيان دولتهم، كانوا لهم في ذلك محاكين، وبهم مقتدين، أما إذ احتبس الخلفاء وأولياء اليهود في القصور بعيدين عن مهام الدولة ومخالطة الشعب، وأصبح الخدم أعياناً لا عهد لهم بالعلم والأدب، وحتى عهدهم بمعرفة العربية اليسيرة جداً قريب، فقد انغمس أولئك فيما تعج به القصور من أسباب اللهو ومتع الحياة، فسكن لهم مع السراري المختلفة، والقيان المغنيات، مع ما يحف بهم من غلمان وخصيان، وماء عذاب جدم مخالطة الخدم المذكورين، فغاب عنهم اللهو والترف، وانطلق هؤلاء المصرفون لأمور الدولة في تصرف أمورهم انطلاقة بعد بهم بمعاملة تكونهم عن الناحية الأدبية العلمية، وكان في الناحية السياسية عاجزاً في الأقاليم، وفاسداً في بغداد، ومن أجل ذلك وقفت الدماء التي كانت جارية متدفقة في شرايين الدولة بكل أسباب الحياة، وتبدلت من حررتها زرقعة سامة قاتلة أو صفرة ناحلة مضعفة، فأخذ العلم بهجر بغداد برحلة رجاله عنها بعد أن طال بهم انتظار الحيرة فيها، وأخذ الشعراء يبحثون لهم عن مرتزق غيرها، وإن كان أنى تعود الحركة العلمية إلى دورتها، أو يجد الشعراء من يعطى، وإن طلبوا. قبل فترة من الزمن يظهر فيها الكساد والهوار وتستعد خلالها حواضر جديدة لحمل العلم الذي كان بأيدي بغداد، وإذن فليكن العصر الثاني، عصر الضعف والخمول والضعف والانحطاط تموت فيه الخطابة، ويضعف الشعر، وتوقف الحركة العلمية عن الدوران

ولا يبقى فيه من المظاهر السالفة إلا الكتابة بحكم حاجة الملك والسلطان، وقد منى فوق ذلك كله بما قيد الأفكار، واحتبس الأنفاس عما كانت قد سبغت فيه من بحث حرطايق، فقد جاء المتوكل أول ماجاء ضاغطا على الشيعة، محاربا للتفكير، بعكس ما كانت عاياه حالها منذ أيام المأمون من انطلاق، فقل النبوغ النفسى بقدر ما ضعفت آلة الكلام، ثم وقف تيار الفلسفة بقله النبوغ وظهر بهذا الضعف الخروج بمعانى الألفاظ عما حددت اللغة من معان، وعز على رجال اللغة أن يقفوا إزاء ذلك جامدين، فأخذوا يضعون المقالات أو الكتب منتقدين ما حدث من خروج، ومحاولين إرجاعه إلى ما يريدون من اصلاح^(١)، وكذلك قام رجال الأدب إزاء الكتابة والشعر جميعا^(٢)، على أنه مما ينبغى أن يدون حسنة لهذا العصر قبل انتهاء الكلام فيه أطراد التقدم فى الخط العربى حتى استقر على القاعدة التى بين أيدينا الآن، ووضعها وضبطها ابن مقلة الخطاط الشهير المتوفى سنة ٣٢٨ هـ.

العصر الثالث

ظهرت النشأة الأولى للعلوم الإسلامية فى العهد الأموى بالبصرة والكوفة، ولكنها لم تكد تؤتى أكلها بالتأليف والتدوين، حتى سقطت الدولة الأموية وتأسست العباسية، متخذة بغداد عاصمتها بل عاصمة

(١) من آيات ذلك فصيح ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ فقد اختار فيه الفصيح من كلام العرب ليعتصم به الناس عماساد كلامهم من أخطاء.

(٢) من ذلك فى الكتابة أدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ. ومنه فى الشعر نقد الشعر لقدماء بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ هـ.

العالم الاسلامي كله، فاتجهت نحوها الأنظار من مختلف الأقطار، وتحول إليها كل شيء من آداب وعلوم وفنون، حتى كانت في العصر العباسي الأول، على ما قدمنا من ازدهار. ثم أصابها فتور وكساد في العصر الثاني، خضوعاً لما ذكرنا من أسباب، غير أن ذلك الفتور لم يكبد يقضى على ما كان من نبوغ في العصر الأول، حتى تأسست الدويلات في العصر الثالث الذي نحن بصدد الكلام فيه الآن، وهو إن قضى فيما قضى على بغداد نفسها، فقد خلق نفوذ الدويلات عدة حواضر وصلت ما كان قد انقطع، حتى أصبحت كل منها بغداداً يؤمها الأدباء والشعراء، ويقيم فيها العلماء والمؤلفون، على أن آل بويه إذ دخلوا بغداد أعادوا لها سابق مجدها وعزها، وسالف حضارتها وسلطانها، ولكن لا على أن تكون منفردة كما كانت، بل على أنها حاضرة من حاضرات؛ نعم إن مركز الخلافة بقي لها وحدها دون الدويلات ولكن بعضها رفض هذا الخضوع كآل مروان بالأندلس منذ عهد الناصر وكافأطمييز، منذ أن كان لهم وجود، ومن دان بهذا المركز لم يعد في ذلك الناحية الدينية البحتة، أما الدنيوية فقد كان فيها تام النفوذ مطلق السلطان، ولعل هذا الانفصال بحاليه بين بغداد وحواضر الدويلات، كان عاملاً فعالاً في اشتداد التنافس بين رجالها وفي حفز الهمم إلى أن تسود كل صوابياتها فيما كان لبغداد وحدها منذ القديم، فقويت الحركة العامة بعامل التنافس والتشجيع، وعلا نجم الأدب، وراجت سوق الفنون، كما قويت بعامل آخر هو علم ملوك الدويلات وأمرائها، ومن اختلط بهم في سياستها من ساداتها وعميونها، فهذان عاملان قويان فوق العامل الأساسي

الطبيعي عامل النشوء والارتقاء.

وإلى القارىء في ذلك بضع شواهد وآيات، عن آل بويه والغزنويين والفاطميين الذين آل إليهم حكم العالم الإسلامي إذ ذاك .

كان آل بويه علماء أدباء، وكثير منهم شعراء، يحبون العلم والأدب، ويبحثون رجالهما على التصنيف والتأليف، ويفتحون أبوابهم للشعراء ويغمرونهم بالعطايا والصلوات، وكانوا لذلك لا يستوزرون ولا يستكتبون، كما لا يولون ولا يستقضون، إلا خيرة العلماء ونوابغ الكتاب .

فعر الدولة استوزر الحسن المهدي الأديب الشاعر، وركن الدولة استوزر ابن العميد الخني عن التعريف، ومؤيد الدولة ابنه استوزر الصاحب بن عباد، وكذلك استوزره خفر الدولة أخوه، وكان عز الدولة بن معزها شاعرا وكذلك تاج الدولة بن عضد الدولة كأبيه، وكذا أبو العباس بن ركن الدولة^(١)، ثم كان عضد الدولة المذكور على شاعريته نابغا في عدة فنون

(١) من شعر عز الدولة وكان أكثره في الشرب والشراب قوله :-

اشرب على قطر السماء القاطر في صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدى المزاج بكأسها درا نثيرا بين نظم جواهر
من كف أغيد يستبيك إذا مشى بدلال معشوق ونخوة شاطر
والماء ما بين الغصون مصنف مثل القيات رقصن حول الزامر
ومن شعر تاج الدولة وهو آدب آل بويه وقد نكب بالحبس من جهة أخيه
أبي الفوارس قوله :-

هب الدهر أَرْضائي وأعتب صرفه وأعقب بالحسنى من الحبس والأمير
فمن لي بأيام الشباب التي مضت ومن لي بما أنفقت في الحبس من عمري

يستحث العلماء على التأليف ، ويغفرهم بالأموال ، ويقصده فحول الشعراء ^(١) ، ولا يكاد مجلسه يخلو من مباحثات ومباضعات في العلم والأدب ، كما كان شغوفاً بجيد الشعر يتعشقه ويحسن نقده ، عارفاً لأساليب الكتابة ، ذا اقتنان في إنشائها ^(٢) فهو في هذه النهضة

ومن شعر أبيه عضد الدولة قوله في خارج أرسل بطلب الأمان بعد أن ضيق عليه
أفاق حين وطئت ضيق خناقه ينبغي الأمان وكان ينبغي صارما
فلأركبن عزيمة عضدية تاجية تدع الأنوف رواعما
ومن شعر أبي العباس مبدعا :-

أدر الكأس علينا أيها الساقى لنطرب
من شمول مثل شمس في فم الندمان تغرب
فصكت حين تجلت قمرًا يلثم كوكب
ورد خديده جنى لكن الناطور عقرب
فاذا مالدغت فالـريق درياق محرب

(١) ألف له أبو علي الفارسي كتاب الايضاح والتكملة في النحو ، وأبو اسحق الصابي كتاب التاجي في أخبار آل بويه ، ورحل إليه المتنبي رحلات ملأت فم الزمان .

(٢) من شغفه بالشعر تمنيه أن يكون المصلوب بدل ابن بقية الوزبر لثقال فيه قصيدة الأنباري التي مطلعها :-

علو في الحياة وفي الممات لحق تلك إحدى المعجزات

ومن تفننه في الكتابة ما كتب به إلى أفتكين التركي صاحب دمشق وقد غره أخذه الشام من حكومة مصر وطلب منه الممدد لمحاربتها نفسها فكتب إليه هذه الرسالة المتحددة الكلمات لولا النقط والشكل وهي « غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاخش فاحش فعلك فعلك بهذا تهدا » .

أشهر ملوك آل بويه كما كان أشهر وزراءهم فيها الصاحب بن عباد المذكور، فقد كان عالما كاتباً شاعراً يقيم عنده العشرات من رجال العلم والأدب، ويقصده منهم ومن الشعراء الثقات، فيكرم إقامة أولئك ويحسن وفادة هؤلاء.

ولم يأل الغزنويون جهداً في نصرة العلوم والآداب — وإن كانوا أحدث فيها عهداً من آل بويه — مع إشتغالهم شرقاً بالغزو والفتوح، فقد كان مجلس سلطانهم محمود آهلاً بالشعراء والأدباء والعلماء، وهو الذي اقترح على الفردوسي إتمام الشاهنامه التي بدأ نظمها الدقيقى باقترح نوح بن منصور الساماني، وكان لا يسمع بشهرة أحد من هؤلاء إلا عمل على استدعائه إليه، يدل على ذلك كتابه إلى أمير خوارزم مأمون بن مأمون وفيه يقول « عامت أن في مجاسك جماعة من العلماء المبرزين فأرسلهم إلى ليتشرفوا بمجلسي ونستفيد من علمهم » وقد تلاه عليهم مأمون فقبل بعض وامتنع بعض. غير أن هذه النصرة لم تك ذات بال بجانب نصرة آل بويه لما قدمنا من حداثة عهد رجالها بأدب العربية وعلومها واشتغالهم عنها بما دأبوا فيه من غزو وجهاد.

وقد نشط الفاطميون العلم وأهله، ونافست قاهرتهم بغداد منافسة خلافة ومملك لا منافسة ملك فحسب، ثم كانوا جديرين أن يفوزوا بالفوق والغلب لأنهم عرب أبناء عرب وذوو الغلب على بغداد في أيامهم سلاجقة أتراك، وبدا هذا التنشيط كثير الصور قوى العناصر أيام المعز والعزير والحاكم، فقام المعز بإنشاء الأزهر المعمور وأسس العزيز

دار كتب في قصره سماها خزانة الكتب أو خزانة العزيز ، واستكثر فيها من المؤلفات ، واقتدى به في إنشاء خزان الكتب بالقصور جماعة من أهله ، ثم جاء الحاكم فأنشأ دار الحكمة وتسمى دار العلم أيضا بجوار قصره الغربي وحمل إليها جميع أنواع الكتب وبالغ في فرشها وزخرفتها ووقف عليها أملاكا تنفق من غلتها ، وأقام مشرفين ينظمون طريق الانتفاع بها ، وأباح المناظرة بين المترددين عليها ، وسهل للنقلة منها سبيل النقل بما أعد فيها من أقلام ومحابر وأوراق . ولم يكن اشتغال الفاطميين بالعلم وتشجيعهم على إنهاضه مقصورا على علوم الدين واللسان ، فقد خدموا علوما كثيرة أخرى كالتاريخ والفلسفة والهندسة والنجامة ، وبقى رصد الحاكم على جبل المقطم عمدة الراصدين حتى بنى الطوسي مرصده بمراغة تركستان سنة ٦٥٧ ، ثم كانت مجالس الأدب ذات ازدهار في حضرات الخلفاء ، وأمراء أسرتهم ورجالات دولتهم ، وكانت كثرتهم أدباء شعراء تبصر جيد القول وتجزل عليه العطاء .

ولم يعدم العلم والأدب نصيرا من الدويلات الكثيرة التي قامت ردحا مع هذه الدولات الثلاث ، فاشتهر من أمراء السامانيين بذلك في بخارى كثير ، منهم منصور بن نوح ثم ابنه نوح بن منصور ، الذي كتب إلى الصاحب بن عباد يستدعيه إليه سرا حتى يفوض إليه وزرائه ، والذي جمع مكتبة حوت المؤلفات الكثيرة في كل فن . وآل حمدان بحلب والموصل أشهر من أن يخاض في نصرتهم للعلم والأدب وهم الأدباء الشعراء ، وإن في أخبار سيف الدولة مع الأدباء والشعراء لغنية وبلاغا فقد قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء كما اجتمع ببابه

من شيوخ الأدب ورجال الشعر، يلقون منه حواراً ويشهدون نقداً، ثم ينقلبون راجعين بشتى الجوائز وعظيم الهبات، وهناك غيره وإن لم يبلغوا شأوه من آل حمدان كثير. ولو امتد الزمن بالأخشيديين أكثر من ثلث القرن الذى كان لهم لوجدناهم كتلسم الأمارات فى تقريب رجال العلم ونصرة الآداب، على أن أبا المسك كفوفاً الذى نشأ مع هذه الأمارات عبداً لأول أمرائها ثم ارتقى بعقله وشجاعته حتى صار من كبار قوادها، ثم ارتقى فوق ذلك حتى ولى أمارتها، ولم يمت إلا قبيل سقوطها، قد ترك لنا فى سيرته إكرامه العلم والعلماء، وامتداح المتنبي شاعر العربية إذ ذاك إياه، وفى هذين إثبات لما أردناه.

بهذا التشجيع المصحوب بالتنافس الشديد للعلماء والأدباء فى المشرق والمغرب الأقصى، وبمثلته فى كل مذكراته بالاندلس من الغرب، زخرت بحار التأليف واطرد تيارها حتى نمت العلوم وتم نضجها، فتكونت المعاجم اللغوية واستوت الفلسفة واستقرت قواعد الطبيعيات والطب وانتهى الانشاء الكلامى إلى أسلوب أصبح قاعدة، وظهرت الروايات والقصص، واتسع خيال الشعراء وعمق فكرهم وتفرع التاريخ وانبسط تقويم البلدان واتسعت أبواب النقد الأدبى، وحسب هذه السعة العلمية بياناً أن زادت فروع العلوم إذ ذاك لدى محصيا على ثمانمائة كتاب قسمتها كتب الإحصاء، وكانت من بينها علوم لم يصل إليها التمدن الحديث إلا فى القرن الماضى أى بعد نحو ألف سنة من تاريخ كتابة العرب فيها كعلوم تدبير المنزل والسياسة والاقتصاد والعمران^(١)، فلا عجب أن

(١) فمن كتب تدبير المنزل كتب ذكرها ابن النديم لا برهيم بن المهدي

عرف هذا العصر بعصر نهضة العلوم . وقد أعقب هذا النهضة وكثرة التأليف ، إنشاء المكاتب العامة وانتشارها فعرف بعصر المكاتب أيضا ، ولنا أن نسميه فوق ذلك عصر المذهب الشيعي لأن آل بويه شيعيون وأشد منهم تشيعا الفاطميون ، أما الغزنويون فلم يكونوا فيه قد جاوزوا النظرة العامة للدين إلى نظرة تجعلهم شيعيين أو سنيين ، كما لنا أن نسميه أيضا عصر توطن الآداب والعلوم ، ومن ثم بدت فيه نسبة رجالها إلى مدنها كالبخاري والبيهقي والرازي وهكذا بعد أن كانت النسبة قبله إلى الأصول كالحيري والمازني أو إلى الصنائع كالزجاج والنحاس .

العصر الرابع

جاء هذا العصر وقد تغير النظام السياسي في أرجاء المملكة الإسلامية فحكمها السلاجقة في الشرق بعد البويهيين والغزنويين ، والأيوبيون في مصر والشام والمغرب بعد الفاطميين ، ثم انحلت دولة آل مروان بالأندلس إلى ملوك الطوائف المختلفين فكان أن حدث في كل من

ولأراهم بن العباس الصولي ولعلي بن يحيى المنجم وغيرهم ولكنها ضاعت . وقد ألف في السياسة على إجمالها أبو زيد البلخي ، وفي المدينة منها الفارابي ، ولطوطوشى فيها سراج الملوك . ومن كتب الاقتصاد كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة لأبي الفضل بن علي الدمشقي وكثير غيره ضاع .

ولم يخل علم العمران من كتب ظهرت في هذا العصر ولكنها جاءت إما مجملة تتناولها عن بعد أو مفصلة تقصر على بعض أبحاثه ثم كانت بعد هذا العصر مقدمة ابن خلدون أول كتاب ظهر فيه مستقلا مفصلا .

الدين واللسان أمر ذوبال نجم عنه ما وجه العصر توجيها خالف به
سابقه كثيرا أو قليلا في شتى الأمور .

فأما في الدين فبعد أن كان المذهب الشيعي الغلبة على المذهب السني
بنفوذ البويهيين شرقا والفاطميين غربا، ذهبت ريحه بذهابهم وجاء
المذهب السني يكتسحه ويعفى عليه بصو لجان السلاجقة شرقا والأيوبيين
غربا، والسلاجقة سنيون بحكم نشأة جنسهم أول ما اختلط بالمسلمين
مضادا للشيعة محاربا لها منذ عهد المتوكل على الله، وكذا الأيوبيون منذ جاءوا
على الدولة الفاطمية غالبين ولها مديون، حتى لقد حرم صلاح الدين
تدريس المذهب الشيعي بأزهر الفاطميين، وكم وقف هذا التبدل في
التأليف الشيعي من حركات وحارب من فكر وأبطل من عادات .

وأما في اللسان فقد كان الفاطميون بمصر عربا خالصا، والبويهيون
بفارس متعربين مبرزين، فكان للأدب من كليهما مدد منشؤه حذقهم
أسلوبه وتذوقهم جماله، فانقطع هذا المدد بتركية السلاجقة، وكردية
الأيوبيين، وإن ابتعد الأولون عن محاربتهم ومخاصمة رجاله وحاول
الآخرون تلمسه وتقريب ذويه . وبذلك نال صورتى الأدب كتابته
وشعره ضعف قلل من مقدارها، وذهب بكثير من محاسنها، وكان أنكى
بالشعراء منه بالكتاب لأن الشعر جمال يستغنى عنه فيما يستغنى إذا لم
يجد المتذوقين النصراء، في حين أن الكتابة من ضرورات الملك الحضري
يضطر إلى الإبقاء عليها ذويه وإن لم يفهموا مالها من حسن وجمال .

أما الناحية العامة لحياة اللغة فقد كان هذا العصر عليها عصر
بركة ونماء، ذلك بأن العلماء استمروا فيه منطلقين بعد نضج العلوم

إلى حيث أخرجوا الموسوعات الضخمة والمعاجم الجامعة فحق أن يدعى لذلك عصر الموسوعات ^(١) ثم كان شعور العلماء فيه بأشتداد ضعف ملكة الذاكرة وحاجة النسخ في توثيقه على الملكة الصحيحة واستيعاب ما استبحر من علوم؛ دافعا للقيام أن يهيئوا للعالم أما كن دراسة يؤمها المتعلمون ويرتب لها العلماء المدرسون، فكان من ذلك إيجاد المدارس بالمعنى الذي نعرفه الآن ووسم هذا العصر بعصر المدارس ^(٢)، كما وسم بعصر الموسوعات وهذان أثران له جليلان .

ولقد وفد على مزاج اللغة في المغرب والمشرق أدبها وعلمها في هذا العصر وافدان غريبان ، أحدهما فرنجي جاءت به الحملات الصليبية بما أسست في المشرق من إمارات ، وبما حدث بين رجالها ومسيحيي المشاركة من تصاهر وزواج ، على ما هنالك من خلاف في الأصول

(١) لعل مما حملهم على تأليف هذه الموسوعات بعد الدافع الطبيعي لحركة التأليف ، مقاومة ما ذهب به الفتن من مؤلفات وأضاعت من جهود فكانوا يدونون الموسوعة إما جامعة لشق العلوم مع حذف ما اعتادوا في غيرها من أسانيد كما فعل ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ في موسوعته المسماة «المدمش» في القراءة والحديث واللغة والتاريخ والمواعظ في سياق المحاضرات ، ومنها نسخ بالمكتبة الملكية بعصر وإما جامعة لفروع علم واحد كما فعل ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ في معجميه للأدباء والبلدان .

(٢) أول من قام بإنشاء المدارس في هذا العصر نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي التركي فقد أسس المدرسة النظامية في بغداد منسوبة إليه فكان لها شأن في العالم الإسلامي كبير جعل غيره يقتدى به في إنشاء مثلها حتى امتلأ العالم الإسلامي ولماينة العصر بالمدارس المختلفة في جميع الأنحاء .

واللغات والآداب والعادات، لا بد أن يؤثر تأثيره ويأخذ طريقه غالباً غير مغلوب. والثاني عربي هو نزوح الجماهير الأندلسية إلى المغرب والمشرق يحملون طابعاً لم يك للمشاركة في التفكير والتأليف وإنشاء الرسائل وقرض القريض حوكمي فيما حلوه من بيئات^(١) وبهذا ضحفت الفوارق بين أدب قرطبة وأدب القاهرة وبغداد وقويت المشابهات. تلك كلمات أرسلناها مجملات في ميزات الأعصر العباسية اللغوية بعضها عن بعض رابطتين بينها وبين ما أنتجها من أحداث السياسة وأمور الاجتماع. وفيما يلي من دراسة موضوعات المنهج، تفصيل لما أجملنا وإيضاح، والله ولينا وهو المستعان.

(١) من أظهر ما كان لهذا الاختلاط في عالم الفكر اتصال الفلسفة

الأندلسية بفلسفة المشرق، وفي عالم الأدب انتشار الموشحات.

ما طرأ على العرب ولغتها

من جراء امتزاج الالهجاء بها

خالطت العرب بعد تمام الفتح في العهد الأموي أشتنا من الأمم مختلفين في أجناسهم ودياناتهم وفي لغاتهم واجتماعياتهم، كما يحدث التاريخ العام عن طبقات الناس حين الفتح من أرض أندلس وشمال أفريقيا ومصر والشام والعراق وفارس وما وراء فارس؛ فتأثروا بهم كما أثروا فيهم ولكن تأثرهم لم يبد واضحا جليا في ذلك العهد لقصر زمنه نسبيا ولترفع العرب فيه عن مخالطة الأعجم اقتداء بخلفائهم وذوي الأمر فيهم، فكانت الأمة العربية ملوكا وسوقة ذات عصبية لجنسها ونعرة لقوميتها^(١)، ولكن ذهب تلك العصبية وهذه النعرة بمجيء العهد العباسي كما أسلفنا جعل هذا الاختلاط يعمل عمله ويؤثر تأثيره في كثير من نواحي الحياة ذات التأثير البين في اللغة آدابها وعالمها.

ففي العهد الأموي بقي الجنس العربي متحصنا، فكان زواج العربي من غير العربية نادرا، وزواج العربية من غير العربي منكرا، فلما جاء العصر العباسي رافعا شأن الموالي أقبل الناس على زواج الأعجميات

(١) تتضح هذه النعرة في شقيها بما روي من أن عبد الملك بن مروان حين خطب إلى عقيل بن علفة بنته قال له عقيل جنبني هجاء أولادك يقصد مسامة ابنه على ما عرف به مسامة من واسع عقل وكامل خلق، وبما كان من أن عبد الملك حين عقد ولاية العهد لأبنائه نخطب مسامة هذا «لأن أمه غير عربية» لا بغضا له ولكن تعصبا لتلك النعرة أو خوفا من الأمة المتعصبة لها.

مسرعين ، لما هن من فرط جمال ووافر عقل ، ولما بدا على نسلهن من
نجابة وذكاء ^(١) ، وتسابقوا في هذا المضمار وقدامهم فيه الخلفاء وأبناء
الخلفاء ^(٢) وإذ وقف حد الدين لازوجات عند أربع انطلقوا في التسرى
غير المحدود حتى ضاقت القصور بالقيان والأماء ^(٣) ، وما من شك في
أن هذا ينتج من التأثير الجسمي وبالتالى العقلي في النشء الناشء من
الأعجميات الشئ الكثير ، فأما من الناحية الجسمية فلما هو مقرر
ثابت من أن الزوج من البعيدات نسباً مؤد إلى فرامة الأجسام وقوة
البنى فما بالناس بالبعيدات جنساً ^(٤) ، وأما من الناحية العقلية فلأن الأهم

(١) بقى أهل المدينة زاهدين في التسرى حتى نشأ فيهم على بن الحسين
ومحمد بن القاسم وسالم بن عبدالله وقد فاقوهم علماً وورعاً فرغبوا فيه ، وبما زاد
إقبال الناس على زواج الأماء خفة كلفته حتى قالوا في ذلك « الأمة تشتري بالعين
وترد بالعيب » وقالوا في مزيجته جملة « عجبت لمن عرف الأماء كيف يقدم على الحرائر » .
(٢) لهذا كان خلفاء بنى العباس منذ الهادى أبناء سرارى ماعدا الأمين
ابن زبيدة بنت جعفر بن المنصور فاطهادى وأخوه هرون أمهم فارومية ، والمأمون
أمه فارسية ، والمعتمد أمه تركية ، والواثق أمه رومية ، والمتوكل أمه تركية ،
وهكذا .

(٣) بلغ عدد جوارى الرشيد ألفين وعدد جوارى المتوكل أربعة آلاف
وعلى ذلك يقاس ما كان لغيرهما من الخلفاء وما كان لغير الخلفاء من الأمراء والأغنياء .
(٤) لهذا يقول الحديث « اغتربوا لا تضووا » والضوى دقة العظم وقلة
الجسم خلقة وأضوت المرأة ولدت الولد كذلك وله يقول الراجز .
أنذر من كان بعيداً لهم تزويج أولاد بنات العم فليس ينجو من ضوى وسقم
ولهذا وجد في العصر العباسى من ضرب بهم المثل في الشجاعة حتى قال
الأصمعي « ما ضرب رؤوس الأبطال كابن الأعجمية » .

التي غلبتها العرب على سلاطنتها كانت ذات حضارة تبدو في شتى الألوان، وتختص كل واحدة بلون يكون فيها دون غيرها أكثر زهواً وأشد لمعاناً، وهذه الميزات جميعها كان الهجناء فيها ولها أقوى وأقبل من الصرحاء بعامل الأثر المؤثر والعرق الدساس. ولقد كان من هذا أن عجزت المرأة العربية عن مجازاة الأعجمية في الزواج فضوءف هذا التأثير، ثم كان أن اندس العربي بين الأعجم زارعا وصانعا بعيدا عن مهام الدولة وتصاريف الأمور يسوده من الموالي من كان قبل مسودا، فذهبت من نفسه البقية الباقية للنصرة وسلم في بناته ومن هن تحت ولايته أن يكن لهذا الجنس الغالب زوجات فاقرشن الأعجم ونسلوا منهم نسلا مقرفا جاء أكثر من الهجناء عدداً وأشد منهم بالعجمة اتصالاً، على أن من بقي من العرب صريح العروبة لم يقو بديار العجمة على صد هذا التيار الأعجمي الشديد فكان فيه من المغرقين.

وفي العهد الأموي كانت للدين الإسلامي صولاته وقوته، دخل فيه من دخل مؤمناً إيماناً حقا غير ملتفت إلى دينه السابق ولا عادّ إياه بجوار الإسلام شيعاً، وبقي على دينه من بقي ذمياً مستأمناً يحسد نفسه أن أبقاء المسامون على دينه وبعد ذلك النعمة لا تعد لها نعمة، فلم يتسرب إلى الدين الإسلامي من الديانات المختلفة نصرانية ويهودية ومجوسية، على افتراق كل ديانة من هذه الديانات طوائف وفرقا شتى يززع من عقائد أبنائه ويفتح لهم في ميادين التشكيك مجالا، ولكن حين جاء العصر العباسي مستبدلاً بصولة العرب صولة الفرس وكانوا مجوسا قد ساد مجوسيتهم آخر سلاطنتهم إلحاد وإباحية وزندقة، فتمحبت

في الأبحاث الدينية أبواب كانت مغلقة ، وجرت على السنة هؤلاء
المجوس ولو أنهم أسلموا أقاويل لم تكن تجري ، وتخطت الأبحاث الدينية
بالرغم من مقاومة الخلفاء للزندقة واللاحاد ، السياج الذي كان مضروبا ،
وساعد على رواج هذه الأبحاث التمكن لرجال الفرس في السلطان .
وإذ ساء للمجوسية أن يصطبغ بأبحاثها كثير من أبحاث الفلاسفة
والدين فقد ساء لليهودية والنصرانية أن تجريا وراءها بغير عنان ، وأن
ينشط اليهود والنصارى في أمثال هذه البحوث متسترين وراء حاجة
الدولة إلى علماءهم وتقريب خلفائها وخاصة لها كثير من شخصياتهم ،
فكان من وراء ذلك تأثير في الدين كبير ظهر أثره في اللغة من آداب
وعلموم .

وفي العهد الأموي كان للغة العربية بحكم التوسع في الفتح وبسط
السلطان ، طغيان على لغات الأمم المفتوحة أيما طغيان ، أزال منها ما أزال
وبقي ما بقي أضعيف المقاومة مهيب الجناح ، كل هم ذويه أن يبتقوا أمام
الفتاحين آمنين على نفوسهم وأموالهم وما يؤثرون البقاء عليه من دين .
أما لغاتهم فلم يأخذ بيدها ما صاروا إليه من ضعف ولن تجد من رجال
الدولة الجديدة إلا الرغبة الملحة في خضوعها للعربية أتم خضوع ، ثم
كان تنزه العرب النازلين ديار العجمة عن مخالطة الأعجام ، وترفعهم أن
يلوا مثل مايلي أولئك من أعمال ، أو أن يقبلوهم معهم فيما خصوا به
أنفسهم من مناصب الملك والسلطان ، حاجزا قويا وسدا محكما دون أن
يتأثروا مرغمين بعامل المخالطة والجوار . أما إذ جاء العصر العباسي
وزالت بمجيئه قوة الفتح وسطوة الغلب ، وتم للعرب مخالطة العجم

ومشاركتهم في الأعمال فقد حُلَّ عن عنق اللغات المغارب أهلوهام ما كان مضيقاً عليها من خناق ، فتغنست الصعداء وأخذت تذكر ما كان لها من كيان وما ينبغي أن يكون عليه ذورها من حفاظ ، ومن ثم وقف غزو العربية لها حيناً وانقلبت هي بعد ذلك الحين غازية كأنها تريد الانتقام ، حتى عقد لها لواء النصر في التغلب كما سيأتي على أمة السواد ، وتسربت بما كان من التوسع في وضع العلوم وحركة النقل إلى التأليف والتصنيف فوجد فيها دخيل معرب ودخيل خلو من التعريب ، ثم كان أن وجدت فرق هذين سبباً لا تظهر فيه أحياناً على ألسنة الأدباء ناثرين وشاعرين هذا وكما كانت النزعة العربية في العهد الأموي غالبة فيما ذكرنا من نواحي الجنس والدين واللغة كانت كذلك غالبة في ناحية الاجتماع . فقد ظل أبناء العرب أيامه على بداوتهم محافظين على خشونة الجاهلية ، عاملين بعاداتها محيين لأدابها ، يقودهم في ذلك ويشجعهم عليه آل البيت المالك حتى الخليفة المقيم بدمشق . وما غيروا فيه من أمور الاجتماع كان نصراً للعربية وفتحاً على أبنائها إذ جعلوا الإسلام دولة عربية بعد أن كان ديناً ، وأيدوا تلك الدولة العربية بنقل دواوين الحكومة إلى لغة رجالها ، وسكوا النقود العربية مستعصمين بها عن نقود الفرس والروم وكذلك فعلوا في نقل الطراز ^(١) وماعدوا الناس على عهدهم ، طبقة العرب

(١) الطراز هو أن يرسم المالك أو السلاطين صورهم أو علامات تختص بهم على الأثواب المعدة للباسهم أو لباس بعض الطوائف من أتباعهم ، كما يرى الآن على ألبسة الجنود والشرطة مثلاً ، وأول من نقله إلى العربية عبد الملك بن مروان ولكنه استعاض عن الصور بكتابة الأسماء وكلمات النفاؤل والدعاء لورود تحريم الصور في بعض الأحاديث .

السائدين عدنانيين، وقهطانيين، وطبقة الموالي السودين مسلمين وذميين، نعم خدام الدولة وتقرب إليها بعض العرب النصارى والموالي، مسلمين وغير مسلمين، ولكن عددهم جميعا كان جديلا (١) ثم جددت أمور لم تكن في صدر الاسلام كتحاذ السري والحجاب (٢) ولكنهم تعدد أشخاص الخلفاء ومن حكامهم من بعض الولاة في تبسيط واضح واكتفاء بالقليل أما أحوال الاجتماع في العصر العباسي حيث انضج التمدن الاسلامي متأثرا بما خلف عليه من مدينيات، فقد جاءت مغيرة كل المغيرة لما كانت عليه في عهد الامويين.

ساق هذا التمدن الناس بعصاه إلى أن يكونوا طبقتين وتحت كل طبقات، الأولى طبقة الخاصة وهي الخليفة وأهله ورجال دولته وأرباب البيوتات، والثانية طبقة العامة وهي المزارعون أهل القرى وسكان المدن من الصناع والتجار، ثم حمل الخواص على أن يتخذوا لهم من العوام أتباعا من الجند المحافظون والأعوان المرافقون والموالي المعتقون والخدم وهم الأرقاء والخصيان والجواري من السودان والبيضان، كما حماهم على أن يقربوا إليهم من العوام أيضا أهل الفنون

(١) من تقرب الخلافة الأموية لنصارى العرب، تقريبها الأخطل الشاعر وبخاصة في عهد عبد الملك، ومن خدم من الموالي غير المسلمين، رجال الدواوين قبل تعريبها. ومنهم مسلمين، سالم القائم على ديوان الرسائل لهشام وختنه عبد الحميد صاحب ديوان مروان.

(٢) أول من اتخذ السري والحجاب معاوية لما رأى منهما في بلاد الروم، ولما أنبأه به عما كان لمجلس الحاكم في فارس ومصر عما له بتلك البلاد

الجميلة من المصورين والمغنين ، وأهل الادب والشعر من الأدباء
والشعراء ، وذوى الخلق والنفاسة من نابغى الصنائع وكبار التجار .
فبهذه الطوائف جميعا ماعد الزراع كانت تعج المدن فى العصر العباسى
وتفيض ، هذا إلى من يخالطهم فيها من ذوى المفاسد أعوان الشرأ والنجون .
وإذ كانت هذه الجموع فى غالبيتها أخلاطا من غير العرب جنسا ، وعلى
غير ما نشأت عليه العرب استمدادا ، فأنت خبير بما تنتجه فى أبناء
العربية المخالطين وفى العربية حيث لا يوجد هؤلاء الأبناء من تأثير .
ولقد قضت هذه المدنية على كثير من مناقب العرب التى شبوها عليها
فى بداوتهم وهذبها الاسلام فى صدر إسلامهم ، وحاطها الأُمويون بالرعاية
فى دوائهم ، كالاستقلال والشجاعة والنجدة والأنفة والعفة وغيرها
مما جبلوا على مدحه ، والتفانى فى نصرته ، وتجلت له فى أدبهم صبور
رائعة باهرة ، فأصبحنا بعد هدم من العصر العباسى نشاهد الضعف
والخور ، والقعود والاستسلام ، والفدر والخداع ، وذهاب الغيرة من نفوس
الرجال وضعف الثقة بهم فى قلوب النساء ، حتى غاض ممين طاهر صاف
وفاض آخر كله رجس وأقدار ^(١) .

(١) لذلك تنوسيت المرأة العربية فى المدن فتنازلت عن عزتها فى
سبيل إرضاء زوجها وصارت تهذى إليه الجوارى وتحجب إليه الاقتراب منهن حتى
ذهبت غيرتها وضاعت كرامتها وعاد الرجل يظن بها الظنون فأقفل عليها
الابواب والنوافذ وسد فى وجهها الطرق والمسالك ومنعها الخروج والكلام
وأصبح الطعن فى طباع المرأة شائعا على ألسنة الناس ، حتى ألفت له القصص
والروايات وأرسلت فيه الحكم ونظمت الاشعار .

كما نقلت هذه المدنية العرب من التبسط في معاشهم مطعما وملبسا
ومسكنا؛ فبعد أن أخذوا بطرف يسير من الحضارة مدة العصر الأموي
في هذه الأشياء انغمسوا فيها على العهد العباسي حتى الأذقان،
فابتنوا القصور المتنوعة تحف بها الحدايق وتجري من تحتها الأنهار^(١)
ولبسوا الحرير ونحوه مختلف الألوان، والأشكال، مفرقين بين الثياب في
الحياة العامة والحياة اللاحقة^(٢) ثم أكلوا كل ماله وطاب
من ألوان الأطعمة، وشربوا كل ما شق وراق من أنواع المشروبات^(٣)
فكان ذلك كله على ما صحبه من التغالى في اتخاذ الأثاث والرياش، واقتناء

(١) اختلفت أساليب البناء في الاسلام باختلاف البيئات فكانت في كل بلد
على نمط أهله، ولكنها لم تلبث أن اتجهت كلها بدوق العرب واستخدمهم الابتكار
إلى نمط خاص هو النمط العربي وإن بقي بين بعضه وبعض يسير اختلاف .

(٢) حاكت العرب الأمم المفتوحة في كثير من ملابسها وظهر التغالى في
ملابس الخاصة على العهد العباسي ظهورا بينا وبخاصة في العراق إذ كان من الخلفاء
منذ عهد المنصور جهل للناس على لباس خاص، له في كل طائفة طابع يميزها عن
غيرها، وكان لابد من حبة سوداء تغطي حين الدخول على الخليفة جميع
الثياب تعرف بالسواد وهو شعار العباسيين بعد أن كان شعار الأمويين البياض
نم كانت ثياب اللهو والدعة تميز بألوانها الزاهية وصقلها اللامع وتعرف
بثياب المنادمة.

(٣) - قد اتسعت مطابخ الخلفاء والأمراء لتعدد ألوان الأطعمة والتوسع
عليها في الاتفاق حتى صار لسكر لون خدع عليهم رئيس .

ومما ساعد على انتشار المسكرات أن تناولها كان شائعا قبل الفتح في جميع
البلاد وبخاصة بلاد فارس التي كان ماوكها مغرقين في اللذات والمسكرات.

الأحجار الكريمة والمجوهرات مجالا لحياة اللغة أى مجال^(١)
وتم تعدت هذه الزينات الدور الخاصة بخلفاء الدولة وعظماؤها،
فظهرت متجلية في مجالسهم التي كانت تبلغ من السعة المبلغ العظيم، فترفع
فوقها القباب وتزين جدرانها ومسطحها بصور الذهب والفضة لما في البر والبحر
وتفرش أرضها بالبساط الواحد من الديباج، وتسبل على نوافذها ستائر
الحرير المطرزة بشارات الدولة وما قد يضم إليها من مآثور الكلام.^(٢)
ثم كان للخلفاء في المواقب حين الخروج للاحتفال من الافتنان في
الزينة وإظهار العظمة ما يأخذ بالألباب ويخطف الأبصار^(٣).

وحينما أخذت العرب في تشرب مدينيات الأمم التي غلبتها على
أمرها وورثت حضارتها وسلطانها كانت هذه المدينيات في أخريات

(١) أخذ البذخ في اقتناء المجوهرات مأخذه في بغداد، وقد احتذى
بهم في ذلك بقرطبة آل مروان ثم فاق الاثنين الفاطميون في القاهرة
ففاضت في المدن الثلاث المجوهرات حتى كانت تزين بها الخيل وسائر الحيوان.
وإن نظرة إلى ما كانت تزين به النساء عند الزفاف ولا سيما بنات الخلفاء والخاصة
من الأمراء وذوى اليسار لتدل على ما بلغ إليه الترف في تلكم الأنحاء.
(٢) كانت تتعدد أماكن هذه المجالس بتعدد ما يدور فيها، فبعضها التصريف
أمور الدولة وبعضها للأدب والشعر، وبعضها للمناظرات والعلم، وبعضها للغناء
والانس، وهكذا.

(٣) وكذلك كانت تختلف أشكال المواقب باختلاف الداعي إليها من أمر ديني
كأعياد، أو دنيوي كزفاف أو ختان، أو نصر أو مالى ذلك مما هو مفصل في الكلام
على أبحاث الخلفاء.

أيامها قد سارها الشر وعمها الفساد ، فكثر من أبنائها الأشرار
الفاسدون ، الذين نشروا الرذائل في مدينة الاسلام ، وكان العرب معرضين
لها بعدوى المعاشرة والاختلاط ، فلم يكادوا يخطون في مدنيتهم حتى
كثرت الموبقات ، وتعددت المفاصد ، وغلبت الشهوات على الناس فصاروا
لها عبيدا ثم انطلقوا في تيارها بعد عن طواعية واختيار ، وكان أبناء
العرب وقد فقدوا شخصياتهم ، وصاروا وأبناء الأمم المذكورة سراء
ثم أقل من السواء ، أصبحوا يحاكونهم محاكاة المغلوب للغالب
فانغمسوا في شرورهم غير مباليين ، وتعودوا من عاداتهم ما كانوا عنه
مبهدلين (١)

ولقد ولد هذا الاندفاع الشديد في تيار الحضارة تنديسا للمادة
في النفوس إشباعا لنهم الجشع ، وسدا للسكال الذي صار من الضرورات ،
فأحب الناس المال حبا جما ، وانطلقوا وراء الحصول عليه انطلاقا أعمى
لا يفرق بين حل وحرام ، فتنوعت طرق السلب والابتزاز ، وانتشرت
حيل الغش والخداع ، وأصبحت الرشوة عاملا فعلا من عوامل نيل
الغرض وابتناء الثروات (٢)

(١) لذلك كانت عادات الجاليات العربية في كل قطر ، من عادات أهله
وناهيك بما كان قد استقر من عادات الشر في الاقطار الاسلامية قبيل الفتح
أثرا محتوما لمدينتين شاختا وأكل عليهما الدهر ، هما المدينة الفارسية شرقا
والمدينة الرومانية غربا .

(٢) فشا بانتشار الرشوة الأثراء السريع للوزراء ومن في حكمهم من الولاة
والعمال وتبع ذلك إقدام ذوي الأمر على استصفاء أموال هؤلاء لا اعتقادهم
أنها جمعت من حرام كلما احتاجوا إلى سد عجز مالي أو حفزهم حافز الانتقام .

على أن العرب على ما آذنتهم به تلك المدينيات في نواحي الاجتماع،
قد استفادوا من وراثتها مغانم في العلم والأدب، عادت عليهم وعلى لغتهم
بالخير والصلاح، فقد جرى أبناء أممها سلائل العرب في مضمار الأدب
فكان منهم الكتاب والشعراء ثم بذوهم في مضمار العلم فكانوا أكثر
منهم عددا وإنتاجا في التأليف والتصنيف، هذا إلى أن أدباءهم كانوا
اللقاح الأدبي الجديد، كما كان علماءهم التراجمة الماهرين فيما نقل من
علم دخیل .

ذلك مجمل ما كان للأعاجم بجنسياتهم ودياناتهم ولغاتهم
واجتماعياتهم من تأثير في العرب ظهرت نتائجه في لغتهم غرضاً ومقصداً،
معنى وخيالاً، لفظاً وأسلوباً، على ما سنبينه في هذه النواحي الثلاث
عقب الكلام على غلبة الفرس فيه .

غلبة الفرس في هذا التأثير

وإلى أى درجة كان فى اللغة مداه

لقد كان للفرس دون غيرهم من سائر الأمم نصيب الأسد فى

هذا الموضوع

ذلك أنهم شعب آرى أسس دولة عتيقة فى التاريخ القديم ذات علوم وآداب^(١) ؛ وهم أهل ذكاء وتمقل ، وفيهم استعداد فطرى يساعدهم على الأخذ بأسباب الحضارة ، ولذلك أحرزوا منذ القديم ، قسما وافرا من الطبيعيات والرياضيات ورثوا فيه الآشوريين والبابليين ، واحتكوا بالهنود واليونان المتصلين بهم لغة وجنسا ، فنقلوا إلى لغتهم ما نبغت فيه هاتان الأمتان من علوم وفنون^(٢) ، ثم كان

« ١ » كانت السيادة قديما للفرس شرقا ولاروم غربا ولكن سلطان فارس كان أقدم عهدا ، وأكثر جندا ، امتلكوا مصر على فراغتها زمنا وحاربوا اليونان قبل المسيح ، فكانوا قبل بضعة وعشرين قرنا يجردون جيشا قد يصعب اليوم على أعظم الدول حشده ونقله من أواسط آسيا إلى أفريقيا وأوربة .

« ٢ » كان نقل الفرس لعلوم الهند جاريا منذ القديم يؤيد ذلك ما ذكر فى فتح الاسكندر بلاد فارس من أنه عثر فى عاصمتهم إصطخر على خزائن كتب ، فيها ما جمعه الفرس من علوم الهند والصين إلى تلك الأيام .

وقد نشطت حركة النقل بفارس أيام سابور بن أردشير فقد بعث إلى بلاد اليونان من استجاب كتب الفلسفة وأمر بنقلها إلى الفارسية وخزنها فى خزائنه وشجع الناس على نسخها ودرسها .

ولما كان ما كان من اضطهاد جوستينيان قيصر للفلاسفة الوثنيين بعد إقفاله هياكلهم ومدارسهم ، فروا من وجهه إلى فارس حامية الوثنية إذ ذاك ، فاستقبلهم

أبين ما فضلوا غيرهم فيه النبوغ في الأدب الآري ، ذى الفكر الفواص
والخيال المخصب البديع ، وما ظنك بقوم هذا شأنهم قد نزل العرب
بلادهم منذ الفتح الأول ، ثم أنشئوا أكبر دولة عرفها التاريخ في
أحضانهم وبمعونتهم ، ولما مضى على ذهاب سلطانهم من الزمن طويل ،
إلا أن يتشربوا مدنياتهم ، ويتحضروا بحضارتهم ، ويظهر أثر ذلك جليا
في كلامهم ، وإن تغلبوا عليهم في اللغة والدين

أما الأتراك الذين شاطروا الفرس النفوذ في العصر العباسي عهدا
بعهد . فلم يك لهم ما للفرس ولا شيء منه في هذا الميدان لما يلي من أسباب
اتصال الأتراك أول ما اتصلوا بالعباسيين خدما مجلوبين من أمة
لا عهد لها بعلم ولا سابقة عندها لحضارة ، إنما هم قوم من البدو الأميين
الذين لا يزالون يضربون في الأرض ابتغاء الرزق سلبا ونهباً ، ويذرعون
أواسط آسيا شرقا وغربا ، متقاتلين فيما بينهم ، ومقاتلين من يصادفهم من
غيرهم ، عمادهم قوة أبدانهم ، وما يتخذونه سلاحا بأيديهم دون أن يقيموا
دولة أو ينشئوا حضارة ، فبقى هذا شأنهم حين صار لهم النفوذ في
العصر العباسي الثاني على الخلفاء ، غاظة في غير رفق ، وقسوة لا تعرف
الرحمة ولا التعقل اليها سبيلا ، وتنافر بين أحزابهم ، أيهم أكثر قوة
وأشد في النكاية إيغالا ، فهم صورة من صور الخسف والاستبداد
والسخر والاستعباد ، تبقى ما بقي بطشها وسلطانها ، فاذما زابتها القوة

كسرى أنو شروان ورحب بهم وأقاموا عنده ينقلون الكتب اليونانية إلى
الفارسية حتى نقلوا منها الكثير ثم أخذوا يؤلفون في علوم الفلسفة وغيرها
حتى شاع العلم اليوناني بفارس كما شاعت قبل علوم الهند والصين .

وتعداها النفوذ؛ ذهبت غير مخففة من الآثار ، إلا اللعنة وسوء الدار .
أما حضارة تؤثر في حضارة ، وأدب يؤثر في أدب ، ولغة تتدخل في لغة ،
فلا شيء من ذلك عندهم حتى يكون ، ولا أثر له في وجودهم يبقى إذا
أفناهم الزمان .

وحين مكن لهم الدهر في عهدهم الثاني عهد السلاجقة الذي كان
أطول العصور ، كانوا من تلك الناحية كما كان أسلافهم في العهد السالف
مقفرين ، فلم نجد العربية في لغتهم ما تتأثر به من علوم وآداب لأنها لم
تلك لغة علوم وآداب ، وبقيت مصبوغة بالصبغة التي كانت لها من لغة
فارس ، بل زادت الفارسية فيها تأثيرا عما كان لها قبل أن يكون الأتراك
سلطان^(١) وبهذا خلت العربية من كل أثر للتركية إلا بعض ألفاظ
منها سرت إلى لغة التخاطب بدافع الاختلاط^(٢) .

ومما وقف في طريق أن تتأثر العربية بالتركية في هذا العهد
الأخير على فرض أن يكون لها تأثير ، أنه جاء وقد استوفت العربية

(١) كان أتراك المشرق إذا انتصروا لغير العربية جاء اقتصارهم للفارسية
دون لغتهم العاجزة أن تكون لغة علم وأدب ، يؤيد هذا ما سبق عن السلطان
محمود الغزنوي من تسكيفه الفردوسي إتمام نظم الشاهنامه الفارسية .

(٢) من ذلك سنجقदार الحامل الراية خلف السلطان ، ودوادار المتولى
الأحكام وتنفيذها ، وسردار لرئيس الجيش ، ونحوها من الكلمات المركبة من كلمتين
تركيتين إحداهما دار بمعنى تمسك والآخرى مأخوذة من المعنى المراد كسنجق
بمعنى الرمح وهكذا .

كل ما احتاجت اليه في ترجمة العلوم والآداب ، جله من لغة فارس ، وقليله من اليونان ، والنادر من الهنود ، ولعل من يقول وكيف تذكر ما تذكر عن الهندية واليونانية ، وفيض الهنود على العرب في العلم عظيم ، وفيض اليونان أعظم وأوفر ، وهذا دافع إلى أن يكون تأثير العربية بلغتيهما على درجة لا تستقيم وقولك إنه نادر وقليل ، فنقول تفهما له وتبيننا ، إن التأثير من الناحية العلمية المعنوية غير التأثير من ناحية الالفاظ والاساليب ، وحقيقة كان فيض العلم اليوناني والهندي على العربية كما ذكرت ، ولكن أغلب ما نقل اليها منهما كان عن الفارسية التي نقلته قبل اليها ، فكان لها فيه الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب ، ثم الاشتراك مع هاتين اللغتين في التأثير العامي ، إذ لا تخلو الترجمة من أن يكون المترجم في معناها نصيب .

على هذا الضعف كان شأن اللغة التركية التي شارك أهلها الفرس في النفوذ ، فاستقلت الفارسية بالتأثير البين في العربية في تلك الأرجاء الشرقية المترامية الأطراف ، وبقي لها كيان شخصي أخذ ينزايد وينمو كلما تقدم بالدولة الزمن ، حتى عم آخر العهد قاصية فارس ، فكانت الفارسية فيها لغة أدب وتأليف ، ثم أخذ يزحف من الشرق إلى بغداد حتى رد أمته فارسية اللغة كما كانت أول الزمان ، أما وسط الدولة فكانت العربية وهي لغة غالبية منذ القديم غالبة على ما وجدته من لغات أصبحت في ذمة التاريخ ، وكذلك فعلت في لغات غربها ، وإن لم تكن لغة أهله قبل الفتح ، فلم يبق لشيء من تلك اللغات وجود ، وإذن كان اللغة الفارسية بذلك وعن نبغ فيها من أبناء العرب ونبغ في العربية من

أبنائها، الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب في ميدان الآداب والعلوم^(١) .
إلا ما كان من مشاركة اليونانية لها في الميدان العلمي ، حينما ترجمت منها
مباشرة إلى العربية بعض العلوم ، وهذا ما سيظهر جليا فيما نحن مجملوه
عما جدد باللغة في تلك النواحي الثلاث ، بعامل هذا التأثير مع العامل الطبيعي
للنشوء والارتقاء إلى أن يفصل بعد بتفصيل الموضوعات .

أولاً -- ناحية الأغراض والمقاصد

قد اتسعت مقاصد اللغة وأغراضها في العصر العباسي اتساعا
كبيرا ساعد عليه امتزاج المدنية الآرية بالسامية امتزاجا تاما ، وكان من
وراء ذلك أن تناول التغيير أغراضا بالايحاء ، وأخرى بالسعة والازدياد ،
كانت منها هذه الأغراض

١ - تدوين العلوم على اختلاف أنواعها من شرعية ولسانية
وعقلية .

(١) كان الدافع للفرس إلى تعلم لغة العرب أنهم وجدوا تعاملها وسيلة
ناجعة في الوصول إلى أعلى المناصب وآلة فعالة في جلب الغنى الواسع فخذقوها
وعملوا على نقل محاسن لغتهم إليها ، وكانوا لا يحصون كثرة .
أما الدافع إلى تعلم كثير من العرب لغة الفرس فهو الاستمتاع بقراءة
آثارهم والتماس اللذة من الاطلاع على تاريخهم . ولما تغذوا بلبانها كانوا أداة
صدق في تغذية العربية بكثير من ثمارها .

ولقد جنى الأدب العربي على أيدي من حذقوا اللغتين معا ثمارا شبيهة
بناجحة ، كعبدالله بن المقفع ، والبديع الهمداني من الأدباء ، والفخر الرازي من
الفلاسفة ، وموسى بن سيار من رجال الوعظ والارشاد ، وغير هؤلاء كثير .

٢ - الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية وبخاصة الفارسية ثم اليونانية .

٣ - إشاعة المذهب الشعبي والرد عليه .

٤ - نشر الزنقة والاحاد ومقاومتها .

٥ - تبديد طرق البحث والجدل والمناظرة والمحاضرة .

٦ - التحريض على متع الحياة وتحسين المجاعة والخلاعة وامتداح الشراب والفناء .

٧ - الوعظ والارشاد عن طريق التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة .

٨ - ضبط أمور الدولة بتنويع الكتابة في مختلف الدواوين .

٩ - وضع القصة والرواية .

١٠ - وصف جمال الطبيعة ومحاسن الحضارة ، كالرياض بما فيها من ثمار وأزهار ورياحين ، والقصور وما حوت من أثاث ورياش وصور ورسوم ، ومجالس المنادمة والشراب ، ومسايد الوحوش والسمك والطيور ، وأنواع اللعب بالكرة والصولجان ، إلى غير ذلك من آيات الحضارة ومباهج الحياة .

١١ - النقد الأدبي على اختلاف مناحيه .

١٢ - تدريس العلوم المختلفة في المدارس وتربية الأحداث .

ثانياً — ناحية المعاني والأخيلة

لقد فتح التوسع في المقاصد وتعدد الأغراض أمام الناس أبواباً جديدة للمعاني والتخيلات ، إذ كان تدوين العلوم وترجمتها عاملاً على

انضج العلوم وسعة الأفكار ، وكانت الملاحاة الجنسية والمذهبية باعنة على قوة المباحثة والمناظرة ، وخلق الحجاج الجدلية إن أعوز البرهان ، وكذلك كان باعنا عليها ما كان بين زهاد هذه الحياة والمبيحين لأنفسهم الاستمتاع ، إلى غير حد بما فيها من لذة ونعيم ، ثم كن وضع القصة وخلق الرواية فاتحا أمام الخيال أودية بعيدة ما بين الأطراف ، كما كانت طبيعة البلاد الخصبية ومجالي الحضارة فيها مطلقة للتصوير الحسى كل عنان ، فعاد هذا وغيره على المعانى والأخيلة بأطيب الثمرات وهذا بعض ما كان ، مشفوعا لدقته دون ما مات كنفاه بالتمثيل^(١)

١ - الاكثار من المعانى الدقيقة والجديدة ، التى تدل على مصافة عقل وغوص فكر وطول دراسة للعلوم العقلية وتفهم لمناحي الفلسفة من ذلك قول ابن المقفع فى الأذب الكبير :-

« إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يفضيك ذلك فانما هو أحد رجلين ، إن كان رجلا من إخوان الثقة فأنفع موطنه لك ، أقربها من عدوك ، لشر يكفه عنك وعورة يستترها منك ، وغائبة يطلع عليها لك ، فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك ، وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس . وتكافئه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى »

(١) منه قصر التمثيل هنا على النثر وندع التمثيل من الشعر مع تفصيل القول إلى حيث الكلام على ناحية المعانى والأخيلة فى الشعر وهى غنية بالأمثلة والشواهد على كل ما نذكر هنا .

٢ - إرسال الحكمة المقررة وضرب المثل الموضح ، لما رُسِخ في
أذهان القوم من فلسفة معينة ، وتجارب مفهومة ساعدتهم أن يكثرُوا
من النوعين مجيدين

من ذلك قول ان المنفع في كتاب كلية ودمنة من باب عرض الكتاب
« فالعلم لا يتم إلا بالعمل ، وهو كالشجرة والعمل به كالثمرة ، وإنما
صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى
عالماً ، ولو أن رجلاً كان عالماً بطريقت مخوف ، ثم سلكه على علم به سعى
جاهلاً ، وعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما
هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك في الطريق المخوف
الذي قد جهله . ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل بما جربه
هو أو أعامه به غيره ، كان كالمرضى العالم بردى والطعام والشراب وجيده
وخفيفه وثقليله ، ثم يحمله الشره على أكل رديته ، وترك ما هو أقرب إلى
النجاة والتخلص من عاتيه ، وأقل الناس عذراً في اجتناب محمود الافعال
وارتكاب مذمومها ، من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على
بعض كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعشى ساقهما الأجل
إلى حفرة فوقها فيها ، كانا إذا صارا في قاعها ، بمنزلة واحدة ، غير أن
البصير أقل عذراً عند الناس من الضير إذ كانت له عينان يبصر بهما ،
وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف »

٣ - استخدام الحجج العقلية والبراهين الفلسفية التي أصبحت
أذهانهم الناضجة لا ترضى بغيرها ولا تقنع بسواها
من ذلك ما كتبه أحمد بن يوسف على لسان طاهر بن الحسين

إلى المأمون بقتل الأمين وهو :

« أما بعد فإن كان المخلوع قسيم أمير المؤمنين في النسب والخدمة ، فقد فرق بينهما حكم الكتاب في الولاية والخدمة بمفارقة عدمة الدين وخروجه من الأثر الجامع للمسلمين ، لقول الله فيما اقنص علينا من نوح وابنه « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » ولا طاعة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله ، وكتابى إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده ، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معاوم حقه ، الكائد له فيمن ختر عهده ونقض عقده ، حتى رد به الألفة بعد فرقتها وجمع به الأمة بعد شتاتها وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها ، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين بالديار وهي رأس المخلوع وبالأخرة وهي البردة والقضيب والحمد لله الآخذ لأمر المؤمنين حقه الراجع إليه تراث آبائه الراشدين .

٤ - الأبداع في التصوير والأغراب في الخيال . وقد كثرت موادها وتعددت ألوانها في أدب القصة من المنشور ، ومن خير ما تطالع فيه الأول أمثال كليله ودمنة ، ومن خير ما تطالع فيه الثانى ، حكايات ألف ليلة وليلة ، وإنك لمصيب الاثنين مما فيما وضع بجانب هذه الكتب من مقامات ، وبخاصة للبديع والحريرى وسنختار مقامة لكل بعد .

٥ - الأقدام دون تهيب على المبالغة والتهويل جريا على ما كان للفرس بهذا النوع من ولوع حملهم إليه التبعاعد بين طبقات الناس .

من ذلك ما كتب به أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف صاحب ديوان الرسائل لعضد الدولة عن نفسه إلى مؤيد الدولة شكرا على

شكر سماه تهنئة :

« وصل كتاب مولانا جوا باعما خدمت به حضراته المحروسة مهنثا ، فحسبتنى وقد تأملت عنوانه ، مغاوطا في أو معنيا به غيرى ، إعظاما لنلك الأيادي الغر والنعم الزهر التي أعدتها في الشرف مناسب وإلى الأيام والليالي ذرائع » إلى آخره
٦ - وهذا كله إلى محص الأفكار وترتيب عناصرها ، حتى يأخذ بعضها بحجز بعض ويقل الشذوذ والاقتضاب .

ثالثا - ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان تأثير اللغة في هذه الناحية أظهر منه في الناحيتين السابقتين ، لأنها فضلا على تأثيرها بهما ، قد تأثرت من نواح غيرها ، وهذا بعض مظاهر التأثير نسوقها عدا كما فعلنا في ناحية الأغراض .

١ - حدوث لغة تأليفية لتعليم العلوم وأخرى فنية لتعليم الصناعات روعى في كليهما مقياس المنطق والفلسفة ، لا مقياس الأدب والبلاغة ، ولم تك هناك مندوحة دون حدوثهما بعد نشاط التدوين في شتى العلوم وضعا وترجمة وانتشار الصناعات .

٢ - نقل كلمات عربية إلى معان جديدة بطريق التجوز أو الاشتقاق أو القياس ، لمصطلحات العلوم والفنون والصناعات وما إلى ذلك من إدارات الحكومة ودواعى العرف العام .

٣ - دخول كثير من الكلمات الأعجمية في كل ما تقدم ، وبخاصة على أيدي المترجمين والمؤلفين فيما نقل من علوم ، وذلك بعد تغييرها إلى ما يجعلها متفقة مع العربية مخارج حروف وأبنية أوزان إن كانت في حاجة

إلى غير، وتسمى حينئذ بالكلمات المعربة، كما يسمى هذا التغير بالتعريب.

٤ - الدقة في انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة للمعنى كل التمثيل.

٥ - التأنيق في صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهومة للغرض في

شدة أسر وقوة أداء

٦ - التوسع في استخدام أنواع التشبيه والتمثيل والكناية والمجاز.

٧ - الاكثار من محسنات البديع لفظية ومعنوية مع الازدواج

المصحوب كثيرا بالجمع.

٨ - الشغف باستعمال ألفاظ القرآن ومحاكاة أساليبه واقتباس آياته

والاستشهاد بها.

٩ - الانحدار إلى استعمال كثير من ألفاظ الشغف والبذاء وعبارات

الخلاعة والمجون.

١٠ - التوسع في إدخال ألقاب التعظيم على الأسماء وبث عبارات

المنق والخنوع في ثنايا الكلام.

١١ - التغالى في كل من الاطناب والايجاز الى درجة قد نُسوِّد مع

الاول عشرات الأوراق في بعض الرسائل والعهود والمنشورات، وتصل

بالتأني في قصار الرسائل إلى حد التوقيع.

١٢ - ظهور جديد في الوزن والقافية لم يكن معروفا من قبل كما

سيأتى بيانه في الشعر^(١).

(١) من ذلك في الوزن ما يسمى الممتد وهو عكس المديد كقول القائل

قد شجاني حبيبي واعتاني اذكار ليته إذ شجاني ماشجتي الديار

ومنه في القافية ما يسمى المسمط وهو أن يبتدىء الشاعر بأقصة من قافية

ذاك أظهر ما كان من جديد في نواحي اللغة أدبها وعلمها ، وللفارسية تأثير فيه كبير ، من خير وشر في الأغراض وحسن وقبيح في المعاني والألفاظ ، ولقد كان لجانب الخير والحسن الغلبة في أوائل العصر ولكن لم يأت آخره حتى تغلب الشر والقبح باستكراه اللفظ والمعنى وضعف ملكة البيان .

وهناك ناحية للغة لم تك من حسابنا فيما أسلفنا من قول ، هي ناحية التخاطب العام الذي جنت عليه الأعجميات أكبر جناية عرفت للعجمة على لغة الضاد حتى انتشرت العامية وكان حقا أن تنفرد في هذا العصر حيث الكلام عليها بعنوان .

واحدة يأتي بعدها بقسيم من قافية أخرى يلتزمها دون سابقتها كقول بعضهم

غزال هاج لي شجنا فبت مكابدا حزنا عميد القلب مرثنا

بذكر اللهو والطرب

سبتني ظبية عطل كأن رضاها عسل ينوء بنحصرها كفل

ثقل روادف الحقب

انتشار العامية

واختلافها باختلاف الاقاليم

عقدنا في كتابنا الثاني من تاريخ الأدب العربي حيث الكلام على العهد الأموي، فصلا لم نعقد مثله في عصرى الجاهلية وصدر الإسلام هو « لغة التخاطب » علمنا فيه تنزه العصرين المذكورين عن اللحن والتحريف والدخيل، وأبنا السبب في نشأة تخاطب جديد في العصر الأموي مشوب بهذه الاشياء قلنا من وصف لغته إذ ذاك :-

« فهذه اللغة الجديدة كانت خليطا من العربى المشوه بعضه باللحن والتحريف، والأعجمى الذى يختلف باختلاف الأعجميات فى الامصار، من فارسية بالعراق ورومية بالشام وقبطية بمصر وهكذا ولكنهم لم تتناول بلحنها وتحريفها ودخيلها جميع المتكلمين، فكانت بعيدة عن ذلك كله على السنة النازحين من العرب أنفسهم وكذلك تقريبا على السنة أبناء الخاصة من أمهات عربيات، أما أبناءهم من غير العربيات وأبناء عامتهم مطلقا فلم تخل لغتهم من شىء من هذا، وقد يكون مصحوبا بلكنة أعجمية أيضا، ولكن هؤلاء جميعا كانت محادثتهم عربية فى مجموعها بالنظر إلى محادثة الاعاجم أهل البلاد الاصليين إلا من تعاملوا العربية منهم ونبغوا فيها فقد كان مثلهم مثل العرب النازحين، ولذلك سابقهم فكانوا مثلهم فى ميادين الأدب والشعر، وأسبق منهم فى ميادين العلم والتأليف » إلى أن قلنا :-

« غير أن شيوع اللحن فى العصر الأموي لم يززع من عقيدة

الناس في لغتهم لأنها لغة القرآن وأساس الدين ، مع اصطباح الدولة بالصبغة العربية المحضة ، فاستمروا يتهيمون اللحن ويذمون ويقتضرون بالأعراب ويمدحونه .

نريد بهذا القول وذاك أن لغة التحادث العام كانت عربية لما تتحول إلى عامية بعد

أما في العصر العباسي الذي نحن بصدد الكلام فيه ، فقد تحولت إلى عامية انتشرت بقوة المعجمة على تتابع سذنيه الطوال فطارت العربية من هذه الوجهة بكافة الأقاليم ، وبلغت شدتها في بعضها القضاء عليها والعود بالمحادثة إلى لغات سكانه الأصليين . نعم إن تلك المطاردة اختلفت قوة وضعف باختلاف الجهات ، ولكن التحادث لم يك بالعربية الصحيحة في جهة ما حتى البادية فقد دخلتها العامية قبل انقضاءه بزمان طويل ، واليك في هذا كله البيان .

ورث العصر العباسي إذن عن العهد الأموي لغة التحادث عربية صحيحة في مجموعها ، وبذل خلفاؤه الأولون على بقائها صحيحة بمحاربة اللحن والتحريف أن يتسرب إلى ألسنة السواد وإن وقع من بعضهم جهودا مشكورة حاكاهم فيها الولاة والأمراء - العرب محاكاة المخلص المتعصب ، والموالي محاكاة المتزلف المتقرب - وبدأت هذه الجهود في شتى الأنحاء دفاعا عن لغة الدين والعلم والسياسة .

من ذلك أنهم بلغوا الذروة في تكريم اللغة بتكريم رجالها علماء وأدباء ورواة وشعراء ، فكانوا يفسحون صدورهم لنقاش العلماء ، ويوسعون مجالسهم لمناظرة الأدباء ، ويهيمون بالرواة أن يجدوا في جمع

شوارد اللغة وضبط مآثرها، ثم يقيمون المحافل لاستماع الشعراء باذلين في كل ذلك عناية تحفز الهمم ، ومالا يستهوى النفوس ومنه أنهم كانوا القدوة الحسنة في فصاحة العبارة وبلاغة المعنى، والأُسوة الطيبة في العناية بتنشئة أبنائهم على مثل ما هم عليه من بيان، فلم يفت واحدا منهم أن يستحضر لتأديب بنيه ، المبرزين من شيوخ الأدب وأكابر الرواة، كالشرقي القطامي مؤدب المهدي ، والأحمر النحوي والكسائي مؤدبي الأمين ، والزيدى مؤدب المأمون ، والمفضل الضبي مؤدب الواثق ، ويعقوب بن السكيت مؤدب المعتز ، وثعلب والمبرد مؤدبي ابنه عبد الله بن المعتز ، إلى غير هؤلاء ممن كان الخلفاء يأملون من وراء ملازمتهم أبناءهم تنقيفا عريبا يعنى عن الإرسال إلى البادية التي كان يحرص خلفاء الأمويين على تثقيف أبنائهم فيها .

ومنها قدرهم النبوغ العربي قدره بما يظهرون من تعظيم لأهله تنسى معه صنعة الأصول ولا يضمن عليه من أجلها بكبار المناصب ، ونظرة إلى من قلدوا أعمال الدولة إذ ذاك ترينا كيف كان النبوغ الأدبي أمام ذوى الهمم المتحفزة خير وسيلة للتقدم ، وإلى أية غاية اتخذوه معارج عليها يظهرون^(١)

(١) من الحوادث التي تؤيد هذا وهي كثيرة ما ذكر من أن المعتصم وكان أميا ورد إليه كتاب بعض العمال فقرأه عليه وزيره أحمد بن عمار فاذا فيه ذكر الكلا فقال المعتصم للوزير ما الكلا؟ فلم يدر ما هو فقال المعتصم: خليفة أمي ووزير حامى ثم قال: انظروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات

م ٤ - أدب

غير أن هذه الجهود وغيرهما كانوا يبذلون لم تقو على صد تيار العجمة الزاحف بجيوشه من لحن وتحريف ودخيل ، والمتخذ طلائعه الغازية السنة من لا يترفع عنه من ضعفاء العرب ، ومن لا يتطعمون إلى رقي من الأعجام ، فكان بهؤلاء وهؤلاء شديد الوطأة. قوى الزحف ، سريع الانتقال ، أنبأ عن وجوده في العصر الأول على كره الخلفاء حتى على ألسنتهم ، وأعلى مكانة نفسه في العصر الثاني فلم يكن من ظهوره على السنة الخاصة خجل ولا حياء .

فأما إعلانه عن وجوده في العصر الأول فقد ظهر على السنة الخلفاء وخاصةهم على تهيبهم له وتقززهم منه . ذكروا أن أبا جعفر المنصور لحن في مجلس به أعرابي فصر الأعرابي أذنيه ، ثم لحن ثانية فقال الأعرابي أف لهذا ، ثم لحن الثالثة فقال أشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر . ودخل الفراء على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه فقال الرشيد أت لحن يا فراء فقال يأمر المؤمنين إن طباع أهل الحضر اللحن فاذا تحفظت لم ألحن وإذا رجعت إلى الطباع لحن . وكان المأمون يقول أتكلم مع الناس كلهم على سجيتي إلا مع ابن الهيثم فاني أتحفظ إذا كلمته لأنه يعرف الأعراب . وسمع المأمون بعض ولده يلحن فقال « ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ويزين بها مشهده ويفل حجة خصمه بمسكتات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه ، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته فلا يزال الدهر أسير كلمته » إلى غير ذلك مما يدل

فأدخل عليه فسأله عن الكلاء فقال يأمر المؤمنين هو العشب طامة فان كان رطباً فهو الخلاء وإذا يبس فهو الحشيش فعرف المعتصم فضله واستوزره .

على أن اللحن في العصر الأول كان من طباع أهل الحضرة لضعف
ملاكاتهم ، كما يدل على أنه كان شائعا على السنة السوداء ، ولكنه يدل
بازاء هذين أنه كان إذا وقع من الخاصة استهجن وقوبل من السامعين
باكبار أمره والتشدد في المؤاخذه به . وقد بلغ من تأذى الرشيد باستماعه
وعنايته بأصلاحه أن حاول إصلاح غناء الملاحين بدجلة ، وكان إذا ركب
بها أعجبه غناؤهم وآله لحنهم فقال لجلسائه : قولوا لمن معنا من الشعراء
يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فقليل له ليس أحد أقدر على هذا من
أبي العتاهية . وكان في الحبس فوجه إليه يأمره بعمل الشعر دون أن يأمر
بإطلاقه ، فغاضه ذلك وعمل له شعرا في الوعظ والتذكير بتقارب الأيام
لينغص به على الرشيد سروره كلما سمعه . وكان الرشيد سريع التأثر
يبكي للموعظة إذا مرت بأذنه فكان كلما سمعه تأثر ولج في بكائه حتى يأمر
من معه الملاحين بالسكوت ^(١)

(١) كان سبب حبس الرشيد له أنه لما تنسك ولبس الصوف أمره الرشيد
أن يقول شعرا في الغزل فامتنع فضربه وحلف ليحبسن حتى يقول الشعر فقال
أبو العتاهية « كل مملوك لي حر وامرأتى طالق إن تكلمت سنة إلا بالقرآن ، أو
بلا إله إلا الله محمد رسول الله » فحزن الرشيد مما فعله وأمر أن يحبس في دار
ويوسع عليه ولا يمنع من دخول من يريد إليه .
أما الشعر فهو كما رواه عن نفسه

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجروح
لدواعي الخير والشر م دنو ونزوح
هل لمطلوب بذنب توبة منه نصوح

وأما إعلائه مكانة نفسه في العصر الثاني، فكان حيث فقد الألبان
النصير من الخلفاء وأولياء العهد السابقين، وخلف من بعدهم خلف
نشئوا بين الأمهات والخواصن الأعجيبات لا يخاطون إذا خالطوا
غيرهن، سوى الخدم الأعجيبين، بعينين في كل ذلك عن الرواة والمؤدبين.
ثم تولوا الخلافة على هذا الضعف الشائن المعيب ففقدت الفصحى بذلك
معين التشجيع والتأييد، وتعدت العامة السنة السوداء إلى السنة الخامسة
فكان بها تحادهم وخطابهم ما لم يحتفلوا بقول يذاع، ومن هنا بدأت
العامة تعمل عملها في السنة الخواص حتى أفسدت عليهم فصاحتهم،

كيف إصلاح قلوب إنما هن قروح
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تقوح
فاذا المستور منا بين نوبه نضوح
كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس في الأر ض على قوم فتوح
سيصير المرء يوما جسدا مافيه روح
بين عيني كل حي علم الموت يلوح
كلنا في غفلة والموت يغدو وروح
لبنى الدنيا من الدنيا غبوق وهبوط
رحن في الوشى وأهبط بن عليهن المسوح
كل نطاح من الدهر له يوما نطوح
نح على نفسك يامسكين إن كنت تنوح
لتموتن وإن عم م رت ماعمر نوح

التي صارت لاتسعهفهم حين التهيؤ لمقال إلا بالعربية الوسط ما لم يكونوا
كتابا أو شعراء و بقيت على هذه الحال إلى نهاية العصر المذكور .
فاما جاء العصر الثالث ، جاء وقد ظهرت العامية على السنة الخواص ،
وبالرغم من بلوغ الكتابة والشعر فيه الذروة كما أسلفنا ، وجدت تلك
اللغة في التحدث العام نصرة كبيرة من هؤلاء ، لأن غالبيتهم في الأصل
أعجام لا يزال في رءوسهم وان هزموا أمام العربية لغة كما هزموا ديناء ،
أن يفسحوا الطريق أمام لغاتهم الأولى على السنة السواد كي تشقه
مكتسحة العربية لتحيا بعد موت وتقوى فيما هيء لها من حياة ، فبدأت
العربية تتقلص من الأطراف مخلفة مكانها للغات السكان الأصليين
كالبربرية في شمال أفريقية والفارسية في خراسان .

ولقد صعب هذا التقلص ظاهرة لم يرك حدودها في الحساب ، تلك
أن من عنوا بالنطق الصحيح في حديثهم العام ، أصبحوا مضغة في
الأفواه يسخر منهم ويستهزأ بهم ويحلو للناس ترداد حديثهم في
المجالس ترويحاً عن النفس وتفككة للسامعين ، ثم استمرت هذه الظاهرة
تكتسب أنصاراً ومؤيدين حتى كانت في العصر الرابع طليبة دعت
العلماء إلى إجابتها بالتأليف والتصنيف^(١)

أقبل هذا العصر الأخير شاملة عجمته جميع الأطراف وفاقدة
حكماء ما كان لأمثالهم في سابقه من صلة بالأدب ، فقد ر على العربية

(١) كما فعل أبو الفرج النحوي المتوفى سنة ٤٩٩ حيث ألف كتاباً جمع

فيه أخبار المتقربين .

جزر منتقص بعد أن كان لها مد ذو ازدياد ، ولم تلبث أن ولت أمام
الأعجميات الأدبار ، مسرعة إلى باديتها عسى أن تجدها مقرا هادئا كما
كانت في خوالي الأيام ، ولكنها لم تكد تنعم بهذا الهدوء طويلا حتى
غزتها العجمة في عقر دارها ، فارتدت فصيححتها عامية قبل أن يبلغ ذلك
العصر منتهاه ، وكان من أفعال العوامل في هذه الغارة التي قضت على
البقية الباقية في البادية عاملان .

أحدهما ديني هو انطلاق الآلاف من عامة الاقطار الاسلامية
كل عام إلى مكة والبيت الحرام يهرعون إليه لتأدية فريضة الحج ثم
ينقلبون إلى المدينة لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، وهم على
اختلاف ألسنتهم يخالطون العرب خلال ذلك مخالطة جوار طويل
وصحبة دائبة لا تنكأ تنقضي حتى تكون بوادر أمثالها من العام القابل
على وشك الحدوث ، ولا يظن ظان القلة فيمن كانوا يختلطون بهم
من القبائل ، فإن هذا ظن كان يكون لو أن ذهاب العرب إلى الأماكن
المقدسة لم يكن إلا للحج ، أما موسم الحج هو الموسم التجاري للعرب
يقدمون إليه بماشيئهم وسلعهم مبكرين ، ثم لا ينصرفون إلا حيث
ينصرف الناس ، فإن من شأنه أن يجعل جماهيرهم تراحم كل غريب ،
واختلاطهم يطول زمنه إلى أبعد ما يكون ، فهذا الاختلاط الذي كان
يبدأ في القافلة منذ هبوط الأعجام بلاد الأعراب ولا ينتهي إلا حيث
يسلمهم أولئك الأعراب إلى الأنصار عائدين ، استمر يحمل إلى البادية
لغات من العجمة ذات ألوان لم تزل تغزو فصيححتها في جوفها حتى
خرت أمامها صرعى مالها من مقيل ، قد أضر بكلماتها اللحن والتعريف ،

وصحبها ما صاحبها من أعجمى دخيل . ولقد كان لهذا الاختلاط مدد مقيم
من أولئك الذين يجمعون بين عامين في هذه البلاد ، يحجون في عام
ويزورون في عام ، وآخر أكثر إقامة ممن وهبوا أنفسهم لجوار الرسول
حتى يوافيهم في هذه الأماكن المقدسة أجلهم المحتوم ، فيفوزوا من
الله بمغفرة ورضوان .

والآخر دنيوى هو انتشار الثورات في الجزيرة وأطرافها لبعدها
مركز الخلافة في العصر العباسى عنها ، إما من قبائلها على قوافل
الحج فيضطر الخلفاء إلى تجهيز جيوش الأعجام لتأديبها وإعادة الأمن
إلى نصابه في ربوعها ، فتجوس تلك الجيوش ديار العربية الفصحى إذ
غالبية هذه القبائل كانت من قيس عيلان وسكنائها تاتيك الديار على
مقربة من مكة والمدينة وما إليهما من قرى الحجاز^(١) وإما من أعجام
يقصدون إلى أطرافها لنشر مذهب أو التهيؤ لخروج فيؤثرون في لغتها
بأقامتهم ويضاعف هذا التأثير ما قد يكون من بعث الخلفاء بالجند
الأعاجم إليهم ، كما كان من الزط في بادية البصرة ، والزنج بشواطئ
الفرات ، والقرامطة بسواد الكوفة والبحرين واليمامة والحجاز ، وغيرهم
ممن كانوا منبع قلاقل واضطرابات لاتزال تدعو في إخمادها إلى جحوس

(١) من تلك الثورات ما كان من بنى سليم وبنى هلال وفزارة وبنى كلاب
في خلافة الواثق بالله سنة ٢٣٠ وقد وجه إليهم الواثق جيشا عظيما بقيادة
بغا الكبير قضى قرابة السنتين في حربهم حتى انتصر عليهم وعاد بكثير من
ذوى الشغب فيهم الى سامراء .

الأعجام مضارب الأعراب^(١). فبهذين العاملين مع عامل الاختلاط العام، ردت لغة التخاطب الصحيحة بالبادية إلى عامية قبل انتهاء القرن

(١) فأما الزط فهم قوم من الهنود سكنوا شواطئ الخليج الفارسي قديما وعاشوا على السلب والنهب طويلا، حتى إذا كانت الفتنة بين الأمين والمأمون استولوا على طريق البصرة، وأخذوا يعيشون وينهبون، وقد استمروا على ذلك طوال خلافة المأمون. ولما ولي المعتصم كان شرهم قد استفحل وزاد، فجرد إليهم جيشا هزمهم وعاد ببقاياهم وأسراهم إلى دار الخلافة سبعة وعشرين ألفا فسرحتهم الدولة إلى شملها ومنه نقلوا إلى أوربة حيث تعيش أنسا لهم الآن بربوعها الوسطى تحت اسم « الغجر والنور ».

وأما الزنج فقد ظهرُوا في خلافة المعتصم على الله بدعوة رجل فارسي ظهر أول مظهره بالبصرة سنة ٢٤٩ يدعو الأرقاء من العبيد إلى التحرير وقد أطاعه منهم خلق كثير خرجوا على سادتهم فتوجه بهم إلى البصرة وشواطئ الفرات فخارب الدولة وهدد بغداد وبقي كذلك مصدرا لشغب حتى قتله جيوش الخلافة سنة ٢٧٠.

أما القرامطة فقد ظهرُوا أول مظهرهوا بسواد الكوفة على يد رجل من خوزستان في آخر خلافة المعتصم على الله سنة ٢٧٩ وكانت دعواه إلى جعل الخلافة في آل البيت فكثير أتباعه وظهر لهم نفوذ بالشام وكافة أرجاء الجزيرة العربية فأصبحوا فيها قطاع طرق ينهبون الحجاج ويعتدون على الأماكن المقدسة وساكني مدنها بالسلب والتخريب دون أن تظفر عليهم الدولة بالغلب حتى إذا مات برأ منهم القائم على دعوة آل البيت فقدوا كثيرا من الأنصار فأمكن الدولة هزيمتهم وقد مضى على عبثهم هذا أكثر من ثلث قرن.

الرابع الهجرى فذهب آخر مدد كان لها أمام الرواة^(١) على هذا النسق الذى ذكرنا تملكته العامية ألسنة السوادنى جميع الأقطار، فلم ينطقوا بغيرها ونالت ألسنة الخواص فى تحادثهم العام فلم يحيدوا فيه عنها ، ولكنها كانت مع اشتراكها بجميع الجهات فى إفساد العربية الصحيحة باللحن والتحريف والدخيل ، تختلف فى إقليم عن إقليم اختلافًا يرجع إلى أثر العجمة قوة وضعفا ، وإلى نوعها لفظا وأسلوبا . فمن الأول قلة الجاليات العربية أو كثرتها وبعد الأقليم عن مواطن العرب الأولى أو قربها منها ، فحيث كانت الجالية قليلة والاقليم بعيدا ، يكثر الدخيل ولا يكاد اللحن والتحريف يترك من الألفاظ العربية

(١) عن أهل البادية أخذ أبو عمرو بن العلاء عامة أخباره ، وعليهم عول الأصمعى فى غريب اللغة ، ومنهم استمد سديويه والسكسائى مراجع أحكام النحو ، وما زالوا مستمدى رواة الأدب وعلماء اللغة وأئمة النحويين إلى القرن الرابع حيث بدأ لسانهم يفسد ، فكان هؤلاء يأخذون من بعضهم دون بعض كما كان يفعل ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ . ومنذ القرن الخامس لم يبق منهم أحد على الفصيحة إلا ما ذكره ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ عن أهل « عكاد » فقد قال فى لفظ عكوتين « هو اسم جبلين منيعين مشرفين على زبيد باليمن » ثم عاد يقول بعد أن ذكر أن من مدن أحدهما الزرائب « وجبالا عكاد فوق مدينة الزرائب ، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة فى مناسكة وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه » وأيد الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ فى مادة عكد بقاءهم إلى أيامه على تلك اللغة ، كما أيد شارحه الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ بقاءهم كذلك حتى أيامه أيضا .

صحيحاً ، ولهذا كانت العامية في الأطراف القاصية - كخراسان شرقاً وبلاد المغرب غرباً وأرمينية شمالاً والنوبة جنوباً - شديدة الوطأة على اللسان العربي ، لفظاً وأسلوباً ، ولولا شدته بقوة الدين وأنه لسان القرآن والحديث ، ما شق له في هذه القاصيات طريقاً ، أما حيث تكثر العرب ويقترب الأقاليم - كما في العراق ومصر والشام - فإن الدخيل يكون حينئذ قليلاً ، واللحن والتعريف لا يضحى متغلغلاً ، ومن ثم بقيت العامية عربية في هذه الأقطار وارتدت في تلك إلى لغات أهلها الأصليين ، على أنه إذا تعارض هذان العاملان كان الحال الجالية كثرة وقلة ، الغلبة على حال الأقليم بعداً وقرباً ولهذا كانت عامية الاندلس على بعدها ، خيراً من عامية بلاد المغرب وهي أقرب منها .

ومن الثاني التفاوت في نوع الكلمات الدخيلة إذا كانت في كل إقليم من لغة سكانه الأولين . ففي الشرق كانت غالبيتها فارسية وقلتها تركية ، وفي الشام ومصر كان الدخيل من اليونانية والرومانية والقبطية ، وفي شمال أفريقيا كان بربرياً ، أما في بلاد العرب فقد كان خليطاً من كل هذه اللغات وأكثر منها ولكنه كان قليلاً .

ومنه أيضاً التفاوت في نوع الأساليب الغازية إذ كان لكل أعجمية أسلوبها من حيث التقديم والتأخير ، والنفي والاثبات ، والتعريف والتنكير ، وهكذا مما له أثر في تكوين الأسلوب .

وكما كانت العاميات تختلف بعضها عن بعض باختلاف الأقاليم ونازليها من العرب كما ذكرنا ، كانت العامية الواحدة تختلف في الأقليم الواحد ، فتراها في وقت غيرها في آخر ، ولو لم تطرأ عوامل سوى

مخالبتها الفصيحة ومخالبة الفصيحة إياها إذ لا بد في تلك المخالبة ،
أن تنتهي بقوة إحداها وضعف الأخرى ، وبالحري يقرب هذا الانتهاء
بما قد يكون من عوامل طارئة ، كما يشاهد على كليهما في أوائل
العصور وأواخرها .

وعلى الرغم مما ذكرنا للعامة من سلطان ، قدر الله عليها ألا تتعدى
لغة التحدث العام إلى غيره من لغة العلم في التأليف أو لغة الأدب في
الإنشاء والقريض^(١) ، وقدر للفصيحة أن تبقى حاملة اللواء في هذه
النواحي الثلاث على أيدي العلماء والكتاب والشعراء ، فصمدوا ثلاثتهم
على نصرتها يقارعون الحوادث ويغالبون الأيام حتى كانوا النبراس
المهادي فيما جد أو آخر العهد العباسي من غيم ، وأطبق بعد زواله على
أيدي التتار من ظلام . أما العلماء فاما رسخ في نفوسهم من الحرص
على خدمتها ، خدمة للقرآن والحديث حتى يبقيا مددا مفهوما للوعظ
والتشريع ، وأما الكتاب فاما كان من حاجة الملوك إليهم في ضبط
أمور الدولة بمختلف الدواوين على ما هدى إليه الملوك من إبقاء الكتابة
عربية كما ورثوها ، زلنى إلى الدين وتقربا من المحكومين ، وأما الشعراء
فلأن الشعر مهما أبعد رجاله وضمن عليهم بالصلوات لا بد أن يغلبهم ولو
بالتنفيس عنهم فيما يشكون ومنه يألمون ، على أن حراسة الله للغة دينه
وقرآنه أبت إلا أن يكون لها نصراء في أشد العصور حليكة ، وأضيق
الأيام حرجا ، وهكذا يابى سبحانه إلا أن يكون .

(١) لم يظهر بها في لغة العلم شيء هام ، ولا في لغة الأدب إلا الزجل ،

والقوما ، وكان وكان ، وبعض المواليا

و بعد

فان لنثر اللغة جانباً أدبياً تراه ماثلاً في الخطابة والكتابة الانشائية،
وآخر عامياً يظهر في الكتابة العامية أى تدوين العلوم والفنون .
وإننا لمتناولو الجانبين من الآن بالكلام ، بعد الذى قدمنا من مقدمات .
وبعدهما يكون الكلام على الشعر إن شاء الله .



الخطابه

أولا - نماذجها

١ - لما بويح السفاح ^(١) صعد منبر الكوفة فقال :

الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه تكمرة ، وشرفه وعظمه ، واختاره لنا وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكفه وحصنه ، والقوام به والذابين عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته ، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته ^(٢) جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنتنا ^(٣) حريصا علينا بالمؤمنين رءوفا رحيمًا ، ووضعنا من الاسلام وأهله بالموضع الرفيع وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وقال « قل لأمسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » وقال « وأنذر عشيرتك الأقربين » وقال « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى » فأعاهم جل ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من النى والغنيمة نصيبنا تكمرة لنا وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا ^(٤) أحق بالرياسة والخلافة منا ،

(١) هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . (٢) واحدة النبع

وهو شجر السهم . (٣) يريد عزيزا عليه عنتنا أي مشقتنا .

(٤) السبئية أتباع عبد الله بن سبأ من الغلاة القائلين بأحقية العلويين

على أبناء عمهم العباسيين .

فشاهت وجوههم ، لم أيها الناس ؟ وبناهدى الله الناس بعد ضلالهم ،
وبصرهم بعد جهالتهم ، وأتقاهم بعد ملكتهم ، وأظهر بنا الحق وأدحض بنا
الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ، ورفع بنا الخسيسة وأتم بنا
المنقصة ، وجمع الفرقة حتى صاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر
ومواساة في دينهم ودنياهم ، وإخوانا على سرور متقابلين في آخرتهم ، فتح
الله ذلك منة ومنحة لحمد ﷺ ، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر
من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم ، فحوروا مواريث الأئمة فعدلوا
فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خصام منها ، ثم وثب
بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا فيها واستأثروا
بها وظلموا أهلها . فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه ، فلما آسفوه انتقم منهم
بأيدينا ، ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا
لنمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا وإني
لأرجو ألا يأتاكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث
جاءكم الإصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله .

يأهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا
عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا
وأنا كم الله بدولتنا ، فأتم أسعد الناس بنا وآكرمهم علينا وقد زدكم في
أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والناثر المبير^(١)

٢ - قال ذلك وكان موعو كما فاشتد به الوعك^(٢) فجاس على المنبر

وصعد عمه داود بن علي فقام على مرقاة دونه فقال :

(١) بهذا لقب بالسفاح ، والمبير المدمر . (٢) ألم الحمى .

الحمد لله شكرا شكرا الذي هلك عدونا وأصار إلينا
ميراثنا من نبينا محمد ﷺ . أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا ^(١)
وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من
مطلعها، وبزغ القمر من مبرغه، وأخذ القوس باريها وطادت السهم إلى
الزعة ^(٢) ورجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة
بكم والعطف عليكم .

أيها الناس إنا والله ماخرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجينا
ولا عقيانا ^(٣) ولا نحفر نهرا، ولا نبني قصرا، وإنما أخرجنا الأنفة من
ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم ^(٤) وبهظنا من
شئونكم ^(٥) ولقد كانت أموركم ترمضنا ^(٦) ونحن على فرشنا ويشتمد علينا
سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم، واستئذلاهم لكم، واستئنارهم بفيئكم،
وصدقتكم ومغائنكم عليكم، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله ﷺ
وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله
ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ تبا تبا ^(٧) لبني
حرب بن أمية وبني مروان، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة،
والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الأنام، واتهكوا
المحارم وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد،
التي بها استقلوا تسربلوا الأزار وتجللبب الأصار، ومرحوا في أعنة المعاصي

(١) ظلماتها جمع حنادس . (٢) جمع نازع وهم الرماة . (٣) فضة ولا ذهباً .

(٤) كرثنا نزل بنا واشتمد علينا (٥) بهظنا أنقلنا (٦) تمرقنا .

(٧) ضلالا وخسرانا وهلاكاً .

وركضوا في ميادين الغى ، جهلا باستدراج الله وأمنا لمكر الله فأتاهم
 بأس الله بياتا وهم نائمون فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق فبعدها
 للقوم الظالمين ، وأدا لنا الله من مروان ^(١) وقد غره بالله الغرور ، أرسل
 لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه فظن عدو الله أن لن نقدر
 عليه ، فنأدى حربه وجمع مكايده ورعى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه
 وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما ألمات باطله ومحق
 ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا .
 أيها الناس إن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا إنما عاد إلى
 المنبر بعد الصلاة ، أنه كره أن يخاطب بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن
 استتمام الكلام بعد أن اسحنف فيه ^(٢) شدق الوعك ، فادعوا الله لأمر المؤمنين
 بالعافية فقد أبد لكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع
 للسفلة الذين أفسدوا الأرض بعد إصلاحها بابدال الدين وانتهاك حريم
 المسامين ، الشاب ^(٣) المتكهل المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار الاختيار
 الذين أصاحوا الأرض بعد فسادها ، بمعالم الهدى ومناهج التقوى .
 ي أهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى
 أتاح الله لنا شيعةتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ،
 وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون ،
 فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل
 الشام ونقل إليكم السلطان وعز الاسلام ، ومن عليكم بأمام منحه العدالة

(١) يريد مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان . (٢) توسع وزاد .

(٣) كانت سنة عند استخلافه ثمانيا وعشرين سنة .

وأعطاه حسن الآيالة ^(١) فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا
تخذعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصرا
وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ
إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ^(٢) ، وأمير المؤمنين عبد الله بن
محمد ^(٣) فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نساهه إلى عيسى
ابن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .

٣ - ولما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، خطب أبو
العباس السفاح بالشام فقال : -

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار
جهنم يصلونها وبئس القرار » نكص بكم يأهل الشام آل حرب وآل
مروان يتسكعون بكم الظلم وينهرون بكم مداحض الزلق ، يطئون بكم
حرم الله وحرم رسوله ، ماذا يقول زعماءكم غدا ، يقولون « ربنا هؤلاء
أضلونا فآتاهم عذابا ضعفا من النار » إذن يقول الله عز وجل « لكل
ضعف ولكن لا تعلمون » ، أما أمير المؤمنين فقد ائتنف بكم التوبة
واغتفر لكم الزلة وبسط لكم الإقامة وعاد بفضله على نقصكم وبحماله
على جهلكم فليفرخ روعكم ^(٤) ولتطمئن به داركم وليقطع مصارع
أوائلكم « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

(١) الآيالة السياسة من آل إليه أمر الناس ساسهم

(٢) لأن الخلفاء قبله كانوا في المدينة والامويين منكرون (٣) يعني السفاح

(٤) أى ليخرج قلبكم ما به من خوف كما تخرج البيضة القرخ

٤ - وخطب عمه عيسى بن علي إذ ذاك بها فقال : -

الحمد لله الذي لا يفوته من طلب، ولا يعجزه من هرب، خدعت
والله الأشقر^(١) نفسه إذ ظن أن الله ممهله « ويأبى الله إلا أن يتم نوره
ولو كره الكافرون » فحتى متى وإلى متى، أما والله لقد كرهتهم العبدان
التي أفتروها^(٢) وأمسكت السماء درها والأرض ريعها، وقحل الضرع^(٣)
وجفر الفنيق^(٤)، وأسمل جلباب الدين وأبطلت الحدود وأهدرت الدماء،
وكان ربك بالمرصاد قدمدم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها^(٥) ولا يخاف
عقباها، وملكنا الله أمركم عباد الله لينظر كيف تعملون، فالشكر
الشكر، فإنه من دواعي المزيد، أعاذنا الله وإياكم من مضلات الأهواء
وبغيات الفتن فأنما نحن به وله .

٥ - ولما حج أبو مسلم الخراساني في خلافة السفاح خطب
بالمدينة فقال :

الحمد لله الذي حمد نفسه، واختار الإسلام ديناً لعباده، ثم أوحى إلى
محمد رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحى واختاره من خلقه،
نفسه من أنفسهم وبيته من بيوتهم، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي
حفظه بعامة وأشهد ملائكته على حقه قوله « إنما يريد الله ليذهب
عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ثم جعل الحق بعد محمد
صلى الله عليه وآله في أهل بيته فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول

(١) يعني مروان بن محمد وكان لونه كذلك . (٢) علوها . (٣) يبس

(٤) الفنيق الفحل الكريم يتخذ للفحلة وجفر أمسك عن الضراب

(٥) طحنهم فسوى الطحنة بما هي عليه أي سحقها

الله صلى الله عليه وآله على اللاواء^(١) والشدة، وأغضى من أغضى على الاستبداد والآثرة، ثم إن قوما من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله جاهدوا على ملة نبيه وسنته بعد عصر من الزمان، من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن، إن رنق جور فتقوه، أو فتق حق رتقوه، بين ظهراني قوم آثروا العاجل على الآجل والفاني على الباقي أهل خور وما خور^(٢)، وطنابير ومزامير^(٣)، إن ذكروا لم يذكروا أو قدموا إلى الحق أدبروا، وجعلوا الصدقات في الشبهات، والمغانم في المحارم، والفى في الغنى هكذا كان زمانهم وبه كن يعمل سلطانهم. وزعموا أن غير آل محمد أولى بالامر منهم، فلم وبم أيها الناس؟ ألكم الفضل بالصحابة دون ذوى القرابة الشمر كاه في النسب والورثة في السلب مع ضربهم على الدين جاهلكم وإطعامهم في الجذب جائعكم، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط، وما زلتم بعد نبيه تختارون تيميا مرة وعدويا مرة وأمويا مرة وأسديا مرة وسفيا نيا مرة ومر وانيا مرة^(٤) حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته^(٥) يضر بكم بسيفه فأعطيتهموها عنوة وأنتم صاغرون. ألا إن

(١) الشدة فعله لئى كفرح (٢) الماخور بيت البغاء (٣) جمعا مزار وطنبار أو طنبور من أدوات الطرب .

(٤) التيمى أبو بكر والعدوى عمر والأموى عثمان والأسدى عبد الله ابن الزبير والسفيا نى بنو سفيا ن والمروانى بنو مروان.

(٥) يعنى نفسه لأنه مختلف فى اسمه أهو عبد الرحمن أم ابراهيم أم عثمان، ومختلف فى نسبه أهو عربى أم فارسى أم كردى، ومن جهل نسبه جهل بيته فهو يقصد بالبيت الأصل.

آل محمد أئمة الهدى ومنار سبيل التقوى القادة الزادة السادة، بنو عم رسول الله ﷺ ومنزل جبريل بالتنزيل، كم قصم الله بهم من جبار طاغ وفاسق باغ، شيد الله بهم الهدى وجلي بهم العمى، لم يسمع بمثل العباس، وكيف لا تخضع له الأمم لواجب حق الحرمة، أبو رسول الله ﷺ بعد أبيه وإحدى يديه وجلدة بين عينييه، أمينه يوم العقبة وناصره بمكة^(١) ورسوله إلى أهلها وحاميه يوم حنين عند ماتق الفتتين^(٢) لا يخالف له رسماً ولا يعصى له حكماً، الشافع يوم نيق العقاب إلى رسول الله ﷺ وآله في الأحزاب^(٣) ها، إن في هذا أيها الناس لعبرة لأولي الأبصار.

٦ - وخطب أبو جعفر المنصور^(٤) بالمدائن عند قتل أبي مسلم فقال:

أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة فانه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثار يده وفتات لسانه وصفحات وجهه، وأبداها الله لامامه باعزاز دينه وإعلاء حقه، إنا لن نبخسكم حقوقكم ولن نبخس الدين حقه عليكم إنه من نازعنا عروة هذا القميص^(٥) أجزرنا خبي هذا الغمد^(٦)، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ثم نكث بنا فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه.

(١) يعنى ماكان من العباس قبل اعلان اسلامه من ارسال اخبار وأمداد لرسول الله (٢) كان أحد من حول البغلة (٣) نيق العقاب الموضع الذي شفع به العباس يوم فتح مكة في أهلها (٤) أخو السفاح واسمه عبد الله مثله (٥) يكنى عن الخلافة (٦) كناية عن السيف

٧ -- ولما أخذ المنصور عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن
أبي طالب الملقب بالنفس الزكية هو وأهل بيته من المدينة إلى العراق
والقائم في سجن الكوفة حتى ماتوا لامتناع عبدالله المذكور أن يسلم
إليه ابنيه محمد وإبراهيم مدعيا جهله مكانيهما وكانت البيعة أواخر العهد
الأموي لمحمد هذا ؛ خطب في أهل خراسان فقال بعد الحمد والثناء والصلاة :
يا أهل خراسان ؛ أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم
غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد
علي بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ؛ فلم نعرض
لهم فيها بقليل ولا كثير فقام فيها علي بن أبي طالب فتطأ بالدماء
وحكم عليه الحكمين فافتقرت عنه الأمة واختافت عليه الكافة ، ثم وثبت
عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده
الحسن بن علي فوالله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها
فدس إليه معاوية « إني أجعلك ولي عهدي من بعدى » فخذه فأنسلخه
مما كان فيه وسامه إليه ؛ فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطأها
غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ؛ ثم قام من بعده الحسين بن
علي فخذه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والاغراق
في الفتن ، أهل هذه المدرة ^(١) السوداء — وأشار إلى الكوفة —
فوالله ما هي بحرب فاحار بها ولا سلم ؛ فأسلمها ؛ فرق الله بيني وبينها فخذلوه
وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن علي فخذه أهل الكوفة

(١) المدرة الطينة وأهل المدر سكان القرى وأهل الحجر سكان المدن

أما أهل الوبر فسكان قيام الشعر في البوادي

وغروه فلما أخرجه وأظهره أسلموه . وقد كان أتى محمد بن علي فناشده
في الخروج ^(١) وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال له إننا نجد في
بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصاب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون
ذلك المصوب . وناشده عمي داود بن علي ، وحذره غدر أهل الكوفة فلم
يقبل وتم على خروجه فقتل وصاب بالكناسة ^(٢) ، ثم وثب علينا بنو أمية
فأما تواسرنا وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا تره يطالبونها
وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفوننا من البلاد
فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشرارة ^(٣) حتى ابتعثكم الله لنا
شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل
الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ فأقر الحق مقره
وأظهر مناره وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله
رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها
وحكمه العادل لنا ، وثبوا علنا ظلمنا وحسدا منهم لنا ، وبغيا لما فضلنا الله
به عليهم ، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم

جهلا علينا وجبننا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن
فاني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغني
عنهم بعض السقم والتعرم ^(٤) وقد دست لهم رجالا فقلت قم يا فلان قم يا فلان
نخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى

(١) سأله ألا يخرج وفاعل ناشده يعود على محمد (٢) موضع قرب الكوفة
(٣) اقليم بين دمشق والمدينة فيه قرية الحريمة منزل أسلاف الخلفاء العباسيين
(٤) يعني بالسقم الخلاف في الرأي وبالتعرم التهيؤ للخروج .

أتوهم بالمدينة فدمسوا إليهم تلك الأموال فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم ببيعة استعملت بها دماءهم وأموالهم وحملت لي عند ذلك ، بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على فلا يرون أنني أتيت ذلك على غير يقين ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياءهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب » .

٨ - ولما فعل المنصور فعلته تلك خرج عليه بالمدينة محمد بن عبد الله المذكور وقام على منبرها فقال بعد الحمد والثناء : —

أيها الناس إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي جعفر ما كان من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندة لله في ملكه ، وتصغيره الكعبة الحرام ^(١) وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وإن أحق الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والائتصار الموالين ثم قال - اللهم إنهم قد أحلوا حرامك ، وحرّموا حلالك ، وعملوا بغير كتابك ، وغيروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفت ، وأخافوا من آمنت ، فأحصهم عددا واقتلهم بددا ^(٢) ولا تبق على الأرض منهم أحدا ^(٣)

٩ - ولما قتل المنصور محمدا هذا وبعث برأسه إلى أبيه عبد الله

في السجن مع الربيع حاجبه قال عبد الله
رحمك الله أبا القاسم فقد كنت من الذين يؤمنون بعهد الله ولا

(١) هذا رعم بعيد التصديق عن أبي جعفر (٢) متفرقين مبددين

(٣) انتهى خروج محمد هذا بالمدينة وخروج أخيه إبراهيم بالبصرة بأن قتل

المنصور كليهما .

ينقضون الميثاق ، والذين يصلون مأمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، ثم تمثل
فقال كان بحميه عن الذل سيفه ويكفيه سوءات الامور اجتنابها
والتفت إلى الربيع فقال « قل لصاحبك قد مضى من يؤسنا مدة ومن
نعيمك مثلها والموعود الله تعالى » قال الربيع فما رأيت المنصور قط
أكثر انكسارا منه حين أبلغته الرسالة.

١٠ - وخطب المنصور يوم الجمعة ، فلما قال « الحمد لله أحمدوه وأستعينه
وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »
قام رجل فقال أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين فقطع الخطبة ثم قال :
« سمعنا ممن فهم عن الله وذكر به وأعوذ بالله أن أكون جبارا
عنيذا ، وأن تأخذني العزة بالاثم لقد ضلكت إذن وما أنا من المهتمدين ، وأنت
أيها القائل والله ما أردت بها وجه الله ولكنك حاولت أن يقال قام فقال
فعوقب فصبر ، وأهون بها ، ويليك لو هممت ^(١) فاهتبلها ^(٢) إذا غفرت
وإياك وإياكم معشر الناس أختها فان الحكمة عاينا نزلت ومن عندنا
فصلت ، فردوا الأمر إلى أهله تورده موارد وتصدروه مصادره »
فكان كأنه يقرؤها من كفه ثم عاد إلى خطبته يقول وأشهد أن محمدا
عبده ورسوله أيها الناس اتقوا الله

١١ - ولما انهزم عبد الله بن علي عم المنصور بعد خروجه عليه
بالشام ^(٣) وقدم عليه وفدها للاستطاف قام الحارث بن عبد الرحمن

(١) يريد بعقابك (٢) اغتنامها (٣) كان سبب خروج عبد الله على المنصور
مايزعمه من أن السفاح كان قال له « إن ظهرت على مروان الجعدي فأنت ولي
العهد بعدي » وشهد له جماعة بذلك

الغفاري فقال :-

يا أمير المؤمنين إنا أسنا وقد مبأهاة وإنما نحن وفدتوبة وإنا ابتلينا
بفتنة استخفت كرمنا واستفرت حليمنا ؛ ونحن بما قدمنا معترفون
ومما سلف منا معترفون ؛ فإن تماقينا فيما أجر منا وإن تعف عنا فبفضلك
علينا ؛ فاصفح عنا اذ ملكك ؛ وامنن اذ قدرت ؛ وأحسن اذ ظفرت ؛ فطلما
أحسننت إلى من أساء منا .

فقال المنصور قد فعلت ثم قال للحرسى هذا خطيبهم وأمر برد
ضياعه عليه بالخطبة .

١٢ - وكان عبدالرحمن عمرو الأوزاعي إمام أهل الشام ؛ يتردد
على المنصور كطلبه ليعظه فكان مما قال له ذات مرة .

يا أمير المؤمنين إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذي أصبحت به
والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها ونقيرها ^(١) ولقد حدثني
عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من راع بيت
غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه راحة الجنة » فحقيق على الوالي أن يكون
لرعيته ناظرا ؛ ولما استطاع من عوراتهم سائرا ؛ وبالقسط فيما بينهم قائما ؛
لا يتخوف محسنهم منه رهقا ولا مسيئهم عدوا ؛ فقد كانت بيد رسول الله
صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين فاتاه جبريل
فقال « يا محمد ما هذه الجريدة بيدك اقدفها لا تملأ قلوبهم رعبا » فكيف
من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب أموالهم . يا أمير المؤمنين
إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه

(١) نقيير النواة قناتها والفتيل الخيط المستقر فيها .

بخدمته خدشه أعرابيا لم يتعمده . وهبط جبريل فقال يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك . واعلم أن كل مافي يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقاب قوس أحدكم ^(١) من الجنة خير له من الدنيا بأسرها » إن الدنيا تنقطع ويزل نعيمها ، ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل اليك ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والارض لآذاهم فكيف من يتقمصه ، ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الارض لآجنه فكيف بمن يتجرعة ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه ، وقد قال عمر بن الخطاب « لا يقوم أمر الناس إلا حصيف العقدة ، بعيد الغرة ، لا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يخنق في الحق على جرة ، ولا تأخذه في الله لومة لائم . »
واعلم يا أمير المؤمنين أن السلطان أربعة أمير يظلف ^(٢) نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهدين في سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع ^(٣) ورتع عماله فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتفع عماله فذلك الذي باع آخرته بدنياه غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذلك شر الاكياس ^(٤)
واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه وقد جاء عن جدك ^(٥) في تفسير قول الله عز وجل « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها »

(١) قاب القوس ما بين مقبضها وسيتها (٢) يكف (٣) أطلق لنفسه العنان

فظلم (٤) الحزمة جمع كيس (٥) عبد الله بن عباس .

أن الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك وقال فما ظنكم بالكلام وما عماتمه
الأيدي ، فأعيزك بالله أن يحيل اليك أن قرابتك برسول الله صلى الله
عليه وسلم تنفع من المخالفة لأمره ، فقد قال « ياصفية عممة محمد ويافاطمة
بنت محمد استوهما أنفسكما من الله إني لأغنى عنكما من الله شيئاً » ،
وكان جدك الأكبر^(١) سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة فقال
« أي عم ، نفس تحميمها خير لك من إمارة لا تحميمها » نظراً لعمه وشفقة
عليه أن يلي فيجور عن سنته جناح بحوضه فلا يستطيع له نفعا ولا
عنه دفعا . ثم قال : هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن رددتها
فنفسك بخست ، والله الموفق للخير والمعين عاياه ، فقال المنصور يلي
نقيبها ونشكر عليها وبالله نستعين .

١٣ - ولما تراجع المهدي^(٢) ووزرائه وأهل بيته تدبير الرأي في
حرب خراسان كان مما قال المهدي فيمارأه رأيا استقر عاياه ، الخطب أيسر
مما تذهبون إليه وعلى غير ما تصفون الأمر عاياه ، إنه لا بد لولي عهدي أن
يقود إلى خراسان البعوث ويتوجه نحوها بالجنود يقدم إليهم رسله
ويعمل فيهم حيلة ثم يخرج نشيطا إليهم . خنقا عليهم ، يريد ألا يدع أحدا
من إخوان الفتن ودواعي البدع وفرسان الضلال إلا توطأه بحر القتل ،
وألبدسه قناع القهر ، وقلده طوق الذل ، ولا أحدا من الذين عملوا في قص
جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونصرة ولاية الحق إلا أجرى عليهم ديم
فضله وجداول نهله ، فاذا خرج مزمعا به مجمعا عليه ، لم يسر إلا قليلا حتى
يأتيه أن قد عملت حيله وكدحت كتبه ، ونفذت مكايده ، فهدأت نافرة

(١) العباس (٢) هو أبو عبد الله المهدي بن المنصور

القلوب ووقعت طائفة الأهواء، واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل
نظراً لهم وبراً بهم وتعطفوا عليهم، إلى عدو قد أخاف سبيلهم، وقطع
طريقهم، ومنع حجاجهم بيت الله الحرام، وسلب تجارهم رزق الله الحلال.
ثم كان مما قال في وصاية ولي عهده موسى الهادي حين أزمع
الشخص إلى خراسان :

أى بنى، إنك قد أصبحت لسمت وجوه العامة نصيباً^(١) ولمثنى
أعطاف الرعية غاية^(٢)، فحسنتك شاملة، وإساءتك نائية؛ وأمرك ظاهر.
فعليك بتقوى الله وطاعته، فاحتمل سخط الناس فيهما ولا تطلب رضاهم
بخلافهما؛ فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثارك رضاه،
وليس بكافيك من يسخط عليك إيثارك رضا من سواه - إلى أن قال
بعد أن أوصاه بالكرامة في الخاصة والعدل في العامة - ولا ينفكن في
ظل كرامتك نازلاً وبعري حبلك متعلقاً رجلاً، أحدهما كريمة من
كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرف، له أدب فاضل وحلم
راجح ودين صحيح، والآخر له دين غير مغموز وموضع غير مدخول
بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأى وأنحاء العرب ووضع الكتب
عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية
من مؤامرك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك فتستشير به في حربك
وتدخله في أمرك، فرجل أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلتى ويرعى
في خضرة جنتانى، ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان وخيار الأُمصار

(١) السميت القصد والنصب بفتح فسكون ويحرك العلم المنسوب والغاية

(٢) يريد تدللهم من مشى ثانياً عظمه تدللاً وكبراً

أقروا ما يكونون جيرانك وسمارك وأهل مشاورتك فيما تورد ، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر ، فسر على بركة الله أصبحك الله من عونته وتوفيقه دليلاً يهدي إلى الصواب قلبك ، وهادياً ينطق بالخير لسانك .

١٤ - وأوصى الرشيد على بن المبارك الأحرر مؤدب ولده الأمين

فقال :

يا أحرر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه ، وصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار ورواه الأشعار وعامه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عاياه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، أو تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطاعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

١٥ - ولما عقد الرشيد لجعفر بن يحيى البرمكي على الشام لهياج

العصبية بها فشنخص إليها في عدة وعدد ثم عاد وقد أعاد الأمن والطمانينة

فيها دخل على الرشيد فقبل يديه ثم قال :

الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آنس وحشتي ، وأجاب دعوتي ، ورحم تضرعي ، وأنسأني أجلى حتى أراني وجه سيدي ، وأكرمني بقربه وامتن علي بتقبيل يده وردني إلى خدمته ، فوالله إن كنت لا أذكر غيبتى عنه ومخرجى ، والمقادير التي أزعمجتني فأعلم أنها كانت بمعاص لحقتني ، وخطابا أحاطت بي - إلى أن قال بعد إطالة في التزلف والتقرب - إن الله

يأمر المؤمنين لم يزل يبليكم في خلافتك بقدر ما يعلم من نيتك . ويريك في رعيته غاية أمنيته ، فيصالح لك جماعتهم ويجمع ألفتهم ويلم شعبتهم ، حفظاً لك فيهم ورحمة لهم ، وإنما هذا للتمسك بطاعتك والاعتصام بحبل مرضاتك ، والله المحمود على ذلك وهو مستحقه . وفارقت يأمر المؤمنين أهل كور الشام وهم منقادون لا مرك ، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك ، متمسكون بحبلك ، نازلون على حكمك . طالبون لعنوك ، واثقون بحمامك ، مؤمنون فضلك آمنون بأمرتك ، حالهم في ائتلافهم كحالهم كانت في اختلافهم ، وحالهم في ألفتهم كحالهم كانت في امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم وتغمده لهم سابق لعذرهم ، وصلة أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدم عنده لسألتهم . وإيم الله يأمر المؤمنين لأن كنت قد شخّصت عنهم وقد أخذ الله شرارهم وأطفأ نارهم ونفى مُرافقهم وأصلح دهائمهم وأولاني الجليل فيهم ورزقي الانتصار منهم ، فما ذلك كله إلا ببر كمتك ويمنك وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة وتخوفهم منك ورجائهم لك - إلى أن قال بعد عد نعم الرشيد عليه وبيان عجزه عن إيفائه بعض الشكر في إطالة باسقة لهذا العجز - وأنا أسأل الله الذي رزقني ذلك منك من غير استحقاق له ، إذ كان الشكر مقصراً عن بلوغ تأدية بعضه بل دون شقص من عشر عشره ^(١) أن يتولى مكافأتك عنى بما هو أوسع له وأقدر عليه وأن يقضى عنى حقك وجميل منتك فان ذلك بيده وهو قادر عليه .

١٦ - وخطب عبد الملك بن صالح بن علي عم الرشيد بالشام وكان

واليه عليها في نفرة أرادها منهم فتشاققوا فقال .

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » يأهل الشام إن الله وصف إخوانكم في الدين وأشباهكم في الأجسام فحذرهم نبيه حمدا صلى الله عليه وسلم فقال « وإذا رأيتمهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » فقاتلكم الله أنى تصرفون ، بحث مائلة وقلوب طائرة تشبهون الفتن وتولون الدبر إلا عن حرم الله فانه دريئتكم ^(١) ، وحرم رسوله فانه مغزاكم ^(٢) أما وحرمة النبوة والخلافة لتنفرن خفافا وثقالا أو لا وسعناكم إرغاما ونكالا .

١٧ - ولما غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح لسمي كان به إليه بطمعه في الخلافة ، حبسه وكان يستدعيه من الحبس أحيانا يؤنبه ويسمع منه فاستدعاه يوما ليسمع احتجاجه فيما بلغه عنه ، فدخل فسلم فلم يرد عليه ، فقال عبد الملك ليس هذا يوما أحتج فيه ولا أجاذب منازعا وخصما ، فقال الرشيد ولم ، قال لأن أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره ، قال الرشيد وما ذاك ؟ قال لم ترد على السلام ، أنصف نصفه العوام فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثار العدل واستعمالا للتحية ، ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك ،

« ١ » الدريئة هنا الخلقة يتعلم الرمي عليها وهو يرمى إلى ما فعل الحجاج

بالكعبة . « ٢ » يعنى ما فعلت جيوش يزيد بالمدينة

أريد حياته ويريد قتلي عذرك من خيلك من مراد^(١)
ثم قال أما والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همم، وعارضها قد
لمع^(٢)، وكأني بالوعيد قد أوري نارا تسطع فأقاع عن براجم بلا معاصم
ورعوس بلا غلاصم^(٣)، فمها مهلا فبي والله سهل لكم الوعر، وصفاء لكم
الكدر، وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتهافنذار لكم نذار قبل حلول
داهية خبوط باليد لبوط بالرجل - فقال عبد الملك -

اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفي رعيته التي استرعاك، ولا
تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب، فقد نخلت لك
النصيحة، ومحضت لك الطاعة، وشددت أواخي ما بك بأثقل من ركني
يللم^(٤) وتركت عدوك مشتغلا، فالله الله في ذي رحمتك أن تقطعه بعد أن
بللته^(٥)، بظن أفصح الكتاب لي بفضله^(٦) أو ببغى باغ ينهس اللحم
ويالغ الدم^(٧) فقد والله سهلت لك الوعر وذلت لك الأمور وجمعت على
طاعتك القلوب في الصدور، فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق
فرجته، كنت فيه كما قال أخو بني جعفر بن كلاب

ومقام ضيق فرجته ببياني ولساني وجدل

(١) هذا البيت متمثل به وهو من أبيات قالها عمرو بن معديكرب الزبيدي
في قيس بن مكشوح المرادي (٢) الشؤبوب دفعة المطر وهمم هطل والعارض
السحاب ولمع أضواء بركه (٣) البراجم جمع برجمة وهي مفصل الأصبع والغلاصم
جمع غلصة وهي رأس الحلقة (٤) الأواخي جمع أخية وهي العروة ويعلم
جبل بالمدينة معروف (٥) قويتية بالصلة (٦) بقطعه (٧) ينهس اللحم يتناوله
بمقدم أسنانه، ويالغ الدم يشربه بأطراف لسانه وكلاهما يتفق ووفق الواشي

لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامي وزحل^(١)
فقال له الرشيد أما والله لو لا أن بقاء علي بن هاشم لضربت عنقك
ثم رده إلى السجن فبقى به حتى أطلقه الأمين وعقد له على الشام.
١٨ - ولما كتب الأمين إلى داود بن عيسى واليه على مكة والمدينة
يأمره بخلع المأمون والبيعة لموسى بن الأمين بعد أن أخذ كتابي الرشيد
الذين كانا بالكعبة وكان داود أحد الشهود عليهما ، جمع داود الناس
وخطبهم مناديا بخلع الأمين ومبايعة المأمون فقال بعد الديباجة
أما بعد يا أهل مكة فأنتم الأصل والفرع والعشيرة والأسرة
والشركاء في النعمة ، إلى بلدكم يفدو فدا الله وإلى قبلكم يأتى المسموم وقد
علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هرون رحمة الله عليه وصلاته حين بايع
لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم ، من العهد والميثاق ، لتنصروا المظلوم
منهما على الظالم ، والمبغى عليه على الباغى ، والمغدور به على الغادر . ألا
وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هرون قد بدأ بالظلم والبغى والغدر وخالف
الشروط التي أعطاه من نفسه في بطن البيت الحرام وقد حل لنا ولكم
خلعه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغى عليه المغدور به . ألا
وإني أشهدكم أني قد خلعت محمد بن هرون من الخلافة كما خلعت
قلنسوتي هذه من رأسي - ثم خلعها وقال - قد بايعت لعبد الله المأمون
أمير المؤمنين بالخلافة ، ألا فقوموا إلى البيعة خليفتمكم - فقاموا إليه
فبايعوه للمأمون وخلعوا الأمين .

(١) يريد الفيل في قوته ، وفياله وهو سائسه في دهائه ، وزحل نزحزح

١٩ - ولما تولى الأمر عن المؤمنين، وتسلل عنه الانصار إلى طاهر
ابن الحسين خطب من بقي معه في بغداد فكان مما قال : الحمد لله الذي
يرفع ويضع ، ويعطي ويمنع ، ويقبض ويبسط ، واليه المصير ، أحمد
على نوائب الزمان وخذلان الأعوان وتشنت الرجال وذهاب الاموال ،
وحلول النوائب وتوفد المصائب ^(١) احمدا يدخر لي به أجزل الجزاء
ويرفدني ^(٢) أحسن العزاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له كما شهد لنفسه وشهدت له ملائكته ، وأن محمدا عبده الأمين ورسوله
إلى المسلمين صلى الله عليه وسلم أمين رب العالمين : ثم أخذ يفصل
ما ألمع اليه في ديماجته إلى أن قال - فالحمد لله حمد من أسلم لأمره
ورضى بقدره والسلام .

٢٠ - وخطب طاهر بن الحسين ببغداد يوم الجمعة بعد قتل
الأمين فقال :

الحمد لله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز
من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا يصالح
عمل المفسدين ولا يهدي كيد الخائنين ، إن ظهور غلبتنا لم يكن من
أيدينا ولا كيدنا ^(٣) بل اختار الله للخلافة ، إذ جعلها عماد الدين . وقوام
العبادة ، وضبط الأطراف وسد الثغور واعداد العدة وجمع الفيء ، وإنفاذ
الحكم ونشر العدل ، وإحياء السنة بعد إذ بال البطالات ^(٤) والتلذذ بموبيق

(١) نزولها وفودا وجماعات (٢) يعطيني والرفد العطاء (٣) أي لم يكن من
قوتنا ولا من حيلتنا (٤) البطالات جمع بطالة وهي التماذي في الخسر والضياع ،
واذبالها إذواؤها بكثرة الأمعان فيها .

الشهوات . والمخلد إلى الدنيا مستحسن لداعي غرورها ، محتلب درة نعمتها ، ألف لزهرة روضتها ، كاف برونق بهجتها . وقد رأيت من وفاء وعيد الله عز وجل لمن بغي عليه ، وما أحل به من بأسه ونقمته ، لما تكب عن عهده وارتكب معصيته وخالف أمره ، وغير ناهية وعظته مؤدبه ، فتمسكوا بدقائق عصم الطاعة ^(١) واسلكوا مناحي سبيل الجماعة واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية الذين قد حوا زناد الفتنة وصدعوا شعب الألفة ^(٢) فأعقبهم الله خسارة الدنيا والآخرة .

٢١ — وخطب المأمون حين بلغه بخراسان قتل الأمين وأقبل

الناس للتسليم عليه بالخلافة فقال بعد الحمد والثناء والسلام :

أيها الناس إني جعلت لله على نفسي إن استرعاني أموركم ، أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك دما عهدا لا تحله حدوده ونسفكه فرائضه ، ولا آخذ لاحد مالا ولا أثاثا ولا نحلة تحرم علي ^(٣) ولا أحكم بهوأي في غضبي ولا رضاي إلا ما كن في الله وله ، جعلت كاه لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشددا . إني أفي رغبة في زيادته إياي في نعمتي ، ورهبة من مسألته إياي عن حقه وخاقله ، فإن غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلا وللنكال معرضا ، وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته .

٢٢ — ولما دخل المأمون بغداد وتلقاه وجوه أهلها قال رجل منهم :

يا أمير المؤمنين بارك الله لك في مقدمك ، وزاد في نعمتك ، وشكرك

(١) جمع عصام وهو رباط القرية الذي به تحمل (٢) فرقوا مجتمعها

(٣) النحلة العطية والهبة

عن رعيتك ، تقدمت من قبلك وأتعبت من بعدك ، وأيست أن يعاين
مثلك ، أما فيما مضى فلا نعرفه وأما فيما بقي فلا نرجوه ، فنحن جميعا
ندعوك ونثني عليك . خصب لنا جنابك وعذب ثوابك ، وحسنت
نظرتك وكرمت مقدرتك ، جبرت الفقير وفككت الأسير ، فانك
يا أمير المؤمنين كما قال الأول .

مازلت في البذل والنوال وإطـلاق لعانٍ بجرمه غلق^(١)
حتى تمنى البراء^(١) أنهم عندك أسرى في القيد والخلق

ثانيا - حياتها

أقبل العصر العباسي والناس قريبو عهد بالبدواة ، فيهم المقدرة على
المشافة والارتجال ، وفي ألسنتهم مدكة الفصاحة والببان ، فالبادية هي
البادية لم يصيبها ما أصابها بعد من عى واستعجام ، والأمصا رملية بجالية
العرب الذين ارتشفوا أفوابق البلاغة ولدانا واستدروا أخلافها يافعين
وشبانا ، وعلى رأس هؤلاء خاصة في الذروة مما ذكرنا ، من الخلفاء وذوى
القربة القريبة أعماما وأبناء أعمام ، ومن العلويين أصحاب الحق الأصيل
خارجين على أولئك العباسيين أو ناقلين ، ومن حولهم شيعه تشد أزهم
وتعمل على إنالتهم حقهم ، ثم من الولاة والقواد عربا خلصا أو موالى
متعربين . وهؤلاء جميعا قضوا قبل إقبال العهد فترة كانت الدعوة فيها
سرية ضد الأمويين ، لم يسروا عن أنفسهم فيها بقول ، ولم ينفسوا عن
خناقمهم بكلام هائمين في البوادي أو متخفين في الامصار ، فما إن حان

(١) العاني الأسير والغلق المحبوس (٢) جمع برى ككريم وكرام

حين بن مروان حتى كانوا في خطابتهم كالقدر أخذ مأوها في الغليان
فاضطرب وفار وصار حيا يدير به مافي بطونهم والجلود .
وهذا بيان ما تناولت الخطابة في ذلك وفي غيره من أغراض بعد التمهيد له :
كان بنو العباس على جانب رفيع من قوة البيان وذراية اللسان ،
وحضور البديهة ومتانة الارتجال ، يدل ذلك على ذلك ما سلف من أبي جعفر
المنصور . إذ قطع عليه خطبة الجمعة بعض الحاضرين فقد قال ما قال
كأنه يقرؤه من كفه ، ثم عاد إلى الخطبة بعد ، يصل ما كان بما يكون ،
ويدلك عليه أيضا ما تقدم عن دواد بن علي في تلك الخطبة القوية
الضافية التي كانت منه إذ قطع الوعاك على أبي العباس خطبته ، وهذا
داود المذكور يقول محسنا عن أنفسهم أنهم أمراء الكلام « ألا وإنا
لا ننطق بطرا ، ولا نسكت حصرا ، بل نسكت معتبرين وننطق
مرشدين ، ونحن بعد أمراء القول ، فينا ، وشجبت أعرافه ، وعالينا عطف
أخصائه ولنا تهدلت عراته ، فنتخير منه ما احلولى وعذب ، وانطرح منه
ما املوح وخبت » ثم هم بعد كثرة كثيرة مالت الأُمصار واحتلت
المنابر والأعواد ^(١) .

(١) منهم الخليفةان الأخوان أبو العباس وأبو جعفر ومن بعدهما سائر
الخلفاء إلى ما بعد العصر العباسي الأول ، ومنهم عبدالله وداود وصالح وسليمان
وعيسى من أعمام الخليفتين الأولين ، ومنهم من أبناء هؤلاء الأعمام عبد الملك
واسماعيل وعبد الله أبناء صالح ، وداود بن عيسى وجعفر ومحمد ابنا سليمان ، ومن أبناء
جعفر هذا سليمان وداود وأيوب إلى غير هؤلاء ممن قل الجاحظ فيهم :

« لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي وفي الكمال والجلال وفي العلم بقريش والدولة

١- بهذه الكثرة في العدد وتلك القوة في العدد ، كان بنو العباس نقمة
ولعنة على الدولة الدائلة لا يزالون يذكرون اجترأوا على الدين ،
واحتجائها الفى ، وعدوانها على آل الرسول ، ويذكرون كيف كان
جورها يقض منهم المضاجع ويومض الميرون ، ثم يذكرون كيف كان
غضبهم عليها لله حتى آتاهم من نصره ما أزال دولة الظلم وقضى على
رجال الطغيان ، فأبدل الأمة بهم دولة العدل ورجال الصلاح والاصلاح ،
إلى غير ذلك من المعاني التي أكثروا فيها تعفية لآثار بني مروان
وتبئيتا لهذا الملك الجديد ، وهأنت ذا تراها ماثلة في كثير من خطبهم
أول العهد ، وقد تقدم منها خطبة السفاح وخطبة عمه داود بالكوفة
وكذا خطبته وخطبة عمه عيسى بالشام ثم خطبة أبي مسلم بالمدينة
عقب حجة .

٢- وما كاد داعي إلى استخدام الخطابة في التعفية على الدولة الدائلة ينقضى
بانهضاء عهد السفاح الذي أفنأهم قتلا وتشريدا ، ويحل بعده عهد المنصور ،
حتى نبت لها داع جديد هو استخدامها في مقاومة العلويين ، فقد خرجوا
على المنصور يطالبون الحق لأنفسهم لأنهم أبناء على الذي يقربهم إلى
رسول الله كما يقرب العباسيين العباس ، ثم هم بعداً ببناء فاطمة البتول بنت
رسول الله ، وللحامة إلى أبنائها هوى متغلغل في السواد . وقد هال ذلك
أبا جعفر حتى حرمه الرقاد ففعل ما ذكرنا من القبض على عبد الله بن الحسن وآله
وبرجال الدعوة مع البيان المتعجب والغور البعيد والنفوس الشريفة والأقذار
الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار وكانوا يجلون عن هذه الأسماء
إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك .

وإيداعهم المسجونين، ووجهه بالجيش إلى ولديه محمد بالمدينة وإبراهيم بالبصرة
للقضاء على خروجيهما بالقضاء عليهما وقد كان . وفي خلال ذلك كانت
تستخدم الخطابة من العلويين تسويغاً لخروج وأداة لجمع الأنصار ،
كما كانت تستخدم من المنصور تبيننا لعدم شرعية هذا الخروج وتبريرا
للموقف الذي وقفه إزاءهم من قتال ؛ مطيلاً في ذلك ومكثراً من الأدلة
والبراهين . على أن ذلك لم يكن لينزع محبتهم من القلوب حتى قلوب
قواده وعظماء دولته كأبي مسلم الخراساني الذي قتله ليلة إلى هؤلاء ثم
استغل الخطابة كما تقام بعد هذا الحدث الخطير في تفهيم الناس أنه لم
يك فيه من المعتدين .

٣- هذا الوادي وذلك كانا الأذخر الأودية بتيار الخطابة ، جرى فيهما
عظيم اللجة قوى الاندفاع ، ثم كان كذلك في واد ثلث اطرد واياها ،
هو استخدامهما في الثورات لتجديد الجيش والنفوس بها إلى ميادين
القتال ، أولتذيبهم همها والقعود بها حتى عن نصرته من يكون له في نصرتها
أمل ورجاء . وإليك في هذا مثلين مما كان أيام الفتنة بين الأمين والمأمون .
أتى رجل طاهر بن الحسين وهو ناهض بجيشه إلى جيش علي بن
عيسى بن ماهان فقال « أيها الأمير إن جنديك قد هابوا هذا الجيش ،
وامتلأت قلوبهم منه خوفا ورعبا . فلو أقمت مكانك ودافعت » فلم يسمع له
طاهر الأريثا خطب جيشه يقول « يا أولياء الله وأهل الوفاء والشكر إنكم
لستم كهؤلاء الذين ترون من أهل النكث والغدر ، إن هؤلاء ضيعوا
ما حفظتم ، وصغروا ما عظمتم ، ونكثوا الأيمان التي رعيتم ، وإنما يطلبون
الباطل ، ويقاقلون على الغدر والجهل ، أصحاب سلب ونهب ، فلو قد

غضضتم الأبصار وأثبتتم الأقدام ، قد أنجز الله وعده وفتح عليكم أبواب عزه ونصره ، فجالدوا طواغيت الفتنة وبعاسيب النار عن دينكم ، ودافعوا بحقكم باطلهم ، فانما هي ساعة واحدة حتى يحكم الله بينكم وهو خير الحاكمين » ثم نهض به فدارت الدائرة على جيش ابن ماهان وقتل .

وذهب عبد الملك بن صالح إلى الشام فجمع أجنادها على نصرة الأثمين ليده عليه في إطلاقه من سجن أبيه وتوليته ، ثم سار بهم إلى الجزيرة فجمع رعوسها ووجوشها ، ولكن ما إن تأهب بهما للمسير حتى قام رجل من أهل حمص فقال « يا أهل حمص ، الهرب أهون من العطب ، والموت أهون من الذل ، إنكم بعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة ، ألا وفي الشر وقعتم ، وإلى حومة الموت أنختم ، إن المنايا في شوارب المسودة وقلانسهم ، النفير النفير قبل أن ينقطع السبيل وينزل الأمر الجليل ، ويفوت المطلب ويعسر المذهب ويبعد العمل ويقرب الأجل » وقام آخر من كاب فقال « يامعشر كلب إنها الراية السوداء والله ماولت ولا عدلت ولا ذل نصرها ولا ضعف وليها ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم ، وآثار أسنتهم في صدوركم ، اعتزلوا الشر قبل أن يعظم ونخطوه قبل أن يضطرم ، شامكم شامكم داركم داركم ، الموت الفلسطى خير من العيش الجزرى ، ألا واني راجع فمن أراد الانصراف فلينصرف معي » ثم سار هو والحمصى فسار معهما عامة أهل الشام ، وحدث أن مات عبد الملك بن صالح ، فأقبل الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان وكان معه جند الجزيرة الى بغداد وإنه لما يذكر من تلاعب الخطابة

يعقول الناس ما كان من الحسين هذا، فانه ما كاد يصل بغداد بهذا الجند المؤلب لنصرة الأمين حتى قام فيهم مناديا بخلاعه يقول « يا معشر الأبناء إن خلافة الله لا تجاوز بالبطل و نعمه لا تستدحب بالتجبر والتكبر، وإن محمدا يريد أن يوتغ أديانكم ^(١) وينسكت بيعتكم، ويفرق جمعكم، وينقل عزكم إلى غيركم، وبالله إن طالت به مدة وراجعته من أمره قوة ليرجعن ربك ذلك عليكم وليعرفن ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم، وضعوا عزه قبل أن يزع عزكم، فو الله لا ينصره منكم ناصر الاخذل، ولا يمنعه مانع الا قتل، وما عند الله لأحد هواده ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحنث بأيمانه » قال ذلك فاذا السامعون يمكنون له في خلع الأمين وحبسه والبيعة للمأمون . وإنالذا كرون هنا وفي هذا الموضوع عينه ما هو أغرب من ذلك في نلاعب الخطباء بالعقول ؛ فقد حدث بعد هذا الخلع والحبس أن قام أسد الحربى ^(٢) فقال « يا معشر الحربية هذا يوم له ما بعده، إنكم قد نتم وطال نومكم وتأخرتم فقدم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوام بذكر خلع محمد وأسرهم فاذهبوا بذكر إطلاقه وفكه » وإذا شيخ أقبل على فارس فصاح بالناس اسكتوا فسكتوا فقال « أيها الناس هل تعتدون على محمد بقطع منه لا رزقكم ؟ قالوا لا . قال فهل قصر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا ما علمنا ، قال فهل عزل أحدا من قوادكم ؟ قالوا معاذ الله أن يكون فعل ذلك ، قال فما بالكم خذلتوه وأعنتم عدوه على اضطهاده

(١) يفسدها (٢) نسبة الى حربية محلة ببغداد بناها حرب بن عبد الله

وأُسره، أما والله ما قتل قوم خليفة تم قط إلا سلط الله عليهم السيف
القاتل والحتف الجارف، انهضوا إلى خليفةكم وادفعوا عنه وقتلوا
من أراد خلعهم والفتك به «فنهضوا معه وقتلوا الحسين فهزموا أصحابه
وأُسروه، ثم دخل أسد الحربى على محمد فكسر قيوده وأقعده فى مجلس
الخلافة. ولولا أن خلع الأمين كان قد أعلن بالأُمصار وخاصة مكة كما
تقدم فى خطبة داود بن عيسى واليهما، وهجمت جيوش طاهر على بغداد
وليس لأهلها نظام، لما بعد أن يدوم انتفاعه بهذا الانتصار.

وللخطابة أغراض غير التى تقدمنا بها فى تلك النواحي الثلاث
كانت فى العصر العباسى الأول ذات شأن واعتبار.

١- منها أن يتجدها المستعطف المترضى أداة يستل بها ما يخشى من
سخائم القلوب وغضببات النفوس، فلا يكاد يمتطيها فى هذا الميدان حتى
تبلغ به الذى أراد وفوق الذى أراد طالما حدثنا التاريخ إذ ذاك أنه كان
يدخل بالمغضوب عليه على الغاضب، وقلب الثانى على الاول حميم آن، فياً أخذ
فى الترضى والاستعطاف فاذا هذا الحميم بزد وسلام، وإذا هو قد انتقل
بنفسه لدى صاحبه من وهدة العقاب الى ذروة المكافأة والثواب، وقد
سبق ما كان من أبى جعفر المنصور للحارث الغفارى إذ استعطفه بعد
خروجه عليه مع عمه عبد الله، فشفع رضاه عنه برد ضياعه عليه.
وهذه امرأة النفس الزكية تدخل على المنصور ومعها صبيان فتقول
« يا أمير المؤمنين أنا امرأة محمد بن عبد الله وهذان ابناه أيتهم ما سيفك،
وأضرعهما خوفك، فنادى بك الله يا أمير المؤمنين أن تصعر لهما خدك،
فيناى عنهما رفقك، أولتعطفك عليهما شوابك الذنب وأواصر الرحم »

فلا يملك أن يأنفت إلى الربيع فيقول اردد عليهم ما ضياع أبيهم ماثم يقول
كذبا والله أحب أن تكون نساء بني هاشم . بل هذا جعفر الصادق
يدخل به عليه إذ مر بالمدينة من حجه وقد طلبه ليقتله فيسلم فيرد عليه
« لا سلم الله عليك يا عدو الله تعمل على الغوائل في ما كى » فيقول
جعفر « يا أمير المؤمنين إن سليمان أعطى فشكر، وإن أيوب ابتلى فصبر،
وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت على إرث منهم وأحق من تأسى بهم »
فينكس أبو جعفر رأسه مليا ثم يرفعه قائلا « إلى أبا عبد الله فأنت
القريب القرابة، ذو الرحم الواشجة، السليم الناحية : القليل الغائلة » ثم
يصافحه بيمينه ويعانقه بشماله ويجلسه معه على فراشه منحرفا له عن
بعضه، ويقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله : ثم يقول ياربيع عجلى لأبي
عبد الله كسوته وجائزته وإذنه . ومن بعد أبي جعفر طالما استعطف
الخطباء الخلفاء فتالوا بقولهم غفران عظام الذنوب ، وتخطوا ذلك إلى
الخطوة برد ما صودر من أموالهم زائا أسني العطايا وأجزل الصلات
كما فعل المأمون مع عمه إبراهيم^(١) وكما فعل المعتصم مع تميم بن جميل^(٢)
وغير هذين وهذين كثير .

(١) لما عهد المأمون من بعده إلى علي بن موسى الرضا من العلويين وسمع
العباسيون ذلك أنكروه وخنلوه وبايعوا عمه إبراهيم هذا فطلبه المأمون فهرب
وتوارى فجاء في طلبه حتى قبض عليه . ولم نذكر استعطافه لطوله .

(٢) كان تميم قد خرج على المعتصم بشاطىء الفرات وعظم أمره ، فوجه إليه
المعتصم مالك بن طوق فظفر به وحمله موثقا إلى المعتصم . ولم نذكر استعطافه
لطوله أيضا .

٢ - ومنها أن يتخذها المتوعد المتهدد أداة مسخطة وعقاب، وسوط نقمة وعذاب، حتى لترتعد فرائص من أمامه خوفاً وفاقاً، ويطير ليله مما يسمع رعباً وجزعاً، استمع إلى داود بن علي يقول وقد بلغه أن قوماً أظهرُوا شكاًة أبي العباس السفاح فقال «أغدر يا أهل الختر والتبديل، ألم يردكم الفتح المبين عن الخوض في ذم أمير المؤمنين، كلا والله حتى تحملوا أوزاركم وأوزار الذين كانوا من قبلكم، كيف قامت شفاهكم بالشكوى من أمير المؤمنين بمدان حانت آجالكم فأرجأها وانبعثت دماؤكم فحقنها، الآن يا منابت الدمن مشيتم الضراء وديبتم الحمر^(١) أما ومحمد والعباس إن عدتم لمثل ما بدأتم لا حصدهنكم بظلمات السيوف ثم يغنى ربنا عنكم ونستبدل غيركم» ثم لا يكونوا أمثالكم» وفي مثل هذا المعرض يقول أبو جعفر المنصور «أحرز لسان رأسه، تنبه امرؤ لحظه، نظر امرؤ في يومه لغده، فشى القصد وقال الفصل وجانب الهجر ثم يقول وقد أخذ بقائم سيفه - أيها الناس إن بكم داء هذا دواؤه وأنا زعيم لكم بشفاؤه، فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به، فانما بعد الوعيد الايقاع و«إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله»

٣- وبين حالي الترضى والتوعد كان ذو المكانة والسلطان، يستخدم الخطابة في معاتبة من ارتكب معه عسيماً فقدر عليه، وأعقب هذه القدرة بصفح منه وغفران، لمنزلة سالفة وخدمة مرجوة، فإن لسانه حينئذ يعمد إلى منطق الشدة والتجبر، ولكن قلبه يأبى الاشوب الكلام

(١) الضراء الشجر الملتف والحمر كل ما وارى وستر وكلاهما كناية عن

التعفي في تدبير المسكايد لؤما وجبنا .

بعامل الرحمة والحنان: فيأتي قوله لذلك بين الشدة واللين كالذي كان
من الأمين للحسين بن علي بن عيسى إذ قال « يا حسين ألم أقدم أباك
على الناس وأوله أعنة الخيل وأملاً يده من الأموال وأشرف
أقداركم في أهل خراسان وأرفع منازلكم بلى غيركم من القواد: قال
بلى: قال فما الذي استعقتت به منك أن تخضع طاعتى وتؤلب الناس على،
وتندبهم إلى قتالى: قال الذقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحة
وتفضله: قل فان أمير المؤمنين تدفع لك ذلك بك وولاك الطاب بشارك
ومن قتل من أهل بيتك »^(١) ثم دعاه له بخلعة خلعها عليه وحمله على
مراكب وأمره بالسير إلى حلوان ولكنه إذ خرج هرب في نفر من
خدمته ومواليه فنادى الأمين فى الناس: « ذلم بعد هناك موضع له نو -
فركبوا فى طابه فأدركوه وقتلوه. وكذا كن من المأمون للفضل
ابن الربيع^(٢) إذ ظفر به فقد قال له « يا فضل أكن من حقى عايك وحق
آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثابنى وتسببى وتحرض على دى،
أحب أن أفعل بك ما فعلته بى » فقال يا أمير المؤمنين إن عذرى
يحققك إذا كنت واضحاً جميلاً فكيف إذا حفته العيوب وقبحته
الذنوب: فلا يضيق عنى من عفوكم ماوسع غيرى منك فأنت كما قال
الشاعر فيك

صفوح عن الأجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف من الناس مجرماً

(١) يعنى أخذه بشار أبيه من طاهر بن الحسين فانه قتله وبعض أهل بيته كما تقدم.

(٢) كان أول المناصرين للأمين لأنه من أبناء العرب وكانت ضلع الأمين

معهم لعربية أمه وضلع المأمون عليهم مع الفرس لفارسية أمه

وليس يبالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم ينش بالكره مسامحا
٤ - ثم منها أن تكون أداة الحوار بين الخصماء الألداء والمتصاين
الأصفياء أو الراغبين في التفاصح من البلاء ، فتري فيها حيث الخصام
نارا وجحيما ، وحيث التحاب جنة ونعيا ، وحيث الرغبة في التفاصح علوا
في البلاغة كبيرا . فأما حوار الخصومة فقد سمعت منه فيما سبق بين
الرشيد وعمه عبد الملك ، السؤال المفهم والرد المقتنع ، وأما حوار التحاب
والتواد فاليك منه ما حدث به سعيد بن مسلم بن قتيبة قال ، دعا المنصور
بالربيع فقال له ياربيع سلني ما تريد فقد سكمت حتى أنطقت ، وخففت
حتى أثقلت ، وقللت حتى أكثرت ، فقال والله يا أمير المؤمنين ما أذهب
بحلك ولا أستقص عمرك ولا أستصغر فضلك ولا أغتني مالك ، وإن
يومي بفضلك على أحسن من أمسي ، وغدك في تأميلي أحسن من يومي ،
ولو جاز أن يشكرك مثلي بغير الخدمة والمناصحة لما سبقني لذلك أحد ، قال
صدقت عامي بهذا منك أحلك هذا الحل فسلني ما شئت ، قال أسألك
أن تقرب عبدك الفضل وتؤثره وتحبه ، قال ياربيع إن الحب ليس بمال
يوهب ولا رتبة تبذل وإنما تؤكده الأسباب . قال فاجعل لي طريقا
إليه بالتفضل عليه ، قال صدقت وقد وصلتته بألف درهم ولم أصل بها
أحدا غير عمومي لتعلم ماله عندي فيكون منه ما يستدعي به محبتي ،
ثم قال وكيف سألت له المحبة ياربيع ؟ قال لأنها مفتاح كل خير ، ومغلاق
كل شر ، تستر بها عندك عيوبه ، وتصير حسنات ذنوبه ، قال صدقت .
أما حوار التفاصح فنجد منه ما روى من أن خالد بن صفوان دخل علي

السفاح وعنده أخواله من بنى الحارث بن كعب^(١) فقال ما تقول في أخوالى فقال ، هم هامة الشرف وعربين الكرم وغرس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت في غيرهم من قومهم لأنهم أطولهم لما ، واكرمهم شيئا ، وأطيبهم طعاما ، وأوفاهم ذمما وأبعدهم همما ، الجرة في الحرب والرفد في الجذب والرأس في كل خطاب وغيرهم بمنزلة العجب ، فقال وصفت أبا صفوان فأحسنت فزاد أخواله في الفخر حتى غضب لأعمامه فقال : انخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين وأنت من أعمامه فقال « وكيف أفاخر قوما بين ناسج برد ودابغ جلد وسائس قرد وراكب عرد^(٢) ، دل عليهم هدهد وغرقهم جرد وملاكتهم امرأة » فأشرق وجه أبي العباس .

هـ - ولقد كانت الخطابة مر كباذلول في التعازى والتهانى ، يبلغ به المعزون أرفع مراتب الصبر ويصل به المهنتون أبهج درجات البشر ، ذكر الطبرى أنه لما ماتت الباقوة بنت المهدي جزع عليها جزع عالم يسمع بمنزلة فحاس للناس يعزونه وأمر ألا يحجب عنه أحد ، فأكثر الناس في التعازى فأجمع من حضر على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شيبه^(٣) له إذ قال : « أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزئت أجرا وأعقبك صبورا ، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ولا نزع منك نعمة ، ثواب الله خير لك منها ورحمته خير لها منك ، وأحق ما صبر عليه مالا سبيل إلى رده » وقد ذكرنا فيما سلف من نماذج تهنئة أحد وجوه بغداد للمأمون

(١) أم السفاح ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد الممدان بن الديان

الحارثي ولذا يقال له ابن الحارثية .

(٢) العرد الحمار (٣) هو ابن عم خالد بن صفوان المنقرى

حين دخلها بعد قتل الأمين . وكثيرا ما كان يجمع بين التعزية والتهنئة في الخلافة وفي غير الخلافة . فمن الاول ماذكر في صبح الاعشى من أن أعرابية تعرضت للمنصور عقب وفاة السفاح فقالت « يا أمير المؤمنين احتسب الصبر وقدم الشكر فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين وأعظم عليك المنة في الحادثين ، سلبك خليفة الله وأفادك خلافة الله فسلم فيما سلبك . واشكر فيما منحك ، تجاوز الله عنك يا أمير المؤمنين وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين » . ومن الثانی ماذكر من أن عبد الملك بن صالح دخل دار الرشيد - قبل غضبه عليه - فقال له الحاجب إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بآبن له وولد له آخر فلما دخل عليه قال « سرك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك ، وجعل هذه بهذه مثوبة علي الصبر ، وجزاء علي الشكر » .

٦ - ولقد اتخذ ذوو الحسن الخطابة رقي سحرية يتزلفون بها إلى أولى الأمر والنهي يغزون منهم القلوب ويحتلون السويداء بما يرتلون من آيات مدح وينظمون من عقود ثناء ، قال الحسن بن سهل للأمويين يوما ، « الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك وسني ما أعطاك ، إذ قسم لك الخلافة ووهب لك معها الحجة ، ومكنك بالسلطان وحلاه لك بالعدل ، وأيدك بالظفر وشفعه لك بالعفو ، وأوجب لك السعادة وقرنها بالسيادة ، فمن فسح له في مثل عطية الله لك ؟ أم من ألبسه الله من زينة المواهب ما ألبسك ، أم من ترادفت نعمة الله عليه ترادفها عليك ؟ أم هل حاولها أحد وارتبطها بمثل محاولتك ؟ أم أي حاجة بقيت لرعيته لم يجدوها عندك ؟ أم أي قيم للإسلام انتهت إلى عنايتك ودرجتك ؟

تعالى الله تعالى ما أعظم ما خص القرن الذي أنت ناصره ، وسببها
الله أي نعمة طبقت الأرض بك . إن الله تعالى خلق السماء في فلكها
ضياء يستنير بها جميع الخلائق ، فكل جوهر زها حسنه ونوره ، فهل
لبسته زينته إلا بما اتصل به من نورك ، وكذلك كل ولى من أوليائك
سعد بأفعاله في دولتك ، وحسنت صنائعه عند رعيتك ، فانما نالها بما
أيدته من رأيك وتديرك ، وأسعدته من حسك وتقديرك .

ولقد صار الحسن بهذا وزيرا للمأمون وتزوج المأمون من ابنته بوران .

وقيل للمهدي عن شبيب بن شيبه للايقاع به ، إن شيبه يستعمل
الكلام ويستعد له ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح
فأمر رسولا فأخذ بيده حتى أصعده المنبر وقال خذ في مدح أمير
المؤمنين فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه حق الصلاة عليه ثم قال :
« أيها الناس ألا إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة الأسد الخادر ، والبحر
الزاهر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر . فأما الأسد الخادر فأشبهه منه
بأسه ومضاءه ، وأما البحر الزاهر فأشبهه منه بجوده وأعطاه ، وأما القمر
الباهر فأشبهه منه بنوره وضياءه وأما الربيع الناضر فأشبهه منه حسنه
وبهائه ، ثم نزل وهو يقول : -

وموقف مثل حد السيف قت به أحى الزمار وترمينى به الخدق
فما زلقت وما ألقيت كاذبة إذا الرجال على أمثاله زلقوا
فكان بعد هذا أعز على أمير المؤمنين قبله .

٧ - وكثيرا ما كانت إحالة الراى فى مهام الامور على السنة ذوى

البصائر والعقول ، تلبس الأسلوب الخطابي فيقف كل مدل برأيه موقف الخطيب يجود لفظه كما يحصص معناه ويعمل على التأثير بالقول كما يؤثر بالفكر، وإن كان الموقف موقف مشاورة لا يعدو الرغبة في الوصول إلى أحزم الآراء . وعندك في هذا ما صدر عن المهدي وأهل بيته ورجالات دولته من تدبير الرأي في حرب خراسان وهو كثير . وقد سبق منه بعض ما كان من المهدي في إبداء رأيه ووصايته لولي عهده موسى الهادي ، واليك بعض ما كان من موسى هذا في الموضوع ، وعو وحده من لم يسبق لنا عنه دون سائر الخلفاء إلى المأمون اختياره . قال « أيها المهدي لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم ، الحال من القوم ينادي بمضمرة شر وخفية حقد ، قد جعلوا المعاذير عليها سترًا ، واتخذوا العمل من دونها حجابًا ، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير والأُمور بالتطويل ، فيكسروا حيل المهدي فيهم ويفنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم وتلاحق ما ذنهم ، وتستفحل حربهم وتستمر الأُمور بهم ، والمهدي من قولهم في حال غرة ولباس أمانة قد فتر لها وأنس بها وسكن إليها » إلى أن قال « والرأي للمهدي وفقه الله ألا يقبل عثرتهم ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش وتأخذهم السيوف ، ويستحرق بهم القتل ويحرق بهم الموت ، ويحيط بهم البلاء ويطبق عليهم الذل ، فإن فعل بهم ذلك ، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمة لكل بادرة شر منهم ، واحتمال المهدي في مثونة غزوتهم هذه يضع عنه غزوات كثيرة ونفقات عظيمة » .

٨ - ولم تقف الخطابه إبان ازدهارها في هذا العصر أن تكون ذات باع يطول وقوة تجول في نواحي الوصايا والنصائح والعظات ، وهذه كلمات ثلاث تكاد تكون متحدة المدلول ولكننا عطفنا بعضها على بعض عطف تغاير على أمل التفرقة بينها في المراد .

فأما الوصايا فأنا نقصد بها ما جاوز ناحية التزهيد وكان من كبير بشأن صغير تربطهما لحة نسب وقرابة ، وإنما أقحمنا كلمة شأن لتشمل ماوجه الخطاب فيه لغير الموصى به ولكنه من أجله يكون ، كوصية الرشيد السابقة للأحمر مؤدب ولده الأمين ، وكوصية السيدة زبيدة على بن عيسى حين الذهاب لقتال المأمون من قبل ابنها الأمين إذ تقول : « يا علي إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي ، إليه تناهت شفقتي وعاليه تكامل حذري ، فاني على عبد الله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابني ملك نafs أخاه في سلطانه وغاراه ^(١) على ما في يده ، فاعرف لعبد الله حق والده وإخوته ، ولا تجبه بالكلام فانك لست نظيره ، ولا تقتصره اقتصار العبيد ولا ترهقه بقيد ولا غل ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما ، ولا تعنف عليه في السير ولا تساور في المسير ^(٢) ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفه عليك فلا تراده » وطوال الوصايا في هذا العصر كثيرات كوصايا أبي جعفر المنصور لولي عهده المهدي وكوصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله إذ ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما .

وأما النصائح فهي كالوصايا في مجاوزتها ناحية التزهيد ولكنها

(١) لاجه وخاصته (٢) أي لا تحتد فيه .

تخلو من قيد الرابطة في القرابة والسن ، ومثلها في هذا العهد ما حدث من يزيد بن عمر بن هبيرة^(١) ، إذ دخل يوما على أمير المؤمنين المنصور فقال له حدثنا فقال « يا أمير المؤمنين إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم مرارة جورها ، فوالله يا أمير المؤمنين لقد محضت لك النصيحة » . وكذلك قوله له أيضا « يا أمير المؤمنين توسع توسعا قرشيا ، ولا تضق ضيقا حجازيا . » وكثيرا ما وجهت النصائح في هذا العصر توجيها عاما لفشو الحكمة فيه كقول مسلم بن قتيبة « لا تطلبن حاجتك إلى واحد من ثلاثة ، لا تطلبها إلى الكذاب فإنه يقربها وهي بعيدة ويبعدا وهي قريبة ، ولا تطلبها إلى الأحمق فإنه يريد أن ينفعك وهو يضرك ، ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم مأكلة فإنه يجعل حاجتك وقاء لحاجته » والنصائح على العكس من الوصايا يغلب فيها الإيجاز .

أما العظات فهي خلو من القيد السالفين ، وإنما قيدها أن ترمي إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة بمختلف الطرق وشتى الأساليب ، كالذي رأيته فيما اخترنا بالنماذج من عظة الأوزاعي للمنصور وهي من العظات الطوال ، ومن قصارها ما كان من ابن السماك^(٢) إذ دخل على الرشيد يوما ، وبينما هو عنده إذ استسقى الرشيد ماء فأثى بقله فلما أهوى بها إلى فيه ليشرّب ، قال له ابن السماك « يا أمير المؤمنين ، بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشربة بكيم كنت

(١) كان والي العراقين مروان بن محمد (٢) هو محمد بن صبيح الزاهد العابد

الكوفي قدم بغداد زمن الرشيد ثم عاد إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣ .

تشتريها؟ قال بنصف ملكي، قال اشرب هنالك الله، فلما شربها قال له
أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت خروجها
من بدنك بماذا كنت تشتريها؟ قال بجميع ملكي، قال فما اغترارك بملك
قيمته بولة « فبكى هرون وانصرف ابن السماك .

تلك أهم النواحي التي توضح ما كان للاخطابة في العصر العباسي
الأول من أغراض يرمى إليها الخلفاء وغير الخلفاء سوى ما كان من
الخطب الدينية في الجمع والمواسم يلونها بأنفسهم فيحفلون بها ويطيّلون،
وقدما تصدر منهم في هذه الناحية القصار، وهذا نموذج من قصارها يوم
جمعة عن محمد بن سليمان بن علي عامل البصرة في خلافة المنصور إذ
لا يتسع المقام لطوالها قال .

الحمد لله أحمد وأستعينه، وأستغفره وأؤمن به، وأتوكل عليه،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله
أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .
من يعتصم بالله ورسوله فقد اعتصم بالعروة الوثقى وسعد في الآخرة
والأولى، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضللا بعيدا وخسر خسرانا
مبيننا . أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتتبع
رضوانه ويتجنب سخطه، فانما نحن له وبه . أوصيكم عباد الله بتقوى
الله، وأحثكم على طاعة الله وأرضى لكم ما عند الله، فان تقوى الله أفضل
ما تحاث الناس عليه وتذاعوا إليه وقوا صوابه، « فاتقوا الله ما استطعتم
ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

هذا وإن فيما قدمنا من نماذج خالصة وأخرى شبننا بها الكلام

على الأغراض ، لمرءة قرينا أن الخطابة في العصر العباسي الأول قد ارتفعت إلى درجة من البيان لا تقل إن لم تزد عما كان لها فيه عهد الأمويين ، ذلك بأن رجالها به كانوا كرجال العصر المذكور من حيث السليقة العربية في بيانهم ، وتوافر الدواعي إلى الكلام أمامهم ، ثم هم على ذلك يغلب فيهم العنصر الهاشمي ولبنى هاشم في ميادين القول سبق لا ينال . وأهم الطوابع التي تميز بها خطابة هذا العصر بعد شمول أغراضها كما سلف هو مانسوقه الآن على سبيل الاجمال .

١ — طبعها بطابع ديني لا تزال تعتر به وتستمد منه وهذا أمر ما كان لرجالها عنه فكاك ماداموا يعتقدون أنهم جند الله المؤزرون لائقضاء على دولة الظلم وإقامة معالم الدين ، ولذلك امتلأ كلامهم بجور بني أمية واجترأهم على الحرمات والتحدث عن أنفسهم حديث الحاكمين العادلين ، ومن هنا عادوا إلى التعهد للسامعين بمثل ما كان يتعهد به الخلفاء الراشدون كما رأيت في خطب السفاح والمنصور وأعمامهما وكما هو ثابت في خطب من بعدهم من الخلفاء وقد تقدمت منها واحدة للمأمون .

٢ — كثرة الاستعانة فيها بالقرآن الكريم اقتباسا واستشهادا ، ومن أقدر من بني هاشم في دينهم وعدالتهم وقوة عارضتهم وفصاحتهم أن يكونوا آية مستغلين في شن الغارة على بني أمية ومن كانوا لهم أنصار ومشايخين ، وقد كانت الآيات تواترهم كما يواتي الذلول عن طواعية واختيار ، حتى تسنى لكثير منهم في بعض مواقفه أن يجعل جل خطبته من القرآن . خطب المنصور بمكة بعد بناء بغداد فقال

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون :
أمر مبرم وقول عدل وقضاء فصل : والحمد لله الذي أفلج حجته وبعدها
للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضا والفيء إرثا وجعلوا القرآن
عضيبن^(١) ، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكم ترى من بئر معطلة
وقصر مشيد ، أمهلهم الله حتى بدلوا السنة واضطهدوا العترة^(٢) وعندوا
واعتدوا واستكبروا وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم
من أحد أو تسمع لهم ركزا » . وعلى وتيرتها كانت خطبة عبد الملك بن
صالح في أهل الشام وقد ذكرت بالناذج .

٣- وكذلك كثرة الاستشهاد بالشعر وإن لم تفضل فيه خطابة المؤمنين ،
خطب داود بن علي فقال « أيها الناس حتام يهتف بكم صريحكم^(٣) ،
أما أن لراقدم أن يهب من نومه ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا
يكسبون ، أغركم الأمهال حتى حسبتموه الأهال ، هيهات منكم وكيف بكم
والسوط كفي^(٤) والسيف مشر :

حتى تبديد قبيلة فقييلة وبعض كل مثقف بالهام^(٥)
وتقوم ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الإيتام
وخطب صالح أخوه فقال « يا أعضاء النفاق وعبد الضلالة ، أغركم
لبن أساسي وطول إيناسي حتى ظن جاهداكم أن ذلك لفلول حد وفتور
جد وخور قنائة ، كذبت الظنون إنها العترة بعضها من بعض فأما

(١) جمع عضه ، أي فرقا من سحر و كهانة وشعر (٢) العترة الأقربين

(٣) الصريح هنا المغيث (٤) كثير الكفاية (٥) المثقف هنا المنقهر

إذ قد استو بلم العافية^(١) فهندى فطام وفكك وسيف يقدا لهما وإني أقول:
أغر كم أنى بأكرم شيمة رفيق وأنى بالفواحش أخرج
ومثلى إذا لم يحز أحسن سعيه تسكاه نعاما بفيها فتنطق
لعمري لقد فاحشتني فغلبتني هنيئا مريئا أنت بالفحش أرفق

٤ - السهولة البادية في وضوح مفرداتها وسلاسة تراكيبها مع
بقائها جزلة الأسلوب قوية الأداء ، نتيجة للحضارة التي صقلت اللغة
كما صقلت كل شيء ، فأصبحت الكلمات الغريبة فيها قليلة الوجود ،
والتراكيب العسيرة بها نادرة الاستعمال ، ثم خطت نحو مزاجية الجمال
وتساوى الفقرات خطوات كانت الأساس لما بنى بعد من محسنات ،
وإن فيما قرأت لها الشواهد على ما ذكرنا كثيرة كخطبة شبيب في المديح ،
على أني أزيد هنا شاهدا مما كان آخر هذا العصر الأول يؤذن بما كان
مقدورا للنثر بعده من صناعات . دخل رجل على المأمون يتظلم
من عامل له فقال : « يا أمير المؤمنين ، ما ترك لي فضة إلا فضها ، ولا ذهباً
إلا ذهب به ، ولا غلة إلا غلبا^(٢) ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا علقا إلا علقه ،
ولا عرضا إلا عرض له ، ولا ماشية إلا امتشها^(٣) ، ولا جليلا إلا أجلاه^(٤) ،
ولا دقيقا إلا دقه^(٥) » .

٥ - ظهورها على السنة الموالي بجانب ظهورها على السنة العرب
وذلك لما صار إليه الفرس من نباهة الشأن وتولى كثير منهم أزمه الحكم
مع إجادتهم العربية وحذقهم آدابها كما رأيت فيما اخترنا لأبي مسلم

(١) عددتموها وبيلة وخيمة (٢) حازها واحتبسها (٣) أخذ كل ما في ضرعها

(٤) رفعه (٥) كسره .

وطاهر بن الحسين وجعفر البرمكي والحسن بن سهل وغيرهم ممن عهد اليهم بكبار الشئون . على أنه لا يفوتنا التنبيه هنا عما ظهر في خطاب هؤلاء وأمثالهم من التعامل البادى فى الصياغة ، والخنوع الممعن فى الضراعة تأثرا منهم بما هو من طابع الفارسية وطباع أهلها ، ولذا يبدو على تراكيبهم فى بعض العبارات سقم أو استكراه لا تكاد تجد له من من مثيل فى هذا العصر على السنة العرب الخالصين .

كان هذا شأن الخطابة فى العصر العباسى الأول ، حتى إذا ما أقبل العصر الثانى كانت قد ماتت الحاجة إلى الدعاية ضد الأمويين بما عفا من آثارهم وثبتت من أقدام العباسيين ، ومن كان فى نفسه هوى أموى توجه به إلى الأندلس حيث أسست الدولة الثانية لبني مروان ، وبذلك أقفر الوادى الأول للخطابة وذهب داعيه ، ثم أعقبه إقفار الوادى الثانى وهو مقاومة العلويين . لما قاموا به من هجرة المشرق إلى المغرب الأقصى بعد أن أخفقوا فى خروجهم على أبى جعفر وخروجهم على الرشيد وبعد أن أخفق المأمون فى عقد ولاية العهد من بعده لعلى بن موسى الرضا منهم ، ثم جاء المتوكل معلنا على شيعتهم سيف البطش والجبروت ، وكذلك كان الخدم الاتراك ، فبقوا فى المغرب الأقصى بين بني مروان فى الأندلس والأغالبة فى أفريقية (تونس) - وكلاهما يود لهم البقاء - إلى أن ضعف أمر بني العباس فزحفوا شرقا إلى أن امتلكت الدولة الفاطمية مصر والشام . وبموت هذين الداعيين أقفر الوادى الثالث ونضب للخطابة أكبر معين . أما العيون الأخرى التى كانت تمتد سائر الأغراض فقد جفت بعاملين جديدين ، أحدهما تجريد الخلفاء

على أيدي الخدم الأتراك من السلطة الدينيّة التي كانت تجعلهم مرغوبين
مرغوبين ، وإذا ماتت الرغبة إلى شخص والرهبة منه ، تقطعت بينه
وبين الناس أوامر الكلام ، وثانيهما ضعف أولئك الخدم في المقدرة على
الكلام وفي فهم ما يلقي إليهم من بيان ، ضعفا حال بينهم وبين أن يسدوا ذلك
الفراغ للخلفاء ومن كان على شاكلتهم من أعوانهم موالي الفرس المتعربين ،
وبذلك تم القضاء تقريبا على كل ما كانت تتناول الخطابة في غير الناحية
الدينيّة من أغراض .

أما الناحية الدينيّة فقد استمر أولئك الخدم يسمحون للخلفاء فيها بكل
ما يودون ، فبقوا يزاولون الخطب في الجمع والأعياد ، ويخرجون إلى هذه
المواسم كما كان أسلافهم في مواكب الأبهة والجلال^(١) فبقى للخطب
الدينيّة في هذا العصر على أسنتهم وألسنة محاييمهم من فصحاء الولاة
والعمال شبه ما كان لها في سابقه من شأن واعتبار ، وما ساعد على هذا
أن ذيل العفاء لم يك قد تم سحبه على مال العربيّة من مكانة في التخاطب
العام ، ولذلك يذكر المؤرخون عن الرازي بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ أي
قبيل انقضاء هذا العصر بسنوات أنه آخر خليفة له خطب كثيرة

(١) كانت هذه المواكب تسترعى أنظار الشعراء فيبدعون في تصويرها

ما شاء لهم البيان كما حدث من البحترى في رأيته التي يقول فيها :

بالبر صمت وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضية تفر

فقد أجاد فيها وصف موكب المتوكل في خروجه إلى المسجد ليصلي بالناس

أحد أعياد الفطر كما أجاد وصف خطبته الواعظة في هذا العيد وستأتي في نماذج

الشعر بعد .

وأنه كان كأُسلافه الأول يجالس في بيته العلماء والأُدباء .
ولما أقبل العصر الثالث بسط آل بويه سلطانهم على بغداد ، بسطا
لم يبق معه للخليفة إلا صورة الخلافة جوفاء ، فقد سلبوا خلفاءه ما كان
قد بقي لهم في سابقه من نفوذ ديني فخالوا بينهم وبين الظهور في
المواكب للناس حتى ما كان للخليفة في الدولة إلا مرتب يتسلمه كاتبه
لتفقاته جملة معز الدولة المستكفي بالله خمسة آلاف درهم كل يوم^(١)
فقطع بذلك ، المدد الروحي الذي كان للخطابة من كلام الخلفاء ، ثم أخذ
ضعف اللسان العام يتناول الخاصة وأهل البادية بعد أن تناول السواد ،
فقتضى بذلك على المقدرة الخطابية العامة أتم قضاء ، وأصبحت الخطابة
حرفة تسند في بغداد بعد الخلفاء ، وفي سائر الحواضر بعد الولاة والعمال ،
إلى علماء يختارون على سبيل التعيين ويلقب كل منهم بالخطيب .

ثم جاء العصر الرابع فجرى الأمر فيه على ما كان في الثالث من
بقاء الحجز على الخلفاء وتعيين الخطباء من العلماء ، ولقد اشتهر من
خطباء الحواضر في العصرين رجال كانوا ذوي مقدرة على البيان
وامتلاك لنواصيه ، فأغنوا في هذه الناحية غناء عظيما وصاروا مددا لمن
هم دونهم ممن يلون الخطابة في غير حواضرهم وفي سائر المدن وأمّهات

(١) بدأ اضطهاد آل بويه للخلفاء منذ وجودهم ببغداد فان المستكفي
الذي لقب أحمد بن بويه إذ دخلها بلقب معز الدولة ولقب أخويه كما تقدم وأمر
أن تضرب ألقابهم على الدراهم والدنانير ، لم يبقه معز الدولة بعد ذلك إلا أربعين
يوما ثم خلعه أشنع خلعة يجعل رجلين من أتباعه يجذبانه عن سريره ويجعلان
صمامته في عنقه إلى حيث اعتقل ، على زعم أنه يلدس عليه ويكيد له .

القرى، حتى دونت خطب بعضهم في دواوين^(١) غير أن هؤلاء لقلتهم وللضعف الذي أخذ يحل بالعربية في العصر الأخير، لم يصدوا عن الخطابة الدينية ما اعتورها من خمول، فقد سار القائمون بها في طريق الاضمحلال مسرعين، وكان أول ما بدا عليهم من ضعف، عجزهم جملة عن الارتجال، ثم عجزهم عن المشافهة بعد إغداد، فكانوا يدونون خطبهم ثم يلقونها على المنابر من أوراق، ولشد ما كان الخطب فادحاً حينما عجزوا عن تحضيرها بأنفسهم، وأخذوا يكتبون خطب غيرهم، فيلقونها غير ملائمة للبيئة ولا مطابقة لمقتضيات الأحوال، حتى كان من وراء ذلك أن هبت جماعات تضع خطبا لكل جمعة من جمع العام يملأونها بما ساد الكلام آخر العصر من أسجاع، ولا يأمون فيها من نواحي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشيء ذي بال، على نحو ما كنا نسمع من جميع خطباء المساجد بمصر منذ فترة من تاريخنا الحديث، وما نسمع الآن من مجموعهم في هذا الوقت المقيم الذي حاد فيه بعض الخطباء الحديثين عما كان عليه إجماع سابقهم حيدة نقابلها بالغبطة متمنين لها دوام التقدم وسرعة الذيوع والانتشار.

(١) من هؤلاء على حسب سني وفاتهم في العصرين أبو يحيى بن نباتة خطيب سيف الدولة بحلب المتوفى سنة ٣٧٤ وله ديوان خطب مشهور طبع ببغروت. والخطيب البغدادي الحافظ أبو بكر أحمد بن علي صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣. والخطيب التبريزي يحيى بن علي الشيباني المتوفى سنة ٥٠٢. والخطيب الرازي عمر بن الحسين والد الفخر صاحب التفسير المتوفى سنة ٥١٢ وزكي الدين الدمشقي خطيب أول جمعة صليت ببيت المقدس بعد استعادته من الصليبيين سنة ٥٦٤. ثم خطيب القسطنطينية إبراهيم بن منصور العراقي المتوفى سنة ٦١٣.

الكتابة

قلنا إن لنثر اللغة جانباً أدبياً هو الخطابة والكتابة الانشائية، وآخر علمياً هو لغة التدوين والتصنيف، وإنا سنسوق الكلام على هذا الترتيب وبعده يكون الكلام على الشعر، وقد فرغنا من الكلام على الخطابة، وأن أن نشرع في الكلام على الكتابة جرياً على مارسمنا من نظام، غير أننا مضطرون فيها إلى تصدير لم نضطر إلى مثله في الخطابة هو سوق كلمة عن أنواعها في هذا العصر الطويل، فقد لبست فيه أثواباً عدة ذات تغاير في الاشكال والألوان، دفع إليها نظام العصر وأتم نسجها طول مداه.

فكانت منها الكتابة الديوانية وهي التي يتولاها رجال الدواوين على النحو الفني الذي نراه من كتبة الوزارات الآن. منها ديوان الرسائل والتوقيعات، وديوان الخراج والنفقات، وديوان الضياع والاقطاعات، وديوان الجيش وديوان الشرطة وغيرها إلى ما يشمل عدد المصالح العامة في تصريف الأمور، وهي مع اشتراكها جميعاً في ضم عدد من الكتبة يتولى عملاً فنياً، مختلفة بعضها عن بعض في نوع الكتابة تبعاً لاختلاف المهمة الملقاة على كل ديوان، والنظام الكتابي الذي يقتضيه إنجازها فيه، حتى إن نقل كاتب من أحدها إلى غيره، كثيراً ما تأباه طبيعة العمل الجديد، لأن لكل ديوان صبغة فنية وتعاليم يحدقها كتبته ولا يلم بها الكاتب الجديد إلا بعد تمرين، غير أن الكتابة فيها جميعاً ماعداً ديوان الرسائل والتوقيعات لا تحتاج بعد معرفة فنيته إلى روية وإجهاد، إذ

لا تعدو القيد في الدفاتر أو التحرير من غير مشقة في الانشاء فهي خلو من المسحة الأدبية للغة كما هي الآن . أما في الديوان المذكور ، فكانت ذات صبغة أدبية تتطلب من الكاتب تجويد العبارة والتحليق بالأسلوب إلى مستوى من البيان رفيع ، تتسامى إليه طوائف الكتاب .

وكان منها خارج الدواوين ما ينشئه الكتاب من رسائل على نمط ما في ديوان الرسائل وإن كانت إخوانيات ، وما يصورونه من القصص والمقامات ، ثم ما يدونه العلماء في التأليف والتصنيف ، ومع ما للغة العلمية من فنية خاضعة للطابع العلمي وإن كانت مختلفة باختلاف العلوم والفنون ، جاءت بعيدة عن الصبغة الأدبية بخلاف الرسائل الإخوانية ، وكتابة القصص والمقامات فإنها ذات جانب أدبي رفيع . جعلها نظيرة ما في ديوان الرسائل كما جاءت الكتابة العلمية نظيرة ما في غيره من سائر الدواوين ولما كان الأدب وحياته ينظران إلى الناحية الأدبية دون غيرها ، صارت الكتابة الانشائية في ديوان الرسائل والتوقيعات ، وخارجها في الرسائل الإخوانية والقصص والمقامات من أبحاثهما في الصميم ، دون كتابة الدواوين الأخرى لبعدها عنها البعد كله ، أما الكتابة العلمية فإنها يمان بها الالمام اليسير لما هو معروف من صلتها بكثير من العلوم والفنون . وعلى هذا الذي يقتضيه الأدب وحياته سيقع منا الكلام مع عدم التوسع الكثير في التدوين والتصنيف . وبعده يكون الكلام بإفازة في الشعر إن شاء الله .

الكتابة الانشائية

أولا - نماذجها

أ - في الرسائل والتوقيعات

١ - لما خرج محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية على المنصور كتب إليه المنصور .

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ،
أما بعد فإنا جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا
أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا
من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، إلا
الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ، ولك
عهد الله وذمته وميثاقه ، وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، إن تبنت من
قبل أن أقدر عليك ، أن أوثمتك على نفسك وولدك وإخوانك ، ومن
بايعك ومن تابعتك وجميع شيعتك ، وأن أعطيتك ألف ألف درهم
وأنزلك من البلاد حيث شئت واقضى لك ما شئت من الحاجات ، وأن
أطلق من في سجن من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أتبع
أحدا منكم بمكروه ، فإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من
يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام .

٢ - فكتب إليه محمد بن عبد الله . بسم الله الرحمن الرحيم من
عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد أما بعد « طسم

تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم
 يؤمنون، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة
 منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن
 نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن
 لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون»
 وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني ، وقد تعلم أن الحق
 حقنا وأنكم إنما طليتموه بنا، ونهضتم فيه بشيعتنا وخبطتموه بفضلائنا،
 وأن أبانا عليا عليه السلام كان الوصي والأمام، فكيف ورثتموه دوننا
 ونحن أحياء؟ وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا
 ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا، وأنا بنو أم رسول الله صلى
 الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم^(١) وبنو ابنته فاطمة
 في الاسلام من بينكم ، فأنا أوسط بني هاشم نسبا وخيرهم أبا وأبا، لم تلدني
 العجم ولم تعرق في أمهات الأولاد ، وأن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار
 لنا، فولدني من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه
 أقدمهم إسلما وأوسعهم علما وأكثرهم جهادا على بن أبي طالب ، ومن
 نساؤه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى القبلة، ومن
 بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الاسلام الحسن

(١) ينتهي نسبها إلى كعب بن لؤي وكانت زوجا لعبد المطلب بن هاشم
 فأولدها عبد الله أبا رسول الله وأبا طالب أبا العلويين واسمه عبد مناف
 ثم الزبير وعبد الكعبة .

والحسين سيدا شباب أهل الجنة^(١)، ثم قد علمت أن هاشما ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل جدتي الحسن والحسين^(٢)، فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في النار، فولدني أرفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذابا، فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشعرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار، ولك عهد الله إن دخلت في بيعتي أن آؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته إلا حدا من حدود الله أوحقا لمسلم أو معاهدا، فقد علمت ما يلزمك في ذلك، فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى بقبول الأمان، فأما أمانك الذي عرضت علي، فأى الأمانات هو أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم والسلام^(٣).

٣ - فكتب إليه المنصور - بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله

(١) أبوه عبد الله بن حسن بن حسن بن علي، وأمه فاطمة بنت الحسين ابن علي، فهو يرجع إلى رسول الله من الجهتين.

(٢) يرجع على إلى هاشم من قبل أبيه أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ومن قبل أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، ويرجع الحسن إلى عبد المطلب من قبل أبيه علي بن أبي طالب ومن قبل أمه فاطمة بنت رسول الله، ويرجع محمد هذا إلى رسول الله من الجهتين كما تقدم.

(٣) هؤلاء الثلاثة آمنهم المنصور ثم غدر بهم، وابن هبيرة هذا هو يزيد ابن صهر بن هبيرة والى العراقيين لمروان بن محمد

أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ، أما بعد فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك ، فإذا جل خورك بالنساء لتفضل به الجفافة والقوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعنومة ، ولا الآباء كالعصية والأولياء ، ولقد جعل العم أبا وبدأ به على الوالد الأدي فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام « واتبعتم ملة آبائي إبراهيم واسحاق ويعقوب » . ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة ، فأجابه اثنان أحدهما أبي وكفر اثنان أحدهما أبوك ^(١) فأما ما ذكرت من النساء وقرابتهن ، فلو أعطين على قرب الأُنساب وحق الأَحساب ، لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه . فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب ، فإن الله لم يهد أحدا من ولدها للإسلام ، ولو فعل ، لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى ، وأسعدهم بدخول الجنة غدا ، ولكن الله أبي ذلك فقال « إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » فأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن وأن هاشما ولد عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين ، فخير الأولين والآخرين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلد هاشم إلا مرة واحدة ولم يلد عبد المطلب إلا مرة واحدة ، وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله ، فإن الله عز وجل أبي ذلك فقال « ما كان محمداً أباً أحدهم رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ولستم ببنو ابنته وإنما

(١) المجيمان حمزة والعباس ، والكافران أبو لهب وأبو طالب ، والثاني أهون

لقراءة قريبة: غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم، فكيف
تورث الإمامة من قبلها؟ وأقد طلب بها أبوك بكل وجه فأخرجها
تخاصم ومرضها سرا ودفنها ليلا، فأبى الناس إلا تقديم الشيخين، ولقد
حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بالصلاة غيره، ثم
أخذ الناس رجلا رجلا فلم يأخذوا أباك فيهم، ثم كان من أصحاب الشورى
فكل دفعه عنها وبايع عبدالرحمن عثمان وقبلها عثمان، وحارب أبوك طلحة
والزبير، ودعا سعدا إلى بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعد، وأفضى أمر
جذك إلى أبيك الحسن فسامه إلى معاوية بخرق ودراهم وأسلم في يديه
شيعة وخرج إلى المدينة، فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير
حله فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه. فأما قولك إن الله اختار لك في
الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذابا فليس في الشر خيار ولا من
عذاب الله هين، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر
بالنار، وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. وأما قولك
إنك لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، وأنتك أوسط بني
هاشم نسبا وخير أما وأبا فقد رأيتك نخرت على بني هاشم طرا وقد مت
نفسك على من هو خير منك أولا وآخرا وأصلا وفصلا، نخرت على إبراهيم
ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى والد ولده. فانظر ويحك أين
تكون من الله غدا، وما ولد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله
عليه وسلم أفضل من علي بن الحسين وهو لأم ولد ولقد كان خيرا من
جذك حسن بن حسن، ثم ابنه محمد بن علي خير من أبيك وجدته أم ولد،
ثم ابنه جعفر، وهو خير منك، ولقد علمت إن جذك عليا حكم حكيم

وأعطاهما عهداً وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعوا على إخلاءه، ثم خرج
عمر بن الخطاب بن علي، علي بن مرجانة^(١)، فكان الناس الذين معه عليه
حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقطاب بغير أوطئة كالسبي المجلوب إلى
الشام^(٢)، ثم خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصابوكم
على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركننا بشاركم إذ لم تدركوه،
ورفعنا أقدراكم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك
في أدبار الالهة المكتوبة كما تلعن الكفرة، فعنفناهم وكفرناهم، وبيننا
فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا لما ذكرنا
من فضل عليّ أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر، كل أولئك مضوا
سالمين مسالماً منهم وابتلى أبوك بالدماء، ولقد علمت أن ماثرنا في الجاهلية
سقاية الحجاج الأعظم وولاية زمزم، وكانت للعباس دون أخوته فنازعنا
فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر عليه، وتوفي رسول الله ﷺ وليس
من عمومته أحد حياً إلا العباس فكان وارثه دون بني عبد المطلب،
وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينأها إلا ولده، فاجتمع للعباس
أنه أبو رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب
بفضل القديم والحديث: ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها لمات
عماك طالب وعقيل جوعاً، أو يلحسا جفان عتبة وشيبة^(٣) فأذهب

(١) هو عبيد الله بن زياد بن أبيه ومرجانة أمه (٢) الأقطاب جمع قتب وهو الرجل على قدر السنام، والأوطئة جمع وطاء وهو ما يقابل الغطاء.

(٣) يؤيد الكره قول رسول الله ﷺ يوم بدر « من لقي منكم العباس فلا يقتله فإنه أخرج كرها » وطالب وعقيل ابنا أبي طالب أسرا يوم بدر،

عنهما العار والشنار ، ولقد جاء الاسلام والعباس بمون أبا طالب للأزمة التي أصابتهم ، ثم فدى عقيلا يوم بدر^(١) فقد مناكم في الكفر وفديناكم من الأسر ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزننا شرف الآباء ، وأدركنا من ثأركم ما عجزتم عنه ، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام .

٤ - وكتب عبد الله بن المقفع « المتوفى سنة ١٤٣ » إمام الطريقة الكتابية في العصر العباسي الأول « طريقة الترسيل » في التعريف بكتاب كريمة ودمنة ، فكان مما كتب في أول باب عرض الكتاب :

هذا كتاب كريمة ودمنة وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا ، ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويحتالون في ذلك بصنوف الحيل ، ويبتغون إخراج ما عندهم من العاقل ، حتى كان من تلك العاقل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطيور فاجتمع لهم بذلك خلال ، أما هم فوجدوا متصرفا في القول وشعابا يأخذون منها ، وأما الكتاب فجمع حكمة وهوا . فاختره الحكماء لحكمته ، والسفهاء للهو ، والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره ولا يندري ما هو بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم ، وكان كالرجل الذي لما استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزا وعقدا له عقودا استغنى بها عن الكدح فيما يعمل من أمر

فكانا من الآكلين على جفان العباس وكان يطعم يوم بدر ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة كانا من المطعمين لقريش يوم بدر أيضا .

(١) كما فدى نوفل بن الحارث أيضا ، أما طالب ففدى نفسه .

معيشتته فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب .

هـ - ومما كتب في الدرة اليتيمة وهي رسالة دونها الخليفة المنصور في وجوب طاعة الناس لبني هاشم ويسمى الجاحظ الهاشمية ، قوله على ما ذكر أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ في كتابه المنتور والمنظوم ^(١) .

فتفكروا فيما جمع الله لأمر المؤمنين في معدنه وفي سيرته ، وفيما ظاهر عليكم من النعمة والحق والحجة بذلك ، وفيما عسى لقائل أن يمتنع فيه الغمز والمقال ، فلعمرى إن للشيطان من أهواء الناس وألسنتهم في الأمر نصيبا ، وإن له لستراحا حين يستوفيهم أمانيته ويصدق عليهم ظنه ويوحى إليهم بمكايده ، فجعل الله كيده ضعيفا وحزبه مغلوبا ، وجعله وإياهم نصيبا لجهنم من أجزائها المقسومة لأبوابها وحطبتها ووقودها وحصبها ليعدل لها . فمن كان سائلا عن حق أمير المؤمنين في معدنه ، فإن أعظم حقوق الناس منزلة ، وأكرمها نسبة ، وأولاها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة وإمام الهدى ووارث الكتاب والنبوة والمهيمن عليهم وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله

(١) الدرة اليتيمة مفقودة الآن ، ولم تعرف إلا بالتفويه عنها أو النقل منها في بعض الكتب ، وأما الرسالة المطبوعة باسمها في بيروت فهي الأدب الكبير ، أخذ اسم الدرة اليتيمة خطأ ، لأن مشتملاتها لا تتفق وماتذكر تلك الكتب عن مشتملات الدرة بل تتفق مع مشتملات الأدب الكبير المنوه عنها في كثير من الكتب وهي السلطان ثم الصديق .

بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً، ثم هو باعته يوم القيامة
مقاماً محموداً، شرع الله له دينه وأتم به نوره، وحقق به وعوس الضلالة
وجبايرة الكفر، وخوله الشفاعة وجعله في الرفيق الأعلى ﷺ

٦- ومما كتب في رسالة الصحابة وهي رسالة دونها للخليفة
المنصور أيضاً، لتكون دستوراً فيما يجب على كل ذي مصاحبة للسلطان
في عمل نحو هذا العمل حتى يحسن القيام به، قوله من أولها :
أما بعد، أوصلي الله أمير المؤمنين، وأتم عليه النعمة وألبسه المعافاة
والرحمة، فإن أمير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه، المسألة والاستماع،
كما كان ولا الشسر يجمعون مع جهلهم العجب والاستغناء، وليستوثق
لنفسه بالحجة، ويتخذها على رعيته فيما يلطف له من الفحص على أمورهم
كما كان أولئك يكتبون بالدعة، ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع
العذر، في الامتناع أن يجترأ عليهم أحد برأي أو خبر مع تسليط الذئاب،
وقد عصم الله أمير المؤمنين حين أهلك عدوه وشفى غليله، ويمكن له
في الأرض وآتاه ملكها وخزائنها، من أن يشغل نفسه بالتمتع والتفيش^(١)
والتأمل والأخلاء، وأن يرضى ممن آوى منهم بالمتاع به وقضاء حاجة النفس
منه، وأكرم الله أمير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغار إياه، وذلك من
أبين علامات السعادة وأجبح العوامل على الخير. وقد قص الله عز وجل
علينا من نبأ يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه الملك
وعلمه من تأويل الأحاديث، وجمع له شمله وأقر عينه بأبويه وإخوته،
أثنى على الله عز وجل بنعمته، ثم سأل عما كان فيه، وعرف أن الموت وما بعده

(١) التفيش هو ادعاء المفاخر باطلاً

هو أولى فقال «توفني مساماً وألحقني بالصالحين». وفي الذي قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على تناوله بالخبر فيما ظن أنه لم يبلغه إياه غيره، وبالتذكير بما قد انتهى إليه، ولا يزيد صاحب الرأي على أن يكون مخبراً أو مذكراً، وكل عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله. ٧، ٨ - ومما كتب في الألب الكبير وقد جعل بابه الأول في السلطان والثاني في الصديق، وهو الكتاب المطبوع باسم الدرة اليتيمة خطأ كما تقدم، قوله في أول الباب الأول بعد الديباجة.

إن ابتليت بالامارة فتعوذ بالعلماء، واعلم أن من العجب أن يبتلى الرجل بها، فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها في ساعات دعته وشهوته، وإنما الرأي له والحق عليه أن يأخذ لعماله من جميع شغله، فيأخذ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه وطموه ونسائه. فإذا تقلدت شيئاً من الأعمال، فكن فيه أحد رجلين، إما رجلاً مغتبطاً به محافظاً عليه مخافة أن يزول عنه، وإما رجلاً كارهاً قال: كاره عامل في سخرة إمام الملوك إن كانوا هم سلطوه، وإما لله إن كان ليس فوقه غيره. وإياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون أمة من التلم يتقحمون عليك منها، وبأبائفتتحوونك منه وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها، واعلم أن قابل المدح كمدح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده فإن الراد له محمود والقابل له معيب.

ثم قوله في آخر الباب الثاني يصف صاحباً له:

إني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني، وكان رأس

مأعظمه عندى صغر الدنيا فى عينه . كان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يشتهى مالا يجد ولا يكتر إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان فرجه ، فلا يدعوهُ إلى مؤونة ولا يستخف له رأيا ولا بدنا ، وكان خارجا من سلطان الجهالة ، فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة ، وكان أكثر دهره صامتا فإذا قال بد القائلين ، وكان يرى متضاعفا مستضعفا ، فإذا جاء الجدف والليث عاديا ، وكان لا يدخل فى دعوى ولا يشترك فى مرء ولا يدلى بحجة حتى يجد قاضيا عدلا وشهودا عدولا ، وكان لا يلوم أحدا على ما قد يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعا إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعا ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ، ولا يتشهى ولا يتشكى ، ولا ينتقم من المولى ولا يغفل عن العدو ، ولا يخلص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه بحياته وقوته . فعليك بهذه الاخلاق إن أطقت ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

٩ - ومما كتب فى الأدب الصغير وهو آداب منشورة فى غير موضوع قوله عن صناعة الكتابة :

ومن أخذ كلاما حسنا عن غيره فتكلم به فى موضعه وعلى وجهه فلا ترين عليه فى ذلك ضئولة ، فانه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدى للاقتداء بالصالحين ، ووفق للاخذ عن الحكماء ولا عليه أن يزداد ، فقد بلغ الغاية وليس بناقصه فى رأيه ولا غامطه من حقه ألا يكون هو استحدث ذلك وسبق اليه ، فانما إحياء العقل الذى يتم به ويستحكم ، خصال سبع . الا يثار بالمحبة ، والمبالغة فى الطلب ، والتثبت فى الاختيار ،

والاعتقاد للخير، وحسن الوعي، والتعهد لما اختير واعتقد، ووضع ذلك موضعه قولاً وعملاً .

١٠ - وكتب إلى بعض إخوانه يستقضييه حاجة .

أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه ، واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم ، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده أو لعقبه من بعده ، وكتبت اليك ولحالنا التي نحن بها فيما نذكر لك حاجة : أول ما فيهم معروف تستوجب به الشكر علينا ، وتدخر به الأيادي قبلنا .

١١ - وكتب إلى بعض أصدقائه وقد تقارقا يخبره ويستخيره .

كان من خبري بعدك أنني قدمت بلد كذا فتهياً لي بعض ماشخصت له ، والحمد لله على ذلك الله عز وجل ، وأنا إلى أن يأتيني خبرك محتاج ، فأما جملة خبري في فراقك ، فقلبي مكة كل مأسواك حرام فيها .

١٢ - وكتب إلى صديق ولدت له جارية .

بارك الله لكم في الابنة المستفادة وجعلها لكم زينة وأجرى لكم بها خيراً . فلا تكرهها فانهن الأمهات والأخوات والعيمات ومنهن الباقيات الصالحات ، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم

١٣ - وكتب يعزى صديقا عن بنت له

جدد الله لك من هبته ما يكون خلفاك عما رزقته ، وعوضاً من المصيبة به ، ورزقك من الثواب عليها أضعاف ما رزأك منها فما أقل كثير الدنيا في قليل الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك .

١٤ - وكتب يعزى من ولد .

إنما يستوجب على الله وعده من صبر الله بحقه فلا تجمعن إلى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالأجر عليه والعوض منه فإنها أعظم المصيبتين عليك وأنتى المرزئتين لك ، أخلف الله عليك بخبر وذخر لك جزيل الثواب .

١٥ - وكتب أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنئ بمولود .

أما بعد فإنه ليس من أمر يجهل الله لك فيه سرورا إلا كنت به بهجا أعتد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب على من حقا وعرفنى من جميل رأيك ، فزادك الله خيرا وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سرى أجمل صورته وأتم خلقه وأحسن فيه البلاء عندك فاشتد سرورى بذلك وأكثرت حمد الله عليه فبارك الله فيه وجعله بارا تقيا يشتد عضدك ويكثر عددك ويقر عينك .

١٦ - وكتب عمرو بن مسعدة وزير المأمون عن لسانه إلى الحسن

ابن سهل يهنئه بمولود

أما بعد فإن هبة الله لك هبة لأمر المؤمنين ، وزيادته إياك فى عددك زيادة له فى عدده ، لمحكك عنده ومكانك من دولته وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سرى فبارك الله لك فيه وجعله بارا تقيا مباركا سيدا زكيا .

١٧ - وكتب طاهر بن الحسين عن المأمون إلى نصر بن شبيب

حين قويت شوكته وهزم جيوش الخلافة

أما بعد فإنك يا نصر بن شبيب قد عرفت الطاعة وعزها وبر دظلمها

وطيب مرتعها، وما في خلافتها من الندم والخسارة . وإن طالبت مدة الله بك، فإنه إنما يملئ لمن يلتبس مظاهره الحجة عليه لتقع غيره بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم . وقد رأيت إذ كارك وتبصيرك لما رجوت أن يكون لما أكتب به إليك موقع منك ، فإن الصدق صدق والباطل باطل، وإنما القول بمخارجه وأهله الذين يعنون به . ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك مني في مالك ودينك ونفسك، ولا أحرص على انتقاذك والانتياش لك ^(١) من خطئك مني ، فبأي أول أو آخر أو سلطة أو امرأة إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين، تأخذ أمواله وتتولى دونه ما ولاه الله، وتريد أن تبیت آمننا مطمئنا أو وادعا ساكنا أو هادئا، فو عالم السر والجهر، لئن لم تكن للطاعة مراجعا وبها خانعا لتستوبلن وخم العاقبة ^(٢)، ثم لا بد أن بك قبل كل عمل، فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت فتنة في الأرض وفسادا كبيرا، أما لا طأن بمن معي من أنصار الدولة كواهل رعا أصحابك ومن تأشب إليك ^(٣) من أداني البلدان وأقاصيها وأوباشها، ومن انضوى إلى حوزتك من خراب الناس، ومن لفظه بلده ونفثه وعشيرته لسوء موضعه فيهم، وقد أعذر من أنذر والسلام .

١٨ - وكتب محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق عن لسان الخليفة إلى أحد العمال

أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا تخلو من إحدى منزلتين ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لأمة،

(١) انتاشه أنقذه (٢) لتجدن العاقبة وبيلة وخيمة (٣) التف بك

إما تقصير في عملك دعاك الأخلال بالحزم والتفريط في الواجب ،
وإما مظاهره لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت
منك محلة النكرك وموجبة المقوبة عايتك ؛ لولا ما ياقاك به أمير المؤمنين
من الأناة والنظرة والأخذ بالحجة ، والتقدم في الاعتذار والانداز ، وعلى
حسب ما أقلت من عظيم العثرة يجب اجتهدك في تلافى التقصير
والإضاعة والسلام .

١٩ - وكتب إلى ابراهيم بن العباس الصولى أيام مقامه بالأهواز
في تقصيره بنفسه يقول :

قله نظرك لنفسك حرمتك سناء المنزلة ، وإغفالك حظك حظك
عن الدرجة ، وجهلك بقدر النعمة أحل بك اليأس والنقمة ، حتى صرت
من قوة الأمل معتاضا شدة الوجع ، ومن رجاء الغد متعوضا يأس
الأبد ، وركبت مطية المخافة بعد مجلس الأمن والكرامة ، وصرت
معرضاً للرحمة بعد ما اكتنفتك الغبطة ، وقد قال الشاعر :

إذا ما بدأت امرأ جاهلاً بهر فقصر عن حمله

ولم تره قابلاً للجميل ولا عرف الفضل من أهله

فسمه الهوان فإن الهوان دواء لذى الجهل من جهله

وقد فهمت كتابك وإغراقك وإطنا بك ، وإضافة ما أضفت بتزويق
الكتب بالأقلام ، وفي كفاية الله غنى عنك يا ابراهيم وعوض منك وهو
حسبنا ونعم الوكيل .

٢٠ - وكتب ابراهيم بن العباس الصولى الى ذى نعمة يتوصل :
لا أزال « أبقاك الله » أسأل الكتاب اليك ، فرة أتوقف توقف

المخفف عنك من المثونة، ومرة أكتب كتاب الراجع منك الى الثقة
والمعتمد منك على المقييل، لا أعد من الله دوام عزك ولا سلب الدنيا
بهجتها بك ولا أخلانا من الصنع لك، فانا لا نعرف الا نعمتك ولا نجد
للحياة طعما إلا في ظلك، ولئن كانت الرغبة الى بشر من الناس خماسة
وذلا، لقد جعل الله الرغبة اليك كرامة وعزا لأنك لا تعرف حرا
قعد به دهره إلا سبقت مسأله بالعطية، وصننت وجهه عن
الطلب والذلة.

٢١.. وكتب أبو عثمان عمرو الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ إمام الطريقة
الكتابية في العصر العباسي الثاني «طريقة الازدواج» من رسالة في مدح
التجار وذم عمل السلطان، بعد أن ذكر احتجاج حشوة الأتباع يقول:
وهذا الكلام لا يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان^(١) فأما علميتهم
ومصاصهم^(٢) وذوو البصائر والتمييز منهم، ومن فيقته الفطنة وأرهقه
التأديب وأرهفه طول التفكير، وجرى فيه الحياء، وأحكمته التجارب
فعرف العواقب، وأحكم التفصيل وأنطق غوامض التحصيل، فإنهم
يعترفون بفضيلة التجار ويتمنون حالهم ويحكمون لهم بسلامة الدين
وطيب الطعمة، ويعلمون أنهم أروع الناس أبداً وأهنؤهم عيشاً وآمنهم
سرباً، لأنهم في أفئيتهم كالمالوك على أسرهم، يرغب اليهم أهل الحاجات
وينزع اليهم ملتزموا البياعات^(٣)، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم، ولا يستعبدونهم
الضرع لمعاملاتهم، وليس هكذا من لا لبس السلطان بنفسه وقاربه
بخدمته، فإن أولئك لباسهم الذلة، وشعارهم الملق، وقلوبهم ممن هم لهم خول

(١) نواع البطانة (٢) مصاص كل شيء خالصه (٣) السلع

مملوءة قد لبسها الرعب وألفها الذل ، وصحبها ترقب الاحتياج فهم من هذا في تكدير وتنغيص خوفا من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول واعتراض حلول المحن فان هي حلت بهم وكثيرا ما تحمل فناهيك بهم مرحومين يرق لهم الاعداء فضلا عن الأولياء ، فكيف لا يميز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحصيله وبين من قد نال الوفاء عنه والدعة وسلم من البوائق مع كثرة الاثراء وقضاء اللذات من غير منة لأحد ولا منة يعتد بها ، وكم بين من هو من نعم المفضلين خلى وبين من قد استرقه المعروف واستعبده الطمع ولزمه ثقل الصنعة وطوق عنقه الامتنان واسترهن بتحمل الشكر .

٢٢ - ومن كلامه يصف الكتاب

الكتاب - نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعمدة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس ساعة الوحدة ونعم للمعرفة ببلاد الغربه ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء مليء علما وظرف حشى ظرفا وإناء شجن مزاحا ، إن شئت كان أعيانا من باقل وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل وإن شئت سرتك نواذره وشجيتك مواعظه . ومن لك بواعظ مله وبناسك فاتك وناطق أخرس : ومن لك بطبيب أعرابي ورومي هندي وفارسي يوناني ونديم مولد ونجيب ممتع ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده . وبعد فمارأيت بستانا يحمل في ردن وروضة تنقل في حجر وناطقا ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك

بمؤنس لا ينال الابنومك ولا ينطق إلا بتأهوى ، آمن من فى الأرض
وأكرم للسمر من صاحب السمر ، وأحفظ للوديعه من أرباب الوديعه .
ولا أعلم جارا آمن ، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما
أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ، ولا أقل إملا لا ولا إبراما ، ولا أبعد
من مرء ولا أترك لشغب ، ولا أزهد فى جدال ولا أكف عن قتال
من كتاب ، ولا أعم بيانا ولا أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافأة ولا شجرة
أطول عمرا ولا أطيّب ثمرا ، ولا أقرب مجتنى ولا أسرع إدراكا ، ولا أوجد
فى كل إبان من كتاب ، ولا أعلم تتاجافى حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص
ثمنه وامكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار
العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب
القديمة والتجارب الحكيمه والأخبار عن القرون الماضيه والبلاد النازحه
والامثال السائرة والأهم البائدة ما يجمعه كتاب . ومن لك بزاز إن
شئت كانت زيارته غباء ، وورد ، وخساء ، وإن شئت لزمك لزوم ظلك وكان
منك كبعضك . والكتاب هو المجلس الذى لا يطريك والصدى الذى
لا يقلبك ، والرفيق الذى لا يملك والمستمتع الذى لا يستزيدك والجار
الذى لا يستبطنك والصاحب الذى لا يريد استخراج ما عندك بالمق
ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق ، والكتاب هو الذى إن نظرت
فيه أطال إمتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بيانك ونخم
ألفاظك وبحبح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصدقة
الملوك ، يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفى السفر طاعته فى الحضر ، وهو
المعلم إن افتقرت اليه لم يحقرك ، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة .

وإن عزلت لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متملقاً منه بأدنى سبيل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء وإن أتملت ما يقطع به الفراعنهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليالهم نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجربة ، وعقل ومروءة وصون عرض وإصلاح دين وتعمير مال ورب^(١) صنيعه^(٢) وأبتداء إنعام ، ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلا متعبه لك من الجلوس على بابك والنظر إلى المارة بك^(٣) مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ، ومن فضول النظر وملازمة صفات الناس ، ومن حضور ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الرديئة وجمالتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة والغنيمة ، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع ، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى واعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما تشتهي به ، لقد كان له في ذلك على صاحبه أسبغ النعم وأعظم المنن ، وجملة الكتاب وإن كثرت ورقه فليس مما يعمل لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة في خطابه والعلم بالشرعية والأحكام والمعرفة بالسياسة والتدبير .

٢٣ — ومن كلامه في محاسن الضحك ومنافعه وقد ساقه إليه الاستطراد في مقدمة كتابه البخل .

وإذا كان البكاء مادام صاحبه فيه فإنه في بلاء ، وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ ، ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع ، وشبه بالأمة

(١) رب الصنيعة تربيتها . (٢) المارة جماعة المارين

الالكفاء^(١) وبالحدث الضرع^(٢) كذلك ؛ فما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ، ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك لما قيل لازهرة والخبرة والحلي والقصر كأنه يضحك ضحكا ، وقد قال الله جل ذكره « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا » فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت ، وإنه لا يضيف إلى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كيرا وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب ؛ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي وقد تطيب به نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام وبطليق وبطليق . وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وفرح وضحك الصالحون وفرحوا ، وإذا مدحوا قالوا هو ضحكوك السن وبسام العشيات وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتزاز ، وإذا ذموا قالوا هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شتيم الحيا^(٣) وهو مكفهر أبدا وهو كرية الوجه ومقبض الوجه وحامض الوجه وكأنما وجهه بالخل منضوح . وللضحك موضع وله مقدار والمزح موضع وله مقدار ، متى جازها أحد أو قصر عنهما أحد ، صار الفاضل خطأ والتقصير نقصا ، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار المزح جادا والضحك وقارا .

(١) اللثيمة الحقاء (٢) المستكين (٣) كرية الوجه .

٢٤ - وكتب إلى الفتح بن خاقان في يوم عيد مهنثا:
أخرتني العلة عن الوزير «أعزه الله»، فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب
عني ويعمر ما أخلته العوائق مني ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العبد
أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير، ودون الأعياد المستقبلية فيما يحب
ويحب له، ويقبل ما توصل به إلى مرضاته، ويضاعف الاحسان اليه على
الاحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية ، ولا يره في مسرة
نقصا ولا يقطع عنه مزيدا ، ويجعلني من كل سوء فداءه، ويصرف عيون
الغير عنه وعن حظي منه .

٢٥ - وكتب إلى قليب المغربي معاتباً:
والله يا قليب لولا أن كبدى في هواك مقروحة ، وروحي بك
مقروحة، لسا جللتك هذه القطيعة وما ددتك حبل المصارمة، وأرجو الله
تعالى أن يدل صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي وأنف القلي راغم،
فقد طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند اللقاء.

٢٦ - وكتب مستنجزا عدة طال مطالها
أما بعد فقد رسفنا في قيود مواعيدك ، وطال مقامنا في سجون
مطلقك ، فأطلقنا أبقاك الله من ضيقها وشديد غمها ، بنعم منك مشمرة
أولا مريحه .

٢٧ - وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٢٦٥ في الشكر :
من شكرك على درجة رفعته اليها أو ثروة أفدته إياها ، فان شكركي
لك على مهجة أحيتها وحشاشة أبقيتها ورمق أمسكت به وقت بين
التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهي اليه ، ومدى يوقف

عنده، وغاية من الشكر يسمو إليها الطرف ، خلا هذه النعمة التي قد فافت الوصف وأطالت الشكر وتجاوزت قدره وأنت من وراء كل غاية ، رددت عنا كيد العدو وأرغمت أنف الطسود : فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل وكشف كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبالغ جهد المجتهد .

٢٨ - وكتب أبو الحسن علي بن العباس الرومي المتوفى سنة ٢٨٢ مستعظفاً ترفع عن ظلمي إن كنت بريئاً وتفضل بالعفو إن كنت مسيئاً ، ووالله إنني لأطالب عفو ذنبي لم أجنه ، والنس إلاقلة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولا وأزداد ندلاً ، وأنا أعيد حلي عندك بكرمك من واش يكيدها وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها وأسأل الله تعالى أن يجعل حظي منك بقدر ودي لك ، وحلي من رجائك بحيث أستحق منك .

٢٩ - وكتب عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ إلى عايل يرجو شفاءه : أذن الله في شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسح بيد العافية عليك ووجه وفد السلامة إليك ، وجعل علمتك ماحية لذنوبك مضاعفة لثوابك ٣٠ - وله يذكر كيف يكون اكتساب المحامد واستيجاب الشرف :

لن تكسب « أعزك الله » المحامد وتستوجب الشرف إلا بالحمل على النفس والحال ، والنهوض بحمل الأثقال ، وبذل الجاه والمال . ولو كانت المكارم تنال بغير مئونة لا شراك فيها السفلى والأحرار ، وتساهمها الوضعاء من ذوى الأخطار ، ولكن الله تعالى خص بها الكرماء الذين جعلهم أهلها خفف عليهم حملها وسوغمهم فضلها ، وحظرها على السفلة لصغر أقدارهم عنها وبعد طباعهم منها ونفورها عنهم واقشعارها منهم .

٣١ - وكتب أبو الفضل محمد بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ إمام الطريقة

الكتابية في العصر العباسي الثالث «البيوع» إلى عضد الدولة في انقراض العلوم بتملك الجهة الظالمين ونأشأها بتملك العلماء العادلين ، رسالة كان من فطولها قواه

وقد يعد أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها وانتفاض مردها ^(١) والأحوال الداعية إلى ارتفاع جبل الموجود منها وعدم الزيادة فيها ؛ الطوفان بالنار والماء ، والموتان العارض من عموم الأوباء ، وتسليط المخالفين في المذاهب والآراء ، فإن كل ذلك يخترم العلوم اختراما وينتهكها انتهاكا ويجتث أصولها اجتثاثا ، وليس عندى الخطيب في جميع ذلك يقارب ما يولده تسليط ملك جاهل تطول مدته وتسمع قدرته ، فإن البلاء به لا يعد له بلاء . وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفتها ، والبلوى بمن هذه مصورتها ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذي أحياه الله من الفضائل بملتقى طرفها ومجتمع فرقها ، وهي نور ^(٢) نوافر ممن لاقت حتى تصير إليه . وشرد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه ، تلفت إليه تلفت الواثق ، وتنشوف نحوه تشوف الصنب العاشق ، وقد ملكتها وحشة المضاع وحيرة المرتاع .

فان تغش قوما بعده أو تزرم فكالوحش يدنيها من الأنس الحل ٣٢ وكتب عن ركن الدولة إلى بلكا بن ونداد خورشيد ، عند استعصائه عليه ، رسالة قامت في رد غوايته مقام الكتاب يقول فيها على ما ذكر الثعالبي في اليتيمة :

كتابي وأنا مترجع بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك

(١) هم مردها قوة الجبل وانتفاضها فكها (٢) جمع نوار وهي البقرة الوحشية

وإعراض عنك، فانك تدلى بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرها
 بوجب رعاية، ويقتضى محافظة وعناية، ثم تشفعها بحادث غلول^(١)
 وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك
 ويمحق كل مايرعى لك، لاجرم انى وقفت بين ميل إليك وميل عاك،
 أقدم رجلا لصدمك وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسطيدا لاصطلامك
 واجتياحك، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقف عن امتثال
 بعض الأمور فيك ضنابا لنعمة عندك، ومنافسة فى الصنعة لديك وتأميلا
 لفيتتلك وانصرافك، ورجاء لمر اجعتك وانعطافك. فقد يغرب العقل ثم
 يثوب، ويعزب اللب ثم يثوب ويذهب الحزم ثم يعود ويفسد العزم ثم
 يصلح، ويضاع الرأى ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء
 ثم يصفو، وكل ضيقة إلى رخاء وكل غمرة فالى انجلاء. وكما أتيت من
 إساءتك بالم يحتسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتي من إحسانك بمالاتر تقيه
 أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ماركبت واخترت
 ما اخترت، فلا عجب أن تتنبه انتباهة تبصر، فيها قبح ما صنعت وسوء
 ما آثرت، وسأقيم على رسمى فى الابطاء والمماطة ما صاح وعلى الاستيناء^(٢)
 والمطاولة ما أمكن، طمعا فى إنابتك وتحكما لحسن الظن فيك، فلمست
 أعدم فيما أظاھرہ من إعدار وأرادفه من إنذار، احتجاجا عليك
 واستدراجا لك، فان يشأ الله يرشدك ويأخذ بك إلى حظك ويسدك،
 فانه على كل شىء قدير وبالاجابة جدير

وزعمت أنك فى طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها، وإذا

كنت كذلك فقد عرفت حالها وحاليت شطريها ، فشدت لك الله لما صدقت
 عما سألتك . كيف وجدت ما نزلت عنه؟ وكيف تجد ما صرت إليه ؟
 ألم تكن من الأول في ظل ظليل ونسيم عليل وريح بليل وهواء ندى
 وماء روى ومهاد وطى وكن كنين ومكان مكين وحصن حصين ، يقيك
 المتآلف ويؤمنك المخاوف ، ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من
 طوارق الحدثن ، عززت به بعد الذلة وكثرت بعد القلة وارتفعت بعد
 الضعة وأيسرت بعد العسرة وأثريت بعد المتربة واتسعت بعد الضيقة ،
 وظفرت بالولايات وخفقت فروقك الرايات ووطىء عقبك الرجال وتعلقت
 بك الآمال وصرت تكاثر ويكثر بك وتشير ويشار إليك وبذكر على
 المنابر اسمك وفي المحاضر ذكرك ، فقيم الآن أنت من الأمر وما العوض
 عما عدوت والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة
 نفسك ونفست منها كفك وغمست في خلافتها يدك ؟ وما الذى أظلك
 بعد انحسار ظلمها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من
 الذهب ؟ قل نعم كذلك فهو والله أكنف ظلالك فى العاجلة وأروحها فى
 الآجلة إن أقمت على المحايدة والعنود ووقفت على المشاقة والجحود .
 تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي إليك فستذكرها ، والمس
 جسمك وانظر هل يحس ، واجسس عرقك هل ينبض ، وفتش ما انحنت
 عليه أضلاعك هل تجد فيه قلبك ؟ وهل حلا بصدرك أن تظفر بفوت
 سريح أو موت مريح ثم قس غائب أمرك بشاهده وآخر شأنك بأوله .

٣٣ - وكتب الى أبى عبد الله الطبرى فى الشوق

كتابى إليك وأنا بحال لو لم ينغصمها الشوق إليك ولم يرنق صفوها

النزوع نحوك ، لعدتها من الأحوال الجميلة : وأعددت حظي منها في
النعم الجميلة . فقد جعلت فيها بين سلامة عامة ونعمة تامة ، وحظيت منها
في جسمي بصلاح وفي سبي بنجاح . لكن ما بقي أن يصفوا لي عيش مع
بعدي عنك ، ويخلو ذرعي مع خلوي منك ، وييسوغ لي مطعم ومشرب
مع انفرادي دونك ، وكيف أطعم في ذلك وأنت جزء من نفسي وناظم
لشمل أنسي وقد حرمت رؤيتك وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن
نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس بيت بلا نظام . وقد قرأت
كتابك جماني الله فداءك فامتلاأت سرورا بملاحظة خطك ، وتأمل
تصرفك في لفظك . وما أقرظهما فكل خصالك مقرر عندى وما أمدحهما
فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدى ، وأرجو أن تكون حقيقة
أمرك موافقة لتقديرى فيك فان كان كذلك وإلا فقد « غطى هواك
وما ألقى على بصري »

٣٥ — وكتب إليه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥
الملقب بالصاحب لطول مباحبه ، جوابا عن كتابه إليه في وصف
البحر يقول .

وصل كتاب الأئمة الرئيس صادرا عن شط البحر بوصف
ما شاهد من عجائبه وعان من مراكبه ، ورأى من طاعة آلاته للرياح
كيف أدارتها واستجابة أدواتها لما متى نادتها . وركوب الناس أشباحها
والخوف برأى ومسمع والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك
والأرواح بين نجا وهلك ، إذا فكروا في المكاسب الخطيرة هان عليهم
الخطر وإذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة حجب إليهم الغرر ، وعرفت

ما قاله من تمنيته كوني عند ذلك بحضرته وحصولي على مساعدته ، ومن رأي بحر الاستاذ كيف يزخر بالفضل وتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم لم يعتب على الدهر فيما يفوته من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندي أعظم من إكبار الاستاذ لأحواله واستعظامه لأحواله ، كما لا شيء أبلغ في مناخره وأنفس في جواهره من وصف الاستاذ له ، فاني قرأت منه الماء السلسال لا الزلال ^(١) والسحر الحرام لا الخلال ، وقد علمت أنه كتب ولما يخطر بغيره سعة صدره ، ولو فعل ذلك لرأي البحر وشلا لا يفضل عن التبرض وحمد الايكثر عن الترشف ^(٢)

وكم من جبال بحيث تشهد أنك الجبال وبحر شاهد أنك البحر ٣٥ - وكتب الى صديق أهدي إليه مصحفا فأجاد نعمت القرآن والخط .

البر «أدام الله الشيخ» أنواع تطول به أبواع ، فان يكن فيهما هو أكرم منصبا وأشرف منسبا ، فتصفه الشيخ ، إذ أهدي ما لا تشا كله النعم ولا تعادله القيم ، كتاب الله وبيانه وكلامه وفرقانه ووحيه وتنزيله وهماه وسبيله ومعجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودليله طبع دون معارضته على الشفاء وختم على الخواطر والافواه فقصر عنه الثقلان وبقي ما بقي الملوان . لأتح سراجيه واضمح منهاجه منير دليله عميق تأويله

(١) الزلال الصافي السهل الاساعة ، والسلسال الصافي الذي لا ينقطع فهو يريد أنه قرأ السلسال لا الزلال وحده (٢) الوشل الماء القليل ، ولا يفضل عن التبرض لا يزيد عن أن ينقطع بعد قليل أخذ ، والحمد الماء القليل غير المتصل ، ولا يكثر عن الترشف لا يزيد عن أن يتناول بالافواه .

يقسم كل شيطان مريد، ويدل كل جبار عنيد، وفضائل القرآن لا تحصى في ألف قرآن . فأصف الخط الذي بهر الطرف وفاق الوصف ، وجمع صحة الاقسام وزاد في نخوة الاقلام،^(١) بل أصفه بترك الوصف، فأخباره آثاره وعينه قراره^(٢) وحقا أقول إنى لا أحسب أحدا ما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعت، وابتدع في استكتابها ما ابتدعت ، وإن هذا المصحف لزائد على جميعها زيادة الفرعة على الغرة^(٣) ، بل زيادة الحبح على العمره

لقد أهديته علقا نفيسا وما يهدى النفيس سوى النفيس
٣١ - وكتب إبراهيم بن هلال بن هرون الصابي المتوفى سنة ٣٨٤
إلى صاحب يعتذر له عن تأخر كتبه عنه، ويثنى عليه فقال :
أنا أعتذر إلى سيدى «أطال الله بقاءه» من تأخر كتبي عن حضرته
الجليلة ، بعدر اذا تأمله حق تأمله، وعرضه على نقده وتمييزه، وعرف صدق
منطقه وخلوص مصدره ، علم أنى مواصل بباطن مرادى وإن صرمت
بظاهر فعلى ، وملازم بخافى مقصدى وإن أخللت ببادى مسلكى، وهو
أنى جربت مكاتبته «أيده الله» مواظبا عليها مكبا، ومراخيا بين أوقاتها
مغبا، لا تتبع أحب الامرين اليه وأوقعهما لديه . فلما لاح لى أن الاجام
أنفق والترفيه أرفق ، ووثقت بأن رأيه على فى الحالين محروس النواحي
والجوانب محى الشرائع والمشارب ، اقتصررت على أن أتعرف أخباره
وأسر باستقامتها وانتظامها ، وأتسم أحواله وأسكن إلى اطرادها

(١) فى نحرها (٢) أى ومعاونته قرار له بما أقول (٣) يريد زيادة الذؤابة

والتئامها وابتهاج بما يصير اليه «أيده الله» من ذروة مرتبة يعتليها وغارب
مرقبة يمتطيها ، وأنا أول المتحدثين عنهما والسامعين بهما على أنه
لم يستوف بعد حظه ، ولم يستوعب قسطه فأن للدينامو اعيد فيه لا بد
أن ينتجزها بمساعيه .

٣٧ - ومن كتاب له عن عضد الدولة الى أخيه مؤيد الدولة إذ
قبض على ذى الكفایتين على بن محمد بن العميد وكان أبوه صدر وزراء
أبيهما ركن الدولة يستشفع له :

وهذا غلام أفسدته سجية ركن الدولة الشريفة في شدة الاحتمال
والصبر على الأدال ، واجتمع له الى ذلك ، التقلب في نعمة حازها حياز
وارث لها ، لم يكدر في تأثيلها ولا مسه النصب في تثيرها ولا اهتدى
إلى طريق استيفائها ولا تحزن من طرق دواعي انتقالها ، ومن ألزم
اللاوازم في حكم الرعاية ، أن نحفظه من سكر نعمة نحن سقيناها بكأسها
وأن نعدوه عن هفوة قد شاركناه في إيجاد أسبابها ، وأن تكون نفسه
محروسة ، والبقية من ماله بعد أخذ فضائلها المفسدة متروكة وأن يتحدث
الناس بأن سيدي الأمير أصاب غرض الحزم في القبض عليه ثم طبق
مفصل الكرم في التجاوز عنه .

٣٨ - وكتب رسالة عن لسان صديق له بعث بها مع رسول إلى
عظيم يخطب اليه كريمة جاء فيها :

ولو لم يكن للخاطب إلى المخطوب سبب غير ابتدائه إياه بالثقة
والتماس المشابكة ورضاه به شريكا مفوضا في الولد والرحمة والمال والنعمة ،
لكفاه وأجزاه وأغناه عن كل ماسواه ، حتى إنه لو خطب الى زاهد

لرجب عليه أن يرغب أو إلى مقتضى^(١) لازمه أن ينقاد : لأن هذا المطلب إذا صدر عن الأحرار إلى الأحرار استهجن عنه الرد والمقابلة له بضد فكيف وقد انتظمت بيننا دواعي الأجابة وارتفعت دواعي المدافعة؟ وبالله جهد المقسم، إن والديّ «أيدها الله» تعالى يسو ما نبي التأهل منذ سنين كثيرة ، فأجل نفسي على التقاعس عما آثراه مع ما افترض على من طاعتها ، اشتطاطا مني في شرائط أحببت أن تجتمع لي في الخبيثة^(٢) التي أوصلها ، وقما تتكامل إلا فيمن طهر الله أصله وجعل أمره وأظهر فضله . وقد دعاني بالدعاء الى ذلك كثير من الرؤساء الأ' كبار وذوى الأخطار الأفاضل ، بفارس والبصرة وبغداد ، فامتنعت من أجل شذوذ بعض شرائط عليهم . حتى اذا أوجدنيها الله في جهتك الجليلة وجهها إلى في منازل المصونة : بعثتني البواعث وحفزتني الحوافز إلى أن يتألف بيننا الشمل ويتصل بنا الحبل فكتبت اليك هذه الرقعة خاطبا كريمك فلانة : على أن أكون لها كالجنف الواقى لقلته والصدر الحاوى لمهجته ، ولك كالولد الطيع لأبيه ، ولأخيها كالأخ العاصد لأخيه ، فان رأيت ياسيدي أن تتأمل ما كتبت به من هذه الجملة وتسمع من موصلها ما تحمله عني من تفصيلها وتوخي بأجابتي إلى ما سألت تحقيق ظني وتصديق أملي ، فعلت إن شاء الله

٣٩٠ هـ وكتب أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ بعد إبلاله^(٣) من مرض ، يعاتب صديقا لم يعده في مرضه ولم يهنئه بشفاؤه كتابي وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء وبرز

(١) عاص ممتنع (٢) الخبيثة (٣) شفاؤه

البدر من الظلماء ، وقد فارقني المحنة وهي مفارق لا يشترق اليه وودعني
وهي مودع لا يبكي عليه ، والحمد لله تعالى على محنة بجليها ونعمة ينيلها
ويوليها . كنت أتوقع أمس كتاب سيدي بالتسليم واليوم بالتمنئة . فلم
يكتبني في أيام البرحاء بأنها غيمته ولا في أيام الرخاء بأنها سرته ، وقد
اعتذرت عنه إلى نفسي وجادلت عنه قلمي ، فقلت : أما إخلاله بالأولي
فلأنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها ، وأما تخافله عن الأخرى فلأنه
أحب أن يوفر علي مرتبة السابق إلى الابتداء ويقتصر بنفسه على
محل الاقتداء ، لتكون نعم الله تعالى موقوفة من كل جهة عليه ومحفوظة
من كل بيئة به ، فإن كنت أحسنت الاعتذار عن سيدي فليعرف لي
حق الاحسان وليكتب إلي بالاستحسان ، وإن كنت أسأت فايخبرني
بعذره فانه أعرف مني بسره وليرض مني بأني حاربت عنه قلبي واعتذرت
عن ذنبي حتى كأنه ذنبي ، وقلت يأنفس اعذري أخاك وخذي منه ما أعطاك ،
فع اليوم غد والعود أحمد

٤٠ - وكتب إلى تلميذه له قطع زيارته بعد أن أتم تحريرها :

إن كنت « أعزك الله » لآثرانا موضعاً لازيارة فنحن في موضع
الاستزارة ، وإن كنت تعتقد أنك قد استوفيت ما كان لدينا فسقط
حقنا عنك وبقي حقلك علينا ، فقد يزور الصحيح الطبيب بعد خروجه
من دائه واستغنائه عن دوائه ، وقد تجتاز الرعية على باب الأمير المعزول
فتتجمل له ولا تعيره عزله ، ولو لم نزرنا إلا لترينار جحانك كما طالمارأينا
نقصانك ، لكان ذلك فعلاً صائباً وفي القياس واجباً .

٤١ - وكتب بهيع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني

المتوفى سنة ٣٩٨ إمام القصص « مع اجادة الرسائل » في العصر الثالث إلى صديق هنأه بمرض الخوارزمي الذي عاداه بعد مناظرته إياه يقول:-
الحر «أطال الله بقاءه» ولا سيما إذا عرف الدهر معرفتي ووصف
أحواله صفتي ، إذا نظر علم أن نعم الدهر مدامت معدومة فهي
أمانى فأن وجدت فهي عواري ، وأن محن الزمان وان طالست فستنفد وإن
لم تصب فكان قد ، فكيف يشمت بالحنة من لا يأمنها في نفسه ولا
يعدمها في جنسه ، والشامت إن أفلت فليس يفوت وإن لم يموت فسوف
يموت ، وما أقبح الشماتة بمن أمن الأمانة فكيف بمن يتوقعها بعد كل
لحظة وعقب كل نفضة ، والدهر غرثان طعمه الأختيار وظمان شربه
الأحرار^(١) وهل يشمت المرء بأنياب آكله أو يسر القاتل بسلاح قاتله
وهذا الفاضل «شفاه الله» وان ظاهرنا بالعداوة قليلا فقد باطناه ودا جميلا ،
والحر عند الحمية لا يصطاد ولكنه عند الكرم ينقاد وعند الشدائد
تذهب الأحقاد ، فلا تتصور حالي إلا بصورتها من التوجع لعلته
والتحزن لمرضته ، وقاه الله المكروه بحوله ووقاني سماع السوء فيه
بلطفه ، والسلام عليك ورحمة الله .

✽ ٤٢ - وكتب إلى بعض إخوانه . وقد أخبره بموت أبيه يعزیه
ومحذره التبذير والتقتير .

وصلت رقعتك ياسيدى والمصاب لعمر الله كبير وأنت بالجزع
جدير ولكنك بالعزاء أجدر ، والصبر عن الأحبة وشد كآئه الغى وقد
مات الميت فايحى الحى ، والآن فاشدد على مالك بالخمس فأنت اليوم

(١) الطعم بالكسر ما يطعم ، والشرب كذلك ما يشرب .

غيرك بالأُمس، قد كان ذلك الشيخ «رحمة الله» وكيلك تضحك ويبكي لك،
وقد مولك بما ألف في سراه وسيره، وخلفك فقيرا إلى الله غنيا عن غيره.
وسيمعجهم الشيطان عودك فان استلانه رماك يقوم يقولون خير
المال ما أتلّف بين الشراب والشباب وأنفق بين الحباب والأحباب^(١)
والعيش بين الاقداح والقداح^(٢)، ولولا الاستعمال لما أريد المال، فان
أطعتهم فالיום في الشراب وغدا في الخراب، واليوم واظربا للكأس
وغدا واحربا من الافلاس. يامولاي، ذلك الخارج من العود يسميه
الجاهل نقرا والعاقل فقرا وذلك المسموع في الناي هو الآن في الأذان
زمر وغدا في الأبواب سمر^(٣) والعمر مع هذه الآلات ساعة والقنطار
في هذا العمل بضاعة. فان لم يجد الشيطان مغمزا في عودك من هذا
الوجه رماك بآخرين يمثلون الفقراء حذاء عينيك، فتجاهد قلبك وتحاسب
بطنك وتناقش عرسك وتمنع نفسك وتبوء في دنياك بوزرك وتراه
في الآخرة في ميزان غيرك لا. ولكن قصدا بين الطريقتين وميلا عن
الطريقتين لا منع ولا اسراف فالبخل فقر حاضر وضير عاجل وإنما يبخل
للمرء خيفة ما هو فيه فليكن لله في ماله قسط والمروءة قسم. صل
الرحم ماستطعت، وقدر اذا قطعت، فلأن تكون في جانب التقدير
خير لك من أن تكون في جانب التبذير.

٤٣ — وكتب أبو منصور عبد الملك الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩

(١) الحباب بالفتح فقايع الخمر، والأحباب الأصحاب (٢) الاقداح جمع
قدح بالتحريك وهي الكأس، والقداح جمع قدح بكسر فسكون وهو السهم
للميسر والصيد والاول المراد (٣) للمصادرة استيفاء للديون

ينهى بقدوم من سفر :

أهني سيدي ونسي تطيب بمايسر الله من قدومه سالما . وأشكر
الله على ذلك شكر اداثما . جعل الله قدومك مقرونا بالخبر التامة العامة ،
والكفاية الشاملة الكاملة ، غيبة المكارم مقرونه بغيبتك وأوبة النعم موصولة
بأوبتك ، فوصل الله قدومك من الكرامة بأضفاف ماقرن به سفرك
من السلامة ، وهنأك بآياك وبلغك غاية محابك . مازلت بالنبأ معك
مسافرا وباتصال الذكر والفكر ملاقيا . إلى أن جمع شمل سروري
بأوبتك وسكن فرند قلبي بعودتك .

٤٤ - وكتب أبو محمد القاسم بن علي الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ
إمام الطريقة الكتابية في العصر العباسي الرابع « استخدم البديع »
إلى الرئيس أبي الفتح هبة الله بن الفضل بن مساعد بن التاميد الكاتب
في التعارف قبل اللقاء :

جزى الله خيرا والجزاء بكفه بنى صاعد أهل السيادة والمجد
هم ذكروني والمهامة بيننا كما ارفض غيث في تهامة في نجد
لو أخذت في وصف شغفي بمناقب سيدنا « أطال الله بقاءه ، وأدام
علاءه ، وحرس نعماءه ، وكبت حساده وأعداءه » ، وما أنا بصدده من
مدح سودده ، وشرح تطوله وتودده ، لكنني بمثابة المغترين في محاولة
عذر مل يبرين . لكنني راج أن أحظى من ألمعيتته الثاقبة وبصيرته الصائبة
بما يمثل له عقيدتي ويطامعي على تخيله مودتي ، وما أملك في مقابلة مفااتيحه
التي أخلصت له إيجاب الحق وفضيلة السبق إلا الثناء الذي أتو صحائفه
والثناء الذي أقيم في كل وقت وظائفه والله سبحانه يحسن توفيقي لما

يشيد مباني المودة التي أعتدها أفضل مقاني العدة . ثم إنى لفرط اللهبج باستملاء فضائله النيرة ، واستطلاع محاسنه المسيرة ، أسائل عن خصائصه الركبان وأطرب بسماعها ولا طرب النشوان . ولما حضر الشيخ الأديب الرئيس أبو القاسم بن الموز «أدام الله تمكينه» ألفيته مواليا مغاليا وداعية إليه وداعيا فازددت كفا بما وعيته منه وشغفا بما استوضحته عنه ، واستدللت على كمال سيدنا باستخلاص شكر مثله وتحققت وفور أفضاله وفضله ، فافتتحت المئذنة بتأدية هذه الشهادة ، واستمداد سنة المواصلة المعتادة والتكرمة التي تقتضيها بواعث السيادة ، ولرايه في الوقوف على ما كتبت والتطول فيه بما توجبه أريحته علوه ، إن شاء الله تعالى .

٤٥ - وكتب رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ في التهنئة بالقدوم من سفر .

بلغنى إياب سيدى زانه الله بصنوف المعالى وصانه من صروف الليالى ، من سفرته الميمونة التي أسفرت عن نيل المراد وتسهيل البغية إلى دار إقامته ومستقر كرامته ، لم يؤثر فيه نصب السير وعناؤه وكلال السفر ووعثاؤه ، فبلغ سرورى بذلك مبلغا يضاهى ما كنت بصدد من الجزع لغيبته ، فحمدت الله تعالى على ما يسر له من الرجوع إلى مغانيه والطلوع على بلدة جر فيها ذبول أمانيه ، وسألته جللت قدرته أن يجعل ما أنعم به عليه من قرب الدار ودنو المزار ، موهولا بطول العمر والبقاء مقرونا بدوام العز والعلاء ، إنه سميع الدعاء .

٤٦ - وكتب القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم بن علي المتوفى سنة ٥٩٦ وهو الذي أفرط في استخدام البديع فرسم طريقة التكلف المنسوبة إليه ، عن العاصد آخر خلفاء الفاطميين إلى أحد الملوك في شأن كتاب أنفذه إليه فلم يجب عنه .

كتابنا «أطال الله بقاء الملك» عن مودة طاهرة الأسباب، متظاهرة الأنساب، صافية جباب الشباب ، وعوائد عوارف لا يتنكر معروفها ووفود فوائد لا يتصدع تأليفها ومساعي مساعد لا ينقص معروفها ، ولا ينفذ مسوقها^(١) ، وسعادة بالخلافة التي عدى إليها أمرها^(٢) وأوضح سرها وملا سر أثرها وسريرها ، وأطلع شمسها وقرها . بمولانا وسيدنا أمير المؤمنين تنوالى ميامنها وتتلالا محاسنها^(٣) وتشرف درجاتها وتتضاعف سعادتها ، والكلمة قائمة على أصولها وأمور الخلق جارية على مأهولها ، ونظام الاسلام بسياستها لا يهوى ، وسياقة الدوام في سعادتها لا تنتهى ، والله الموزع شكر هذه المنن ، المسئول في الانهاض لمانهضت فيه النية وقصرت عنه المنن^(٤) . ولم نزل «أدام الله إقبال الملك المعظم» معظمين لأمره ، عارفين نبيل قدره وجليل نخره مشيدين بجميل ذكره وجزيل نصره ، معيدين لما تنهادى اللسان من مستطاب نشره ، قارئين من صفحات الأيام ما أمدّها به من بشره غير مستيمنين لذكر اسمه الكريم إلا بصيامه وشكره ، موردين مما هو يبلغه من بارع ضرائبه^(٥) بالمقامات الشريفة من آثار سلفه ومآثرهم ، ومأثور مكارمهم ومفاخرهم ،

(١) لا ينثر مشمومها (٢) عدى جمع من باب ضرب (٣) مخفف تتلألاً

(٤) المنن الأولى بالكسر النعم والمنن بالضم القوى (٥) مناقبه

واستناد المكرمات إلى أولهم وآخرهم ، ومشهور ذبهم عن الملة ودفاعهم
عن أهل القبلة ، وسدادهم في الأمور وسدادهم الثغور ^(١) وسيادتهم
الجمهور ، واستقلالهم بالمشقات المتقدمة ، وإخادهم نيران الخطوب
المضطربة ، وكفهم سيمول السيوف العرمة ، وموالاتهم أمور الدولة
العلوية التي اشتهر بها منهم الأكابر ، وورثها كبر عن كبر ، وحافظوا منها
على سيرة معروف لا ينسخ ، وعقد صفاء لا يفسخ ، وسريرة صدق تستقر
في الضمائر وترسخ ، وتتوضح بها غرة في جباه السبق وتشدخ ^(٢) ،
وتستهدى عند إيراد هذا الذكر العطر والثناء المشتهر ، من الدعوات
الشريفة العاضدية المعضودة بالنجح ، المتوضحة عن مثل فلق الصبح ،
ما يتلألأ لمساعيه بالميامن المستهلة ، ولمراميه بالاصابة المتصلة ، بينه وبين
هذه الدولة العالية ، والخلافة الحالية ، بكتاب منه نهجنا فيه طريقها
اللاحب ^(٣) واستدعينا به إجابته التي تتلقى بالمراحب ، وأعلمناه أن
تمادى الأيام دون المراسلة وتطاو لها ، وتنقل الأحوال والدول وتناقها ،
لا يزيد مودته إلا استحكام معاقده ، وانتظام عقائده ، ووفاء مواعده ، وصفاء
موارد ، وأنه لا تباعد بين القلوب بغرض المرمى المتباعد ، ولا تفرق
المسافات القواصي ما بين النيات القواصد ، فلما تأخرت الإجابة تقدمت
الاستجابة ، وتناجت الظنون المعتلجة ^(٤) وتراجعت الآراء المختلجة ^(٥) بأن
الرسول حاqqته دون المقصد عوائق ، وتقسمة من الأحداث دون الطريق
طرائق ، فلم ترد المكاتبة إلى جنابه ، ولا أسعد السعي بطروق جنابه ، الذي تنال

(١) السداد بالفتح الاصابة وبالكسر الكفاية (٢) تنشر سفلا (٣) الواضح

(٤) المضطربة (٥) المضطربة

السعادة وتجنّي به . وإلا فلو أنه أم له ، بلغ ماأمله ، ولو وصله لأجاب عما أوصله ، لأن مكارم خلائقه تبعث على التبرع بالمسنون فكيف بقضاء المفروض ، وشرائف طرائقه تأبى للحقوق الواجبة أن تقف لديه وقف المطرح المرفوض ، فجددنا هذه المكاتبة مشتملة على ذلك المراد ، وفاوضناه بمايعيره الاصغاء ويجنبه الالغاء ، ويحسن له الانصات ولا يحتاج فيه إلى الوصاة ، ورسمنا أن يكتبه حتى عن لسانه ، وأن يطويه حتى عن جنانه ، وأن يتمسك بالأمر النبوي في استعانته على أمره بكمانه ، فمن حسن الحزم سوء الظن ، وهل لأرباب الأسرار فرج إلا مادامت في السجن ، وقد استلزمنا المرتين لما استعظمنا الرهن ، وفوضنا إلى من لا يعترينا فيه الوهم ولا منه الوهن ، ونحن تحببنا بما يعلم به حسن موقع رسالة الاسترسال ، وبما يبين به عن دلالة الادلال ، وبما يرحب بمودته مجال الجمال ، والله سبحانه يؤيد الملك بنصر تستخدم له الاقدار ، وسعادة لا تتصرف في تصرفها أحكام الفلك المدار ، وإقبال يقابل آراءه وآدابه في فاتحة الورد وعاقبة الاصدار ، وعز لا يزال منه متوقلا^(١) في درجات الاقتدار ، إن شاء الله تعالى .

٤٧ - وكتب ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن الأثير الموصلی المتوفى سنة ٦٣٧ إلى عراق حديث العهد بصداقته يستهديه رطباً فقال هذه المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذي ترف كلمة زفيف الأوراق^(٢) وتسجع سجع ذوات الاطواق ، وتهتف وهي مقيمة بالموصل فتسمع من هو مقيم بالعراق ، وأبرج الشوق ماكان عن فراق غير بعيد ، وود

استجدت حلته واللذة مقترنه بكل شيء جديد، وأرجو ألا يبلى قدم الأيام لهذه الجدة لباساً، وأن يعاذ من نظرة الجن والانس حتى لا يخشى جنة ولا ناساً، وقد قيل إن للموده طعاماً كما أن لها وسماً، وإن ذا اللب يصادق نفسه قبل أن يصادق جسماً. وإني لأجد لموده سيدنا حلاوة يستلذ دوامها ولا يمل استطعامها. وقد أذكرتني الآن بحلاوة الرطب الذي هو من أرضها، وغير عجيب لمناسبة الاشياء أن يذكر بعضها ببعضها، إلا أن هذه الحلاوة تنال بالأفواه وتلك تنال بالاسرار، وفارق بين ما يغترس بالأرض وما يغترس بالقلب في شرف الثمار، فلا ينظر سيدنا على في هذا التمثيل، فلربما كان ذلك تعريضاً ينوب مناب التطفيل.

ب — في القصص والمقامات ^(١)

سنكتفي في هذا النوع من الانشاء بنموذج من كل عصر لمام الكتابة فيه.

١ — قال ابن المقفع في باب عرضه كتاب كلیلة ودمنة وهو من إنشائه :

ويجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر، ويأخذ بالحزم ويحب للناس ما يوجب لنفسه، ولا يلمس صلاح نفسه بفساد غيره فانه من فعل ذلك، كان خليقاً أن يصيبه ما أصاب التاجر من رقيقه فانه يقال:

إنه كان رجل تاجر وكان له شريك فاستأجرا حانوتا وجعلا متاعهما فيه، وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت، فأضمر في

(١) إننا نقلنا إلى نماذج القصص والمقامات دون تمثيل للترقيعات، لأن إيجاز

نماذجها حسن إلينا تركها إلى حيث الكلام عليها :

نفسه أن يسرق عدلاً من أعدل رفيقه، ومكر الحيلة في ذلك، وقال إن أتيت ليلاً لم آمن أن أحمل عدلاً من أعدل أو رزمة من رزمي ولا أعرفها فيذهب عنائي وتعبي باطلاً، فأخذ رداءه وألقاه على العدل الذي أضمر أخذه ثم انصرف إلى منزله، وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله فوجد رداء شريكه على بعض أعداله فقال والله هذا رداء صاحبي، ولا أحسبه إلا قد نسيه، وما الرأي أن أدعه هاهنا ولكن أجعله على رزمه فلعله يسبقني إلى الخانوت فيجده حيث يجب، ثم أخذ الرداء فألقاه على عدل من أعدل رفيقه وأقفل الخانوت ومضى إلى منزله، فلما جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه على ماعزم عليه، وضمن له جعلاً على حمله، فصار إلى الخانوت فالتمس الأزار في الظلمة فوجده على العدل فاحتمل ذلك العدل وأخرجه هو والرجل وجعلاً يتراوحيان على حمله حتى أتى منزله ورمى نفسه تعباً، فلما أصبح افتقده فاذا هو بعض أعداله فندم أشد الندامة، ثم انطلق نحو الخانوت فوجد شريكه قد سبقه إليه ففتح الخانوت ووجد العدل مفقوداً، فاغتم لذلك غماً شديداً وقال واسوأتاه من رفيق صالح قد ائتمنتني على ماله وخلفني فيه، ماذا يكون حالي عنده ولست أشك في تهمة إياي، ولكني قد وطنت نفسي على غرامته ثم أتى صاحبه فوجده صاحبه مغتماً فسأله عن حاله فقال: إني قد افتقدت الأعدال وفقدت عدلاً من أعدالك ولا أعلم بسببه وإني لأشك في تهمة إياي وإني قد وطنت نفسي على غرامته. فقال له يا أخى لا تغتم فإن الخيانة شر ما عمله الإنسان والمكر والخديعة لا يؤديان إلى خير وصاحبهما مغرور أبداً وما عاد وبال البغي إلا على صاحبه، وأنا أأحد من مكر وخدع واحتمال.

فقال له صاحبه وكيف كان ذلك؟ فأخبره بخبره وقص عليه قصته. فقال له رفيقه: مامثلك إلا مثل اللص والتاجر، فقال له وكيف كان ذلك؟ قال: زعموا أن تاجرا كان له في منزله خابيتان إحداهما مملوءة حنطة والأخرى مملوءة ذهباً، فترقبه بعض اللصوص زماناً حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل فتغفله اللص ودخل المنزل وكمن في بعض نواحيه، فلما هم بأخذ الخابية التي فيها الدنانير أخذ التي فيها الحنطة وظنها التي فيها الذهب، ولم يزل في كد وتعب حتى أتى بها منزله، فلما فتحها وعلم ما فيها ندم. فقال له الخائن: ما أبعدت المثل ولا تجاوزت القياس، وقد اعترفت بذنبي وخطئي عليك، وعزير على أن يكون هذا كهذا، غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء، فقبل الرجل معذرتيه وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به. وندم هو عندما عاين من سوء فعله وتقديم جهله.

٢ - وقال الجاحظ من قصة أهل البصرة عن المسجدين في كتابه البخلاء:

قال أصحابنا من المسجدين: اجتمع ناس في المسجد ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة والتنمية للمال من أصحاب الجمع والمنع، وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب، وكالحلف الذي يجمع على التناصر وكانوا إذا التقوا في حلقتهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه التماساً للفائدة واستمطاراً بذكره.

فقال شيخ منهم: ماء بئرنا كما قد علمتم ملح أجاج لا يقربه الحمار ولا تسيغه الإبل وتموت عليه النخل، والنهر منا بعيد وفي تكلف العذب علينا مثونة، فكنا نزرع منه للبحار فاعتل منه وانتقض علينا من أجله،

فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفا وكنت أنا والنعجة^(١) كثيرا ماغتسل بالعذب مخافة أن يعترى جلودنا من الملح مثل ما عترى جوف الحمار ، فكان ذلك الماء العذب الصافي يذهب باطلا ، ثم انفتح لي فيه باب من الإصلاح ، فعمدت إلى المتوضأ فجعلت في ناحية منه حفرة وصهرجتها^(٢) وملستها حتى صارت كأنها صخرة منقورة ، وصوبت إليها السيل ، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيا لم يخالطه شيء والحمار لا تقزله من ماء الجنابة ، وليس علينا حرج في سقيه منه ، وما علمنا أن كتابا حرمه ولا سنة نهت عنه ، فربحنا هذه منذ أيام وأسقطنا مئونة عن النفس والمال وهذا بتوفيق الله ومنه .

فأقبل عليهم شيخ فقال : اشتكيت أياما صدرى من سعال كان أصابني ، فأمرني قوم بالفانيد السكرى^(٣) ، وأشار على آخرون بالحريرة تتخذ من الشاهنج والسكر ودهن اللوز^(٤) وأشباه ذلك ، فاستنقلت المئونة وكرهت الكلفة ، فبينما أنا أدافع الأيام إذ قال لي بعض الموقنين : عليك بماء النخالة فاحسه حارا ، فحسوت فاذا هو طيب جدا وإذا هو يعصم فما جمعت ولا اشتبهت الغداء في ذلك اليوم إلى الظهر ثم ما فرغت من غدائي وغسل يدي حتى قاربت العصر ، فلما قرب وقت غدائي من وقت عشائي طويت العشاء وعرفت قصدي ، فقلت للعجوز لم لا تطبخين لعمياننا في كل غداة نخالة فان ماءها جلاء للصدور ، وقوتها غذاء وعصمة

(١) يعنى زوجته (٢) كصرجتها طليتها بالصاروج وهو النورة وأخلطها

(٣) عرب بانيذ لضرب من الحلوى (٤) الحريرة دقيق يطبخ بلبن أو دسم وبحلى ، والشاهنج دقيق البر .

ثم تجففين بعد النخالة فتعود كما كانت فتبيعينها بمثل الثمن الاول ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين . قالت أرجو أن يكون الله قد جمع بهذا السعال مصالح كثيرة لما فتح الله لك بهذه النخالة التي فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق .

ثم اندفع شيخ منهم فقال . لم أرفى وضع الامور مواضعها وفي توفيتها غاية حقوقها كمعاذة العنبرية : قالوا وما شأن معاذة هذه ؟ قال أهدي إليها العام ابن عم لها أضحية ^(١) فرأيتها كئيبة حزينة مفكرة مطرقة فقلت لها مالك يا معاذة ؟ قالت أنا امرأة أرملة وليس لي قيم ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أما كنهن وقد علمت أن الله لم يخاق فيها ولا في غيرها شيئاً لا منفعة فيه ، ولكن المرء يعجز لا محالة ، ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف وهو أن يجعل كالخطاف ويسمر في جذع من جذوع السقف فيتعلق عليه الزبل والكيران وكل ما خيف عليه من القار والنمل والسنانير وبنات وردان والحيات وغير ذلك . وأما المصران فإنه لا وتار المندفة ^(٢) وبنائى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس والالحيان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق ^(٣) ثم يطبخ فما ارتفع من الدسم كان المصباح

(١) شاه للتضحية (٢) الزبل ككتب جمع زبيل وهو القفّة أو الجراب أو

الواء والكيران جمع كبير وهو زق ينفتح فيه الحداد (٣) المصران جمع مصير وهو المعى والمندفة آلة تدف القطن (٤) يؤكل ما عليه من اللحم

والأدام والعصيدة وغير ذلك، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها فلم ير
الناس وقودا قط أصفى ولا أحسن لها منه وإذا كانت كذلك فهي
أسرع في القدر لقلة ما يخالطها من الدخان . وأما الأهاب فالجلد نفسه
جراب وللصوف وجوه لا تدفع . وأما الفرت والبعر فخطب إذا جفف
عجيب . ثم قالت بقى الآن الانتفاع بالدم وقد علمت أن الله عز وجل
لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه وأن له مواضع يجوز فيها
ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع
به صار كية في قلبى وقذى في عيني وهما لا يزال يعاودنى « قال الشيخ »
ثم لم ألبث أن رأيته قد تطلعت وتبسمت فقلت ينبغى أن يكون قد
انفتح لك باب الرأى في الدم قالت أجل ذكرت أن عندى قدورا
شامية جددا وقد زعموا أنه ليس شيء أدبغ لها ولا أزيد فى قوتها من
التلطبخ بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن إذ وقع كل شيء بموقعه ،
قال ثم لقيتها بعد ستة أشهر فقلت لها كيف كان قديد تلك الشاة ^(١)
قالت بأبى أنت لم يجىء وقت القديد بعد ، لنافى الشحم والألية ^(٢) والعظم
المعرق وغير ذلك معاش ولكل شيء إبان . فقبض صاحب الحمار والماء
العذب قبضة من حصا ثم ضرب بها الأرض وقال ، لا تعلم أنك من
المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين

٣ - المقامة الأسدية للبديع .

حدثنا عيسى بن هشام قال كان يبالغى من مقامات الاسكندى
ومقالاته ما يصغى إليه النفور وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من شعره

(١) لحمها المحقق (٢) ماركب العجز من شحم ولحم

ما يترج بأجزاء النفس رقة ويغمض عن أوهام الكهنة دقة ، وأنا سأل
الله بقاءه حتى أرزق لقاءه وأتمجيب من قعودهمته بحالته مع حسن آله^(١)
وقد ضرب الدهر شئونه بأسداد دونه وهلم جرا إلى أن اتفقت لي
حاجة بخص فشدت إليها الخرص في صحبه أفراد كنجوم الليل
أحلاس لظهور الخيل^(٢) ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ونستأصل
شأفته ولم نزل نفرى أسنمة النجاد بتلك الجياد حتى صرن كالعصى ورجعن
كالقسي وتاح لنا واد في سفح جبل ذي آلاء وأثل^(٣) كالغذاري يسرحن
الصفائر وينشرن القدائر ومالت الهاجرة بنا إليهم ونزلنا غور ونغور^(٤)
وربطنا الأفراس بالأمراس وملنا مع النعاس فما راعنا إلا صهيل الخيل
ونظرت إلى فرسى وقد أدهف أذنيه وطمح بعينه يجذ قوى الخيل
بمشافره ويخذ خد الأرض بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت
الأبوال وقطعت الجبال وأخذت نحو الجبال وطار كل واحد منا إلى
سلاحه فاذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه منتفخا في إهابه
كأشرا عن أنيابه بطرف قد ملء صلفا وأنف قد حشى أنفا وصدر
لا يبرحه القلب ولا يسكنه الرعب وقلنا خطب ملم وحادث مهم وتبادر
إليه من سرعان الرفقة فتى

أخضر الجلد في بيت العرب يملأ الدلو إلى عقد الكرب
بقلب ساقه قدر وسيف كله أثر^(٥) وملكته سورة الأسد نخافته

(١) استعدادها فيما يزاول (٢) جمع جلس بالكسر وهو الملازم (٣) شجران
فلا آلاء الصفصاف والآثل الطرفاء (٤) غور بالتضعيف نهبط ونغور ننام في
الغور (٥) قدر الرجل مكانته وأثر السيف على وزنه فرنده وجوهه

أرض قدمه حتى سقط ليدنه وفه وتجاوز الأسد مصرعه إلى من كان معه ودعا الحين أخاه بمثل مادعاه فصار إليه وعقل الرعب يديه فأخذ أرضه واقترش الليث صدره ولكن رميته بعمامتي وشغلت فيه حتى حقت دمه وقام الفتى فوجاً بطنه^(١) وقد هلك الفتى من خوفه والاسد للوجاة في جوفه ونهضنا في أثر الخيل فتألفنا منها مائبت وتركنا منها ماأفلت وعدنا إلى الرفيق لنجهزه

فلما حثونا التراب^(٢) فوق رفيقنا جزعنا ولكن أى ساعة مجزع وعمدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد ونفذ الزاد أو كاد يدركه النفاد ولم نملك الذهاب ولا الرجوع وخفنا القاتلين الظمأ والجوع ، عن لنا فارس فصمدنا صمده وقصدنا قصده ولما بلغنا نزل عن حرسه ينقش الأرض بشفتيه ويأقي التراب يديه وعمدني من بين الجماعة فقبل ركابي وتحرم بجنابي ونظرت فاذا هو وجه يبرق برق العارض المتهلل وقوام متى ترق العين فيه تسهل وعارض قد اخضر وشارب قد طر وساعد ملائق وقضيب ريان ونجار^(٣) تركي وزى ملكي ، فقلنا مالك لا أبالك فقال أنا عبد بعض الملوك هم من قتلى بهم فهمت على وجهي حيث تراني ، وشهدت شواهد حاله على صدق مقالته ثم قال أنا اليوم عبدك ومالي مالك فقلت بشرى لك وبك أذاك سيرك إلى فناء رحب وعيش رطب ، وهنأتني الجماعة وجعل ينظر فتقتلنا ألاحظه وينطق فتفتننا أفاظه ، فقال يأسادة إن في سفح الجبل عينا وقد ركبتم فلاة عوراء نخذوا من هنالك الماء فلوينا الأعنة إلى حيث أشار وبلغناه

(١) وجأ شق (٢) أهله (٣) أصل

وقد صهرت الهاجرة الأبدان وركبت الجنادب العيدان^(١) فقال ألا
تقيمون في هذا الظل الرحب على هذا الماء العذب فقلنا أنت وذاك فنزل
عن فرسه وجلى منطقته^(٢) ونحى قرطقته^(٣) فما استتر عنا إلا بغلالة
ثم على بدنه فما شككنا أنه خاصم الولدان ففارق الجنان وهرب من
رضوان ، وعمد إلى السروج فخطها وإلى الأفراس فحشها^(٤) وإلى الأمكنة
فرشها وقد حارت البصائر فيه ووقفت الأَبصار عليه ، فقلت يا فتى
ما أطفك في الخدمة وأحسنك في الجملة فالويل لمن فارقه وطوبى لمن
رافقه فكيف شكر الله على النعمة بك ، فقال ماسترونه منى أكثر
أتهجيبكم خفتي في الخدمة وحسني في الجملة فكيف لو رأيتموني في الرفقة
أريكم من حذقي طرفا لتزدادوا بي شغفا فقلنا هات فعمد إلى قوس أحدا
فأوتره وفوق سهمها^(٥) فرماه في السماء وأتبعه بآخر فشقه في الهواء ،
وقال سأريكم نوعا آخر ثم عمد إلى كنانتي فأخذها وإلى فرسى فعلاه
ورمى أحدا بسهم أثبتته في صدره وآخر طيره من ظهره فقلت ويحك
ما تصنع قال اسكت يالكع والله ليشدن كل منكم يد رفيقه أو لأغصنه
بريقه فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة وسروجنا محطوطة وأسلحتنا
بعيدة وهو راكب ونحن رجاله والقوس في يده يرشق بها الظهور^(٦)
ويعشق بها البطون والصدور^(٧) وحين رأينا الجد أخذنا القد^(٨) فشد
بعضنا بعضا وبقيت وحدي لأجد من يشد يدي فقال اخرج بأهابك

(١) الجنادب جمع جندب وهو نوع من الجراد يفرح للحر ولكن الرضاء

قد تشد عليه فيصعد منها العيدان (٢) حزامه (٣) قباهه (٤) ربطها

(٥) وضعه في الفوق ليرميه (٦) يثبتها فيها (٧) يمزقها (٨) الجلد والسير

عن ثيابك فخرجت ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر وينزع ثيابه وصار إلى وعلى خفان جديدان فقال اخضعهما لأمر لك فقلت هذا خف لبسته وطبا فليس يمكنني نزعها فقال على خلعها ثم دنا إلى لينزع الخف ومددت يدي إلى سكين كان معي وهو في شغله فأثبتته في بطنه وأثبتته من متنه فما زاد على فم فغره وألقمه حجره وقت إلى أصحابي فخلت أيديهم وتوزعنا سلب القتيلين وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه وصار لرمسه وصارنا إلى الطريق ووردنا حصن بعد ليال خمس فلما انتهينا إلى فرصة من سوقها^(١) رأينا رجلا قد قام على رأس ابن وبنية بجراب وعصية وهو يقول :

رحم الله من حشا في جرابي مكارمه
رحم الله من رنا لسعيد وفاطمه
إنه خادم لكم وهى لاشك خادمه

قال عيسى بن هشام فقلت إن هذا الرجل هو الاسكندري الذي سمعت به ومألت عنه فاذا هو وقد لفت اليه^(٢) وقلت احتكم حكمتك فقال درهم فقلت

لك درهم في مثله ما دام يسعدني النفس^(٣)
فاحسب حسابك والتمس كما أنيل الملتمس

وقلت له، درهم في اثنين في ثلاثة في أربعة في خمسة حتى انتهيت إلى العشرين ، ثم قلت لغلامي كم معك قال عشرون رغيفا فأمرت له بها وقلت ، لا نصر مع الخذلان ولا حيلة مع الحرمان .

(١) طريق منه (٢) أسرع (٣) أى حتى ينتهي النفس الواحد

٤ - المقامة السنجارية للحريري^(١)

حدث الحارث بن همام قال . قفلت ذات مرة من الشام أنحو
مدينة السلام ، في ركب من بني نيمر ورفقة أولى خير ومير ، ومعنا
أبو زيد السروجي^(٢) عقلة العجلان^(٣) وسلاوة الثكلان وأعجوبة الزمان
والمشار اليه بالبنان في البيان ، فصادف نزولنا سنجار أن أولم بها أحد التجار
فدعا إلى مأدبته الجفلى^(٤) من أهل الحضارة والفلا ، حتى سرت دعوته
إلى القافلة وجمع فيها بين الفريضة والنافلة فلما أجبنا مناديه وحللتنا نأديه
أحضر من أطعمة اليد واليدين^(٥) ماحلا بالقم وحلى بالعين ثم قدم
جاما^(٦) كأنما جمد من الهواء أو جمع من الهباء أو صيغ من نور الفضاء
أو قشر من الدرة البيضاء ، وقد أودع لفائف^(٧) النعيم وضمخ بالطيب
العميم وسيق اليه شرب من تسنيم^(٨) وسفر عن مرأى وسيم وأرج
نسيم . فلما اضطرممت بمحضرة الشهوات وقرمت^(٩) إلى مخبره اللهاوات
وشارف أن تشن على سريره الغارات وينادى عند نهبه باللنارات ، نشر
أبو زيد كالمجنون وتباعد عنه تباعد الضب من النون^(١٠) ، فراودناه على أن
يعود وألا يكون كققدار^(١١) في ثمود ، فقال والذي ينشر الاموات من
الرجام لأعدت دون رفع الجلام فلم نجد بدا من تألفه وإبرار خلفه ،

(١) سنجار بلدة مشهورة بعراق العجم (٢) سروج بلدة قرب حران

(٣) محبس المتعجل (٤) الدعوة العامة (٥) أي مما يقطع بيد ومما لا يقطع الا بيدين

(٦) ظرفا من زجاج (٧) جمع لفيفة مالف من الحلوى (٨) عين بالجنة (٩) نهمت

(١٠) النون الخوت والضب أشد الحيوان تبديا (١١) طاقرة ناقة صالح

فأشلهناه^(١) والعقول معه شائلة والدموع عليه سائلة ، فلما فاء إلى مجتمه
وخاص من مأثمه سألناه لم قام ولا شيء معنى استرفع الجاه؟ فقال إن الزجاج
تمام وإني آليت منذ أعوام ألا يضمني ونمو ما مقام فقلنا له وما يمينك
الصرى^(٢) وأليتك الحرى؟ فقال :

إنه كان لي جار لسانه يتقرب وقلبه عقرب ، ولفظه شهد ينقع
وخبثه سم منقع ، فلت لجاورته إلى محاورته واغتررت بمكاشرته^(٣) في
معاشرته واستهوتني خضرة دمنته لمنادمته وأغرتنى سمته بمناسمته ،^(٤)
فمازجته وعندي أنه جار مكسر^(٥) فبان أنه عقاب كاسر وأنسسته على أنه
حب موانس فظهر أنه حباب^(٦) موالس ، وما لحته ولا أعلم أنه عند نقده
ممن يفرح بفقده ، وعاقرته ولم أدر أنه بعد فره ممن يطرب لفره ، وكانت
عندي جارية لا يوجد لها في الجمال مجارية ، إن سفرت خجل النيران
وصليت القلوب بالنيران وإن بسمت أذرت بالجمان^(٧) ويبيع المرجان بالجمان ،
وإن رنت هيجب البلال^(٨) وحقت سحر بابل وإن نطقت عقلت لب
العاقل واستنزلت العصم من المعقل وإن قرأت شفت المفتود^(٩) وأحيت
الموود وخلصتها أوتيت من مزامير آل داود ، وإن غنت ظل معبد لها عبدا
وقبل سحقا لا سحق وبعدا وإن زمرت أضحي زنام^(١٠) عندها زنا بعد
أن كان لجياها زعيما وبالاطراب زعيما ، وإن رقصت أمالت العيائم عن الرؤوس
وأنستك رقص الحبيب في الكئوس فكنت أزدري معها حجر النعيم وأحلى

(١) رفعناه (٢) المصر عليها بعزم (٣) بسبب تبسمه (٤) بمحادثته

(٥) ملازم لكسر البيت (٦) ثعبان (٧) اللؤلؤ (٨) الوسوس والهموم

(٩) المصاب في فؤاده (١٠) زامر المتوكل

بتخليها جيد النعم، وأحجب مرآها عن الشمس والقمر وأذود ذكرها عن
شرائع^(١) السم، وأنا مع ذلك أليح^(٢) من أن تسرى برياها ربح
أو يكهن بها سطيح أو ينم عنها برق مايح، فاتفق لوشك الحظ المبخوس
ونكد الطالع المنحوس، أن أنطقتنى بوصفها حميا المدام عند الجار النمام،
ثم تاب الفهم بعد أن صرد السهم^(٣) فأحسست الخبال والوبال وضيعة
ما أودع ذلك الغربال، بيد أنى عاهدته على عكم مالفظته وأن يحفظ السر
ولو أحفظته، فزعم أنه يخزن الأسرار كما يخزن اللئيم الدينار وأنه لا يهتك
الأسرار ولو عرض لأن يلج النار، فما إن غبر على ذلك الزمان إلا يوم
أو يومان حتى بدا لأثير تلك المدرة، وواليها ذى المقدرة أن يقصد باب
قبيله مجددا عرض خيله ومستمطرا عارض نيله، وارتاد أن تصحبه تحفة
تلائم هواه ليقدّمها بين يدي نجواه، وجعل يبذل الجعائل لرواده ويسنى
المرائب لمن يظفره بمراده، فأسف ذلك الجار الختار إلى بذوله وعصى في
أدراع العار عدل عدوله، فأثى الوالى ناشر أذنيه وأبشه ما كنت أسررت
إليه، فمراعى إلا انسياب صاغيته^(٤) إلى واثيال حفدته^(٥) على تسومنى
إيثاره بالدرة اليتيمة على أن أتحمك عليه فى القيمة، فغشيتنى من الهم
ماغشى فرعون وجنوده من اليم، ولم أزل أدافع عنها ولا يغنى الدفاع
وأستشفع إليه ولا يجدى الاستشفاع، وكما رأى منى ازديادا لاعتياص^(٦)
وارتياد المناص تجرم وتضرم وحرق على الأرم^(٧)، ونفسى مع ذلك

(١) موارد (٢) أشفق (٣) خرج من القوس (٤) حاشيته (٥) الحفدة

هنا الخدم والأتباع (٦) الامتناع (٧) الاضرار

لا تسمح بمفارقة بدرى، ولا بأن تنزع قلبي من صدرى؛ حتى آل الوعيد
إيقاعاً والتقرير قراعاً، فقادنى الأشفاق من الحين إلى أن قضته سواد
العين بصفرة العين^(١) ولم يحظ الواشى بغير الأثم والشين، فعاهدت
الله تعالى منذ ذلك العهد؛ ألا أحضرُ مأمناً من بعد، والزجاج مخصوص
بهذه الطباع الذميمة، وبه يضرب المثل فى النميمة، فقد جرى عليه سبيل
يمينى ولذلك السبب لم تمتد إليه يمينى

فلا تعذلونى بعد ما قد شرحتة على أن حرمتم بي اقتطاف القطائف^(٢)
فقد بان عذرى فى صنيعى وإثنى سأرتق فتقى من تليدى وطارفى
على أن ما زودتكم من فكاهة ألد من الحلوى لدى كل عارف
قال الحارث بن همام فقبلنا اعتذاره، وقبلنا عذاره، وقبلنا له قدما وقذت
النميمة^(٣) خير البشر حتى انتشر عن جمالة الخطب ما انتشر، ثم سألناه
عما أحدث جاره القتات ودخله المفتات^(٤) بعد أن راش له نبيل السعاية
وجذم حبل الرعاية، فقال أخذ فى الاستخذاء والاستكانة والاستشفاع إلى
بذوى المكانة، وكنت حرجت على نفسى ألا يسترجعه أنسى أو يرجع
إلى أمسى، فلم يكن له منى سوى الرد والاصرار على الصد وهو لا يكتئب
من النجبة^(٥) ولا يتئب^(٦) من وقاحة الوجه، بل يلبط^(٧) بالوسائل ويلج
فى المسائل، فما أنقذنى من إبرامه ولا أبعد عليه نبيل مرامه إلا أبيات
نفث بها الصدر الموتور، والخطر المبتور، فانها كانت مدحرة لشيطانه

(١) قضته بادلته والعين الأولى الباصرة والثانية الذهب (٢) تناول الفطائر

(٣) آلمت وأذت (٤) مخالطة الكذاب (٥) الردع والزجر (٦) لا يستعجى

(٧) يلتصق

ومسجنة له في أوطانه ، وعند انتشارها بت طلاق الحبور ودعا بالويل
والثبور ويئس من نشر وصلى المقبور كما يئس الكفار من أصحاب
القبور ، فنادى أنه ينشدنا إياها وينشقناريها ، فقال أجل خلق الانسان
من عجل ثم أنشد لا يزويه ^(١) خجل ولا يثنيه وجل .

ونديم محضته صدق ودي	إذ توهمته صديقا حميا
ثم أوليته قطيعة قال	حين ألفيته صديدا حميا
خلتة قبل أن يجرب إلها	ذا ذمام فبات جلفا ذميا
وتخيرته كما ^(٢) فأمسى	منه قلبي بما جناه كما ^(٣)
وتظنيته معينا رحيا	فتبينته لعينا رحيا
وتراءيته مريدا ^(٤) فجلى	عنه سبكي له مريدا ^(٥) لثما
وتوسمت أن يهب نسيا	فأبى أن يهب إلا سموما
بت من لسعه الذي أعجز الرا	قى سلما ^(٦) وبات منى سلما ^(٧)
وبدا نهجه غداة افترقنا	مستقيا والجسم منى سقيا
لم يكن رائعا ^(٨) خصيبا ولكن	كان بالشر رائعا ^(٩) لى خصيا
قلت لما بلوته ليته كا	ن عديما ولم يكن لى نديما
بغض الصبح حين نم إلى قلبى	لأن الصباح يلنى نموما
ودعانى إلى هوى الليل إذا كا	ن سواد الدجى رقيبا كتوما
وكفى من يشى ولو فاه بالصد	ق أثاما فيما أتاه ولوما ^(١٠)

(١) لا يصرفه (٢) متكلما (٣) مكولما (٤) بضم الميم محبا (٥) بفتح

الميم متعردا (٦) ملدوغا (٧) صحيحا (٨) جميلا معجبا (٩) مخيفا
(١٠) مخفف لؤم

قال فلما سمع رب البيت قريضه وسجعه واستملح تقريظه وسبعه^(١)
 بواؤه مهاده كرامته وصدره على تكرمته^(٢) ثم استحضّر عشر صحاف من
 الغرب^(٣) فيها حلواء القند والضرب^(٤) وقال له لا يستوى أصحاب النار
 وأصحاب الجنة ولا يسمع أن يجعل البريء كذى الظنة ، وهذه الآنية
 تنزل منزلة الأبرار في صون الأسرار ، فلانولها الأبعاد ولا تلحق هودا
 بعاد ، ثم أمر خادمه بنقلها إلى مثواه ليحكم فيها بما يهواه فأقبل علينا
 أبو زيد وقال اقرءوا سورة الفتح وأبشروا باندمال القرع ، فقد جبر الله
 ثلكم وسنى ألكم وجمع في ظل الحلواء شلكم وعسى أن تكرهوا
 شيئاً وهو خير لكم ، ولما هم بالانصراف مال إلى استهداء الصحاف فقال
 للآدب إن من دلائل الظرف ، سماحة المهدي بالظرف : فقال كلاهما لك
 والغلام فاحذف الكلام وانفض بسلام ، فوثب في الجواب وشكر شكر
 الروض للصحاف ، ثم اقتادنا أبو زيد إلى حوائه وحكمنافى حلوائه ، وجعل
 يقلب الاوانى بيده وينض عددها على عدده^(٥) ثم قال لست أدري
 أشكو ذلك النمام أم أشكر ، وأتنبأى فعلته التي فعلها أم أذكر ، فانه وإن كان
 أسلف الجريمة ونعم النعمة فمن غيمه انهلّت هذه الديمة وبسيفه انحازت
 لي هذه الغنيمة ، وقد خطر ببالي أن ارجع الى أشبالي وأقنع بما تسنى لي وألا
 أتعب نفسي ولا أجمالي ، وأنا أودعكم وداع محافظ وأستودعكم خير حافظ
 ثم استوى على راحلته راجعاً في حافرتة^(٦) ولاويا إلى زافرتة^(٧) فغادرنا
 بعد أن وخذت عنسه وزايلنا أنسه ، كدست غاب صدره أوليل أفل بدره .

(١) مدحه وذمه (٢) وسادته (٣) الفضة (٤) السكر والشهد

(٥) يفرقها على صحبه (٦) طريقه التي جاء منها (٧) ناكها إلى عشيرته

ثانيا - حياتها ١ - الرسائل

أساليبها ومميزاتها وطبقات رجالها

١ - في العصر الاول - ما كاد العصر الأموي يشارف منتهاه حتى تحولت كتابة الرسائل من ترسل طبيعي لا أثر للصناعة فيه الى ترسل صناعي أرسى أساسه سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأعلى بناءه عبد الحميد صاحب ديوان مروان آخر خلفاء الأمويين ، وقد عرفت حيث وقع الكلام منا على الانشاء اذ ذاك أن عبد الحميد أظهر تلك الصناعة أكثر ما أظهر ، في رسوم رسمها للمبادئ والخواتيم ، وفي جولات بعيدة الاطراف بين طرفي القلة والاكتنار ، ثم تنويع الرسائل الاخوانية الى أنواع ، وفي طرق أبواب لم تكن معروفة قبله للناس . غير أن صناعته هذه وقد جاءت آخر العصر لم تقض القضاء كله على الترسل الطبيعي لدى جمهرة الناس فكان للكتابة حينئذ طابعان ورثهما العباسيون فيما ورثوا عن الأمويين . وإذ كان صدر العصر العباسي الأول إن هو إلا دفعة لطريقة عبد الحميد فان لنا أن نتوقع فيه تراجع الترسل الطبيعي الى الورا واطراد الانشاء الصناعي الى الأمام حتى يعظم هذا ويفني ذاك وهذا ما كان ، فلم نكد نلمح الاسلوب الفطري في كلام الخليفين الأولين وأضرابهما كما رأيت في الرسائل التي سقناها بين المنصور ومحمد بن هبة الله بجوار ما كان يصدر عن جماعة الكتاب حتى توارى بعدها واحتضنه التاريخ ولذا انصدف عنه ونعتبر الكتابة منذ جاء العصر العباسي

صناعة حمل لواءها بعد عبد الحميد صديقه المخالط عبد الله بن المقفع واتبعه
فيما رسم الجميع ، وحق لذلك أن نخصه بكلمة لاغنى عنها في الموضوع .
نشأ ابن المقفع بالبصرة حيث كان والده يتولى خراج فارس خلال
ابن عبد الله القسري والى العراق ، وهى حينئذ حلبة العربية ومجتمع
الرواة وقرارة المربد - كاظ الاسلام والحاضرة التى يفد اليها فصحاء
الأعراب ، والدولة إذ ذاك عربية محضة لا تستكتب فارسى فى الدواوين
العربية إلا إذا أجاد العربية كأهلها ، فدفع به أبوه وهو خير من يعرف
ذلك إلى تعلم العربية فى هذه البيئة الغنية بها الصالحة لتنشئ الأحداث
عليها ، فخذق فنونها وتخرج فى آدابها . وكان من حسن حظه وحظ العربية
معا أن كان ولاؤه وولاء أبيه فى بيت خطابة ومعدن فصاحة هو بيت
الأهتم المنقرى فكان فى نشأته قرين خالد بن صفوان وابن عمه شبيب
ابن شيبه وناهيك بهما فصاحة منطق وذراية لسان . ولما تمت آتاه فى
العربية تمامها فى الفارسية لغة آبائه وأجداده تطلع إلى التخرج فى صناعة
الكتابة وكان عبد الحميد المذكور كاتباً مروان بن محمد والى الجزيرة إذ ذاك ،
فتقرب عبد الله إليه تقرب الصديق الملازم وأخذ يتأثر كتابته ذات
الديباجة العربية والعقلية اليونانية ويحتذى فيه ذا النواحي المبتدعة
والطرائق المستحدثة ، ضاماً إلى ذلك ما أفاضته عليه لغته الفارسية حتى صار
كاتباً يجمع إلى بلاغة العرب حكمة اليونان وصناعة فارس فاستكتبه فى
عصر بنى أمية داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة أيام ولاية أبيه العراق .
ولما دالت دولتهم استكتبه فى زمن بنى العباس عيسى بن على والى كرمان
وعلى يديه أسلم وتسمى عبد الله وكان اسمه روزبة ، ومن بعد عيسى كتب

لأخيه سليمان أيام ولايته على البصرة وكان أبو جعفر المنصور لا يزال بالأنبار فاتصل به وترجم له كتاب كليله ودمنة ونقل إلى العربية كثيرا من آداب الفرس وسمي اسمها كما نقل إليها بعض كتب اليونان التي كان كسرى أنوشروان قد أمر بترجمتها إلى الفارسية فكانت صلة ثانية له بالعقلية اليونانية بعد تلك التي كانت له من عبد الحميد الذي عرف الكثير منها عن أستاذه سالم كاتب الخليفة هشام .

بهذا البيان المعتمد على قلب ناضج التفكير ولسان حسن التعبير زاول ابن المقفع الكتابة بأسلوب الترسل الذي كان لعبد الحميد ، وقصاراه التعبير عن المعنى الجيد بالعبارة الواضحة الجزلة دون نظر إلى مزاجية أو سجع إلا ما جاء عفوا غير متعمد ولا مقصود والذي يبدو لنا من إبقاء ابن المقفع على هذا الأسلوب مع أنه فارسي الجنس واللغة ، ولغة فارس ذات عنايه بزخرفة الألفاظ وحبك الأساليب ، أنه فعل ذلك صارا عن أمرين . أحدهما دينه أن البلاغة كل البلاغة في شرف المعاني وسهولة الألفاظ مع رصانة القول ورشاقة الأسلوب ولذا كان يقول « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » ويقول « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا في نيل البلاغة فان ذلك هو العي الأكبر » ثم يقول وقد قيل له ما البلاغة ؟ « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » يقصد أنها السهل المعتنع . وثانيهما توجيه همه في تغذية العربية بالفارسية إلى ناحية المعاني لا الألفاظ وللفرس في المعاني مجال ، فهم ذوو فلسفة أصيلة عرفت لهم كما عرفت للهنود وقد غنوها منذ القديم بالفلسفة الهندية التي ترجموها إلى لغتهم كما فعلوا في

كتاب كليله ودمنة ، وقبل أن ينقرض ملكهم نقلوا كثيرا من فلسفة اليونان . ولهذا كثر فيهم الحكماء الذين ينطقون الحكيم عن علم وثقيف لآعن غريزة وفطرة كما كانت تنطق العرب ، ولم تكن للعرب غنية عن ترجمة كثير من هذه الحكم في هذا الطور العباسي الذي حصلوا فيه على قسط وافر من التعليم . ولعل أول من نقل هذا الحكم وتلك الفلسفة إلى العربية عن أمثال يزدجرد وقباد وبهرام وسابور وأنوشروان وأزدشير وغيرهم في السياسة والاجتماع وسائر أحوال الناس ، رجلنا الذي نتكلم عنه ، وما كان له وهو الفيلسوف أن يصدف عن هذا الجانب المعنوي إلى الجانب اللفظي بحال

هذا وكما يمثل ما نقلناه من نماذج ، أسلوب الترسل السهل الممتنع كما قلنا ، يمثل كذلك ما أشرنا إليه في ناحية المعاني أتم تمثيل ، فكل ما كتب ابن المقفع كان ظرفا يسكب فيه عقلا وحكمة وفلسفة وعبرة ، وعلى هذا الذي رسم ، سار من ورائه كتاب عمره كيجي بن زياد وعمار بن حمزة والقاسم بن صبيح وغيرهم ممن أدر كوا الدولتين وكتبوا للمنصور وهم رجال الطبقة الأولى . وكذلك رجال الطبقة الثانية أمثال أبي عبيد الله معاوية بن يسار وأبي عبد الله يعقوب بن داود ويوسف بن القاسم ويحيى ابن خالد وغيرهم ممن كتبوا المهدي والهادي والرشيد ، ثم رجال الطبقة الثالثة أمثال الفضل وجعفر ابني يحيى والفضل والحسن ابني سهل وأحمد بن يوسف وعمر بن مسعدة وغيرهم ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون وأمثال محمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم بن العباس الصولي ونحوهما ممن تربوا في عصر المأمون وأدر كوا العصر الثاني فاعتبروا رجال

طباقته الاولى كما سيأتى بعد . فهذه الطبقات الثلاث حذت حذوا بن المقفع
فى الالفاظ السهلة الممتعة البعيدة عن المزاجية والسجع إلا ما جاء عفوًا ،
وفى المعانى الشريفة النبيلة المشعرة بسعة العقل وقوة المنطق ، ولذلك
نقول إن استفادة العربية من الفارسية فى العصر العباسى الأول فى
ناحية المعانى كانت أظهر وأوضح منها فى ناحية الالفاظ ولستنا نقول ذلك
عن غير دليل نتقدم به ، فقد كتب أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور
فى كتاب بغداد يقول « حدثني أبو الحسن أحمد بن محمد المهابى قال
حدثني يحيى بن الحسن بن على بن معاذ بن مسلم قال . إني بالرقعة بين يدي
محمد بن طاهر بن الحسين على بركة إذ دعوت بسلام لى فكلمته بالفارسية
فتدخل العتابة ^(١) وكان حاضرا فى كلامنا فتكلم معى بالفارسية فقلت
له أبا عمرو مالك وهذه الرطانة فقال لى قدمت بلىدكم هذه ثلاث قدمات
وكتبت كتب العجم التى فى الخزانة بمرور وكانت الكتب سقطت
إلى ما هنالك مع يزدجرد فهى قائمة إلى الساعة فكتبت منها حاجتى ثم
قدمت نيسابور وجزتها بعشرة فراسخ فذكرت كتبنا لم أقض
حاجتى منه فرجعت إلى مرو فأقمت أشهرا - قال فقلت - أبا عمرو ولم
كتبت كتب العجم فقال لى « وهل المعانى إلا فى كتب العجم ، البلاغة

« ١ » هو أبو عمرو كلثوم بن عمرو العتابة ينتهى نسبه إلى عمرو بن كلثوم
التغلبى ، وهو شاعر رقيق مطبوع وكاتب مترسل بليغ قال الجاحظ « كان العتابة
من اجتمع له الخطابة والبيان والشعر الجيد والرسائل الفاخرة » وقال يحيى
البرمكى لولده وكان العتابة منقطعاً اليهم « إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم
ابن عمرو العتابة فضلا عن رسائله وشعره فافعلوا فلن تروا أبدا مثله » .

فى اللغة لنا والمعانى لهم» قال ثم كان يذاكرنى ويحدثنى بالفارسية كثيرةا .
ولهذا الذى كان من الكتاب فى هذا العصر من العناية بالمعانى
ليست الكتابة فيه ثوب الايجاز أكثر مما جررت ذبول الاطناب
وكان الكتاب يجدون لذلك حسن وقع فى نفوس الخلفاء ، حدث أحمد بن
يوسف وزير المأمون قل دخلت على المأمون وهو يمسك كتابا بيده
وقد أطل النظر فيه زمانا وأنا ملتفت اليه فقال يا أحمد أراك منكرا
منى متفكرا فيما تراه فقلت نعم وقى الله أمير المؤمنين من المكروه وأعاده
من المخاوف ، قال فانه لا مكروه فيه ولكنى قرأت كلاما وجدته نظير
ما سمعته من الرشيد يقوله فى البلاغة فانه كان يقول « البلاغة التباعد عن
الاطالة وانتقرب من معنى البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من
المعنى وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على المبالغة فى هذا المعنى حتى
قرأت هذا الكتاب - ورمى به إلى وقال - هذا كتاب من عمرو بن مسعدة إلى ،
قال فقرأته فاذا فيه « كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلى من قواده
وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة
جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم واختلت
لذلك أحوالهم والثالث معه أمورهم » فلما قرأته قال إن استجسانى
إياه بعثنى أن أمرت للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر وأنا على مجازاة
الكاتب بما يستحقه من حل محله فى صناعته . هذا وإنك لتجد الايجاز باديا
فيما تقدم لابن المقفع من إخوانيات بل فيما تقدم له من رسائل أخذت
اسم الكتب وان طالت لأن العبرة فى الايجاز ليست فى طول ما يكتب
لنفس الطول ، وانما هى فى طول ما يكتب بالنظر إلى ما عبر عنه من معان ،

ولذلك قد يوجد الطول مع الإيجاز كما هي حال تلك الرسائل، وقد يوجد
الاطناب مع قلة كم الكتاب إذا كان معناه أقل من لفظه . ثم إنك لتجده
كذلك في كتاب العصر الأول طرا ، وهذان اللذان جاء ذكرهما في الكتاب
السابق كان من أعلام الموجزين . كتب أحمد إلى إبراهيم بن المهدي وقد
استقل هدية أطفه بها « بلغني استقلالك لما ألفتك ، والذي نحن عليه
من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك في البر ، فأهدينا هدية من لا يحتشم
إلى من لا يغتم » وكتب في التهنئة بفراق من مرض « قد أذهب الله وصب
العله ونصبها ووفر أجرها وثوابها وجعل فيهما من إرغام العدو بعقبها أضعاف
ما كان عنده من السرور بفتح أولها » . وكتب عمرو موصيا بشخص
« كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه معني بمن كتب له ولن يضيع
حامله بين الثقة والعناية » وكتب إلى المأمون يستشفع في رجل بالزيادة له
في منزلته ويعترض لنفسه « أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين
لتطولاك على ، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون ، فأعلمته أن
أمير المؤمنين لم يجعاني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدى
طاعته والسلام » فوقع إليه المأمون « قد عرفنا تصريحك بصاحبك
وتعريضك لنفسك وأجبناك إليهما ووقفناك عليهما » وقال الرشيد يوما
ليحيى بن خالد قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر
وقد استحييت من مكاتبتك في هذا المعنى فاكتمب أنت إليه فكتب
يحيى إلى الفضل « أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم
من يمينك إلى شمالك » فأجابه الفضل « قد سمعت ما أمر به أمير
المؤمنين في أخى وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ولا غربت عنى رتبة

طلعت عليه . ولما قتل طاهر بن الحسين على بن عيسى بن ماهان كتب الى الفضل بن سهل كاتب المأمون « أطال الله بقاءك وكبت أعدائك وجعل من شنؤك فداءك ، كتبت اليك ورأس علي بن عيسى في حجرى وخاتمه فى يدي والحمد لله رب العالمين » .

ب - فى العصر الثانى - منذ عهد الرشيد ، قد استبحر العمران وعم الرخاء ونشرت الرفاهية أجنحتها على ذوى اليسار فنعموا بنعيم الحياة وذاقوا حلاوة الوجود وصار فى متناول الجميع التمتع بما كان للفرس من متعات ، وأصبح كل إنسان لا يرضى مما هو فيه بغير الكثير فكان من الطبيعى وقد فاضت الفارسية على العربية اذذاك بكل ما هو معروف عنها من بسط وإطناب ، أن يشب الكتاب الناشئون فى آخر هذا العصر نشأة طفولة ، على غير ما عليه كتابه من ترسل وإيجاز فهم لا بد مطنبون فيما يكتبون بجعل أثواب المعانى فضفاضه ذات ذيول وإن يكون هذا بغير الاكثار من المفردات والجل ، على سبيل الترادف والازدواج . وقد شاعت الاقدار أن تحبو هذه الفترة بطفل موهوب ينشأ فيها نشأة الكتاب فلا يكاد هذا العصر الأول ينقضى حتى يستوى فى العصر الثانى حامل لواء هذه الطريقة الجديدة أمام الكتاب ذلكم هو أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الذى يقتضينا مقامه كلمة عنه فى هذا المقام .

ولد الجاحظ بالبصرة سنة ستين ومائة وهى على ما علمت عنها فما ذكرنا عن ابن المقفع ، عش الادب . فأدرك طبقة الاصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وأخذ عنهم ما خصوا به من أدب وفكاهة وغريب ، ولازم أبا اسحاق

ابراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى المعروف فتخرج عليه فى علم الكلام، ثم خالط أعلام الكتابة والترجمة فقرأ جميع ماتوجهم أيام المنصور والرشد والبرامكة والمأمون فخرج بذلك كله أديبا فكها عالما فيلسوفا، وأقام بالبصرة إقامة مغرم بالكتب لا يدع كتابا حتى يستوعبه قراءة وفهما، وكثيرا ما كان يكترى دكا كين الوراقين فيقيم فيها ينظر ويتثبت، وإن فيما أودعه وصف الكتاب آنفا لا نصع دليل على ما للكتب فى نفسه من منزلة وعلى تنوع ما جناه منها من فائدة، وكان محبوبا من كل من فى البصرة من الولاة والأعيان عربا وفرنسا، لا يزال محبوبهم بما يصنف من كتب ورسائل فى شتى العلوم والفنون ولا يزالون يحبونه بجزيل العطايا وسنى الصلات وبعد قليل ذاع صيته ببغداد وسر من رأى، فكان ينتجع اليهما الخلفاء والوزراء والعظماء حتى استخدمه محمد بن عبد الملك الزيات فى كتابة الديوان، ولما قتل ابن الزيات عاد الى البصرة فأقام بها كما كان عالما مصنفًا وأديبا كاتبًا الى أن فليج وبقى بالفالج طويلا ومع هذا لم ينقطع عما نصب نفسه له وطالما حمل مفلوجا الى بغداد يستمتع به، وفى إحدى هذه الحملات مات بها سنة خمس وخمسين ومائتين.

بهذه الكفاية الممتعة فى العلم والفلسفة والأدب والكتابة، زاول الجاحظ تدبيج الكتب والرسائل فكان أعجوبة الزمان وينبوع الافتنان، إن ذكر أدب العلماء فهو آدهم وإن ذكر علم الأدياء فهو أعلمهم، وقد استخلص مما قرأ علومًا جامعة شارك بها أهل كل علم، وآدابا ممتعة ضرب فيها بكل سهم، فكان واسع الاطلاع لطيف البحث طيب الفكاهة مخترعا لدقيق المعانى صواغا لبليغ العبارات، إذا ألف ألف بين الاشتات وإذا

كتب استنزل العصم من العبارات صادرا عن نفس جامعة بين المتناقضات .
فكان راوية متكلم وفيلسوفا مسامرا وأديباً مؤرخاً وشاعراً عالماً دارساً
أحوال الحيوان والنبات والجمادات والجماعات ، وهو في
كل ذلك الكاتب المكثّر الذي لا يدرك له شأو ولا يشق له غبار حتى
لكأنه المعنى بقول أبي نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
لذلك عد أحد الأفاضل وإحدى حجج اللسان . قال يصف كتبه ابن العميد
« كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والادب ثانياً » وقال يصفها المسعودي أيضاً
على تشييعه وعثمانية الجاحظ « وكتب الجاحظ مع انحرافه - أي عن
التشييع - تجلو صدى الأذهان ، وتكشف واضح البرهان . لأنه نظمها
أحسن نظم وورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ .
وكان إذا تخوف ملل القارئ وسامة السامع خرج من جد إلى هزل
ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة . وله كتب حسان منها كتاب
البيان والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع فيه من المنشور والمنظوم وغرر
الشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر
لا كتفى ، وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء ، وسائر كتبه في
نهاية الكمال ما لم يقصد منها إلى تعصب أو إلى دفع حق ، ولا يعلم ممن
سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه » .

فلا جرم وهذه حال الجاحظ أن يكون إمام الكتاب في هذا
العصر العباسي الثاني ، وكما قامت ميز العصر الأول على الترسل والايجاز
تقوم ميزة الثاني بما من الجاحظ على الازدواج والاطناب . وإن عودة

إلى ما اخترنا له في مدح التجار وذم عمل السلطان وفي وصف الكتاب
وفي محاسن الضحك لتريك بأجلى وضوح قدرته على المزاوجة والترادف
وإتباع الشيء بمثله والقارين بقرنه في فقرات يغلب أن تكون قصيرات
حتى ليسلخ في المعنى الواحد عبارات كثيرة في ابتداع مستحدث وابتكار
ليس له فيما سبق مثيل ، وهانحن أولاء ناقلون هنا شيئاً مما قال في
الحسد مسبقاً بما قال ابن المقفع إمام العصر الأول فيه ، حتى تكون
الموازنة متحدة للموضوع .

قال ابن المقفع في الحسد من الأدب الكبير « ليكن مما تصرف
به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً ، فإن الحسد خلق لئيم
ومن لؤمه أنه يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والاكفاء الخلفاء .
فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون ، حين تكون مع من
هو خير منك وأن غمالك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك
في العلم فتقبس من علمه ، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجأهه ،
وأفضل منك في الدين فيزداد صلاحك بصلاحه . وليكن ما تنظر فيه
من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعك أن تخبر عدوك أنك له عدو ،
فتنذره نفسك وتؤذنه بحربك ، قبل الإعداد والفرصة فتحمله على
السلخ لك وتوقد ناره عليك » .

وقال الجاحظ مما قال في رسالة الحسد « وهب الله لك السلامة وأدام
لك الكرامة ورزقك الاستقامة ورفع عنك الندامة . كتبت إلى أكرمك
الله تسألني عن الحسد ما هو ومن أين هو وما دلائله وأفعاله وكيف
تفرقت أموره وأحواله وبم يعرف ظاهره ومكتومه ولم صار في العلماء

أكثر منه في الجهلاء ولم كثير في الأقرباء وقل في البعداء وكيف دب في الصالحين أكثر منه في الفاسقين وكيف خص به الجيران من جميع الأوطان؟ الحسد أبقاله الله داء ينهك الجسد ويفسد الأود علاجه عسر وصاحبه ضجرو وهو باب غامض وأمر متعذر فما ظهر منه فلا يداوى وما بطن منه فداويه في عناء ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دب اليكم داء الأثم قبلكم ، الحسد والبغضاء » وقال بعض الناس جلسائه أي الناس أقل غفله فقال بعضهم صاحب ليل إنمأهمه أن يصبح فقال إنه لكذا وليس كذلك وقال بعضهم المسافر إنمأهمه أن يقطع سفره فقال إنه لكذا وليس كذلك فقالوا له فأخبرنا بأقل الناس غفله فقال الحاسد، إنمأهمه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها فلا يغفل أبدا . ويروى عن الحسن أنه قال « الحسد أضرع في الدين من النار في الخطاب اليابس » وماتى المحسود من حاسد الأمن قبل فضل الله تعالى اليه ونعمته عليه قال الله تبارك وتعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتيناهم آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » . والحسد عقيد الكفر وحليف الباطل وضد الحق وحرب البيان وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب فقال « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق » فمنه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومنتج كل وحشة ومفرق كل جماعة وقاطع كل رحم بين الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء وملقح الشر بين الخلطاء، يكمن في الصدر كمن النار في الحجر ، ولو لم يدخل رحمك الله على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه واستمكن الحزن في

جوفه وكثرة مضضيه ووسواس ضميره وتنغيص عمره وكدر نفسه ونكد
لذاذة عيشه الاستصغاره لنعمة الله تعالى عنده وسخطه على سيده بما
أفاده عبده وتمنيه عليه أن يرجع في هيته إياه ولا يرزق أحدا سواه ،
لكان عند ذوى العقول مرحوما وكان عندهم في القياس مظلوما وقد
قال بعض الاعراب « مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد نفس دأب
وقلب هائم وحزن لازم » فالحاسد مخذول ومأزور والمحسود محبوب
ومنصور ، والحاسد مهموم ومهجور ، والمحسود مغشى ومزور - إلى أن
قال في آخر الرسالة وهي اثنتا عشرة صفحة - وما أرى السلامة إلا في
قطع الحاسد ولا السرور إلا في افتقار وجهه ولا الراحة إلا في صرم
مداراته ولا الربح إلا في ترك مصافاته . فإذا فعلت ذلك فكل هنيئا
واشرب مريئا ونم رضيا وعش في السرور مليا ، ونحن نسأل الله
الجليل أن يصفى كدر قلوبنا ويجنبنا وإياك دناءة الاخلاق ، ويرزقنا وإياك
حسن الألفة والاتفاق ، أحسن الله توفيقك والسلام .

وعلى هذا النحو من المزاوجة الكثيرة الفقرات مع تقصيرها غالبا
للملاءمة القصر للزواج ، كان الجاحظ يكتب عن ذهن صفي وطبع رخي
فيطلب ماشاء له الاطناب ، كما يتضح ذلك حتى في قصار رسائله مالم
يتعمد فيها مساواة ، كما في تهنتته الفتح بن خاقان ومعاتبته قليبيا المغربي
أو إيجازا كما في كتابه السابق معهما يستنجز مما طلا ، فان القلة كما قلنا لا تأتي
الاطناب ، كما لا تأتي الكثرة الايجاز ، وهذه رسالة له في ثلاثة سطور
ولكنها من الاطناب قال « أما بعد فأقبح الأحداث من مستمنح حرمة

وطالب حاجة ردده، ومثابر حجبته، ومنبسط إليك قبضته، ومقبل عليك بعنايته لويت عنه، فتثبت في ذلك، ولا تطع كل حلاف مهين همار مشاء بنميم» ولم يكن موضوع الكتاب مهما نجافى عن الادب والفن ولج في السيرة والعلم، ليقف باللاحظ دون تلك الطريقة الفذة، أو يصرفه عن تناولها، انظر إليه وهو يقول من تأريخه قريش «قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها، وكيف عقولها ودهاؤها وكيف رأيها وذكائها، وكيف سياستها وتديرها، وكيف إيجازها وتحسيرها، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم، وحدة أذهانها إذا كل الحديد، وكيف صبرها عند اللقاء وثباتها في اللأواء، وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر وكيف جودها إذا حب المال وكيف ذكرها لأحاديث غدوالة صدورها عن جهة القصد وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه وكيف وصفها له ودعاؤها إليه، وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأعراضها، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم وطريفهم بتليدهم، وكيف أشبهه علانيتهم سرهم وقولهم فعلهم وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بعد غديره وهل غفلته إلا في صدق ظنه وهل ظنه إلا كيقين غيره» وانظر إليه يرسم الخطة المثلى لمن يقرأ الكتب فيما يجب أن يكون منه إزاء المعاني والألفاظ، لتستفيد وتعرف كيف استفاد قال «ومن قرأ كتب البلاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعاني فهو على سبيل الصواب، ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ، والخسران هاهنا في وزن الريح هناك، لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ، حمله الحرص عليها والاستئثار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها، وبضعها في غير مكانها، ولذلك قال بعض الشعراء

لصاحبه: أنا أشعر منك فلما قال له ولم ذاك؟ قال: لاني أقول البيت وأخاء،
وأنت تقول البيت وابن عمه، وإنما هي رياضة وسياحة وسماع الألفاظ
ضار ونافع، فالوجه النافع أن تدور في مسامعه وتغيب في قلبه وتخيم في
صدره، فإذا طال مكثها تناحكت ثم تلاقحت، وكانت نتيجةها أكرم نتيجة
وثمرتها أطيب ثمرة لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة
ولادالة على فقر، إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه والاعتماد عليه دون غيره،
وبين اللفظ إذا عشت في الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض وبين أن
يكون اعتسافا واغتصافا فرق بين. ومتى اتكل صاحب البلاغة على
الهويني والوكال، وعلى السرقة والاحتيال، لم ينل طائلا وشق عليه النزوع
واستولى عليه الهوان، واستهدى به سوء العادة. والوجه الضار أن يحفظ
ألفاظا بأعيانها من كتاب بعينه، أو من لفظ رجل ثم يريد أن يعدل تلك
الألفاظ قسمها من المعاني، فهذا لا يكون إلا بخيلا فقيرا وحائفا سروقا
ولا يكون إلا مستكرها لألفاظه متكلفا لمعانيه، مضطرب التأليف
منقطع النظام، فإذا مر كلامه بنقاد الألفاظ وبجهاذة المعاني، استخفوا
عقله وبهرجوا عامه.»

وقد اقتدى بالجامحظ في هذا الأسلوب كتاب عصره الذين قلنا
إنهم تربوا في عصر المأمون، نقصد بذلك أنهم جمعوا إلى الآداب
العربية، الآداب الدخيلة تامة الأني والاستواء بما استبحر من آداب
الفرس والهنود وبما أعيد نقله وفقهه على أصله من فلسفة اليونان، وقد
ذكرنا منهم الصولي وابن الزيات، ونضم إليهم الآن الحسن و-يمان ابني
وهب وسعيد بن حميد، وأحمد بن إسرائيل وغيرهم ممن كتبوا للمعتصم

والوائق والمتوكل وجاوزوهم إلى المنتصر والمستعين والمعز والمهتدي
والمعتمد وهم رجال الطبقة الأولى في العصر الثاني ، وقد أعقبتهم طبقة
ثانية أمثال عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأبي العباس بن ثوابه ، وأبي
الحسن علي بن الفرات ، وعلي بن الجراح وغيرهم ممن كتب بعد المعتمد
للمعتضد والمكتفي والمقتدر . وأعقبت هذه طبقة ثالثة منها الحسين بن
عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأبو الفضل جعفر بن الفرات ، وأبو علي
ابن مقله وغيرهم ممن كتبوا بعد المقتدر للقاهر والراضي والمتقي
والمستكفي الذي انتهى على أيامه العصر الثاني بدخول بني بويه بغداد .
فكل هؤلاء كانوا للجاحظ في طريقته محتذين ، ولا أسلوبه مترسمين ، كما
نرى فيما اخترنا لبعضهم من إخوانيات . وكذلك كانوا في غيرها مما
يكتبون من الرسائل المطولة أو المصنفات ، فهذا حمزة الاصفهاني جامع
ديوان أبي نواس يقول في مقدمة هذا الديوان « سألتني أبقاك الله وأعلى
قدرك ، وبلغك أقصى أملك ، وزادك من أفضل ما خولك وأحسن ما منحك
ولا أعدمك جميل ما عودك ، أن أصرف لك عنايتي إلى عمل مجموع من شعر
أبي نواس مشتمل على كل أشعاره وجل أخباره ، وقد أسعفتك أيديك الله
بطلبيتك ، وأجبتك إلى ملتصاك » إلى آخر ما قال على هذا النمط الذي ابتدأه
بالدعاء كما كان يبتدئ الجاحظ ، وعاد يكرر الدعاء في ثنايا ما يقول بعد الابداء
كما كان يكرر . وهذا أبو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة تأثر
الجاحظ فيما خالف من مصنفات جاءت في الأسلوب والاطناب على
نحو ما كان للجاحظ من مؤلفات ، وستقرأ نبذة منها بعد قليل .
وكما أوحى العصر الأول إلى كتابه أن يحمداً ويحمداً لهم الإيجاز ،

فقد أوحى هذا العصر الثانى إلى رجاله أن يكرروا ويطنبوا اعتقاداً منهم أن فى التكرار على أيامهم قوة بلاغ للمعنى، وشدة تأثير فى النفس، ثم غلوا فى هذا الاعتقاد حتى أوصوا به وحادوا عما كان شائعاً فى العصور قبلهم من إيجاز، قال ابن قتيبة فى أدب الكاتب « ولو كتب كاتب إلى أهل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية، كتب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلك كونه فى بيعته - أما بعد فانى أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيهما شئت - لم يعمل هذا الكلام فى أنفسها عمله فى نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر، ويعيد ويبدى، ويحذر وينذر » ونحن نقول: ولهذا لم تعد استفاداتهم من الفارسية واقفة عند حدود المعانى كما كانت لدى أولئك الأسلاف بل صارت فى ناحية اللفظ والمعنى سواء .

على أننا لا ننكر أن ما حدث بهذا العصر من حيدة ذوى الامر لجهلهم، عن التشجيع، وانصراف الناس إلى العلوم العقلية أكثر من علوم اللسان، ثم نصرة الشعوبية الداعية إلى احتقار العرب وتهوين ما لهم من كفايات، قد أصاب الأدب والأدباء، فأثر ذلك فى صناعة الكتابة فيه بعض التأثير وظهر الضعف فى كتابات الكتاب . ومن أجل هذا وضع ابن قتيبة المتوفى سنة ٣٧٦ كتاب أدب الكاتب . فاسمع إليه يقول فى مقدمته : « أما بعد فانى رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين، ولا أهله كارهين . أما الناشئ منهم فراغب عن التعليم، والشاى تارك للازدياد، والمتأدب فى عنفوان الشباب ناس أو متناس ليدخل فى جملة المجذوبين ويخرج عن جملة المجدودين . فالعلماء

مغمورون وبكثرة الجهل مقموعون، حين هوى نجم الخير وكسدت سوق البر، وبارت بضائع أهله وصار العلم عاراً على صاحبه، والفضل نقصاً وأموال الملوك وقفاً على النفوس، والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع ببيع الخلق، وآهنت المروءات في زخارف النجد وتشديد البنيان، ولذات النفوس في اصطفاف المزاهر ومعاطاة الندمان، ونبتت الصنائع وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر، وسقطت همم النفوس وزهد في لسان الصدق وعقد الملكوت. فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس - إلى أن قال - فاني رأيت كثيراً من كتاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطئوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كيد النظر، وقلوبهم من تعب التفكير حين نالوا الدرك بغير سبب، وبلغوا البغية بغير آلة.

ج - في العصر الثالث - كانت الثروة على ماعامت في العصر الثاني ممدودة الرواق، وكانت الحضارة وارفة الظلال، وكان الأثرياء منغمسين في المتع غارقين في النعيم. غير أن جهل القائمين بالأمر على الدولة فيه، جعل الأدب كما تقدم تركد ربحه، وتفتقر حركته، وجعل الكتاب وهم قطب الأدب الذي عليه يدور رحاه بعيدين في جمهورتهم أن يشركوا أولئك القائمين في سعة النفوذ وبالتالي في الاستمتاع بمباهج الحياة. ولكن ماكاد هذا العصر الثالث يقضى على سابقه برفع نفوذ الخدم الاتراك عن بغداد وجعله في أيدي آل بويه الذين وإن شلوا نفوذ الخلافة كانوا من العلماء الأدباء، حتى علا نجم الأدب وارتفع شأن

الكتابة وناقست بغداد في ذلك حواضر كثيرة إن نقص عنها بعض فقد أوفى عليها آخر ، وكانت هذه المنافسة أشد ما تكون بين رجال الكتابة الحاليين إذ ذاك من الملوك محل السمع والبصر ، وكان قد مهد لذلك بالدويلات التي انسلخت عن الخلافة قبيل حلول العصر الذي نتكلم فيه . فكانت منها دولة السامانيين ببخارى التي زهت بنفوذهم وصارت منتدى العلم والأدب على أيامهم ، وشارك ملوكها في سعة النفوذ وعراضة الجاه ووداعة العيش ورفاهة الحضارة ، عدد من الكتاب كانوا يلقبون بالشيوخ ، منهم أبو محمد عبد الله بن الحسين الذي لقب فوق الشيخ بلقب العميد زيادة في التعظيم أيام نوح بن نصر ، فكان بيته بيت غنى ونعمة وثروة وجاه . وقد نشأ في هذا البيت ابنه أبو الفضل محمد بن العميد نشأة محوطة بكل هذا النعيم ، فأحسن أبوه في هذه البيئة تربيته ، ورشحه لصناعاته وهياها لمنزله ، وكان ذا ذهن صاف وطبع موات ، فعرف علوم العرب والعجم ونبغ في العربية والفارسية وتضلّع في آدابهما حتى لقب بالاستاذ والرئيس . ثم نبه شأنه وضاعت الدولة السامانية عن قدره ، فاجتذبت دولة آل بويه فوزر لركن الدولة سنة ٣٢٨ وامتد به العمر في هذا السلطان ثلث قرن كان فيه محط الرجال وكعبة الآمال والمدوح من الكتاب والشعراء بكل لسان ، حتى توفي سنة ٣٦٠ .

ذاك ما أردنا من التنويه به عن بيت ابن العميد وشخصه ونعمة عصره وخفض عيشه ، لنخرج منه إلى أن الكتابة لا بد ظافرة لهذين الأمرين بأسلوب تخطه روح العصر وتقيم دعائمه يد ابن العميد ، فان الزخرف تناول كل مظاهر الحياة من المسكن والملبس والمطعم

والمشرب ، وحمل ذوى الترف واليسار أن يتأنقوا في كل ذلك ما وسعهم التأنق ، فغلوا فيما حملوا عليه ، وتنافسوا فيه حتى ظهرت آثار ذلك فيما ذكرنا وفيما لم نذكر واضحة للعيان تبهر الأبصار . ومن أولى من ابن العميد ، واللغة كائن يتأثر كما تتأثر الكائنات ، وهو الناشئ يحوطه الترف ويحدوه النعيم ، أن يحكى في كتابته ما يشهد في عيشه ويعكس على أسلوبه ما يشع من ضوء نفسه ، اللهم لا غيره يصلح لأن يكون صاحب الأسلوب الجديد . فبأى شيء يأتى يحدث الزخرف ويحصل التتميق ؟ لا شك أن الخطوة الطبيعية بعد الزواج تكون السجع فانه أول ما يدل في صاحبه على ذلك ، وهو إذا جودت صياغته أكسب المعنى قوة فوق تحليته الألفاظ ، وبعد السجع يكون الالمام بأجل الحلى اللفظية من جناس ، وأجل الحلى المعنوية من طباق ، على أن تبقى الصورة الظاهرة للأسجاع .

رسم ابن العميد هذا الأسلوب الجديد صادرا فيه عن فنان صناع ، قد امتلأت نفسه بشتى الصور والألوان ، وأرهف حسه حتى أصبح يشعر بما يدق عن الكهان ، فجاء ممثلا في السجع ملزوما يصحبه الجناس قليلا والطباق نادرا ، مع الالمام بما كان للطريقة الجاحظية من إطالة وإكثار وترادف وإطناب ، ولكن في عدول غالبا عما كان لها من تقصير الفقرات إلى إطالتها التي أصبحت لا تتنافى والسجع كما كانت تتنافى مع الزواج ، فنت بها إلى العصر الأول ، وجمع بذلك كله بين محاسن العصور . على أن العناية بالألفاظ لم تكن لتشغل ابن العميد عن العناية بالمعاني وهو الحكيم الفيلسوف ، الجامع بين سعة المتقول وغور المعقول ،

فما كان لفارس والهند والعرب ويونان فكانت معانيه كالفاظه ذات
حظ فيما لكلامه من بهاء وكتاها لصاحبها زين وجمال كما قيل :
تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائنات المعاني
وحسبه أن يظفر في وصف بلاغته بأبيات من المتنبي قد طلعت على
الأكوان شمسا، وسارت في الآفاق مثلاً، فهو القائل فيه :
إذا سمع الناس ألفاظه خلقن له في القلوب الحسد
وهو القائل فيه :

عربي لسانه ، فاسفي رأيه ، فارسية أعياده
خاق الله أفصح الناس طرا في مكان أعرابه أكراده

بل حسبه أن يكون المقول عنه « بدئت الكتابة بعبد الحميد
وختمت بابن العميد » فان الحسن الذي وصلته على يده لم يزد على يد
أحد وإن ماثله من بعده، ولذا اطمأن الناس إلى طريقته حتى لكانها
كانت أمل رجال العصر يريدونه ولا يدركونه ، وطابع كتابه يودون
رسمه ولا يعرفونه ، فإإن عبد لهم طريقها حتى سلكوه ثم تسابقوا فيه
تسابق الجياد في الميدان ، فكانت الطبقة التي لم يعد الدهر يسمح لها
بمثال، ويكفي أن يكون فيها صاحبه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى
سنة ٣٧٥ وأبو اسحق الصباني ابراهيم بن هلال المتوفى سنة ٣٨٤
وأبو بكر الخوارزمي محمد بن العباس المتوفى سنة ٣٨٣ وأبو الفضل بديع
الزمان أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٩٨ وأبو منصور الشعالي
عبد الملك بن محمد المتوفى سنة ٤٢٩ ، وغير هؤلاء ممن عطروا الوجود
بأريج أنفاسهم، وجعلوا للكتابة مضاء السيوف بأمنه أعلامهم ، فكان

لها على أيديهم من مزايا الابتكار أو فضل الزيادة والاكتشاف، ما نشير الآن إلى أهمه في ناحية الأسلوب .

١ - جعلوا الطابع المميز لها في هذا العصر السجع مع الاطناب يصحبه الجناس على قلة والطباق نادرا، على أن تكون الصورة الظاهرة للأسلوب هي السجع دون غيره، ولهذا أغرم القوم به اغراما والتزموا التزاما في تمكن وقوة، فجاء عفووا صفوا كسجع الحائث حسن وقع وجمال انسجام وقد بلغ من التزامهم إياه أن انتقل ببعضهم من ميدان الأدب إلى ميدان التأليف كما فعل أبو نصر العتبي محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ في تاريخه المسمى اليميني نسبة إلى يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي، فقد ترجم فيه حياته وحياته أليه سبكتكين، وكان كاتبها، في أسلوب كله مسجوع بعيد عن التكلف والاستكراه وكما فعل الشعالي المذكور في يتيمة الدهر وإن لم يبلغ مداه، ثم كما جاء سجع الكتاب في هذا العصر على ما قدمنا لا تكلف فيه جاء كذلك ما قد يامون به مع السجع من جناس وطباق، انظر الى الخوارزمي يقول مستخدما لها في كتاب منه إلى نائب الوزير ابن عباد هو ذا « كتبت إلى الأستاذ معاتبا مره ومستعتبا كره، فواجدت للعتاب إعتابا، ولا قرأت عن الكتاب جوابا، وليت شعري ما الذي منعه عن صلة لا تضره وتنفعني، وعن تواضع لا يضعه ويرفعني » .

٢ - أكثروا تضمين رسائلهم الحكم والجوامع والأمثال والأشعار والأشارات التاريخية والعلمية، والنكت الأدبية والملح الفكاهية وبخاصة إذا كان التراسل بين أخوين توثقت بينهما عرى المحبة وارتفعت رسوم

الكافة كالذى كان من ابن العميد إلى أبي العلاء السروى فى رسالة يشكو
فيها رمضان سنة شديدة الحر فانها من أجمع الرسائل^(١) لما ذكرنا تقريرا
ولذا أثرنا الاستشهاد بها عليه قال .

كتابى جعلنى الله فداك ، وأنا فى كد وتعب منذ فارقت شعبان ، وفى
جهد ونصب من شهر رمضان ، وفى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر
من ألم الجوع ووقع الصوم ، ومرتهن بتضاعيف .

حرور لو أن اللحم يصلى ببعضها غريضا^(٢) أتى أصحابه وهو منضج^(٣)
وممتحن به واجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب ويصرف وجه الحرياء
عن التحنف ويزويه عن التنصر^(٤) ويقبض يدها عن إمساك ساق
وإرسال ساق ،

ويترك الجأب فى شغل عن الحقب^(٥) ويقدح النار بين الجلد والعصب^(٦)
ويغادر الوحش وقد مالت هواديها^(٧)
سجود الذى الأرتى كأن رءوسها علاها صدادع أو فواق يصورها^(٨)
وكما قال الفرزدق

ليوم أتى دون الظلام شموسه تظل لها صورا جماجها تغلى
وكما قال مسكين الدارمى

وهاجرة ظلت كأن ظباءها إذا ما اتقتها بالقرون مسجود

(١) حرور جمع حر ، والغريض الطرىء ، والمنضج التام الطبخ (٢) يريد
يصرف الحرياء عن عاداتها فى استقبال الشمس كأنها تعبدتها (٣) الجأب حمار
الوحش واللقب أنه جمع حقباء (٤) رءوسها (٥) الأرتى نبات مستعلق
يتمسح فيه الوحش إذا اشتد الحر تبردا

تلوذ بشؤبوب من الشمس فوقها كما لاذل من وخز السنان طربد
وممنو بأيام تحاكي ظل الرمح طولاً وليال كاهام القطا قصرأ ، ونوم كلا
ولا قلة^(١) وكحسو الطائر من ماء الثماد دقة وكتصفية الطائر المستحرج خفة
كما أبرقت قوما عطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجات

ومثل

نقر العصافير وهي خائفة من النواطير يانع العنب
وأحمد الله على كل حال وأسأله أن يعرفني فضل بركتته ويأقيني الخير
في باقي أيامه وخاتمته ، وأرغب إليه في أن يقرب على القمر دوره ويقصر
سيره ، ويخفف حر كته ويهجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائره
ويزيل بركة الطول من ساعانه ، ويرد على غرة شوال فهي أسر الغر عندي
وأقرها لعيني ، ويسمعي النعرة في قفا شهر رمضان ويعرض على هلاله
أخفي من السر وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بنى عامر وأضنى من
قيس بن ذريح وأبلى من أسير الهجر ، ويساط عليه الحور بعد الكور^(٢)
ويرسل على رقاقتة التي يغشى العيون ضوءها ويحط من الأجسام نوءها
كلها يغمرها وكسوفاً يسترها ويرينيه مقمور الظهور مغمور النور ، قد
جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة ، وينقص من أطرافه كما
تنقص النيران من أطراف الزند ويبعث عليه الأرضة ويهدي إليه
السوس ويغري به الدود ويبلية بالفأر ويخترمه بالجراد ويبيده بالنمل
ويجثفه بالذر ويجعله من نجوم الرجم ويرى به مسترق السمع ويخلصنا
من معاودته ويريحنا من دوره ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ويفعل به

(١) أي كالمن بين هذا الحرف مكرراً في الإجابة (٢) النقصان بعد الزيادة

فعله بالكتان ويصنع به صنعه بالالوان، ويقال له بما تقتضيه دعوة السارق
إذا افتضح بضوئه وتهتك بطموعه « ويرحم الله عبدا قال آمينا » وأستغفر
الله جل وجهه مما قلته إن كرهه وأستغفیه من توفيقى لما يذمه وأسأله
صفحا يفيضه وعفوا يسبغه . وحالى بعد ما شكوته صالحة وعلى ما تحب
وتهوى جارية، والله الحمد تقدست أسماؤه والشكر

٣ - أغرموا بالخيال الشعرى إنغراما شديدا فهاموا فى أوديته
كما يهيم الشعراء واستخدموا صورته كما يستخدمون ، حتى صار كلامهم
والشعر سواء ، لولا أنه غير موزون . ولذلك بالغوا فى الاستشهاد به
حتى كان يصل أحيانا قدر النثر كما يقول الصاحب بن عباد فى كتاب
يصف به فصلا من كتب العميد

فصل رأيت فصيح الإشارة لطيف العبارة

إذا اختصر المعنى فشربة حاتم وإن رام إسهابا أنى الفيض بالمد

فصل قد نظرت فرأيت جسما معتدلا وفهما مشتعلا

ونفسا تفيض كفيض الغمام وظرفا يناسب صفو المدام

فصل قد عمهم بنعمه وغمهم بشيمه

وغزاهم بسوابع من فضله جعلت جماجمهم بطائن نعله

وهكذا - ثم جاوزوا هذه المبالغة فى الاستشهاد إلى ترصيع الكتاب

بالشعر كل فقرة بشطر كأول ما كان من البديع إلى الخوارزمى فى

الشوق قبيل رحلته إليه إذ يقول

أنا لقرب دار الأستاذ كما طرب النشوان مالت به الخمر

ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر

ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب
ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب
ولقد ساعد كتاب هذا العصر - على ذلك ؛ أن جمهرة كبيرة منهم -
وهذا ميزة له - كانوا شعراء كما كانوا كتابا وإن غلبت إحدى الموهبتين
على صاحبيتها^(١) ومن هذا تسنى لكثير منهم أن يضمن كتابته
أشعاره ويذيل رسائله بأبياته . كتب الصابي إلى قاضي القضاة أبي محمد
ابن معروف وكان قد زاره في معتقله أيام عضد الدولة وواساه يقول .
لقد قوى دخول سيدنا قاضي القضاة إلى نفسي وجرأ نسي وأغرب
نحسي ووسع حبسي فدعوت الله تعالى بما قد ارتفع اليه وسمعه له ، فإن
لم أكن أهلا لأن يستجاب مني فهو أيده الله أهل لأن يستجاب
فيه وأقول مع ذلك .

دخلت حاكم الزمان على صنيعة لك رهن الحبس ممتحن
أخنت عليه خطوب جارتها حتى توفاه طول الهم والحزن
فعاش من كلمات منك كن له كالروح عائدة منه إلى البدن
ولنصوع الجمال الذي فاض على الكتابة بما تقدم من هذه الميزات الثلاث كثر
وصفها في العصر بمثل ما كان يوصف به الشعر قبله وفيه ، من حسن
وبهجة ورواء كما توصف سائر المحاسن في مجالى الطبيعة ومبدعات

«١» من هؤلاء من ذكرنا آنفا من الكتاب ومنهم أبو الطيب المتوفى المتوفى
سنة ٣٥٤ وأبو الفتح أشاجم محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ ، والقاضي
الجرجاني على بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣٦٦ والشريف الرضى أبو الحسن
محمد بن الظاهر المتوفى سنة ٤٠٦ وأبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩

الحضارة على السنة الشعراء وأقلام الكتاب .

قال بعض معاصري الصابي يصف رسائله نظماً .

أصبحت مشتاقاً حليف صباية برسائل الصابي أبي إسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجى ذوب البراعة سلوة العشاق
طوراً كما رق النسيم وتارة يحكى لنا الأطواق فى الأعناق
لا يبلغ البلغاء شأو مبرز كتبت بدائع على الأحداق
وكتب ابن العميد إلى القاضى أبى محمد الحسن بن عبد الرحمن بن
خلاد الرامهرمزي يصف كتاباً وصله منه بهدية « وصل كتابك الذى
وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك وضروب برك وتعمدك ، فارتحت
لكل ما أوليت وابتهمت بكل ما أهديت ، وأضفت إحسانك فى كل
فصل إلى نظائره التى وكلت بها ذكرى ووقفت عليها شكرى ، وتأملت
النظم فلمكنى العجب به وبهرنى التعجب منه ، وقد رمت أن أجرى على
العادة فى تشبيهه بمستحسن من زهرجنى وحالى وحلى ، وشذور الفرائد
فى نحور الخرائد .

بالعذارى غدون فى الحلل البيض وقد رحن فى الخطوط السود
فلم أره لشيء عدلاً ولا أرضى ما عدته له مثلاً ، والله يزيدك من فضله
ولا يخليك من إحسانه وطوله ، ويأهلك من بر إخوانك ما تنعم به
صنيعك اليهم ، وترب معه إحسانك عليهم .

٤ - أغرقوا فى عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء تهويلاً
بشأنهم وأقدارهم وإنما كان ذلك لأن أغلب كتاب الدول الشرقية فرس مثلهاء ،
والفرس أميل الناس الى الغلو فى عبارات التمجيد والتكبير جرياً على

عاداتهم وإجابة لطبايئهم، فهم قد جبلوا على تملق ذوى الأمر بهذا التعظيم وبالاطناب لهم فى جمل الدعاء والتفخيم، ثم اشتهر ذلك عنهم فحاكم فيه أبناء العرب من كتاب الدول الغربية ولكن جاء فيها أقل حدة منه فى الشرقية لما ذكر من عريبتها وعربية كتابها، وهذا الصابى يقول فى فصل له من كتاب الى عضد الدولة يهنئه بغرة سنة

« أسأل الله تعالى مبهتلاً لديه ماذا يبدى اليه، أن يحيل على مولانا هذه السنة ومايتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات وبالزائدات الغامرات : ليكون كل دهر يستقبله وأمد يستأنفه موفياً على المتقدم له قاصراً عن المتأخر عنه ، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده ومن العيش أعذبه وأرغده ، عزيزاً منصوراً محبوباً موفوراً ، باسطاً يده فلا يقبضها إلا على نواصى أعداء وحساد سامياً طرفه فلا يغمضه إلا على لذة ورقاد ، مستريحاً ركابه فلا يعملها إلا لاستضافة عزيز وملاك فائزة قداحه فلا يجيلها إلا لحيازة مال وملاك حتى ينال أقصى ما تتوجه إليه أمنيته جامعاً والسمو له همته طامحاً » اهـ . ثم لم يبق ذلك مقصوداً على ذوى السلطان والنفوذ بل تعدى إلى ما كان بين الإخوان كما قرأت سابقاً فى كتاب ابن عباد الى الطبرى، وكتاب صاحب الى ابن العميد ، وكتاب النعماني فى التهنية بالقدوم، وغيرها فى هذا المعنى كثير .

هـ - ولقد كان من نتيجة هذه الظاهرة أن حاد الكتاب عن التصريح بأسماء الخليفة والرؤساء وألقابهم الى الكناية عنها تنزيهاً لها وتصوناً عن ذكرها فصاروا يكتنون عن الخليفة بالحضرة المقدسة النبوية أو السدة النبوية أو الخدمة الشريفة أو الديوان الشريف يعنون

ديوان الانشاء ، كما يكتنون عن الوزراء بالحضرة الوزيرية وهكذا حتى صار لكل طبقة من رجال الدولة والأعيان نعوت خاصة لا يخاطبون إلا بها تبعاً لاختلافهم في مقادير النفوذ ودرجات المنازل . وقد نال الكتاب من ذلك ما نال غيرهم ، فأخذوا ألقاب الشيخ والرئيس والاستاذ والصاحب . على أنهم تعدوا في هذا ، الألقاب إلى الدعاء فتوعوا في في جملة مراعاة لمكانة المکتوب إليه ، كأن يقولوا للخليفة أطال الله بقاء مولانا . ولولى العهد أطال الله بقاء الامير وللوزير أطال الله بقاءك وهكذا . ٦ - اتخذوا للرسائل نمطا خاصا هو أن يبدءوها بمخاطبة المرسل اليه بلقبه أو نعته بعد الإشارة إلى كتابه إن كان ثم منه كتاب ، ويعقبوا ذلك بالدعاء الملائم له بصيغة الغائب أيضا ، ثم ينتقلوا إلى المقصود بنفس هذه الصيغة غالبا وبصيغة الخطاب في بعض الأحيان ، وهذا ظاهر فيما أسلفنا من نماذج فلا داعي هنا إلى تمثيل .

وأخيرا بهذا النمط وما تقدمه من ميزات صار الانشاء في العصر العباسي الثالث فنا قائما له شخصية وحدود واضحةتان في الأسلوب وأصبحت الكتابة حرفة ذات مصطلحات كمصطلحات العلوم والفنون فلنتركه إلى العصر الأخير لنرى ماذا كانت حال الأسلوب فيه .

د - في العصر الرابع - ورث العصر العباسي الرابع أسلوب الكتابة عن سلفه قوى النسيج جميل الرواق ، قد حالفه السجع في غير تكلف ، وظهر به الجناس والطباق من غير إكثار ، فبهر القاريء بأشراق معانيه ، كما راقه بحلى ألفاظه ، وشهد للكاتب بسعة الاطلاع في فنون الأدب

وقوة العتاد في صناعة القلم . وقد دعت سنة الرقي المطردة ورغبة النفس الدائمة في الزيادة ، أن يأخذ الكتاب منذ أواخره في الاكثار من الجنس والطباق ، وأن يضموا اليهما ما وسعهما من سائر البديعيات ، وكان البديع إذذاك قد كثرت فنونه وتعددت محاسنه ، واتفق أن ولد في آخر العصر الثالث رجل قدر له أن يكون حامل لواء الكتاب في هذا العصر الذي يليه ، هو أبو محمد القاسم بن علي المعروف بالحريري .

ولد الحريري بقرية مشان القريبة من البصرة مدينة ابن المقفع والجامح سنة ٤٤٦ ، ولما كان قد خلق مفطورا على الأدب مهيا لما ذكرنا ، غادر قريته إلى البصرة فأقام منها في محلة بني حرام ، وتعلم بها علوم العربية حتى برع فيها وعنى عناية خاصة بمفردات اللغة وفنون البلاغة ، حتى صار في كليهما إماما ودعت شهرته الناس إلى الأخذ عنه فيهما ، واتصل بالخلفاء العباسيين والأمراء الساجوقيين ، وما زال عالما من أعلام العلم والأدب والكتابة والشعر حتى توفي بالبصرة سنة ٥١٦ . خلفا من الكتب ، درة الغواص في أوهم الخواص ، وملحة الاعراب وهي أرجوزة في النحو ، وشرح ملحة الاعراب ، ومجموعة رسائله وديوان شعره ، ثم المقامات التي شخصته شاعرا ، ونصبت في الكتابة إماما .

أبدع رحمه الله في كتاباتها الابداع كله . وتلاعب بالالفاظ تلاعب الصوالة بالأكر ، فلم يدع فنا من البديع إلا استخدمه في قدرة عليه وتمكن منه ، مكثرا الالفاظ اللغوية والحكم المختارة ، والأمثال السائرة والفكاهات المستملحة ، والاقتباس من القرآن والحديث ، والامام بكثير من دقائق العلوم ، ومتناولات الجدل وغرائب الحيل ، إلى غير ذلك مما

جعله فذا في ابتكاره، وجعل الناس بعده عاجزين عن الجرى في مضماره لشدة ما تكلفه حتى صار له طبعاً وعلى غيره عبثاً، فأخذت ألفاظهم تكتم أنفاس المعاني حتى خفيت، واستكرهت المحسنات حتى سمجت وقبحت ثم نضب معين الأجداد من الكتبيين والفهم من القارئ بما أناخ على الأدب، وعصف بذويه من تسلط الأتراك شرقاً والأكراد غرباً على الفاطميين العرب، والبويهيين المتعربين، وظهرت آثار ذلك من تكلف واستكراه، منذ أواسط العصر ظهوراً حاداً بأسلوب الكتابة في نصفه الثاني عما كان عليه في النصف الأول، وخلع على طريقة فيها اسم الطريقة الفاضلية نسبة إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي المتوفى سنة ٥٩٦ هـ فقد أغرق في استخدام البديع، وغالى في التأنق حتى تجاوز الحد، فانقلب الحسن بهذا الغلو كما يقولون إلى الضد، وقد تقدمت له رسالة فارجم إليها تجدد التكلف بادياً والمعنى خافياً. ولقد كان هذا الخفاء أبدي في الكتب العلمية التي تكلفوا فيها البديع اذ ذاك، منه في رسائل الانشاء كما هي الحال في كتاب «الفتح القسى في الفتح القدسى» الذي أرخ فيه عماد الدين الاصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ فتح صلاح الدين لبیت المقدس. فان من عباراته ما لا يفهم إلا بالتأمل، ومن ألفاظه ما لا غنية عن المعاجم في معرفة معناه على عكس ما ذكرنا عن كتاب اليميني آنفاً.

وقد هالت هذه الغلبة للالفاظ على المعاني بعض أدباء العصر اذ ذاك، فعملوا على مقاومتها وحضوا على مراعاة حرمة المعنى مع عدم الاجحاف بحق الالفاظ، وذلك بما ألفوا ورسموا كأبي الفتح ضياء الدين بن الاثير المتوفى سنة ٦٣٧ صاحب كتاب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»

فقد بين فيه ما يتطلبه الأدب من كليهما في المعنى واللفظ على السواء ،
وله رسالة استهداء سابقة ليس فيها ما كان لعصره من تكلف اللفاظ
وإخفاء المعاني .

هذا ولا يفوتنا وقد انتهينا من وصف الأسلوب الكتابي في كل
عصر من العصور الأربعة العباسية وصفا مميزا أن نقول إن ذلك
واقع على اعتبار مجموع كتاب كل عصر لاكل كاتب فيه . فقد يحدث في
عصر متقدم أن ينشأ كاتب سابق لزمانه يلبس أسلوبه ثوب عصر بعده
كالزهرة تتفتح مبكرة في بستان ، ولما يتفتح بعد شيء من الأزهار .
واليك في هذا رسالة إبراهيم بن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكي التي
يقول فيها مستعظفا : - الأصيلد الجواد الواري الزنادي الماجد الاجداد ،
الوزير الفاضل الأثم الباذل اللباب الحلّاحل ، من المستكين المستجير
البائس الضرير ، فاني أحمد اليك الله ذا العزة القدير ولي الصغير والكبير
بالرحمة العامة والبركة التامة . أما بعد فاغتم واسلم واعلم إن كنت لاتعلم
أنه من يرحم يرحم ، ومن يحرم يحرم ، ومن يحسن يغتم ومن يصنع
المعروف لا يعدم . وقد سبق إلى تغضبك على واطراحك لي وغفلتك
عني بما لا أقوم به ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد . فلست بحى صحيح ولا
بميت مستريح . فررت بعد الله منك اليك ، وتحملت بك عليك ولذلك قلت

أسرعت بي حثا اليك خطائي^(١) فأناخت بمذهب ذي ر جاء

راغب راهب اليك يرجي منك عفوا عنه وفضل عطاء

ولعمري ما من أصرو من تا ب مقرا من ذنبه بسواء

(١) جمع خطيئة من غير اعلال سماعا .

فان رأيت أراك الله ماتحب وأبقاك في خير ، ألا تزهد فيما ترى
من تضرعى ونخشى وتذلى وتضعفى . فان ذلك ليس لى بنجيزة ولا
طبيعة ولا على وجه تصنع ولا تخدع ، ولكنه تذلل وتخضع وتضرع
من غير ضارع ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن
التضرع له عز ورفعة وشرف . ومثله من يجيد فى عصر ضعف وتأخر
كصاحب المثل السائر المذكور . وقد يحدث أن يكتب كاتب فى عصر
لاحق متأثراً بأسلوب كاتب سابق نشأ يتعشقه ويحتذى رسمه ، فتجىء
كتابته على غير طريقة عصره كأنها بقلم سلفه ، عن محاكاة أو ممانعة ، على أنه
فى جميع هذه الاحوال لابد أن يكون هناك خضوع من الجميع
لمؤثرات العصر العامة وظروفه الشاملة

دواعى الرسائل وأغراضها ومكانة رجالها

مامن داعية دعت إلى الخطابة فى العصر العباسى الأول إلا دعت
إلى الكتابة فيه ، وما من غرض قصد إليه الخطيب ثمت إلا قصد إلى
مثله الكاتب إذ ذاك ، ولهذا نرانا فى حل من العودة إلى تفصيل
الدواعى والأغراض هنا اتسكالا على ما فصلنا هناك ، وإن هى إلا كرة
منا تذكّر فيها بما كان وتشير إلى موطن الشاهد فى النماذج ، أو نأتى
بجديد إذا دعت الحاجة إلى جديد ، ثم نخلص بعدها إلى ما انفردت به
الكتابة دون الخطابة فى ذلك العصر وفيما أعقبه من عصور

١ - فالكتابة قد استخدمت فى تثبيت قواعد الملك الجديد ضد
الطامعين فيه من العلويين والخارجين عليه من غيرهم ، وهأت ذاك قد
قرأت ما صدرنا به نماذجها من الرسائل القوية الطويلة الممتعة بين أبى

جعفر المنصور والنفس الزكية محمد بن عبد الله ، والآن فاقراً ماكان بين
أبي جعفر هذا وبين أبي مسلم الخراساني إذ بعث إليه من يحصى عليه
المغانم عقب انتصاره على عمه عبد الله بن علي ، فغضب وقال « أكون
أميناً على الدماء غير أمين على الأموال » وحدثته نفسه بالخروج وهم
أن يعود إلى خراسان فكتب إليه المنصور « إني قد وليتك مصر
والشام فهي خير لك من خراسان ، فوجه إلى مصر من أحببت ، وأقم
بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحب لقاءك أتيته من
قريب » - فكتب إليه أبو مسلم وقد فهم أنه يريد بقاءه قريباً منه
لقتله - كما حدث بعد - « إنه لم يبق لأمر المؤمنين أكرمه الله عدواً إذا أمكنه
الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون من
الوزراء إذا سكنت الدهماء . فنحن نأفرون من قربك ، حريصون على
الوفاء لك بعهدك ماوفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد
حيث تقاربها السلامة . فإن أرضناك ذلك كسناك حسن عبيدك ، وإن أبيت
إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسى »
فكتب إليه المنصور - « قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة
أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة
لكثرة جرائمهم ، فإن راحتهم في انتشار نظام الجماعة . فلم سويت نفسك
بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء
هذا الأمر على ما أنت به ، وقد حمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن
موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول
بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أو كسر

وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك . فأثرفيه ذلك على ما فهم
آنفاً، وقدم عليه فلقى حتفه .

٢ - والكتابة قد استخدمت في الاستعطاف والوعيد والعتاب
المصحوب بالعفو مما يدور حول الملك ، وتعدته دون الخطابة إلى ما يدور حوله
فن الأول في الاستعطاف : كتاب الصابي عن عضد الدولة إلى
أخيه مؤيد الدولة بشأن ذي الكفایتين علي بن محمد بن العميد ، ومنه
في الوعيد كتاب طاهر بن الحسين عن المأمون إلى نصر بن شبث وكتاب
ابن العميد عن ركن الدولة إلى ابن ونداد ، ومنه في العتاب المصحوب
بالعفو كتاب ابن الزيات عن الخليفة إلى بعض العمال .

ومن الثاني في الاستعطاف كتاب ابن الرومي السابق ، ومنه في
الوعيد كتاب ابن الزيات إلى الصولي ، ومنه في العتاب كتاب الخوارزمي
إلى صديقه الذي لم يعده في مرضه ولم يهتئ به بلال وكتابه إلى تلميذه
الذي لم يزره بعد أن تخرج عليه .

٣ - والكتابة قد استخدمت في الحوار بين الخصماء وفيه بين
الأحباء وفيه بين المتفاحين . فن الأول الرسائل المذكورة بين المنصور
والنفس الزكية ، ومن الثاني كتاب يحيى بن خالد إلى ابنه الفضل في
تنازله عن الخاتم لجعفر ، ورد الفضل عليه . أما الثالث فاليك منه رسالتين
مما كان بين الخوارزمي والبديع ، فان الخوارزمي لما لم يحسن مقابلة البديع
على ما كتب له قبل لقائه في رسالة الشوق الماضية كتب إليه البديع -
الأستاذ والله يطبل بقاءه ، ويدميم تأييده ونعماءه ، أزرى بضيفه أن وجده
يضر بآباط القلة في أطمار الغربة ، فأعمل في ترتيبه أنواع المصادفة وفي

الاهتزاز له أصناف المضايقة ، من إجماع بنصف الطرف وإشارة بشطر الكف ، ودفع في صدر القيام عن التمام ، ومضغ الكلام وتكاف لرد السلام ، وقد قبلت هذا الترتيب صغرا واحتملته وزرا واحتضنته نكرا وتأبطته شرا ولم آله عذرا ، فأن المرء بالمال وثياب الجمال ، وأنامع هذه الحال وفي هذه الاسمال لا أتقزز من صف النعال . ولو حاملته العقاب وناقشته الحساب وصدقته المتاع ، لقلت إن بوادينا ثاغية صباح ، وراغية رواح وقوما يجرون المطارف ولا يمنعون المعارف .

وفيههم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السحابة والبذل ولو طوحت بالاستاذ أيدي الغربة إليهم لوجد منال البشر قريبا ومحط الرحل رحيبا ووجه المضيف خصيبا ، ورأيه أيده الله في أن يملأ من هذا الضيف أجفان عينه ويوسع أعطاف ظنه بموقع هذا العتاب الذي معناه ود ، والمر الذي يتلوه شهد ، موفق إن شاء الله تعالى .

فكتب إليه الخوارزمي -

إنك إن كلفتني ما لم أطق ساءك ما سرك مني من خلق

فهمت ما تناوله سيدي من حسن خطابه ، ومؤلم عتبه وعتابه ، وصرفت ذلك منه إلى الضجر الذي لا يخلو منه من نيا به دهر ، ومسه من الأيام ضر ، والحمد لله الذي جعلني موضع أنسه ومظنة مشتكى ما في نفسه ، أما ما شكاه سيدي من مضايقتي إياه زعم في القيام وتكافى لرد السلام ، فقد وفية حقه كلاما وسلاما وقياماً على قدر ما قدرت عليه ووصلت إليه ، ولم أرفع عليه غير السيد أبي القاسم ، وما كنت لأرفع أحدا على من أبوه الرسول وأمه

البتول وشاهداه التوراة والانجيل، وناصره التأويل والتنزيل، والبشير به جبريل ومكائيل . وأما عدم الجمال ورثاة الحال، فما يضعان عندي قدرا ولا يضران نجرا، وإنما اللباس جلدة والزي حاية بل قشرة، وإنما يشغل بالجل من لا يعرف قيمة الخيل، ونحن بحمد الله نعرف الخيل طارية من جلالها، ونعرف الرجال بأقوالها وأفعالها لا بآلاتها وأحوالها، وأما القوم الذين صدر سيدي عنهم وانتمى اليهم، ففيهم لعمري فوق ما وصف حسن عشرة وسداد طريقة وجمال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم فنلت المرتاد وأحمدت المراد .

فان أك قد فارقت نجدا وأهله فما عهد نجد عندنا بذميم والله يعلم نيتي للاحرار عامة ولسيدي من بينهم خاصة . فان أعانني على مرادى له ونيتي فيه بحسن العشرة، بلغت له بعض مافى النية وجاوزت مسافة القدرة، وإن تطع نلى طريق عزمى بالمعارضة وسوء المؤاخذة صرفت عنانى عن طريق الاختيار بيد الاضطرار .

فما النفس الانطفة بقرارة اذا لم تذكر كان صفوا غديرها وعلى هذا فخبذا عتاب سيدي إذا صادف ذنبا واستوجب عتبا . فأما أن يسلفنا العريضة ويستكثر المعتبة والموجدة، فتلك حال نصونه عنها ونصون أنفسنا عن احتمال منلها . فايرجع بنا إلى ما هو أشبه به وأجل له ولست أسومه أن يقول « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

٤ - والكتابة قد استخدمت في التعازى والتهانى وقد سلفت في النماذج تهنئة ابن المقفع بمولودة وتعزيتة عن بنت، ثم عن ابن، وتهنئة أحمد بن

يوسف بمولود ، وتهنئة عمرو بن مسعدة عن المأمون صهره الحسن بن سهل بمولود أيضا ، وتهنئة الجاحظ الفتح بن خافان في يوم عيد ، وتهنئة النعماني بالقدوم من سفر ، وكذا تهنئة رشيد الدين الطواط وغيرهما بما جاء بعدها .
وباب التعزية والتهنئة من أحمل أبواب التراسل وأكثرها مقولا لاتصاله بنعماء الأيام وبأسائها . ويتصل به ما يكتب إلى المكرويين بمرض أو غيره تصبيراً لهم وتغنياً لزواله عنهم ، كما كتب ابن المعتز سابقا .
٥ - والكتابة قد استخدمت في التزلف والتقرب عن طريق المدح والثناء ، كما فعل ابن العميد في كتابه إلى ركن الدولة عن نماء العلوم به ، وكما كتب الصاحب إلى ابن العميد وقد وصف له البحر ، وكما كتب عبد الله بن طاهر من خراسان إلى المأمون يقول
« بعدت داري عن أمير المؤمنين وعن ظل جناحه وعن خدمته ، وإن كنت حيث تصرفت لأتقيا إلابه . وقد اشتد شوقي إلى النظر إلى رؤيته المباركة والتزين بحضور مجلسه وتلقيح عقلي بحسن رأيه ، فلا شيء عندي أثر من قرب به وإن كنت في سعة من عيش وهبة الله جل ذكره لي به . فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في المغير إلى دار السلام لأحدث عهدا بالنعيم على ، وأتهنأ بالنعمة التي أقرها لدي ، فعل - فكان جواب المأمون إليه - قربك إلى يأبى العباس حبيب وأنا إليك مشتاق وإنما بعدت دارك عن أمير المؤمنين بالنظر لك والتخير لحسن العاقبة فيك ، فالزم مكانك واتبع قول الشاعر

رأيت دنو الدار ليس بنافعي إذا كان ما بين القلوب بعيدا

٦ - والكتابة قد استخدمت في بيان وجه الرأي لمن طلبه مستشيرا

كما كتب ابن المهز آتفا مجيبا من يسأل كيف يكون كسب المحامد ، وكما كتب البديع أن تحدثه نفسه بصحبة الملوك يقول « إن الملوك إذا خدمتهم ملوك ، وإن لم تخدمهم أذلوك ، وإنهم يستعظمون في الثواب رد الجواب ويستقلون في العقاب ضرب الرقاب ، وإنهم ليعثرون على عثرة من خدمهم فيبنون لها منارا ، ثم يوقدون لها نارا ، ويعتقدونها نارا ، فكان من الملوك مكانك من الشمس ، إنها لتؤذيك والسماء لها مدار والأرض لك دار ، فكيف لو أسفت قليلا وتدانست يسيرا ، وإن العاقل ليطلب منها مزيد بعد ، فيتخذ سربا لو اذا وهربا ، ويدتفى في الأرض نفقا فرارا وفرقا » . ومما يتصل بهذا ما يصدر في كتب الترفع عما لا ينبغي أن يكون إلى ما يجب أن يكون ، كما تقدم في كتاب البديع إلى من هنأه بمرض الخوارزمي ، وكما كتب محمد بن يحيى وإلى أرمينية للرشيد إلى بعض عماله وقد وشى إليه برجل ليأخذ ماله يقول « قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله في أيامنا كاسدة والسنة السعاة كليلة خاسئة . فاذا قرأت كتابي هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما في ديوانك ، فانا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ، ولا لأحياء الأعلام الدائرة . وجنبنى وتجنب قول جرير يخاطب الفرزدق :

وكنت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا
وأجر أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لأعلينا ، واعلم أنها مدة
تنتهى وأيام تنقضى ، فاما ذكر جميل ، وإما خزي طويل »
٧ - والكتابة قد استخدمت في النصائح والوصايا وفي العظات أيضا

على النهج الذى أوضحناه فيها، وإن كثر استعمالها فى الأوليين وكان فى الأخرى قليلا . فمنها فى الوصية ما كان يكتب به الخلفاء لأولياء عهدهم، وذوو الاقدار لنابهي أبنائهم، كما كتب المنصور لولى عهده المهدي ، وطاهر بن الحسين لابنه عبد الله ، ثم ما كان يكتب به كل رجل لمن يهتم بأمره من ذوى قرباه ، كما فعل البديع مع ابن أخته إذ كتب إليه يقول : « أنت ولدى مادمت والعلم شأنك ، والمدرسة مكانك ، والدفتر أليفك والمحبرة حليفك . فان قصرت ولا إخالك فغيرى خالك » . ومنها فى النصيحة ما كتب البديع إلى صديقه الذى مات أبوه يحذره التبذير والتقتير وما كتب ابن المقفع فى أدبه الصغير من شتيت النصيح والارشاد . أما العظة فمنها ما كان من سفیان الثورى إلى الرشيد إذ كتب يدعوهُ إلى زيارته ويذكر له أن العلماء زاروه حين استخلافه وهنئوه ، وأنه فتح لهم بيوت المال وأجزل لهم الصلوات . فانه حين وصل إليه الرسول بالكتاب وهو بمسجد الكوفة يعظ أصحابه ، وقرأ ما فيه كتب إلى الرشيد على ظهره يقول : - بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفیان بن سعيد بن المنذر الثورى إلى العبد المغرور هرون الرشيد الذى سلب حلاوة الايمان . أما بعد فانى قد كتبت اليك أعرفك أنى قد صرمت حبلك ، وقطعت ودك وقليت موضعك ، فانك قد جعلتني شاهدا عليك باقرارك على نفسك فى كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فانفقته فى غير حقه ، وأنفذته فى غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني ، حتى كتبت لى تشهدنى على ذلك . أما لى قد شهدت عليك أنا وإخوانى الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنؤدى الشهادة عليك

غدا بين يدي الله تعالى . ياهرون هجمت على بيت مال المسامين بغير رضاهم . هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل؟ أم هل رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأراذل والأيتام؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك؟ فشد ياهرون مئزره وأعد للمسألة جوابا وللبلاء جلبابا ، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل ، فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد، ولذيد القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالما وللظالمين إماما . ياهرون قعدت على السرير وأسبلت سترا دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وستره ، يظامون الناس ولا ينصفون ، ويشربون الخمر ويضربون من شربها ، ويزنون ويحدون الزاني ، ويسرقون ويقطعون يد السارق ، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها الناس؟ فكيف بك ياهرون غدا إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم » أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك ، لا يفكهما إلا عبدك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وامام إلى النار . كأني بك ياهرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق ، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك ، وسيئات غيرك في ميزانك زيادة في سيئاتك ، بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة . فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها ، واعلم أنني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصيح غاية فاتق الله ياهرون في رعيتك ، واحفظ محمدا صلى الله عليه وسلم في أمته

وأحسن الخلافة عليهم، واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد، فمنهم من تزود إذا نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإني أحسبك ياهرون من خسر دنياه وآخرته فإياك إياك أن تكتب لي كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام^(١)

هذا على أنه قد بقيت من النماذج السالفة بقية تمثل أغراضا أخرى للكتابة لم تتناولها الخطب بل لم يتناول بعضها الشعر .
وهاهي ذى مصحوبة بما يتصل بها، وبما لا يتصل من سائر الأغراض التي لم يسبق لها في النماذج شيء

١ - الأخبار والاستخبار - كما كتب ابن المقفع فيما سلف وكما كتب إبراهيم بن المهدي إلى صديق له يقول « كتابي إليك كتاب مخبر وسائل ، فأما الأخبار فعن تصرف الخطوب على ما يوجب العذر عند صديق العزيز على إبطائي بالتعاهد له ، وأما السؤال فعن إمساك هذا الأخ الودود المودود عن مثل هذا ، فإن السؤال كاشف ما سلف مصلح لما استؤنف »

٢ - الاستمناع والتوصل - كما كتب ابن المقفع والصولي أنفا

(١) قيل إن هرون لما وصله هذا الكتاب جعل يقرؤه ودموعه تتحدر فقال له بعض الحاضرين: قد اجترأ عليك يا أمير المؤمنين سفيان ، فلو أثقلت به بالحديد، وضيق عليه السجن فقال لهم « اتركونا يا عبيد الدنيا فالمغرور من غررتموه، والشقي من أهلكتموه، إن سفيان أمة وحده » ثم أبقى الكتاب إلى جنبه يقرؤه رحمه الله عند كل صلاة حتى توفي

ومن أجهل ما وقع في هذا الباب ما كتب العتاني إلى أحد أصدقائه وهو :
« أما بعد أطال الله بقاءك وجهه يمتدبك إلى رضوانه والجنة ، فانك كنت
عندنا روضة من رياض الكرم ، تبهج النفوس بها وتستريح القلوب
اليها ، وكنا نعفيها من النجعة استئمانا لزهرتها وشفقة على خضرتها
وادخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سنى يوسف
اشتد علينا كابها وعاث قحطها ، وكذبنا غيومها وأخلفتنا بروقها ، وفقدنا
صالح الإخوان فيها ، فانتجعتك وأنا بانتجاعى إليك شديد الشفقة عليك
عظيم المقة لك والثقة بك ، مع علمى بأنك موضع الرائد وأنتك تغطى
عين الحاسد ، وأنتك غاية أمل القصاد وأعذب مناهل الورد ، والله يعلم
أنى ما أعدك إلا فى حومة الأهل ، واعلم أن الكريم إذا استحميا من
إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير ، لم يعرف جوده ولم تظهر همته « فشاطر ،
ذلك الصديق ماله ومرافقه .

ومن أدق أنواع التوصل ما كان فى طلب المصاهرة : ولعل من
أوقع الرسائل فيه رسالة الصابى السابقة عن صديقه .

٣ - الاستنجاز - وقد تقدم للجاحظ نموذج منه ، وهو مثل
ما كتب العتاني قبله يقول « أما بعد فقد تركتني منتظرا لو عدك متنجزا
لرفدك ، وطالب الحاجة محتاج إلى نعم هنيئة أولا مريحة ، والعذر الجليل
أحسن من المثل الطويل وقد قلت

بسطت لسانى ثم أوثقت نصفه فنضف لسانى بامتدادك مطلق
فان أنت لم تنجز عدائى تركتني وباقي لسان الشكر بالياس موثق
وأرفق منهما ما كتب به يحيى بن أكرم الى المأمون « أنت يا أمير

المؤمنين أكرم من أن نعرض لك بالاستنجاز، وتقابلتك بالأذكار، وأنت شاهدي على وعدك، لا تأمر بشيء لم تتقدم أيامه ولم يقدر زمانه، ونحن أضعف من أن نستولي علينا صبر انتظار نعمتك، وأنت الذي لا يؤوده إحسان ولا يعجزه كرم، فعجل لنا يا أمير المؤمنين ما يزيدك كرما وتزداد به نعماء، وتلقاه بالشكر الدائم»

٤ - الاعتذار - كما كتب الصولي سابقا يعتذر من تأخر كتبه، وكما كتب البديع يقول «يعز على أيد الله الشيخ أن ينوب في خدمته قامى عن قدمى، ويسعد برؤيته رسولى قبل وصولى، ويردم شرع الانس به كتابى قبل ركابى، ولكن ما الحيلة والعوائق حجة

وعلى أن أسعى وليد س على إدراك النجاح

وقد حضرت داره وقبلت جداره، ومابى حب للحيطان ولكن شغف بالقطان، ولا عشق للجدران ولكن شوق الى السكان

٥ - الشكر - كما كتب الحسن بن وهب سابقا، وكما كتب للعتابى الى بعض الرؤساء «كتب اليك ونفسي دائمة القيام بشكرك ولسماني لهج بالثناء عليك، والغالب على ضميري لأئمة نفسي واستقلال جهدى في مكافأتك، وأنت أعزك الله في عز الغني عني، وأنا تحت ذل الفاقة إلى عطفك، وليس من أخلاقك أن تولى جانب النبوة منك، من هو عان في الضراعة إليك». ومن لطيفه وغريبه ما كتب به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر إلى أحد الرؤساء وقد عاده «ما أعرف أحدا جزى العلة خيرا غيري، فاني جزيتها اخير وشكرت نعمتها على، إذ كانت إلى رؤيتك مؤدية، فأنا كالأعرابي الذي جزى يوم البين خيرا فقال

جزى الله يوم الدين خير افانه أرانا على علاته أم حارث
أرانا ربيبات الحدود ولم نكن نراهن الا بانبعث الحوادث

٦ - الاستهداء - كما كتب ابن الاثير الموصلي فيما سبق يستهدى
صديقه العراقي تمرا ، وكما كتب ذو الكفایتين حفيد العميد يستهدى
شرابا فقال « قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدي ومولاي رقدة
من عين الدهر ، وانتهزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع
أصحابي في سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينا النظام باهداء المدام ، عدنا كبنات
نعش والسلام »

٧ - الاهداء - كما كتب عبد الله بن طاهر إلى المأمون وقد أهدى
اليه فرسا « قد بعثت إلى أمير المؤمنين بفرس يلحق الأرانب في
الصعداء ، ويجاوز الأطباء في الاستواء ، ويسبق في الحدود جري الماء
فهو كما قال تأبطشرا :

ويسبق وفد الريح من حيث تنتحي بمنخرق من شدة المتدارك
وكتبت جارية من جوارى المأمون له وقد أهدت اليه تفاحة ،
« إني لما رأيت تنافس الرعية في الهدايا إليك ، وتواتر ألطافهم عليك ، فكرت
في هدية تخف مئونتها وتهون كلفتها ، ويعظم خطرهما ويكمل موقعها ، فلم
أجد ما يجتمع فيه هذا النعمت ويكمل فيه هذا الوصف الا التفاح ، فأهديت
إليك منه واحدة في العدد كثيرة في التقرب ، وأحببت يا أمير المؤمنين
أن أعرب لك عن فضلها ، وأكشف لك عن محاسنها . وأشرح لك لطيف
معانيها ، وما قالت الأطباء فيها ، وتفنن الشعراء في أوصافها ، حتى ترمقها

بعين الجلالة، وتلحظها بعقلة الصيانة، ولكن أقول كما قال أبوك الرشيد
رضي الله عنه: أحسن الفاكهة التفاح اجتمع فيه الصفرة الدرية، والحمرة
الخرية، والشقرة لذهبية، وبياض الفضة ولون التبر، يلذبهما من الحواس العين
بدهجتها، والأنف بريحتها، والفم بطعمها»

٨ - الشوق - كما تقدم للباحظ إلى قليب ولا بن العميد إلى الطبرى.
وكتب العتابي «لواءتصم شوقي إليك بمنزل سلوكك عنى لم أبذل وجه الرغبة
إليك ولم أتجشم مرارة تماديك . ولكن استخففتنا صبايتنا فاحتملنا
قسوتك لعظيم قدر مودتك ، وأنت أحق من اقتص لصالتنا من جفائه
ولشوقنا من إبطائه » . وكتب عبد الله بن العباس العلوى إلى ابراهيم بن
المهدي « ما أدري كيف أصنع ، أغيب فأشتاق ونلتقى فلا أشتفى ، ثم يجدد
لى اللقاء الذى طلبت به الشفاء نوعا من تجديد الحرقه بلوعة الفرقة »
فكتب إليه ابراهيم « أنا الذى علمتك الشوق لآنى شكوت ذلك اليك
فهيجت مثله منك » . ومما يتصل بالشوق الكتابة فى التعرف قبل اللقاء
كما كتب الديدع إلى الامير أبى نصر الميكالى يقول « كتابى أطال الله
بقاء الأمير وبودى أن أكونه فاسعد دونه ، ولكن الحريص محروم ،
لو بلغ الرزق فاهلولا هفاه . وبعد فانى فى مفاتحته فى ثقة تعد ، ويد ترتعد ،
ولم ذاك والبحر وإن لم أره فقد سمعت خبره ، ومن رأى من السيف أثره
فقد رأى أكثره ، والليث وإن لم ألقه فلم أجعل خلقه . وما وراء ذلك
من تالد أصل ونسب ، وطارف فضل وأدب ، فعلوم تشهد به الدفاتر والخبر
المتواتر ، وتنطق به الأشعار كما تحلف عليه الآثار ، والعين أقل الحواس
إدراكا ، والاذن أكثر استمساكا »

٩ - الاستزارة - كما سبق من الخوارزمي إلى تلميذه ، وكما كتب بعضهم إلى صديق يقول « ليس من قدرى أدام الله سعادتك أن أقول لك جعلت فداك ، لاثنى أراك فوق كل قيمة نضيرة وثمن معجز ، ولأن نفسى لا تساوى نفسك فتقبل فى فديتك ، وعلى كل حال جعلني الله فداء ساعة من أيامك . واعلم أيها السيد العلى المنزلة ، أنه لو كان لعبدك من شدة الخطب أمر يقف عند حده النعت . لا جتهدت أن يصف من ذلك ما عسى أن يعطف به زمام قلبك ، ويحنو على الرقة والتحنى أثناء جوائحك ، ولكن ما أمسيت وأصبحت ممتحننا به فيك ، منع كل بيان ونزح عن كل لسان ، والود أيها الصديق لم يشبه قذى ريبة ، ولم يختلط به ثاب معاب ، فلا ينبغي لمن كرمته أخلاقه أن يعاف قرابة صاحبه المدل بحسن نيته والذي أتمناه أيها المولى الحبيب مجاس أقف فيه أمامك ثم أبوح بما أضنى جسدى وفقت كبدى ، فان خف ذلك عليك ، ورأيت نشاطا من نفسك اليه ، كنت كمن فك أسيرا وأبرأ عليلا ، رسلك من الخير سبيلا ، يتوعدر سلوكها على من كان قبله ويكون بعده ، ثم أضاف إلى ذلك منة لا يطيقها جبل راس ولا فلك دائر ، فأليك أيها السيد المعتمد فى الاسعاف قبل أن يبدرنى الموت فيحول بيني وبين ما نزعته اليه النفس ، مواصلا برا إن شاء الله ^(١) .

(١) كان جواب هذه الرسالة الممعة فى الضراعة والتراف رسالة مثلها فى ذلك وهى « تولى الله تعالى ماجرى به لسانك بالمزيد ، ولا أرحش ما بيننا بطائر فرقة ولا حافر تشقيت ، وضمننا وإياك فى أوثق حبال الأنس وأؤكد أسباب الألفة . وقفت على ما خلصته من المعجز غن بلوغ ما خامر قلبك وانطوى فى ضميرك من

ومما جرت العادة بالاستزارة فيه مجالس الأنس والمنادمة؛ كما كتب
إسحق بن ابراهيم الموصلي لبعض الكبراء «يومنا يوم لين الخواشي وطيء
النواحي، وسماؤنا قد أقبلت ورعدت بالخير وبرقت، وأنت قطب السرور
ونظام الأمور، فلا تفردنا فنقل ولا تنفرد عنا فنذل». وكما كتب
الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اضطجح في يوم دجن لم
يمطر «أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر
وبعده كأنه قول كثير عزة:

وإنى ونهيامى بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلت
لكل مرتجى ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقبل اضمحلت

وما أصبحت أمنيى إلا في لقائك، فليت حجابا هتك بينى وبينك،
ورقعت هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلي ولم تتعيفه، وبعثت في
نشاطا حر كنى للكتابة إليك، فرأيتك في إمطارى سرورا بسار خبرك
إذ حرمت السرور بمطر هذا اليوم، موفقا إن شاء الله^(١). وكتب

الشغف المقلق والهوى المضرع، ولعمري لو كشف لك عن معشار ما اشتمل
عليه مضمهر صدرى، لآيقت أن الذى عندك إذا نسبته إلى ما عندى كالملاشى
الزائل، ولكنك بفضل الانعام سبقتنا إلى كشف ما فى الضمير. وأما طاعتى
لك وزماى إليك، فطاعة العبد المقتنى الطائع لما يحكم به وعليه مولاه ومالكه،
وأنا صائر إليك وقت كذا فتأهب لذلك بأجهد عافية وأتم عاقبة وأسعد نجم
جرى بألفة إن شاء الله تعالى»

(١) كانت إجابة ابن وهب له «وصل كتاب الأمير أيده الله وفى طاعم
ويدي عاملة، ولذا تأخر الجواب قليلا. وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم

الحسن بن سهل أيضا في مثل ذلك إلى صديق « نحن في مأدبة لنا تشرف على روضة تضاحك الشمس حسنا وقد بان السماء تعلها ، فهي مشرقة بأشجارها حالية بنوارها. فأريك فينا لنكون سواء في استمتاع بعضنا ببعض ». فكان الجواب « هذه صفة لو كانت في أقصى الأطراف لوجب انتجاعها وحث المطى في ابتغائها ، فكيف في موضع أنت تسكنه ، وتجمع إلى أنيق منظره حسن وجهك ، وطيب شمائلك وأنا الجواب . وقد رقت المكاتبات في هذا الباب وما تقدمه حتى أصبحت غزلا منتورا لا يفرقه عن غزل الشعر إلا القافية والوزن كما قرأت فيما مر .

١٠ - شكوى الدهر - كتب الصولي إلى بعض إخوانه « يا أخى أشكو إلى الله وإليك تحامل الأيام على ، وسوء أثر الدهر عندي ، وأنى معلق في حبائل من لا يعرف موضعي ولا يحلو عنده موقعي . أطلب منه الخلاص فيزيدني كلفا ، وأرتجى منه الحق فيزداد به ضنا ، فالتواء ثواء مقيم ، والنية نية طاعن وبزمام الرأي مرتحل . ما أذهب إلى ناحية في الحيلة إلا وجدت من دونها مانعا من العوائق ، وأحمل الذنب على الدهر فأرجع إلى الله بالشكر ، وأسأله جميل العقبي وحسن الصبر . » وكتب ابن العميد في مثل ذلك « إنما أشكو إليك جعلي الله فداك دهرا خثونا غدورا ، وزمانا خدو طاغورا ، لا يمنح ما تمنح إلا ريثما ينتزع ،

وإساءته ، وما استوجب ذنبا يستحق به عتبا . لأنه إذا أشمس حكى حسنك وضيائك ، وإن أمطر حكى جودك وسيخائك ، وإن غام أشبه ظلك وفناءك ، وسؤالي الآن عن نعمة من نعم الله عز وجل ، على أغنى بها آثار الزمان السيء عندي ، وأنا كما يحب الأمير ، صرف الله الحوادث عنه وعن حظي منه . »

ولا يبقى فيما يهب إلا ريثما يرتجع ، يبدو خيره لمعاشم ينقطع ويحلو ماؤه
جرعاً ثم يمتنع . وكانت منه شيمة مألوفة وسجية معروفة أن يشفع
ما يهرمه بقرب انتقاض ، ويهدي لما يبسطه وشك انتقاض . وكنا نلبسه
على ما شرط وإن حاف فيه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونسلم
ونستثم بقصده وظلمه ، ونعتد من أسباب المسرة ألا يجيء محذوره
مصمتاً بلا انفراج ، ولا يأتي مكروهه صرفاً بلا زاج ، وتعلل بما نختلسه
من غفلاته ونسترقه من ساعاته . وقد استحدث غير ما عرفناه سنة مبتدعة
وشريعة متبعة ، وأعد لكل صالحة من الفساد حالا وقرن بكل خلة
من المكروه خللاً .

١١ الموازنة والمناقضة - فأما الموازنة فهي المفاضلة بين شيئين
بذكر محاسن كل ومقايجه أو منافع ومضاره ، وقد راجت سوقها حتى
ألفت فيها كتب في العصرين الثالث والرابع كما سيأتى في تدوين الأدب
بعد . وأما المناقضة ، فهي أن يعتمد الكاتب إلى الشيء يكون ذا فضل
على غيره فيسلبه ماله من فضل ، ويثبت لهذا المفضول ما يجعله فاضلاً ، كما
فعل سهل بن هرون في تفضيل الزجاج على الذهب من رسالة يقول فيها .
« الزجاج مجلو نوري والذهب متاع سائر ، والشراب في الزجاج أحسن
منه في كل معدن ، ولا يفقد معه وجه النديم ولا يشغل اليد ولا يرتفع في
السوم . واسم الذهب يتطير منه ، ومن لؤمه سرعته إلى اللثام ، وهو فاتن
فإنك لمن صانه . وهو أيضاً من مصايد ابليس ، ولذلك قالوا أهلك الرجال
الأحمران ، والزجاج لا يحتمل الوضوء ولا يداخله الغمر ، ومتى غسل بالماء
وحده عاد جديداً ، وهو أشبه شيء بالماء ، وصفته عجيبه وصناعته أعجب »

١٢ - التفكه والتندر - كما كتب الجاحظ إلى صديق له يوصيه
 برجل لا يعرفه يقول « هذا كتابي مع من لا أعرفه وقد كنى فيه من
 لا أوجب حرمة، فإن قضيت حاجته لم أحمك، وإن رددته لم أذمك ».
 وكما كتب أبو هرون العبدى إلى السيدة زبيدة وقد هلك لها قرد
 مستأنس « أيتها السيدة الخطيرة إن موقع الخطب بذهاب الصغير
 المعجب كموقع السرور بنيل الكثير المفرح . ومن جهل قدر التمزقة عن
 التفكه الخفى، عمن عن التهنئة بالجليل السنى . فلا نقصك الله الزائد في سرورك
 ولا حرمك أجز الذاهب من صغيرك » . وكتب البديع الى رجل ألقى
 عليه في طلب العطاء وقال له « لم لا ندیم الجود بالذهب كندیمه بالأدب » .
 « حافاك الله ، مثل الانسان فى الاحسان كمثل الأشجار فى الثمار ، سبيله
 إذا أتى بالحسنة أن يرفه إلى السنه ، وأنا لا أملك عضوين من جسدی
 وهما فؤادى ويدي . أما الفؤاد فيعلق بالفؤاد ، وأما اليد فتولع بالجود ،
 لكن هذا الخلق النفيس ليس يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم
 ليس يحتمله الغريم . ولا قرابة بين الذهب والأدب فلم جمعت بينهما ؟
 والأدب لا يمكن ثرده فى قصعة ، ولا صرفه فى ثمن سلعة ، ولى من
 الأدب نادرة . جهدت فى هذه الأيام بالطبخ أن يطبخ لى من جيمية
 الشماخ لو نأفلم يفعل ، وبالقصا ب أن يبتاع أدب الكاتب فلم يقبل ، وأنشدت
 فى الحمام ديوان أبى تمام فلم ينفذ ، ودفعت إلى الحمام مقطعات الحمام^(١)
 فلم يأخذ ، واحتيج فى البيت إلى شىء من الزيت فأنشدت من شعر الكميت
 ألفى ومائتى بيت فلم تغن ، ولو وقعت أرجوزة العجاج فى توابل السكباج^(٢)

(١) شاعر تغلبى (٢) لحم يطبخ بالخل طعام فارسي

ما عدمتها عندي ، ولكنها ليست تقع فما أصنع . فان كنت
تحتسب اختلافك إلى إفضالا على ، فراحتي في ألا تطرق راحتي ،
وفرحتي في ألا تجبى . ولعل من هذه الناحية ما يسكتب به في
المواطن التي لا تحسن فيها الكتابة كما فعل ابن العميد إذ كتب إلى
شخص تزوجت أمه يقول : « الحمد لله الذي كشف عنا ستر الحيرة
وهذا لنا لستر العورة ، وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة ، ومنع من
عضل الامهات كما منع من وأد البنات ، استنزالا للنفوس الأبية عن
الحمية حمية الجاهلية ، ثم عرض للجزيل من الأجر من استسلم لواقع
قضائه ، وعوض جزيل الثواب والذخر من صبر على نازل بلوائه ، وهناك
الله الذي شرح للتقوى صدرك ووسع في البلوى صبرك ، ما ألهمك من
التسليم لمشيئته والرضا بقضيته ، وما وفقك له من قضاء الواجب في
أحد أبويك وفي عظم حقه عليك . وجعل الله تعالى جده ، ما تجرعتاه
من أنف وكظمتاه من أسف ، معدودا فيما يعظم عليه أجرك ويجزل به
ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لفعلمها المنتظر من ارتماضك لدفنها ،
فتستوفي بها المصيبة وتستكمل عنها المثوبة ، ووصل الله سيدي من الصبر
على عروسها ، بما يستكسبه من الصبر على نفسها ، وعوضه من أسرة
فرشها أعواد نعشها ، وجعل تعالى جده ، ما ينعم به عليه من نعمة ، معرى
من نقمة : وما يوليه بعد قبضها من منحة مبرأ من محنة . فأحكام الله تعالى
جده ، وتقدسست أسماؤه جارية على غير مراد المخلوقين لكنه تعالى يختار لعباده
المتقين ما هو خير لهم في العاجلة ، وأبقى لهم في الآجلة ، اختار الله لك في قبضها
إليه وقدمها عليه ، ما هو أنفع لها وأولى بها وجعل القبر كفوا لها والسلام .

١٣ - الذم والتهكم - وهو باب حافل في الكتابة بكثير من أنواع المذام حفل الشعر به - كتب أحمد بن يوسف يهجو بني سعيد بن سلم « لولا أن الله ختم نبوته بمحمد وكتبه بالقرآن، أنزل فيكم نبي نعمة وأنزل فيكم قرآن غدر، وما عسيت أن أقول في قوم محاسنهم مساوى السفلى، ومساوئهم فضائح الأئمة، وألسنتهم معقولة بالغي، وأيديهم مغفولة بالبخل، وهم كما قال الشاعر :

لا يكبرون وإن طالت حياتهم ولا تبديد مخازيهم وإن بادوا
وكتب أبو العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة « أما بعد فاني توسلت اليك في طلب نائلك بأسباب الامل وذرائع الحمد؛ فرارا من الفقر ورجاء للغنى، فازددت بهما بعدا مما إليه تقربت وقربا مما عنه تباعدت. وقد قسمت للأئمة بيني وبينك لأنني أخطأت في سؤالك وأخطأت في منعي، وأمرت باليأس من أهل البخل فسألتهم ونهيت عن منع أهل الرغبة فمنعتهم ». وكتب ابراهيم بن المهدي « أما بعد فانك لو عرفت فضل الحسن لتجنبيت شين القبيح. وقد رأيتك وآثر القول عندك ما يضرك، فكنت فيما كان منك ومنا، كما قال زهير بن أبي سلمى

وذى خطل في القول يحسب أنه مصيب فما يلهم به فهو قائله
عبأت له حاملا وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله
وكتب بشر بن أبي كبار البلوى إلى ابراهيم بن عبد الله الحبي والى صنعاء لهرون الرشيد حين هم بتوليته بعض النواحي فمنعه هشام بن يوسف الأبنأوى « أما بعد فان رأى الأمير أمتع الله به ألا يعلم هشام ما يريد من صلاتي فعل، فانه لم يردني وآلى قط بخير، ولم يفتح لي الأمير باب صلة

فتكون منه خالصة لا يرير بها إلا وجه الله وحده : ولا يرجو بها إلا ثوابه : إلا عرض هشام من دونها فثقلها وكرهها ، وأدار القياس عليها وضرب لها الأمثال ، وألقى الحيلة فيها إلى الكاتب والحاجب وقاسمهما بالله إنى لكما لمن الناصحين ، ومدحني بما لم يسمع به من أخلاقى ، واثقة صنى فيما لا يطمع بغيره منى ، ليكون ما أظهر من المدحة مصدقا لما أسر من العيبة ، ثم زخرف ذلك بالموعظة ، وزينه بالنصيحة وقاربه بالمودة وأغراه من ناحية الشفقة : وشهد عليه أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فإذا الحاجب يزلقنى ببصره ، وإذا الكاتب يسلقنى بلسانه ، وإذا الخادم يعرض عني بجانبه ، وإذا الوالى ينظرني نظر المغشى عليه من الموت . فصارت وجوه النفع مردودة وأبواب الطمع مسدودة ، وأصبح الخير الذى كنت أرجوه هشيما تذروه الرياح والهامة التى كنت أشرفت عليها صعيدا زلقا وأصبح مأوها غورا فلن أستطيع له طلبا ، فأسأل الله الذى جعل لكل نبي عدوا من المجرمين أن يكفيني شره ويصرف عني كيده فإنه يرانى هو وقبيله من حيث لا أراهم والسلام »

١٤ - الوصف - وكما أن هذا الباب جاء فى الشعر أحفل أبوابه كذلك جاء فى الكتابة ، وقد تقدم منه وصف ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة ، ووصف الجاحظ للكتب ووصفه للضحك ، ووصف المصاحب لمصحف ، قرآنا وخطا . وهالك منه بعضا منوطا - كتب عبد الله بن طاهر وهو بخراسان إلى اسحق بن ابراهيم ببغداد يسأله أن يوجه اليه بأقلام : « أما بعد فأنا على طول الممارسة لهذه الصناعة التى غلبت على الاسم

ولزمت لزوم الرسم، فحلت محل الأنساب وجرت مجرى الألقاب، وجدنا
الأقلام القصصية أسرع في الكرواغد وأمر في الجلود، كما أن البحرية منها
أملس في القراطيس وألين في المعاطف، وأكل عن تمزيقها والتعاقب بما
ينبوا عن شظاياها، ونحن في بلاد قليلة القصب ردىء ما يوجد بها منه،
فأحببت أن تتقدم باختيار أقلام قصصية، وتتأنق في انتقائها قبلك، وطلبها
في منابتها من شطوط الأنهار وأرجاء الكروم، وأن تتيمم باختيارك
منها، الشديدة المحس، الصلبة للمعض، الغليظة للشحوم، المكتنزة للجوانب
الضيقة الأجواف الرزينة الوزن، فانها أبقى في الكتابة وأبعد من الخفاء،
وأن تقصد بانتقائك منها الرقاق القصبان، اللطاف المنظر المقومات الأود
الملس العقد، ولا يكون فيها التواء عوج ولا أمت وضم، الصافية القشور
الخفية الأبر، الحسنة الاستدارة الطويلة الأنايب البعيدة ما بين الكعوب
الكريمة الجواهر المعتدلة القوام، تكاد أسافلها تهتز من أعاليها لاستواء
أصولها برعوسها، المستكملة يابس القائمة على سوقها. قد تشرب الماء في
حائرها، وانتهت في النضج منتهاها، لم تعجل عن تمام صلاحتها وإبان
ينعها، ولم تؤخر في الأيام المخوفة عاهاتها من خصر الشتاء وعفن الندى.
فاذا استجمعت عندك، أمرت بقطعها ذراعا ذراعا رقيقا تتحرز
معه أن تتشعب رعوسها وتنشق أطرافها. ثم عبأت منها حزما فيما
يصونها من الأوعية وعليها الخيوط الوثيقة ووجهتها مع من تحتاطه في
حراستها وحفظها وإيصالها إذ كان مثابها يتوانى فيها لقلة خطرها عند
من لا يعرف فضل جوهرها». وكتب الخوارزمي يصف رمدا أصابه:
«صادف ورود الكتاب رمدا في عيني حصرني في الظلمة، وحبسني في

الغهم والنقمة ، وتركنى أدرك بيدي ما كنت أدرك بعيني ، كليل سلاح
البصر: قسير خطوط النظر ، قد ثكأت مصباح وجهي وعلمت بعضي
الذي هو أثر عندي من كل ، فالأبيض عندي أسود والقريب مني مبعده ،
قد خاط الوجع أجفاني ، وقبض عن التصرف بنائي ، ففراغى شغل ونهاري
ليل وطوال الحاظي قصار ، وأنا ضريرو إن عددت في البصراء ، وأمي وإن
كنت في جملة الكتاب والقراء ، قصرت العلة خطوة قلمي وبنائي ، وقامت
بين يدي ولساني . - وكتب القاضي الفاضل يصف حمام الرسائل -
تحمل من البطائق أجنحة ، وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة ، وتحمل
من الأخبار ما تحمله الضمائر ، وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر ،
تكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوعا ، وتركب الجو بحرا يصفق
فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا ، ومن بلاغات البطائق استفادت ماهي
مشهورة به من السجع ، ومن رياض كتبها ألقت الرياض فهي إليها دائمة
الرجع ، وقد سكنت النجوم فهي أنجم وأعدت في كمناتها فهي أسهم ،
وكادت تكون ملائكة لأنها رسل نيطت بها الرقاع فصارت أولى
أجنحة منى وثلاث ورباع ، وقد باعد الله ما بين أسفارها وقربها ، وجعلها
طيف خيال اليقظة الذي صدق العين وما كذبها ، ترغم أنف النوى
بتقريب العمود ، وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ نجم السعود ، وهي
أنبياء الطيور لكثرة ما تأتي به من الأنباء ، وخطباؤها لأنها تقوم على
منابر الأغصان مقام الخطباء . - وكتب الموصلي يصف روضة -
« جنة علت أرضها أن تمسك ماء ، وغنيت بينبوعها أن تستجدى سماء ، وهي
ذات ثمار مختلفة الغرابة وتربة منجبة وما كل تربة توصف بالنجابة ،

ففيها الشمس الذي يسبق غيره بقدمه ، ويقذف أيدي الجانبين بنجومه ،
فهو يسمو بطيب الفرع والنجار ، ولو نظم في جيد الحسنة لاشتبه بقلادة
من نضار ، وله زمن الربيع الذي هو أعدل الأزمان ، وقد شبه بسن العجا
في الاسنان . وفيها التفاح الذي رق جلده وعظام قدمه وتورد دمه وطابت
أنفاسه فلا بان الوادي ولا رنده ، وإذا نظر إليه وجد منه حظ النعم
والنظر ، ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته إلى منابت الشجر .
وفيها العنب الذي هو أكرم الثمار طينة ، وأكثرها ألوان زينة وأول
غرس اغترسه نوح عليه السلام عند خروجه من السفينة ، يميل
بكف قاطفه ، ويغرى بالوصف لسان واصفه . وفيها الرمان الذي هو
طعام وشراب وبه شبهت نهود الكعاب . ومن فضله أنه لا نوى له
فيرمى نواه ولا يخرج الاؤلؤ والمرجان من فاكهة سواء ، وفيها التين
الذي أقسم الله به تنويعها بذكرك ، واستتر آدم عاينه السلام بورقه إذ
كشفت المعصية من ستره ، وخص بطول الأعناق فما يرى بها من ميل
فهو نشوة من سكره ، وقد وصف بأنه راق طعام ونعم جسم ، وقيل هذا
إناء مليء شهيدا لا إناء مليء علما . وفيها من ثمرات النخيل ما يزهى بلونه
وشكله ويشغل بلدة منظره عن لذة أكله وهو الذي فضل ذوات الأفنان
يعرجونه ، ولا تماثل بينه وبين الحلواء « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق
الذين من دونه » وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها وكلها معدود
من أوساطها لا من أطرافها ولقد دخلتها فاستهوتني حسدا ولم ألم
صاحبها على قوله « لن تبديد هذه أبدا » . هذا وقد ضربوا بالوصف في ناحية
المعنى كما ضربوا في ناحية الحس ، كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة

القاضي يطلب إليه رجلاً يستعين به في أموره: «أما بعد فاني احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير، ذى عفة ونزاهة طعمه، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب، ليس بظنين في رأيه، ولا يطمعون في محسبه إن أوتمن على الأسرار قام بها، وإن قلده مهما من الأمور أجزأ فيه له سن مع أدب ولسان، تقعه الرزاة ويسكنه الحلم، قد فر عن ذكاء وفطنة، وعرض على قارحة من الكمال، تكفيه اللحظة وترشده السكينة. وقد أبصر خدمة الملوك وأحكمتها، وقام في أمورهم فمد فيها، له أناة الوزراء وصولة الأمراء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء وجواب الحكماء، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه، دلائل الفضل عليه لأثمة وأمارات العلم له شهادة، مضطلع بما استنهمض مستقل بما حمل، وقد آثرتك بطلبه وحبوتك بارتياحه، ثقة بفضل اختيارك ومعرفة بحسن تأتيك»^(١)

١٥ - البيعة بالخلافة، وولاية العهد، والعهود، والمنشورات. وكل ذلك كان يكتب بالاسهاب والأطناب. فالبيعة كان يفصل فيها ما يجب للخليفة على الأمة وما يجب للأمة على الخليفة. وكانت تملأ بالآيمان المخرجة على الوفاء لما فيها والاخلاص في الطاعة لصاحبها. وكذلك كانت الصفة في ولاية العهد. وكلماتها كانت تتلى على الناس ويشهد عليها أولو الحل والعقد،

(١) كان جواب ابن سماعة أن كتب إليه «إني عازم أن أرغب إلى الله عز وجل حولا كاملا في ارتباد مثل هذه الصفة، وأفرق الرسل والثقات في الآفاق لالتماسه، وأرجو أن يعن الله بالأجابة فافوز لديك بقضاء حاجتك والسلام»

ثم تسجل في الديوان لتكون حجة على الخارجين والمدعين. ولقد غالوا في التشديد فيهما لما بدا على الناس من النكث والغدر فضمنوها أيمان الطلاق حتى من الزوجات المستقبلة وإعتاق الرقيق كذلك ، وعلقوها على الكعبة تحتمل نظر سدنهما مبالغة في الحرمة والاشهار، ومع هذا كله كان يوجد الخنث بها في كثير من الأحيان

والعهود كانت تختلف باختلاف عمل المعهود إليه. ففي العهد بالامارة كانت تفصل الصفات اللازمة للولاية من حزم وعدل ونزاهة واستمسك بالدين ورعاية للمصالح العام ، وتذكر البلاد التي تتناولها الولاية ثم تختم بتوثيق العهود على المولى أن يخلص فيما ولى وأن يكون عند ظن الخليفة به . وفي العهد بامارة الجيش كانت تعد الصفات الملائمة من شجاعة وحسن كيد وقوة وصرامة ، وتبين ضرورة القوة للمحافظة على الدولة وحماية الثغور ، كما تبين ضرورة المحافظة على الجند مما تسوء عاقبته في أجسامهم وعقائدهم ، ثم يختم بالتوكيد كذلك . وفي العهد بالقضاء كانت توضح الصفات الواجبة في القاضى من علم وأمانة وتقوى ونزاهة ، وتبين الأمور التي يجب أن يعنى بها من توزيع الموارث وحفظ أموال اليتامى وحسن القيام على الأوقاف والحبوس ، كما تطلب إليه الدقة في اختيار كتبه وشهوده ، وفي مناقشة الشهود لاستخلاص الحقيقة ، وفي تجنب الهوى الحائف أو المحابى ، وينتهى بمثل ما انتهى به العهدان السابقان من توكيد . وهكذا كان التثمين في العهود الأخرى من دينوية كالعهد بالخراج والشرطة والأمان ، أو دينية كالعهد بامانة الصلاة وتحصيل الزكاة والقيام على الحاج ، وغير ذلك مما كان في سائر العهود .

أما المنشورات فكانت الوسيلة لإعلان الخطير من الأمور الدينية والسياسية وخاصة أيام الفتن ، بقراءتها على العامة في الولايات ليقفوا على رأى الخلافة فيسيروا كما تريد ، وكانت الوسيلة كذلك فى إعلان الابتهاج بما يسر من فتح وانتصار ، وتهوين ما يسوء من هزيمة وانكسار.

وأمثلة هذه الأنواع الأربعة مستفيضة فى كتب التاريخ لاتصالها بسياسة الدولة ، وفى كتب الأدب لرسوخها فى بلاغة الاطنباب، وليس يتسع المقام للآتيان بنماذج منها لاسهابها فليرجع إليها فيما ذكرنا

١٦ - وأخيرا استخدمت الكتابة فى إنشاء الرسائل المطولة لغير الإخوانيات ، كالسياسة والاخلاق والعلم والاجتماع ، وما إلى ذلك مما لم يكن للناس عهد بالكتابة فيه ، ومما يشبهه فى زماننا الحاضر ، ما قرؤه لولاية الأمور وكبار الكتاب فى خطيرات المسائل بالصحف والمجلات. وليس من شك وقد نشأ ذلك أول ما نشأ فى العصر العباسى على يد ابن المقفع وبأنشائه ، أنه قد سرى إليه مما قرأ فى لغة فارس منه ، فعكس صورته على لغة العرب فى كثير مما أنشأ ، وقد سبق التعريف فى منشأته بالدرة اليتيمة ورسالة الصحابة وهما فى السياسة ، وبالأدب الصغير وهو فى الأخلاق ، وبالأدب الكبير وهو فىهما معا ، واختيرت نماذج منها جميعا. ثم جاء بعده الجاحظ فأكثر من هذه الرسائل فيما سمينا وفيما لم نسّم من موضوعات ، وقد طبعت له مجموعة تشمل إحدى عشرة رسالة ، أولاها منفصلة الرقم فى الحاسد والمحسود وسبق اختيار ثلث منها ، والعشر الباقيات متصلات الأرقام وهى على الترتيب ، فى مناقب الترك وعامة

جند الخلافة، وفي نحر السودان على البيضان، وفي التبريع والتدوير، وفي تفضيل النطق على الصمت، وفي مدح التجار ودم عمل السلطان، وفي العشق والنساء، وفي الوكلاء، وفي استنجاز الوعد، وفي بيان مذاهب الشيعة، ثم في طبقات المغنين. ومن الرسائل المطولة الممتعة لغير هذين الامامين الراسمين، الرسالة العذراء لابراهيم بن المدير في صناعة الكتابة، ورسالة سهيل بن هرون في مدح البخل، ورسالة الصابي في الصيد، ورسالة الصاحب في الطب، وغيرها مما تفتقت عنه أذهان هؤلاء وأمثالهم من الكتاب العلماء، فكان إيدانا بأقبال القوم على التأليف والتصنيف إذ كان النواة له، وقد أخذ بعض الرسائل اسم الكتاب كالأديب الكبير والصغير لابن المقفع مثلاً، وليس المقام وقد ضاق بنماذج البيعات وأخواتها، بالمتسع لهذه الرسائل التي تفضلها سعة وطولا. وكثير منها مطبوع وحده أو مع أشباهه، وسائرهما معلوم المواطن في الكتب فليرجع إليها حيث هي.

وبعد

فقد بقيت للوفاء بحق العنوان المعقود آنفاً، كلمة في مكانة الكتابة ومنزلة رجالها نجملها هنا قبل الانتقال الى سائر الأقسام فنقول :
أدركت الدولة الأموية - وقد عظمت - نفع الكتابة والحاجة إلى الكتاب، فأنشأت منذ عهد عبد الملك ديوان الأثشاء، وأخذ شأن هذا الديوان يعظم حتى كان القائم عليه يد الخليفة، كما كان من سالم على أيام هشام. ثم ازداد عظمة وسعة على يد عبد الحميد أيام مروان بن محمد، فكان الكتاب من الخلفاء كما يقول عبد الحميد هذا من وصيته لهم (بكم تنتظم للخلافة م - ١٥ أدب

محاسنها وتستقيم أمورها، وينصأحكم يصلح الله للخلق ساطعائهم، وتعمر بلدانهم، لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلامنكم . فوقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون . « غير أن تلك الدولة قد دالت ولم يتجاوز صاحب الانشاء لقب الكاتب إلى غيره . فلما جاءت الدولة العباسية واستقامت الأمور لآبى العباس السفاح لقب كاتبه أبا سلامة الخلال حفص بن سليمان مولى أخواله بنى الحارث بن كعب ، بلقب الوزارة ، فكان أول وزير في الاسلام ، وثبت بذلك هذا اللقب لكل من ولى أمر الكتابة بعده من الكتاب ، فعظم شأنهم ، وامتد نفوذهم ، وبلغ أقصى ما يمكن أن يباح في يحيى بن خالد وزير الرشيد ، لأنه صاحب اليد عليه في بقاء العهد له ، ولأنه كان خاصته وملازمه قبل خلافته ، ولأنه كان بمنزلة والده اذ ارتضع لبن زوجته على ابنه الفضل ، ولهذا قلده الوزارة تقليد تفويض ، ثم كان كذلك وأكثر منه مع ابنه جعفر . فأصبح ديوان الانشاء بهذه السنة التي استمرت مرعية يتولاها وزير بنفسه أو بكتاب يندبه هو ليصرفه بأمره . ومن هنا وصل الكتاب إلى أرفع المنازل بعد الخلافة ، وأقيمت اليهم الأعنة في سياسة الدولة ، وأحس الخلفاء بشدة الحاجة اليهم ، فاعتصموا بهم في النوازل وتركوهم يتصرفون عنهم في الوعد والوعيد والنقض والابرام ، ونظر الناس إلى هذه المكانة نظرة التقديس والاجلال ، فصاروا يسمعون من الكتاب من يقول :

ولى بقر تضجى الملوك فقيرة إليها لدى أحداثها حين تطرق
أرد بها رأس الجوح فيمنثنى وأجعلها سوط الحرون فيعنق

إذا حاولت اطفأ فناء مروق وإن حاولت عنفا فنار تألق
وصار الكتاب يسمعون من الناس من ينشد :

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا مالا ينال بحمد المشرفيات
ونشأ من ذلك ما نشأ من مزاحمة القلم السيف في تصريف الشئون
وحسم الامور ، فوجدت المفاخرات التي شبت بينهما نظما ونثرا .
قال علي بن العباس النوبختي مفضلا القلم :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شيء يغالبه مازال يتبع ما يجري به القلم
بذا قضى الله للأقلام مذبذبيت ان السيوف لها مذ أرهفت خدم
وقال أبو تمام مفضلا السيف :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
وفاخر صاحب سيف صاحب قلم فقال صاحب القلم : أنا أقتل بلا غرر
وأنت تقتل على خطر ، فقال صاحب السيف : القلم خادم السيف إن تم
مراده والا فالى السيف معاده .

لهذا عني الخلفاء وذوو الأثر باختيار الكتاب ممن عرفوا برجاحة
العقل وغزارة الأدب حتى يكونوا أهلا لما يلقى عليهم من أعباء الملك
وسياسة الدولة غير ناظرين إلى شرف من يختارون في اختياره للكتابة
كل التشريف إذا كان ممن أخطأه شرف الأصول ، وفي الكتابة تسويد
له إذا لم يكن من المسودين . هذا ابن الزيات سمى به الكتابة إلى منازل

الأشراف وقد كان كأبيه تاجر زيت ، وكان بذلك جده نفور . قال له العلاء بن أيوب يوما وهو يناظره « ليس هذا كيل الزيت ولا عد الجوز » فقال له « أبا التجارة تعيرني وقد كنت تاجرا ومتأخرا فقد منى الله بالادب ، وأصارني بعد التجارة إلى الوزارة ، ليس المعيب من كان خسيسا فارتفع ، وإما هو من كان شريفا فأتضع » . وهو لاء آل سهل كانوا صنعا وتجارا فيهم صانع الحجر وبائعها فارتقت بهم الكتابة إلى الوزارة ، وصاهر المأمون الحسن منهم في ابنته بوران . ولما كتب إلى المأمون بعد زفافها إليه يقول « قد تولى أمير المؤمنين من تعظيم عبده في قبول أمته شيئا لا يتسع له الشكر عنه إلا بمعونة المن منه أدام الله عزه في إخراج توقيعه بتزيين حالي في العامة والخاصة بما يراه فيه صوابا إن شاء الله » خرج توقيع المأمون « الحسن بن سهل زمام على ما جمع أمور الخاصة وكنف أسباب العامة ، وأحاط بالنفقات ونفذ بالولايات ، وإليه الخراج والبريد واختيار القضاة ، جزاء بتعرفته بالحال التي قربته منا وإثابة لشكره إيانا على ما أولينا » . وهذا الصابي على صابئيته تولى ديوان الرسائل خلفاء بني العباس وملوك بني بويه ، وحين مات رثاه الشريف الرضي ، ولما لامه بعض الناس على رثائه صابئيا كان جوابه « إنما رثيت فضله » وغيرهم كثير فأغلب الكتاب سادوا بالكتابة عن صنعة وخمول .

ولعظم مهمة الكتاب عنوا بالتبحر في الأدب والتفقه في كل ما يتصل به من علم ، حتى يكونوا كفاة لما يندبون له ، وحتى يقفوا من الخلفاء والملوك الموقع المرضي عنه وبخاصة إذا كان أولئك ممن يعرفون القول وينقدونه ،

ويؤثرون الفاضل ويرفعونه ، كما عنوا أن يجمعوا إلى دماء الخلق وكرم
السجاياء رقة الطباع ولطف الخدمة ، حتى ضربت الأمثال بجمال خلقهم
وكمال علمهم . قال بعض آل المهلب لبنييه « تزيوا بنزى الكتاب فانهم جمعوا
أدب الملوك وتواضع السوقة » وقال الشاعر يعصف رقة الخمر بأنها من
رقة الكتاب :-

وشمول كأنما اعتصروها من معاني شمائل الكتاب
وغير هذين في الناحية الخلقية كثير . أما الناحية العلمية فجماع ما قيل
عنها فيهم قول الجاحظ « طلبت علم الشعر عند الأصمعي ، فوجدته
لا يعرف إلا غريبه ، فرجعت إلى الأَخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ،
فمطفت على أبي عبيدة ، فرأيت أنه لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق
بالأيام ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب
ومحمد بن عبد الملك وغيرهما . »

هذا وإنه لما يرينا اتساع أفق الثقافة أمام من يهيء نفسه للكتابة
منذ أوائل العصر العباسي قصيدة أبان بن عبد الحميد اللاحق التي قدمها
إلى يحيى البرمكي ، رغبة في الاتصال بخدمته في هذه الصناعة ، واناخاتمون
بها هذا الموضوع لما لها من الجدوى فيه قال :

أنا من بغية الأمير وكنت من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أريب ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريشة مما يكون تحت الجناح
لى في النحو فطنة واتقاد أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعالم بقول منور الافصاح

وظريف الحديث في كل فن واصير بترهات الملاح
كم وكمد خبأت عندي حديثا هو عند الملوك كالتفاح
فيمثلي تخلو الملوك وتلهو وتناجي في المشكل الفداح
أيمن الناس طائرا يوم صيد لغدو دعيت أو لرواح
أبصر الناس بالجواهر والخيل وبالخرد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد لله على أنني ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر ثوبيه ولا الماجن الخليع الوقاح
لو رمى بي الأمير أصلحه الله رماحا ثامت حد الرماح
ما أنا واهن ولا مستكين لسوى أمر سيدي ذى السماح
لست بالضخم يا أميري ولا القز م ولا بالجدر الدحاح^(١)
لحية جعدة ووجه صبيح واتقاد كشعلة المصباح
إن دعاني الأمير عاين منى شمريا كالبلبل الصдах

٢ - التوقيعات

استعملت العرب قبل الاسلام كلمة التوقيع - ما أخذت منه
وما أخذ منها - في معان كثيرة . فقالت وقع الصيقل السيف إذا أقبل
عليه بميقعته أى مطرفته يجلوه ويحدده ليكون ماضيا نافذا . وقالت
وقع القتب ظهر الراحلة إذا أثر فيه تأثيرا خفيفا ، فإذا ترك ذلك التأثير
دبرة أى قرحة ، ثم برئت وبقيت بموضعها شامة بيضاء ، قالت ظهر موقع
تريد أن به بقعة صغيرة ذات لون يخالف سائر اللون ، ومن ذلك وقع
المطر الأرض إذا أصاب منها بعضا وترك بعضا يخالف بين ألوانها .

(١) الجدر العظيم البطن ، والدحاح البطيء الخطو

وقالت وقعت الدواب ربضت، ووقعت الابل بركت، أى اطمأنت إلى الارض بعد الشبع والرى . وقالت وقع السارون إذا عرسوا أى نزلوا آخر الليل. ولعل هذا من موقعة الطائر وهى الموقع الذى يمتاد نزوله. غير أن هذا مكان وذاك زمان . وقالت وقع الرامى إذا رمى من قريب فلم يخطئ، تريد أنه أصاب من أقرب الطرق . وقالت وقع فلان ظنه على الشئ إذا قدره وأنزله موضعه . كما قالت وقع الامر إذا لزم وحق، ومنه قوله تعالى « ووقع القول عليهم بما ظلموا » . فهذه معان سبعة مما عرفت العرب للتوقيع وليس منها ما نطلقه عليه الآن من الامضاء .

ولما جاء الاسلام وأسس ملكا عظمت دولته على أيام عمر بن الخطاب، رأينا رحمه الله يستعمل التوقيع فيما يكتب به على حواشى الرقاع المرفوعة اليه لبيان وجه الفصل فيها، وهذا معنى جديد، ولكنه يمت الى المعانى السابقة بالصلات . فهو يحلو اللبس فى القصة ويمضيها، وهو وجيز اللفظ ومخالف اللون بالنسبة للفظها ولون مدادها، وهو يجعل صاحب الأمر يطمئن فى تصريح ما رفع اليه، وهو يتحرى فى إثباته آخر الواقعة وموقعا معيننا من حاشيتها، وهو يفصل فى الأمر من أقرب طرقه، وهو نتيجة تقدير وتفكير، ثم هو يحق نفاذه ويلزم .

فتوقيعات عمر رضى الله عنه هى أول توقيع فى الاسلام وهذا بعض منها . كتب اليه سعد بن أبى وقاص عامله على العراق يستأذنه فى بناء دار، فوقع فى أسفل الكتاب « ابن ما يكتنك من الهواجر وأذى المطر » ووقع لعمر بن العاص عامله على مصر فى كتاب « كن لرعتك كما تحب أن يكون لك أميرك » . وقد اقتدى به فى ذلك الخليفةتان بعده .

وقع عثمان رحمه الله في شكاة قوم من عامله مروان بن الحكم « فان
عصوك فقل إني برىء مما تعملون » ووقع في قصة رجل شكا اليه فقرا
« قد أمرنا لك بما يقيمك وليس في مال الله فضل للسرف » . ووقع
على كرم الله وجهه في كتاب لابنه الحسن « رأى الشيخ خير من جلد
الغلام » ووقع في كتاب لسلمان الفارسي يسأله فيه كيف يحاسب الناس
يوم القيامة « يحاسبون كما يرزقون »

وجاءت الدولة الأموية فزاول خلفاؤها التوقيع بأنفسهم كما كان
يفعل عمر وتابعاه وهذا بعضها . وقع معاوية لزياد وقد كتب يخبره أن
عبد الله بن العباس يطعن في خلافته « إن أبا سفيان وأبا الفضل كانا في
الجاهلية في مسالاة واحد، وذلك حلف لا يحمله سوء رأيك » وكتب اليه
عبد الله بن عامر يعاتبه فوقع « بيت أمية في الجاهلية أشرف من بيت
حبيب في الاسلام وأنت تراه » وكتب اليه يسأله أن يقطعه مالا في
الطائف فوقع « عش رجبا تر عجبنا » وكتب اليه ربيعة بن عسل
اليربوعي يسأله أن يعينه باثني عشر ألف جذع في بناء داره بالبصرة
فوقع « أدارك في البصرة أم البصرة في دارك » . ووقع يزيد ابنه إلى
عبد الرحمن بن زياد عامه على خراسان « القرابة واشجة والأفعال
متباينة، نخذ لرحمك من فعلك » ووقع عبد الملك للحجاج وقد كتب
يخبره بسوء طاعة أهل العراق، ويستأذنه في قتل أشرافهم « إن من
يمن السائس أن يتألف به المختلفون، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون »
ووقع في ذيل كتاب من ابن الأشعث وهو ثائر عليه بهذا البيت :

ما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظا فينوى من سفاهته كسرى

ووقع الوليد ابنه للحجاج وقد كتب اليه يسأله الاقتصاد « لآجمعن المال جمع من يعيش أبدا ، ولأفرقنه تفريق من يموت غدا » ووقع لعمر بن عبد العزيز « قد رأب الله بك الداء وأوذم بك السقاء » ووقع سليمان بن عبد الملك وقد كتب اليه قتيبة بن مسلم يهدده « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » ووقع له وقد هده بالخلع :

زعم الفرزدق أن سيمقتل مربعا أبشر بطول سلامة يامربع
وقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كثير التوقيعات . كتب
اليه صاحب العراق يخبره بسوء طاعة أهله فوقع « ارض لهم ما ترضى
لنفسك ، وخذ بجرائمهم بعد ذلك » وكتب اليه عامل الكوفة أنه فعل
فى أمر كما فعل عمر بن الخطاب فوقع له « أولئك الذين هدام الله
فبهدام اقتده » وكتب اليه عامل يستأذنه فى رم مدينة فوقع له « حصنها
بالعدل ونق طرقها من الظلم » ووقع لرجل ولاه الصدقات فعدل وكان
دميا « ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا » . ووقع يزيد
ابن عبد الملك على رقعة رجل يتظلم من عامل له « ومسيعلم الذين ظلموا
أى منقلب ينقلبون » . ووقع هشام أخوه لعامله بالمدينة وقد أخبره
بوثوب أبناء الأنصار « احفظ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهبهم له » ووقع فى قصة متظلم « أتاك الغوث إن كنت صادقا ، وحل
بك النكال إن كنت كاذبا ، فتقدم أو تأخر » ووقع فى قصة رجل شكاه
إليه الحاجة وكثرة العيال ، وذكر أن له حرمة « لعيالك فى بيت مال
المسلمين سهم ، ولك بحرمتك منامثلاه » . ووقع يزيد بن الوليد لمروان
ابن محمد إذ تلكا فى بيعته « إني أراك تقدم رجلا وتؤخرى أخرى ، فإذا

أما ك كتابي فاعتمد على أيهما شئت . ووقع مروان هذا إلى ابن هبيرة أمير خراسان « الامر مضطرب وأنت نائم وأنا ساھر . » ولقد كان ولاية بنى أمية يحاكون خلفاءهم في التوقيع على ما يرفع إليهم من رقاع . وقع زياد بن أبيه في رقعة لمحبوس يرجو الاطلاق لتوبته « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » وفي رقعة شاكي حاجة « لك في مال الله نصيب أنت آخذه » وفي رقعة متظلم « الحق يسعك » وفي رقعة متنصح « مهلا فقد أبلغت أسماعى » وفي رقعة رجل شكى عقوق ولده « ربما كان عقوق الولد من سوء نأديب الوالد » . ووقع الحجاج إلى قتيبة بن مسلم وقد أخبره بعزمه على عبور نهر ومخاربة الترك « لا تخاطر بالاسلمين حتى تعرف موضع قدمك ومرمى سهامك » ووقع له أيضا « خذ عسكرك بتلاوة القرآن فانه أمان من حصونك » .

ثم جاءت الدولة العباسية فتولى خلفاؤها وولاتهم أول ما جاءت ، التوقيعات مثل ما كان يلي خلفاء بنى أمية وولاتهم . وقع أبو العباس السفاح لعامل تظلم منه الناس « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ، ولجماعة من الأنبار ذكروا أن منازلهم أخذت في بناء أمر به ولم يعطوا أثمانها « هذا بناء أسس على غير تقوى » وأمر بدفع قيمتها ، ولجماعة من البطانة شكوا احتباس أرزاقهم « من صبر في الشدة شورك في النعمة » ووقع المنصور في رقعة قوم تظلموا من عامليهم « لا ينال عبيد الظالمين » ولأهل الكوفة وقد شكوا عامليهم « كما تكونون يؤمر عليكم » ولعامل شكاه رجل « إن آثرت العدل صحبتك السلامة ، وإن آثرت الجور فما أقربك من الندامة ، فأ نصف هذا المتظلم من الظلامة » ولعامله بمصر

وقد ذكر له نقصان النيل « طهر عسكرك من الفساد يعطك النيل
 القياد » ولعامله على حصص وقد أخطأ كاتبه في كتاب « استبدل بكاتبك
 والا استبدل بك » ولعمه عبد الله بن علي « لا تجعل للأيام في وفيك
 نصيبا من حوادثها » ولرجل شكا عيلة (سل الله من رزقه) ولرجل شكا
 ديننا « إن كان دينك في مرضاة الله قضاءه » ولآخر قطعت عنه أرزاقه
 « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له
 من بعده وهو العزيز الحكيم » . ولعامل أرمينية وقد أخبره أن الجند
 شغبوا عليه ونهبوا بيت المال « اعتزل عملنا مذمو ما مدحورا فلو عدلت
 لم يشغبوا ولو قويت لم ينهبوا » . ووقع المهدي لعامل أرمينية وقد شكا
 إليه سوء طاعة أهلها أيضا « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن
 الجاهلين » ولعامل خراسان وقد أخبره بغلاء الأسعار (خذهم بالعدل
 في المكيال والميزان) وفي قصة رجل حبس في دم « ولكم في القصاص
 حياة يا أولى الألباب » وفي قصة آخر من بطانته يطلب صالة أبطأت
 « ليت إسرا عنا إليك يقوم بابطائنا عنك » ولشاعر أسرف في مديحه
 « أسرفت في مديحك فقصرنا في حبائك » . ووقع وزيره أبو عبيد الله
 لرجل كتب إليه يتعجل استمناحه ويقول - والنفسه ولعه بحب العاجل -
 « لكن العقل الذي جعله الله للشهوة زماما وللهوى رباطا ، موكل
 بحب الآجل ، مستصغر لكل كثير زائل » . ولآخر مبطل « الحق
 يعقب صلاحا وظفرا ، والباطل يورث كذبا ونדما » .

ولما آلت الخلافة إلى الرشيد وكان ليحيى بن خالد البرمكي عليه
 في ذلك الفضل وله حق الأبوّة من قبل : عهد إليه بما كان لا يتركه الخلفاء

لتغير أنفسهم فشاركه في التوقيعات وبذلك تحول التوقيع إلى منصب ووجدت في الكتابة خطة جديدة يقول في التعريف بها ابن خلدون « ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه، أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه، فاما أن تصدر كذلك وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة » وقد صدر عن الرشيد ومحيي وكان في البلاغة على أرفع ما تكون، توقيعات منسوبة إلى الرشيد جاوزت ما كان . وقع لعامله بخراسان « داو جرحك لا يتسع » وفي قصة محبوبس « من لجأ إلى الله نجا » وفي قصة متظلم « لا تجاوز بك العدل ولا يقصر بك دون الانصاف » وفي قصة رجل يعرف كفايته تظلم من عامله على الاهواز « قد وليناك موضعه فتتكب سيرته » وفي رقعة شيخ مدعى إليه بنميعة « السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أردت بها النصيح ففسر انك فيها أكثر من الربح، وأنا لا أسعى في محظور ولا أسمع قولة مهتوك في مستور، ولولا أنك في خفارة شيبك لعاقبتك على جريرتك معاقبة تشبه أفعالك » ولما نقل الرشيد ديوان الخاتم من الفضل بن يحيى إلى جعفر أخيه وترك له كل شيء يتصرف فيه كما يشاء، تولى جعفر التوقيع بنفسه بين يدي الرشيد، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها . حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار كما قال ابن خلدون . وقع لعامل كثير التظلم منه « قد أكثر شاكوك وقل شاكروك، فاما عدلات واما اعتزلات » ولعامل مثله

ظالم « أنصف من وليت أمره وإلا أنصفه منك من ولي أمرك »
ولعامل آخر « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا » ولعامل مصر
في رجل من بطانته يوصيه به « إنه رغب إلى شعبك فارغب في اصطناعه »
ولقوم تظاهروا « عين الخليفة تكلوكم ونظره يعمكم » ولرجل اعتذر
من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت توبتك ولا تغلب سيئة حسنتين »
وفي قصة مجبوس يطالب العفو « العدل أو ثقه والتوبة تطلقه » وفي
قصة متنصح « بعض الصدق قبيح » وفي قصة مستمنح وصله مرارا
« دع الضرع يدر لغيرك كما در لك » وفي كتاب رجل قرأه فاستحسن
خطه « الخط خيط الحكمة ينظم فيه منشورها وتفصل فيه شذورها » .
ومن توقيعات أخيه الفضل في قصة متعدد « بشئ الزاد إلى المعاد
التعدي على العباد » . ولكن الرشيد عاد إلى التوقيع بنفسه بعد قتله جعفرا
وحبسه أباه . وقع في قتل جعفر « أنبتته الطاعة وحصدته العصية »
ورفع إليه يحيى رقعة من الحبس يستعطفه فيها فوقع عليها « عظيم
ذنبك أمات خواطر العفو عنك » ولما كتب إليه وقد أحس بالموت
يقول — قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل وأنت بالأثر والله الحكيم
العدل وستقدم فتعلم — وقع على الكتاب « الحكيم الذي رضيته في
الآخرة لك هو أعدى الخصوم عليك وهو من لا يرد حكمه ولا
يصرف قضاؤه » .

وهكذا كان التوقيع على عهد المأمون ورجاله وبخاصة الفضل
والحسن ابنا سهل . فن توقيعات المأمون لأخيه في قصة متظلم منه
« فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وفي

قصة متظلم من عمرو بن مسعدة « يا عمرو عمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها » وفي قصة متظلم من حميد الطوسي « يا أبا غانم لا تغتر بموضعك من إمامك فانك وأخس عبيده في الحق سيان » ولما كتب اليه عمه ابراهيم - إن غفرت فبفضلك وإن أخذت فبحقك - كان توقيعه « القدرة تذهب الحفيظة والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله » . وكتب اليه عامل الرقة يصف خروج الاعراب بسنجار وعبثهم بها فوقع له :

أسمعت غير كهام السمع والبصر لا يقطع السيف إلا في يد الحذر
سيصبح القوم من سيفي وضاربه مثل الهشيم ذرته الريح بالمطر
ومن توقيعات الفضل بن سهل لعامل متسرع « إن أسرع النار
التهابا أسرعها خمودا فتأن في أمرك » ولصاحب الشرطة « ترفق فوق »
وإلى رجل شكك اليه الدين « الدين سوء يهيمض الأعناق وقد أمرنا
بقضائه » وفي رقعة قاتل شهد عليه العدول ولكن شفع فيه « كتاب
الله أحق أن يتبع » وفي قصة متظلم « كفى بالله المظالم ناصرا » وفي قصة
قاطع طريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض
فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو
ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب
عظيم » ووقع الحسن بن سهل في قصة قوم تظالموا من واليهم « الحق
أولى بنا والعدل بغيتنا فان صح ما ادعيتم عليه صرفناه وعاقبناه » ومدحه
على ابن عبيدة الرياحي ووقف ببابه ينتظر عطاءه فطال وقوفه فبعث
اليه رقعة يشكو الأبطاء فوقع عليها « باب السلطان يحتاج إلى ثلاث

خلال : عقل وصبر ومال .

هذه طائفة من التوقيعات منذ أن عرفت على يد عمر بن الخطاب إلى أواخر العصر العباسي الأول تقريبا على عهد المأمون ورجاله . ومنها يرى أن التوقيع مبني على إيداع اللفظ القصير المعنى الكثير ولذلك غلب أن يكون آية قرآنية أو حديثا نبويا أو مثلا سائرا أو حكمة متوارثة ، فان تعدى هذه الأنواع فلا أقل من أن يكون جامعة كلم للموقع أو لغيره ممن سلف . كما لازم العصور التي ساد فيها الإيجاز الاطناب وآخرها العصر العباسي المذكور حيث كانت السليقة العربية متمكنة والبدائة حاضرة فيمن يتولونه وفي كثير ممن كان يكتب به اليهم . قال العلامة ابن خلدون يصف حال صاحبه « واعلم أن صاحب هذه الخطة - يعنى خطة التوقيع - لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ومع ما يضطر اليه في الترسييل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها » اهـ

وقد بدأ الطول منذ عهد المأمون ووزرائه يظهر في التوقيعات وهذه ظاهرة لم تكن معروفة فيها ولسناتهم هؤلاء بالعجز أن يوجزوا ، فان لهم في ذلك الآيات البيّنات ولكننا لانحلبهم من أن روح العصر المتنقلة حينذاك من الإيجاز إلى الاطناب أخذت تؤثر فيهم من حيث لا يشعرون . رفع الواقدي رقعة إلى المأمون يشكو فيها الدين فوق

عليها (فيك خلعتان السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذي أطلق يديك
بما ملكك وأما الحياء فهو الذي حملك على ذكر بعض دينك وقد
أمرنا لك بضعف ما ذكرت فان قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك
على نفسك وإن بلغنا بغيتك فزد في بسط يدك فان خزانة الله مفتوحة
ويده بالخير مبسوطة) . وكتب اليه أحمد بن يوسف يستجدي لطلاب
الصلوات وقد كثروا على بابهِ فوقع على كتابه (الخير متبع وأبواب
الملوك مغان لطالبي الحاجات ومواطن لهم ولذلك قال الشاعر

يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

فاكتب أسماء من بيابنا منهم وبين مراتبهم ليصل إلى كل رجل
قدر استحقاقه ولا تكدرن معروفنا عندهم بطول الحجاب وتأخير
الثواب فقد قال الشاعر :

وإنك لن ترى طردا حر كالصاق به طوق الهوان

ولم تجلب مودة ذى وفاء بمنل البشر أوبذل اللسان)

وكتب رجل إلى أحمد بن يوسف يستتم الصنيعة عنده فوقع
على كتابه « مستتم الصنيعة : من عدل زائغها وأقام أودها : صيانة المعروفه
ونصرة لرأيه ، فان أول المعروف مستخف وآخره مستثقل يكاد أول
الصنيعة يكون للهوى وآخرها للرأى ولذلك قيل تتميم الصنيعة أشد من
ابتدائها » . ورفع بعض الولاة إلى الفضل بن سهل رقعة طامل عنده
بسعاية فوق عليها « نحن نرى قبول السعاية شرا منها ، لأن السعاية
دلالة والقبول إجازة وليس من دل على قبيل وأخبر به كمن قبله وأجازه
فاطرد هذا الساعي عن عملك وأقصه عن بابك فانه لو لم يكن في سعائته

كاذبا لكان في صدقه لثما آثما إذ لم يحفظ الحرمه ولم يستر العورة .
ولما انقضى العصر الأول وفقدت بانقضائه القدرة على الاجاز ،
وتولى شئون الدولة في العصر الثانى من لا يفهمون البلاغة من الخدم
الأتراك لم يجهد الكتاب أنفسهم في التوقيعات وإنما بقيت خطة
صاحبها ، فأصبحت غير كفيلة وحدها بالافادة كما كانت قبل ، وصارت بمنزلة
ما نعرفه الآن بالتأشيرات من حيث بناء الردود عليها لا إرسالها نفسها
لعدم غنائها في تمام الاستفادة منها ، نعم إن بعضها كان صالحا لذلك في نظر
واضعه وأمام من يبنى الرد عليه ، ولكنه ما كان صالحا بحال عند من
يبحث به إليه لتقلص القدرة على فهم بلاغة الاجاز إذ ذاك كما هي الحال
في الإشارة الآن .

وقد استمر التوقيع في العصر الثالث - على رقى الكتابة فيه -
فاقتدا روعة البلاغة بلاغة الاجاز ، فهيبت منزلته وتناساه الناس إذ
لم يعودوا يرون عليه ما كانوا يرون قبل من رونق وبهاء ، وبذلك زال
ما كان له من حسن وقع في الصدور ورفعة قدر في النفوس .
على أنه قد وجد من كبار الكتاب في هذا العصر من جهد نفسه في التوقيع
فكان له منه مالا يقل عن توقيعات المتقدمين . ولعل خير هؤلاء صاحب
ابن عباد وهذا شيء مما خلف فيه . وقع في رقعة استحسنها « أفسحر
هذا أم أنتم لا تبصرون » ورفع إليه بعضهم رقعة أغار فيها على بعض مآثوره
من معان وألفاظ فوق عليها « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ووقع في كتاب
لبعض مخالف فيه « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »
وكتب رجل يخبر أن أحدا من ينطوى له على غير جميل يدخل داره

في غمار الناس ثم يتنوم لاستراق السمع فوقع إليه « دارنا هذه خان
يدخلها من وفي ومن خان » ورفع إليه رجل رقعة بخطب فيها عملاً
فوقع عليها « التصرف لا يلتبس بالتكفف ، من احتجنا إليه صرفناه
وإلا صرفناه » ووقع إلى أبي محمد الخازن وكان قد انصرف عنه مغاضباً ثم
كتب إليه يستأذن معاوداً « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك
سنين » . أما في العصر الرابع فقد توارت التوقيعات عن الأنظار لاستيلاء
العجمة واستحكامها، ولم يظهر للقوم فيه من ناحية الإيجاز الكتابي إلا
ما خرج بالإيجاز عن وضعه الاصيل إلى الرمز المشير الذي بدأ يظهر
من أواخر العصر الثالث قبله. وإليك في هذا مثلين: بعث السلطان محمود
الغزنوي في أواخر القرن الرابع وقد استقل بالسلطنة عن بغداد يطلب
إلى الخليفة ذكر اسمه في الخطبة ونقش اسمه على النقود، فامتنع الخليفة
فبعث إليه كتاب تهديد جاء فيه « لو أردت نقل حجارة بغداد على
ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت » فكان الجواب كتاباً ليس فيه إلا البسملة
وبعدها ألف فلام فيم ثم الصلاة على النبي والحمد لله . فامافتحه تحير هو
وأهل مجلسه في فهمها حتى دخل عليه أبو بكر القهستاني من كبار العلماء
فسئل فيه فقال: إنكم بعثتم تهديدون الخليفة بالفيلة فبعث اليكم هذا
الكتاب وفيه « ألف ولام وميم » إشارة إلى قوله تعالى « ألم تر كيف
فعل ربك بأصحاب الفيل » السورة فارتاع السلطان وصاد مطيعاً .
وحدث في أواسط القرن الخامس أن خاف سيد الملك صاحب قلعة
شيرز بالقرب من حماة تاج الملوك صاحب حلب فخرج إلى جلال الملك
بن عمار صاحب طرابلس وأقام عنده ، فأراد تاج الملوك أن يحتال في

استقدمه ليفتك به، وأوعز إلى كاتبه أبي النصر محمد بن الحسين أن يكتب إليه في ذلك وكان له صديقاً فكتب كما أمر، ولكن حين بلغ قوله « إن شاء الله تعالى » شدد النون وفتحها، فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك استحسنه الحاضرون فقال لهم وكان فطنا « إني أرى في الكتاب ما لا ترون » وأجابه بكتاب كان من جملته « أنا الخادم المقر بالانعام » غير أنه كسر همزة أنا وشدد نونها، فلما قرأ أبو النصر الكتاب علم أنه فهم ما أراد، إذ كان أبو النصر يقصد بما تقدم قوله تعالى « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » وكان سديد الملك يقصد « إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها » .

هذا وإنا قبل الفراغ من الكلام على التوقيعات، لا يسعنا إلا الحكم بأنها أثر من آثار العرب لا محاكاة منقولة عن الفرس كما قد يقال، لأن الإيجاز من مميزات العربية، وسائر الساميات عن الآريات، كما هو ظاهر في أمثال العرب الجاهليين وحكمهم وجوامع كلمهم، ولأن عمر حينما بدأ التوقيع لم تكن الفارسية معروفة في الجزيرة حتى يكون هناك محل للمحاكاة، إنما هي نوع من أنواع التفكير دفع إليه ملك العرب الجديد، في أسلوب من الأساليب القصيرة وسعته لغتهم ذات الإيجاز، فأخذ ينمو شيئاً فشيئاً أيام الدولة الأموية دون أن يكون للفارسية على أيامها انتشار، ثم استبحر الملك أول العهد العباسي وبقيت بلاغة الإيجاز، فكان له ما كان حتى إذا ما ضعفت تقلص مع بقاء الفارسية ضاربة الجران .

٣- القصص

نشأ الإنسان الأول محوطاً بالوحوش التي تناصبه العداء صباح مساء، وبنوا ميس الطبيعة التي تنكي به وهو يجهل ما لها من أسرار، فكانت هذه الحرب المشبوبة عليه من الجانبين حافزة لخياله أن يتصور الخوف في كل شيء، ولعقله أن يفكر بقدر استعدادة إذ ذاك فيما يدفع هذه الغوائل عنه، وقد سبغ به خياله أن يرى وراء هذه الظواهر المجهولة الأسباب قوى خفية يرهب جانبها ويخشى سطوتها، وهداه عقله أن يتملقها ويتقرب إليها فكان من ذلك الدين الذي يتحقق بين معبود مخوف مرجو، وعابد خائف راج، ولعل مما قوى في نفسه وجود هذا العالم غير المنظور ما كان يطرقة في نومه من أحلام يرى فيها من ماتوا أحياء يقولون ويفعلون كما كانوا في هذا العالم المنظور، وكان من نتائج ذلك أن حاك لنفسه أساطير خرافية تغذي نهمه في الخوف والرجاء كانت النواة لما جدد بعد من قصص وروايات. غير أن هذا التراث القديم لم يجد عوامل النمو في كل البيئات سواء، فحيث تكون البلاد كثيرة الجبال والكهوف والأنهار والغابات وضواحي الوحوش وجوارح الطيور يعظم الخوف ويقوى التخيل والاختراع، وحيث تكون منبسطة الأرض سافرة السماء تقل الرهبة ويضعف الخيال، وكلما قوى الخوف بالإنسان جدد في التآليه وأكثر من المعبودات، وعلى العكس إذا ضعف الخوف تبسطت عبادته وقلت آلهته. ومن ثم كانت الحالة الأولى ممثلة قديماً في مثل بلاد اليونان، وكانت الثانية واضحة في سكان البوادي كالعرب الجاهليين. وليس يطعن فيما نقول عن العرب الآن ما كان لديهم من تعدد الديانات

لأننا نعنى بالتعدد أن يكون في معتقدات الشخص الواحد كما هي الحال في الأمة التي ذكرنا، لا أن يكون في مجموع أمة تقف كل طائفة منها عند عبادة واحدة كما كانت العرب في القديم .

ذكرنا ذلك لنخرج منه إلى أن الأمم كانت إزاء القصص مختلفة الدرجة على حسب اختلاف البيئة التي هي الأساس . وإذ كان تنازع البقاء في القديم ممثلاً أولاً بين الإنسان وغير الإنسان، وممثلاً ثانياً في الحروب التي كانت لا ينقطع لها مدد بين الجماعات، فقد وقعت الأساطير الخرافية على ذلك التنازع، وجاءت القصص القديمة في تلك الحروب يتغنى فيها المنتصر بأبطال الانتصار، ويتخيل فيها المهزم بطلا منتظرا يكون على يديه الخلاص . وأعقب ذلك وجود أناس من القصاصين يرتقون بالقصص على حساب الطبقات . فعند الخاصة يفيض القاص في نيل الأمراء وما لهم على العامة من سطوة وإفضال، ولدى العامة يسخر من الأمراء ويذكر ما يشينهم من فضائح ومخاز . ولم يكن أولئك القصاصون بالواقفين عند الحقائق التي كانت تبني القصة عليها أول وضعها، بل كانوا يعطون لأنفسهم حق الزيادة فيها والتهويل بها وإضافة حقائق أخرى إليها، وقد ساعدتهم على هذا الوضع والاختلاق في القصص الموضعية بعد الهوة بين طبقتي الأمة إلى ما يشبه الانعزال، وفي غير الموضعية انقطاع الصلات بين بعض الأمم وبعض انقطاعا أوجده اكتفاء كل أمة ببلادها وأحكامه سوء حال المواصلات وقلة وسائل الانتقال . فكثرت بذلك القصص على أيدي هؤلاء القصاصين حتى صار لكل أمة مستعدة لها تراث منها عظيم، وبخاصة وقائع الملاحم المنشأة في الحروب، وسير

الأبطال ممزوجة بذكر الآلهة المساعدين إذ كان تمجيد الأبطال واستنجاد الآلهة أمرين جوهريين في القصص القديم^(١).

جاء الاسلام والعرب خلو من القصص للأسباب التي ذكرنا ، ومع احتكاكهم بالآثم منذ الصدر الأول ، واطراد هذا الاحتكاك في العهد الأموي ، استمروا بعيدين عن أن يكون لهم قصص في العصرين المذكورين على النهج الذي أوضحناه لأسباب زائدة على خلو قديمهم من الأساطير أهمها عدم عنايتهم بأداب غيرهم اعتقادا منهم أن أدبهم لا يعلوه أدب وأنهم وصلوا في الناحية الأدبية إلى القمة ، وأن الامم الاخرى في الخضيض . على أن امتلاء القصص القديمة لغيرهم بتعدد الآلهة قد يكون من أسباب انصرافهم عنها لمنافاتها الاسلام ، وبذلك انسلخ هذان العهدان بعد العهد الجاهلي ، وتدوين القصة عندهم في حكم المعدوم على ماله عند بعض الآثم من شأن عظيم .

غير أن دخول كثير من الفرس الاسلام ، وحثقهم العربية والفارسية معا حبب إليهم أول العصر العباسي أن يغذوا العربية عن طريق الترجمة بما يرونه في القصة الفارسية من جمال ، وكان أول عهد العرب بالقصص المترجمة كتاب كليله ودمنة المنقول في القرن الثاني وتلته كتب كثيرة

(١) من أشهر الملاحم القديمة الاياذة والأوذيسة لهوميروس شاعر الاغريق ، والانياد لفرجيل شاعر الرومان . فالايادة قصة حرب طروادة التي دامت عشرين سنة بينها وبين اليونان . والأوذيسة قصة ضلال يوليسيس طريق البحر وهو طائد برجاله من تلك الحروب إلى بلاد اليونان ، أما الانبياد فقد نظمها فرجيل تمجيذا لأسرة أغسطس قيصر أحد أباطرة الرومان .

أشهرها كتاب ألف ليلة وليلة في القرن الثالث . ومنذ تذوقوا جمال هذا الفن نشطوا في وضع القصص بعد نشاطهم في ترجمتها فكانت لهم في كلا النوعين آثار كما سترى في هذا البيان .

١ - القصص المنقولة

عرفت أن أول كتاب عرفته العرب في القصص المنقولة في القرن الثاني كتاب كيلة ودمنة ذو الحكمة الخالدة والشهرة الذائعة^(١)، وهو كتاب وضعه بيدبا الفيلسوف الهندي من البراهمة بالهندية السنسكريتية لدبشليم أحد ملوك الهند بعد عصر الاسكندر، في صورة أقاصيص على السنة الحيوان تتضمن الأدب والحكمة مما يحتاج اليه الملوك في سياساتهم، والناس في معاملاتهم، وذلك في خمسة عشر بابا هي :

(١) باب الأسد والثور، وفيه قصة المتحابين يقطع بينهما الكذب المحتال، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء (٢) باب الفحص عن أمر دمنة، وفيه قصة الواشى الماهر المحتال وكيف ينتهى أمره إلى وبال (٣) باب الحمامة المطوقة، وفيه قصة إخوان الصفاء كيف يتواصلون ويستمتعون (٤) باب البوم والغربان، وفيه قصة العدو الذى لا ينبغي أن يغتر به، وإن أظهر نضرعا وملقا (٥) باب القرد والغيل^(٢)، وفيه قصة الرجل الذى يطلب الحاجة، فاذا ظفر بها أضاعها (٦) باب الناسك وابن عرس، وفيه قصة الرجل العجولان في أمره من غير روية ولا نظر

(١) أخذ الكتاب هذا الاسم من اسم أول حيوانين من بنات آوى دار الحديث بينهما فى باب الأسد والثور أول أبواب الكتاب وأضخمها .

(٢) الغيل هو السليخفة الذكور

في العواقب (٧) باب الجرذ والسنور ، وفيه قصة الرجل تكثر أعداؤه فيلتمس النجاة بموالة بعضهم ويفي له (٨) باب ابن الملك والطائر فئزة^(١) وفيه قصة أهل التراث الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض (٩) باب الأسد والشعير^(٢) الناسك، وفيه قصة الملك الذي يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم (١٠) باب إبلاذ وبيلاذ وإيراخت^(٣) ، وفيه ذكر الأشياء التي يجب أن يجعلها الملك رأس أمره وملاكه (١١) باب اللبوة والأسوار^(٤) والشعير ، وفيه مثل الرجل يدع ضر غيره ويتعظ بما ينزل به (١٢) باب الناسك والضعيف. وفيه مثل الرجل الذي يدع ما يشاكله ويطلب غيره فلا يدركه (١٣) باب السائح والصائغ ، وفيه مثل الذي يضع المعروف في غير موضعه ويرجو الشكر عليه (١٤) باب ابن الملك وأصحابه ، وفيه مثل الجاهل يصيب الخير ، والعاقل يقع في الضر (١٥) باب الحمامة والشعلب ومالك الحزين^(٥) وهو باب من يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه .

وبعد نحو ثمانية قرون من وضعه سمع بمكانته كسرى أنوشروان فبعث برزويه رأس أطباء مملكته إلى الهند لترجمته ، فترجمه من خزانة كتبها سرا إلى الفارسية الفهلوية . وطلب إلى الملك أن تكون مكافأته أن يأمر وزيره بزرجمهر بعمل ترجمة له في باب يوضع أول الكتاب قبل باب الأسد والنور فعملها . ثم عملت مقدمة للكتاب بقلم بهنود ابن سحوان في باب ذكر فيه السبب الذي من أجله وضع بيد بالكتاب

(١) اسم بيغاء (٢) ابن آوى (٣) أسماء لوزير فلك فلكة (٤) بكسر

الهمزة وفتحها الجيد الرمي بالسهم (٥) الطائر المعروف بأبي قردان .

لدى بئليم، وأعقبها بباب ثان ذكر فيه بعثة برزويه إلى بلاد الهند لترجمته. وبعد نحو مائتي سنة من هذه الترجمة نقله عبد الله بن المقفع إلى العربية وزاد عليه مقدمة بين فيها أغراضه في باب دعاه باب عرض الكتاب وجعله بين ما كتب بزرجمهر وما كتب بهنود، فكانت الأبواب الزائدة على الابواب الهندية أربعة، وبذلك صار الكتاب تسعة عشر بابا، ثم فقد الأصلان الهندى والفارسى ولم يبق غير الاصل العربى الذى طبع مرارا منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى الآن، ومن هذا الأصل نقل إلى معظم اللغات الشرقية والغربية قديما وحديثا^(١)

وقد شغل هذا الكتاب مكانة عظيمة في عالم القصص الحيوانى، وفتح أمام الكتاب مجالا للخيالات شرقا وغربا، ولذلك غنى الناس به

(١) ما ذكرناه عن أبواب الكتاب هو الوضع الذى تنطق به النسخة العربية المتداولة في مصر الآن. ويرى فقيده التاريخ والأدب « جورجى زيدان » في كتابه آداب اللغة العربية، أن أبواب الكتاب واحد وعشرون فقد منها اثنتان في النسخ المطبوعة عن الترجمة العربية، هما باب ملك الجرذان من وضع الفرس، وباب مالك الحزين والبطّة، من وضع ابن المقفع، كما يرى أن باب الفحص عن أمر دمنة، وباب الناسك والضيف، وباب الحمامة والشعاب ومالك الحزين، وكذا أول البابين المنسوبين الى بهنود من وضعه كذلك مع باب عرض الكتاب، وعلى رأيه تكون الابواب الهندية اثني عشر، والفارسية ثلاثة، والعربية ستة، ولكنه لم يذكر مستنده في هذا الخلاف مع اعترافه بفقد الاصلين الهندى والفارسى، كما لم يشر إلى أية نسخة عربية غير المطبوعة يوجد فيها هذان البابان الناقضان.

عناية كبيرة فوق ترجمته إلى أغلب اللغات . فنظمه أبان بن عبد الحميد
اللاحق ليحيى البرمكي وأولاده ، وقيل إن سهل بن نوبخت نظمهم لهم
أيضا ، ونظمه كذلك على بن داود كاتب السيدة زبيدة ، كما نظم بعضه
بشر بن المعتمد ، وكل هذه صناعات ولم يبق منها إلا أبيات منقولة من
نظم أبان ^(١) ثم نظمه أبو يعلى محمد العباسي المتوفى سنة ٥٠٩ للمعروف بابن
الهبارية في كتاب سماه نتائج الفطنة في نظم كيلة ودمنة . كما نظم
القاضي الأسعد بن ممتاى المصرى المتوفى سنة ٦٠٦ لصلاح الدين
الأيوبى ، وكلاهما موجود . وقد عورض الكتاب بكتب ألفت على منواله
نظما ونثرا . فمن المنظومة كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية المذكور وقد
رفعه إلى الأمير صدقة بن منصور بن ديس أمير الحلة ^(٢) وكتاب درر

(١) أول هذه المنظومة

هذا كتاب أدب وعينه وهو الذى يدعى كيلة دمنه
فيه احتمالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند
ومنها فى معنى أن الرجل الرشيد إما أن يكون مع الملوك مكرما ، أو مع
النسك متعبدا ، كالقيل يكون وعشيا أو مركبا للموك

وقيل أيضا إنه قد ينبغى للرجل الفاضل فيما ينبغى
ألا يرى إلا مع الأملاك أو يعبد الله مع النسك
كالقيل لا يصلح الأمر كبا لملك أو راعيا مسييا
(٢) هذا الكتاب أبدع فيه صاحبه اختراع الحكايات والأمثال فى أسلوب

رقيق حسن الانسجام وأوله :

الحمد لله الذى حبانى بالأصغرين القلب واللسان

الحكم في أمثال الهنود والعجم لعبد المؤمن بن الحسن في القرن السابع.
وثالث لجلال الدين النقاش في القرن التاسع. ومن المنشورة كتاب ثعلبة وعفرة
لسهل بن هرون صاحب بيت الحكمة للمأمون^(١). وسلاوان المطامع في عدوان
الأتباع لأبي عبد الله محمد القرشي المعروف بابن ظفر في القرن السادس.
وثالث لأحمد بن محمد الحنفي المعروف بابن عربشاه في القرن التاسع.
ومع وجود هذه الكتب الستة مع نظومه الستة التي قلنا بوجود بعضها
إلى الآن مطبوعاً أو مخطوطاً لم تقو على معارضة الكتاب، فقد صرعا جميعاً
كما صرع ترجمة له ثانية من الفارسية كان قد قام بها عبد الله بن هلال
الأهوازي ليحيى بن خالد في خلافة المهدي فبادت مع ما باد.

والكتاب فوق اشتماله على القصص الجميلة المخترعة ذات الخيال
الرائع، وعلى التشبيهات المركبة والاستعارات التمثيلية التي تنسجم معها في
هذا الخيال، قد اشتمل في ثنايا ذلك على أمور عدة زادت من قيمته
ورفعت من شأنه. كاشتماله على الحكم والأمثال في السياسة والاجتماع،
وعلى التحليلات الدقيقة لظواهر النفس من إرادة وتفكير وشعور،
وعلى تصوير النظم في الحكومات المطلقة وتبيين طبائع الاستبداد،
وعلى وصف الطبائع الكثيرة لكثير من البهائم والسباع والطيور

(١) مما نقل عن هذا الكتاب قبل فقده قوله « اجعلوا أداء ما يجب عليكم
من الحقوق مقدماً قبل الذي تجودون به من تفضلكم. فان تقديم النافلة مع
الابطاء في أداء الفريضة شاهد على وهن العقيدة وتقصير الروية، ومضر
بالتدبير ومخل بالاختيار، وليس في نفع تحمد به، عوض من فساد المروءة
ولزوم النقيصة »

والحشرات، وما يملق بأحوال معيشتها وحياتها، وكل ذلك في ضروب محكمة من التعبيرات المستوفية شرائط البلاغة فيما يتوخاه. ولولا أن الكتاب مشهور وما فيه من ذلك معروف لضربنا منه لكل تلك الأشياء الكثير من الأمثال. هذا وقد رأيت فيما نقلنا عن ابن المقفع في أسباب وضعه على السنة الحيوان، أنه وضع كذلك ليلائم الأحداث كما يلائم الكبار فظاهره هو ممتع وقصص لذيذ، وباطنه حكمة مقنعة وعظة بالغة، ولذا نشط له هؤلاء كما نشط له هؤلاء وعمر هذه القرون العديدة متلا عالما وأستاذاً مرييا للشرق والغرب على السواء. وكلما مرت الأيام ازداد جدة وزاده الناس إقبالا ومحبة.

أما كتاب ألف ليلة وليلة الذي عرفته العرب عن القصص في القرن الثالث، فهو مجموعة قصص تقع في أربع مجلدات تبلغ صفحاتها نحو ألفي صفحة منها نحو مائة قصة اعتبرت أصولاً ثم وردت في ثناياها مئات القصص على سبيل الاستطراد، وتعزى هذه القصص على ما يزعمون في أصلها إلى قاصة تدعى شهرزاد كانت بنتاً لوزير ملك من ملوك ساسان خائنه زوجه، فاعتاد أن يقتل كل زوجة بعد الليلة الأولى من دخوله بها، وعز هذا القتل على تلك البنت فطلبت إلى أبيها أن يزوجه منها لتحمله على ترك هذه العادة إبقاء على بنات جنسها ففعل، وفي ليلة بنائه بها بدأت له في قصة جعلت الصباح يدركها قبل تمامها، وقطعت الحديث عند نقطة يشتاق السامع إلى ما بعدها. وفي الليلة الثانية استأنفت الحديث ثم قطعت كما قطعت في الليلة الأولى وهكذا حتى أتمت معه ألف ليلة رزق فيها ثلاثة أبناء منها. فاستشفعت إليه في الليلة الأولى

بعد الألف أن يقيمها من أجل أنبائها وأطلعته على ما كانت تبني من وراء
هذه القصص، فأكبر عقلها وقبل رجاءها وأقام معها في حبور ووفاق
والمطلع على ما قيل عن هذا الملك بمقدمة الكتاب من أنه كان
من ملوك ساسان الذين حكموا جزائر الهند والصين، يدرك حتماً أن هذه
القصص كما تتناول قصصاً فارسية تتناول معها قصصاً هندية وأخرى
صينية، وأنها وقد وضعت بالفارسية قبل الإسلام لا يمكن عقلاً أن
يكون من قصصها الأصلية شيء وقع بعده في جهة ما. ومن ثم يحكم
بداهة أن جميع القصص التي تناولت فترة من تاريخ العباسيين
ببغداد، وأخرى من تاريخ الفاطميين ومن بعدهم بمصر، دخيلة على الكتاب
وموضوعة بمعرفة العرب في هذه العهود. هذا وقد كان الأصل الفارسي
يدعى « هزار أفسانه » ومعنى ذلك ألف خرافة، فلما ترجمه العرب في
القرن الرابع دعوه ألف ليلة وليلة على ما جاء في سبب وضعه من أن
الليالي كانت ألفاً وأن كل ليلة كانت عامرة بخرافة أو أكثر أو جزء من
خرافة غير عربية حتماً، وأن العرب حينما زادوا على الكتاب أكثر من
نصفه لم يغيروا من وضعه هذا، فأبقوا لياليه كما ذكر عنها ألفاً وجعلوا
حكاياتهم المزيدة في ثنايات تلك الليالي. غير أن الفاحص عن الكتاب يجزم
حتماً أنهم نقلوا بعض الخرافات من لياليها إلى ليال غيرها، فإن هناك
ليالي كاملة تغمرها حكايات لا يعقل أن تكون من وضع الفرس لائتها
عربية خالصة، كما لا يتفق أن تكون الليالي المحكي فيها أصلاً أقل من ألف
لأن سبب وضع الكتاب ناطق بهذا العدد صريحاً. وقد استمرت هذه
الزيادة وهذا التحوير في الكتاب منذ أن ترجم إلى القرن العاشر الهجري

حيث دولة المماليك بمصر، وساعد عليهما عدم حمل الكتاب اسم المترجم من الفارسية ولا أسماء من تعاقبوا عليه بعد .

فالكتاب من حيث مأخذ حكاياته وقصصه يمثل ثلاث نواح مختلفة لأحوال الناس وأمور الاجتماع .

الناحية الأولى فارسية بما فيها من دخیل هندي وصيني، وهى تصور عقليات هذه الأمم الثلاث واتساع الخيال فيها، ولذلك تكثر فيها عجائب الخلق وغرائب الحوادث كالأسماء الكبيرة الحجم المختلفة الأشكال، والأودية المملوءة بالماس، والأفاعى وطير الرخ الذى يشبع فرخه عشرات الناس، وغيرها مما يماثل طبيعة تلك العصور كما يماثل عقائد الفرس والهنود والصين .

والثانية عربية إسلامية تمثل الحياة العربية فى بغداد، بعيدة عن ذلك الخيال القديم، وهى تكثر من ذكر الرشيد والبرامكة والجواري والقيان وأحوال الاجتماع إذذاك، ويتخلل ذلك قصص لأبطال العرب فى الفضائل كالجود والحلم والوفاء، وأخرى ترمى إلى الصبر والتعقل والنظر فى العواقب. وكثير من حكايات هذا القسم يطابق الواقع ويتفق وسياق التاريخ .

والثالثة مصرية، إسلامية أو إسرائيلية . فالإسلامية تمثل حياة القاهرة ويعتمد الكاتب فيها على ما تحسه نفسه من أثر الحوادث، وهى على ما فيها أحياناً من إغراب يستهوى القارىء إليها، بعيدة عن الخيال الصرف المجسم فى القصص الفارسية، وبعيدة كذلك عن نيل السعادة بالمصادفة والخط، ولذا يكثر فيها الاعتماد على النفس والاحتراف بالمهن، ثم يغلب عليها عدم الطول مع الامتلاء بأثر المزاج المصرى من الفكاهة العذبة

والنقد المقبول . والاسرائيلية مثل الاسلامية في مصريتها لأن أغلب كتابيها ممن اعتنقوا الاسلام كما يفهم منها ، ولكنها تمتاز بالنزوع إلى تقديس سليمان وداود ومالا يخالف الاسلام من مجد اليهود وبخاصة ما كان معدن الغريب كأحوال الجن مع سليمان ، وسحر هاروت وماروت ، ونحو ذلك من الاساطير الاسرائيلية المليء بها تاريخ بني اسرائيل . ولها تين الناحيتين في الكتاب يعتبر من وضع العرب إلى حد ما وأسلوبه في مجموعه مقبول ، غير أنه أكثر قبولا في القسم الفارسي والعربي لأن اللغة على عهد ترجمة الأول ووضع الثاني في بغداد كان خيرا منها في مصر حيث وضع القسم الأخير ، ولذلك اعتبر كتاب أدب وان كانت النظرة الاولى إليه من ناحية القصص والاساطير ، وقد طبع مرارا ونقل من العربية إلى معظم لغات أوربة وكان له من الفضل على كتابها القصصيين ما للمعلم الاستاذ على طلبته الناشئين .

هذا وقد ترجمت العرب من الكتب القصصية عن الفارسية والهندية غير كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة كثيرا ذكر أسماءها ابن النديم ولكنها ضاعت وما بقي تغير عن أصله حتى تقطعت بينهما الصلات ^(١)

ب - القصص الموضوعة

كانت ترجمة ألف ليلة وليلة بعد كليلة ودمنة فاتحة أبواب القصص بمعناه الحق أمام القرائح العربية ، فلم تعد ترضى بمالا يتسع فيه الخيال

(١) فما نقل عن الفارسية رستم واسفنديار ، وشهر زاد مع أبرويز ، والكارمانج في سيرة أنو شروان ، ودارا والصنم الذهب ، وبهرام ونرسي . وما نقل عن الهندية السندباد الكبير والصغير ، وجوداسف ، وأدب الهند .

كقصص ابن المقفع في كتابه هذا ، ولا بما يضرب إلى السيرة أكثر من القصة كقصص الجاحظ في بعض كتبه وأخصم البخلاء ، وبدأت تشارك الفرس في مثل ما وضعوا بما زادت في ذلك الكتاب ثم طفت تنشئ على غرار كتابه في القرنين الثالث والرابع تحدث ابن النديم عنها طويلا فكان مما قال : « وابتدأ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء ، بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسماء العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره ، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسماء والخرافات ما تحلى بنفسه ، وكان فاضلا ، فاجتمع له من ذلك أربعمئة ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام محتوى على خمسين ورقة ، ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبي الطيب أخي الشافعي . وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسماء والخرافات على السنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون وعلى ابن داود كاتب زبيدة وغيرهم » اهـ وهذا الكتاب الذي تحدث عنه ابن النديم هنا قد ضاع كما ضاع معظم ما ألف في القرنين المذكورين من القصص الخرافية والنكت المجونية مما يتحدث عنه أيضا ^(١)

على أن العرب لم يرضوا أن يكونوا في محاكاة الفرس بعيدين عن تاريخ آبائهم وأجدادهم فتلفتوا اليه يبحثون عن مواطن تصالح لأن يصاغ فيها قصص يكون منهم واليهم فاهتدوا إلى موطنين عظيمين ،

(١) مثل كتاب حوشب الأسدي وكتاب جحا ونوادر أبي ضمضم

ونوادر ابن الموصلي . وقد ضاعت ولم يبق إلا ما نقل عنها وهو قليل .

أحدها حماسى جاهلى، والثانى غرامى إسلامى، فكان لهم فى كليهما على العصر العباسى أثر جليل .

فأما عن الأول، فقد عمدوا إلى بعض أيام العرب فوسّعوا أخبارها وبالغوا فيها وضمّوا إليها كثيراً من مناقب الجاهلية المتعلقة بها كالنثار والعصبية والجوار والوفاء مسندين تلك الأخبار لتوثيقها إلى مشهورى الرواة كأتى عبدة والأصمعى وغيرهما، ومتناقضين ذلك فيما بينهم تناقل زيادة وتنمية، حتى انتهى إلى أن صار قصصاً تتلى فى المنازل والأندية للأسمر والتسليمية، كما كانت الحال فى القصص القديمة لليونان. غير أن بعض هذه القصص لم يتم نضجها وقليلها جاء كاملاً ناضجاً .

فمن الأولى، قصة البراق المأخوذة من كتاب لعمر ابن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ سمّاه الجهمرة، وهو فى أخبار العرب القدماء وبعض أيامهم وأشعارهم وحروبهم، ويوجد مخطوطاً به فى الكتب المصرية، وهذه القصة فى حروب وقعت بين ربيعة وغيرهم، والبراق شاعر قديم من أقرباء المهمل وكليب، ذو تاريخ فيه حماسة وفخر، وقد ساق ابن شبة قصته على أنه بطل فى خمس حروب، الأولى بين ربيعة والطائيين أخواله بسبب قتل الحارث بن عباد البكرى للفضيل بن عمران الطائى، والثانية بين ربيعة ومضر لتحامل مضر عليها، والثالثة بين ربيعة والفرس لأسرهم ليلي العفيفة، والرابعة بين ربيعة واليمن لقتل كليب أسيراً كان عنده منهم، والخامسة حرب البسوس المعروفة، وقد استغرقت وحدها أكثر من مائة صفحة .

ومن الثانية: قصة عنتر وهى أكبر القصص الممثلة للحماسة العربية

التي يخالطها الحب والغرام. بل الممثلة لآداب الجاهلية وأخلاق أهلها وعقائدهم وعاداتهم. والواضع لها هو العالم الراوية الشيخ يوسف بن اسماعيل، وكان من المتصلين لفضله بالعزير بالله الفاطمي في القرن الرابع، وحدث أن طبع الناس بريئة في قصر العزيز، فساءه ذلك وطلب إلى الشيخ يوسف أن يشغل الناس بقصة طريفة تصرفهم عن ريبة القصر وكان واسع الرواية في تاريخ العرب وأيامهم عن أبي عبيدة وابن هشام والأصمعي وغيرهم. وكأنه قد راقه ما كان من قصة البراق في حروب لبيعة أهمها البسوس، فأراد أن يضع قصة لبطل يفوقه هو عنتر في حرب تفوقها لقيس هي حرب داحس والغبراء فأخذ في كتابتها، ولكي يسارع بالهاء الناس بها عن تلك الريبة أخرجهما في أجزاء باع عددها ٧٢ جزءاً، وتعهد أن يقطع الكلام في آخر كل جزء فيها قبل نهاية أمر يشتاق السامع إلى تمامه كما كانت تفعل شهرزاد في لياليها، فتمكن بذلك من شغل الناس بها في أسماهم على أيامه، كما اشتغلوا بها من بعده إلى عهد ليس بالبعيد. وبالنظر إلى سعة رواية هذا الرجل قد أودعها من أخبار العرب وأشعارها في النواحي التي ذكرنا ما لم يأت مجموعاً في غيرها، فجاءت أحسن القصص العربية الموضوعة وأفيدتها وقد طبعت مرارا وعنى الغربيون بنقلها إلى شتى لغاتهم. وهناك قصص غير هاتين. (١)

(١) من القصص الموضوعة في هذا العصر أيضا: قصة بكر وتغلب ابني وائل في أخبار كليب وجساس المنسوبة الرواية إلى محمد بن اسحاق: وقصة شيبان مع كسرى أنو شروان المنسوبة إلى بشر بن مروان الاسدي عن ابن نافع التميمي، ولكنهما أقرب إلى التاريخ منهما إلى القصص على العكس من البراق وعنتر فأنهما

وأما عن الثاني، فقد عمدوا إلى الهوى العذرى الذى ذاع أمره
ببوادى الحجاز أيام الامويين. إزاء الهوى الاباحى بمدنه الثلاث- المدينة
ومكة والطائف- على ما فاصلناه بكتابنا الثانى عن الغزل فى العهد الاموى،
فأروا أبطاله يعنون فى العفة وراء إمامهم جميل، كلما معن رجال الاباحى
وراء إمامهم عمر فى الجرى وراء النساء، وراءهم ما لا أولئك الأبطال
من شجاعة فى مقاومة الهوى والتضحية بالنفس على مذبح الحب،
وشاهدوا فى هذا الميدان ما لم يشاهدوا فى ميدان الحرب، فوضعوا فيه
قصصا تمثل عاطفة الحب فى أروع مظاهره. محب ملك عليه الهوى
زمام قلبه وأخلص للعفة قبل إخلاصه ليله، وأقيمت العقبات فى طريق
زواجه من يهوى، وطال عليه الزمن فى هذا الألم ثم انتهى الامر بالتفريق
الدائم مصحوبا بالحكم على من يهوى أن يكون لغيره. وقد وجد قصاصو
هذا النوع تلك العناصر مجسمة بارزة فى سير جميل بن عبد الله بن معمر
عاشق بثينة، وقيس بن ذريح عاشق لبنى، وقيس بن الملوح عاشق ليلى
المعروف بالمجنون - والأولان مقطوع بوجودهما بغض النظر عما
دخل سيرتهما من مغالاة. أما المجنون فالرواية فى أنه شخص حقيقى أو
خيالى على خلاف لم يقطع التاريخ فيه ببيان. فكان أن وضعوا لكل
منهم قصة تمثل الحب الباكى أتم تمثيل. ولم يعدم الحب اللامضى قصاصين
يؤلفون فيه فوضعت قصة لأمامه عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة

قصصيتان والثانية أقص من الأولى وإن كانت الأولى أحق وقائع وأصح لغة
لتقدم زمنها عن الثانية أكثر من قرن.

المذكور وتلتها مئيلات . ثم كان أن ألفت قصص في مغرمات النساء لتقابل القصص الموضوعة لمغرمي الرجال . بل ألفت قصص الغرام بين الانس والجن كان الحب فيها الرجل أو المرأة من هؤلاء تارة ومن هؤلاء أخرى^(١)

أما وقد ذكرنا مجملين ما ينبغي أن يقال عن القصة العربية في العصر العباسي منقولة وموضوعة فإن علينا أن نبين كذلك ما يراد بالقصة في هذه الايام لنجاءكم إليه ما ذكرنا فنعلم الفرق بين ما كان وما هو كائن الآن . يراد بالقصة في العصر الحاضر كل كتابة أدبية فنية تصدر عن كاتب واحد بقصد تصوير حالة معينة في التاريخ أو الأدب أو الأخلاق أو الاجتماع أو غيرها تصويرا ينزع فيه الكاتب عن شعوره الخاص وتفكيره الناشئ عن هذا الشعور والوجه الذي يتجه إليه رأيه على حسب ما شعر وفكر بحيث تتمثل شخصيته في هذا التصوير تمثلا يفرق بينه وبين غيره ممن كتبوا فيما كتب ، لأن هذه الاشياء التي ذكرنا واحدة في ذاتها ، ولكن الذي يختلف إنما هو نظر الناس اليها وكيفية تصويرها ، وكلما اتسعت مسافة الخلف بين النظرات تباعد البون بين التصويرات ، ولبست تلك الأشياء أثوابا تبعدنا عن مرآها الثابت الأصيل إلى مرأى يخلع عليها ثوب القصص أو الأساطير . وهذا ما يطلق عليه الغربيون كلمة « رومان » أي حكاية أو خرافة وما نطلق

(١) ذكر صاحب الفهرست أسماء عشرات من القصص الغرامية المختلفة

كأبي العتاهية وعتب ، وابن قتيبة وبانوحه ، وريحانة وقرنفل ، وغيرها مما ضاع أو تضمنه ألف ليلة وليلة .

عليه نحن كلمة « قصة » هذا على أن بعضه قد يصدره الكاتب بشكل يجعله صالحا للتمثيل على المسارح فتراه يعتمد فيه الاكثار من الأشخاص المختلفين في الأخلاق والصفات، ويجعلهم يتحدثون في حوار حديثا يظهر المستور من طبائع النفوس وخفايا الصدور، مع الاحتفاظ بشخصية البطل أن تغطي عليها تلك الشخصيات، ومع المفاجأة بالعقد التي تعرض متطلباته الحل والمهارة في إيراد الحلول. وهذا ما يسميه الغربيون باسم « درام » أى قصة تشخيصية ونسمية نحن عرفا باسم الرواية لأننا اعتدنا أن نلاحظ فيما أخذ هذه التسمية من القصص، التشخيص^(١)

تلك شروط القصة الحديثة وأنواعها، وهى شروط لو دققنا فى تطبيقها على ما ذكرنا للعرب عن القصص فى العصر العباسى استعصى علينا التطبيق، لأن قصصه سير تاريخية لا تصوير شخصى، أو هى مكتوبة بقلم أشخاص عدة لا شخص واحد، أو هى مسفة العبارة كثيرة الأخطاء، ولكننا لو تساهلنا فى التطبيق من غير تدقيق ساغ لنا أن نقول إن العرب خلفت فى العصر العباسى مثالا للقصة فى عموم إطلاقها وشبه مثل لها فى الرواى منها. وإنما جعلنا ما خلفت فى هذا شبه مثل لامثالا للضعف البادى فيه عن نظيره الغربى، ولعل من أسباب هذا الضعف عدم استعداد العرب منذ قديمهم للشعر القصصى والتمثيلى كما بيناه مفصلا فى كتابنا الأول حيث الكلام على نوع الشعر الجاهلى، ثم عدم سماحهم

(١) يأخذ هذا النوع اسم « تراجيدى » إذا غلب عليه عنصر الفجعية

للمرأة بالتشخيص والتمثيل مع أن وجودها مع الرجل شرط أساسي فيه .
هذا وقد عالج العرب نوعاً من القصص غير ما أسلفنا رموا فيه
إلى عرض نظرية علمية أو فكرة فلسفية فعرف لذلك بالقصص العلمي أو
الفلسفي ، وهو وإن ضم إلى سمو الفكرة جودة العبارة إذ كتب خاصة
الناس ، ليس جديراً أن يحمل اسم القصص ؛ لأن الغرض الأول
للقصص مغمور بالعلم والفلسفة المقصودين فيه . ومن أمثاله في القرن
الرابع كتاب « الإنسان والحيوان » لأخوان الصفا أصحاب الرسائل
المشهورة المنسوبة إليهم ، فأنهم وإن جعلوه مناظرات بين الحيوان
والإنسان كما في كريمة ودمنة قد حشوه كثيراً من الحوار العلمي في
الطبيعة ومميزات الإنسان والحيوان . ومنها في القرن السادس رسالة
« حى بن يقظان » لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل المتوفى سنة ٥٨١
التي شرح فيها بأسلوب قصصي ، إنسان الفطرة أو ابن الطبيعة ، ووفق
إلى نظريات علمية في تطورات هذا الإنسان ، وقد طبعت في مصر
وفي غيرها مراراً وترجمت إلى كثير من اللغات الأجنبية . على أن من
هذه القصص العلمية ما تمكن صاحبها من تغليب الصبغة القصصية
فيها على الصبغة العلمية كرسالة الغفران من مخلفات القرن الخامس لأبي العلاء
التي كتبها في عزلة وضحاها انتقاد شعراء الجاهلية والأسلام والأدباء
والرواة والنحاة فأنها علمية فلسفية ، يتضمن بعضها لغة وأدباً وشعراً
ونقداً ، وبعضها نواذر اجتماعية عن الزنادقة والمتنبئين وشاذي الأفكار
في عصور الإسلام ، ولكنه ساقها في أسلوب قصصي خيالي أبعد فيه .
فقد تصور رجلاً صعد إلى السماء وشاهد الجنة والنار ، وقابل كثيراً من

أهلبيها وحاورهم وحادثهم فيما ذكرنا . وإذ كن يسأل دائما من كان
يهتقدهم أبناء جهنم وأبصرهم في الجنة عما من أجله غفر الله لهم فكانوا
يجيبونه بما لا يخرج عن النوعين الذين أوضحنا في مشتملات الرسالة
دعائها رسالة الغفران ، وهى ذات شأن هام ومقام كبير ؛ لأنها وإن
لم يقصد تمثيلها ، تمثل القصص الشخصية إلى حد ما ، فقد جاءت
فوق ما رأيت من مشتملاتها ، خصيبة الخيال في تصوير الجنة والنار ،
ومافيهما من نعيم وعذاب ، ولاذعة السخرية في كثير من حوارها .
ومن هنا وقعت لدى الغربيين الوقع العظيم ، فما كاد الغرب يتصل بالشرق
في الحروب الصليبية حتى عرف الطليان مكانها إذ كانوا أسبق المسارعين
إلى هذه الحروب ، فذبح شاعرهم دانتى على منوالها « الرواية الالهية »
وفيهما نفس الخيال الذى سبقه إليه المعرى بثلاثة قرون ، وكذلك فعل
ملتن الانجليزى فى روايته « ضياع الفردوس » بعده بأكثر من ستة
قرون . فهى قد غدت الغرب من الناحية التمثيلية « درام » كما غداه فى
القصص العربى قبلها كليله ودمنة والى ليلة فى الناحية القصصية
« رومان » . ولكن حال الشرق ساءت فوقف عند هذا الحد وتقدم الغرب
الذى أخذ عنه فوصل إلى ما ترى الآن من رقى باهر فى فنون الأقاصيص
والروايات .

هذا وكما انحازت طائفة من القصص إلى الناحية العلمية الفلسفية
التي غطت على الروح القصصى كما تقدم ، انحازت طائفة أخرى الى ناحية
لغوية صناعية نزعت بهجة القصص منها ، تلك هى المقامات التي سنتكلم
عنها الآن .

٢ - المقامات

لقد نفخ إنشاء الدويلات في المشرق منذ أواخر العصر العباسي الثاني، وتحكم آل بويه على الخلافة في بغداد بعد هذا الانشاء، في اللغة الفارسية وآدابها، نفخة حركتهما من الأجداث ووهبتها روحاً أنهضتها من الرجام. فرأينا رجال هذه الدويلات يحضون أدباء الفرس على النظم بها في مجدهم وسالف تاريخهم، كما فعل نوح بن منصور الساماني في اقتراحه على الدقيق نظم الشاهنامه، وحتى من كان يحكم هذه الأقاليم من غير الفرس، كان يجاريهم في النهوض بلغتهم تقرباً إلى شعوبه من أهلها، كما فعل السلطان محمود الغزنوي التركي في اقتراحه على الفردوسي إتمام الشاهنامه التي بدأها الدقيق ولم يتمها. وكان هذا الانتصار لأدب الفرس في وقت يزدهر فيه الأدب العربي، قد حرك أدباء العرب المشاهدين له عن كسب في أجواء فارسية، وخلق فيهم روح انتصار للعربية يقابل ذلك الانتصار الفارسي، وكان لابد لهذا الروح أن يظهر في معارضات أدبية كما ظهر الانتصار الفارسي، واتفق أن رحل إلى نواحي فارس العلامة اللغوي والراوية الأديب، والشاعر العظيم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي في النصف الأول من القرن الثالث، وأقام هناك مع ابني ميكال^(١) وهما يومئذ على عمالة تلك البلاد^(٢) فقلداه رياسة لديوان، فابتكر نوعاً من الأدب اشتقه من الحياة الفارسية ليعارض به أدبها في أربعين حديثاً

(١) هما عبد الله بن محمد بن ميكال وولده اسماعيل، فهما للشاه بن ميكال ولد وخفيد، ولكن شاعت نسبتهمما إليه نسبة الأبناء (٢) من قبل المقتدر الخليفة العباسي.

تحدث عنها الحصري في زهر الآداب صفحة ٢٧٨ هامش العقد الفريد
جزء أول بما يدل على ما قدمنا ، قال نحت هذا العنوان جملة من كلام
أبي الفضل أحمد بن الحسين الهمداني بديع الزمان - « وهذا اسم وافق
مسماه ولفظ طابق معناه وكلام غرض المكسر أنيق الجواهر يكاد
الهواء يسرقه لطفًا ، والهوى يعشقه ظرفًا ، ولما رأى أبا بكر محمد بن
الحسن بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثًا وذكر أنه استنبطها من
ينابيع صدره واستنخبها من معادن فكره وأبداها الأبصار والبصار
وأهداها للأفكار والفماثر في معارض عجمية وألفاظ حوشية ، فجاء
أكثر ما أظهر تنبؤ عن قبوله الطباع ولا ترفع له - جبهها الأسماع وتوسع
فيها إذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة ،
عارضها بأربعائة مقامة في الكدية تذوب ظرفًا ، تطرح حسنًا ، ولا مناسبة
بين المقامتين لفظًا ولا معني ، وعطف مساجاتها ووقف مناقلتها بين
رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الاسكندري
وجعلهما يتهديان الدرويتنافتان السحر في معان تضحك الحزين وتحرك
الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ويوقف منها على كل لطيفة ، وربما أفرد
أحدهما بالحكاية وخص أحدهما بالرواية ، وسأذكر منها ما لا يحل طوله
بالشرط المعقود ولا ينافي حصوله الغرض المقصود . وهذا كلام نخرج
منه إلى أن ابن دريد أنشأ أحاديثه في بيئة فارسية ومعارض عجمية ،
وأنه كان فيها أميل إلى اللغة والغريب بحكم لغويته التي كانت أغلب شيء
عليه ، وأن البديع حين عارضه سمى أحاديثه مقامات ^(١) ولكننا نذكر

(١) أصل المقامة في اللغة كالمقام موضع القيام كمكانة ومكان وقد استعملت

أن الذي احتذاه أولاً إنما هو أستاذ البديع أبو الحسن أحمد بن فارس
العلامة اللغوي المتوفى سنة ٣٩٠ لا البديع. فقد وضع مقامات اتبع العلماء
نسقه فيها، وكان أولهم اتباعاً تلميذه البديع المتوفى سنة ٣٩٨ في مقاماته
التي وصفها الحصري آنفاً، وكلاهما عاش في بيئة فارسية كما عاش ابن دريد.
ولعل من حظ البديع ضياع مقامات هذين الاستاذين وبقاء مقاماته ممثلة
في الثمن الباقي منها وهو خمسون مقامة فاعتبرت لذلك أولى المقامات
بني البديع مقاماته على الكدية^(١) وجعل الحديث فيها بين

في المجلس استعمال الأضداد كما قال المسيب بن علس:
وكالمسك ترب مقاماتهم وترب قبورهم أطيب
وكما قال نهشل الدارمي:

إنا نظرنا في المقامة مالكا نظر المسافر أين ضوء الفرقد
وانتقلت منه إلى الجماعة الجالسين كما قال لبيد العامري:
ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام
وكما قال زهير بن أبي سلمى:

وفيههم مقامات حسان وجوههم وأندية يفتابها القول والفعل
وقد سبق المجلس المقامة في هذا الاستعمال كما قال مهلهل
نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس
ثم أطلق المحدثون المقامة على الحديث يقال في مجلس يستمع له، وبعدئذ قصره
على هذا الضرب المعروف من الكلام

(١) لعل سبب اختيار البديع للكدية في بناء المقامات يرجع إلى انتشارها
أيامه بأواسط آسيا في صوره شتى تألفت منها الطائفة المعروفة إذ ذلك بالساسانية

شخصين خياليين هما عيسى بن هشام راوية ، وأبو الفتح الاسكندري شحاذا . فكانت جمعة فصاحة وبلاغة ، ولكنها وقد تركت على الكدية وحدها ، جاءت بعيدة عن الروح القصصى غير خليقة أن تسمى قصصا على الوضع الذى شرحناه ، ويكفى أن تعلم أن خمس عشرة منها لم يكف فيها مع الكدية غيرها وهى الأزاذية ^(١) والبلخية والسجستانية والكوفية والأذربيجانية والجرجانية والأصفهانية والبصرية والفزارية والمكفوفية ^(٢) والبخارية والقزوينية والساسانية والقردية والناجمية ^(٣) ولذا جاءت أقصر المقامات وأقلها روعة ، أما الباقيات فقد تضمنت مع انتهائها بالكدية غالبا ، أشياء أكسبتها جمالا وإن لم تنقلها عن الناحية اللغوية إلى القصصية ، أهمها الوصف وقد وقع في عشرين مقامة انحدرت خمس منها إلى هوة الكدية أيضا بوصفها ألوان الأطعمة والأشربة وهى البغدادية والمضيرية ^(٤) والمجاعية والنهيديّة ^(٥) والخرية ، وتناول سائرهما وصف أشياء أخرى متباينة كالأسد والفاتك فى الأسدية والفرس فى الحمدانية ^(٦) وأنواع اللصوص وطرقهم فى الرصافية والمغزل فى المغزلية وكهل رث فى الشيرازية وحمامى وحجام فى الحلوانية والرجل يكون

من أعراب وأبناء سبيل وذوى طاهات وحواة وقرادة وسحرة ومشعوذين وغيرهم ممن كانوا يتحيلون فى جلب الرزق ولكن من طريق الامتناع بقص الاخبار ورواية الاشعار والمناظرة والتهاجى والمدح ونحو ذلك مما جعل بين الأدب والكدية نسبا

- (١) الأزاذنوع من التمر (٢) ادعى فيها الاسكندري كف بصره (٣) تسمى فيها الاسكندري بالناجم (٤) المضيرة لحم يطبخ بالبن المضيراي الحامض كاخل (٥) النهيدة الزبدة (٦) أهدي فيها فرس الى عظيم من بني حمدان

خشن الجانب أو لينه في الخلفية^(١)؛ واللص يتخذ ثوب الناسك في
النيسابورية، والعلم في العامية وإخوان الدهر ما يفعلون وما يجب أن
يفعل بهم في الصميمية^(٢)، والملوك في الملوكية، والدينار إلغازا في
الصفيرية، والرجل يخدع مظهره ويؤذى مخبره في السارية^(٣) وهي قريبة
الشبه بالنيسابورية، والوضعاء يعلنون في النيمية^(٤) ثم المال والدعوة
إلى فتح المطالب في المطامية. ويلى الوصف في العناية للمطارات
الأدبية وقد شغلت تسع مقامات، ستا في الشعر وهي: القريضية في
التفاضل بين الشعراء، والغيلانية في غيلان بن عقبة وهو ذو الرمة،
والأسودية^(٥) في إنشاد شعر مرتجل، والابليسية في شياطين الشعراء،
والعراقية والشعرية وكتاها في إلغاز عن أبيات من الشعر، ثم ثلاثا
في محاورات أخرى وهي الجاحظية في مدح الجاحظ وذمه، والمارستانية
في دحض مذاهب المعتزلة، والدينارية في التساب بين متشائمين.
أما الست الباقيات فقد جاءت ثلاث منها في الوعظ والايصاء وهي:
الاهوازبة في الحياة والموت، والوعظية في الدنيا والآخرة، والوصية في
الاقتصاد والتجارة، وثلاث في التوبة والتدجيل وهي الموصلية في
محاولة إحياء ميت ورد سيل، والحرزية في عمل حرز يضمن النجاة من
الغرق ثم الارمينية في التحيل لجلب الخبز والأدم.

وقد أبدع البديع في مقاماته مع أنه أملاها ارتجالا أو في حكم الارتجال

(١) نسبه الى خلف بن أحمد أحد الأجواد (٢) بلد قرب دينور

(٣) بلد بطبرستان (٤) نسبه الى ابن الندى التميمي . (٥) نسبه الى الأسود

بنيسابور الابدع كله، ولهذا بعد فيها عن تكاف صناعات البديع فجاءت
قليلة الغريب سهلة المتناول ، يتعشق أول الكلام فيها آخره ويرتبط
بعضه ببعض ارتباطا يؤذن بصفاء قريحة وطول باع، فأنت إذ بدأت في
قراءة واحدة منها تخيلت نفسك قد حلت روضا ممتعا ينسيك كل
شئ غيره وكما سرحت نظرك في خميلة من خمائله أو زهرة من أزهاره
تطلببك أجمل منها حتى لا تشعر إلا وقد انتهيت إلى سباحه. وقد أجاد
فيها الوصف والتشبيه ، والمقامات العشرون التي تناولت الوصف كما
ذكرنا مليئة بأوصاف تنطق بالحقيقه وتمثل الصورة، وتشبيهات تستخف
القارىء عجباً وتأخذ بلبه حيرة ودهشا، فارجع إليها أو إلى المقامة الأسدية
التي اخترناها نموذجا منها، تجد المثل العليا لما ذكرنا ، كما قد أحسن فيها
الكناية وأحكم الالغاز، فن كنيائته قوله في شدة الروعة ، « من أسد خرج
عليه » فاذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه « وفي الخوف من
فانك لقيه فجأة » فراعنى منه ما يروع الوحيد من مثله وأخذنى ما يأخذ
الأعزل من شاكى السلاح « وفي بلدة نزلها ولم يقيم إلا قايلا « فخلتها
حلول النىء » وفي تمثيل فرقة من صاحب « فاصطحبنا ثلاثة أيام حتى
جذبني نجد والتقمه وهد » وفي مجاس صفاء ليس فيه نوم « فأخذنا
نتحدث وما فينا الامنا . ومن الغازه وكان كثيرا الالغاز في أبيات
الشعر قوله : « بيت نصفه يغضب ونصفه يلعب » يعنى قول عمرو
ابن كاثوم .

كأن سيوفنا منا ومنهم مخارق بأيدي لاعبيننا

وقوله : « بيت كاد يسقط فعاد » يعنى قول المتنبي .

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
وقوله : « بيت هو مهين بحرف ورهين بحذف » يعنى قول أبى نواس
لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع عقد على خالصه
إلى غير ذلك من الالغاز التى أكثر منها دون أن يحمل اللفظ مالا يحتمل
أو يكاف المعنى مالا يطيق، وليس هذا وغيره بغريب على رجل كان
له من صفاء الخاطر وجودة القريحة وسعة الرواية وكثرة الحفظ ما لم
يكن لغيره من كاتب أو شاعر. قال عنه الثعالبي فى اليتيمة « إنه كان
ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط، وهى أكثر من خمسين بيتا فيعيدنها
كلها دون أن يترك حرفا، وكان ينظر فى أربع الورقات والخمس نظرة
خفيفة ثم يسردها سردا، وكان يقترح عليه عمل قصيدة فى معنى بديع
أو إنشاء رسالة فى باب غريب فيفرغ منها فى الوقت والساعة، وكان دائما
الكتاب المقترح عليه من آخره وانتهى بأوله فيخرج الكتاب جيذا
فى نوعه فريدا فى بابه ». ولهذا القول شأنه لأنه قول معاصر أدركه
لأحدث سمع عنه .

وقد زاول إنشاء المقامات بعد البديع أبو نصر عبدالعزیز بن عمر
المشهور بابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ وأبو القاسم عبد الله
ابن محمد المشهور بابن ناقي المتوفى سنة ٤٨٥ ولكن مقاماتيهما لم تشهرا،
ثم جاء بعدهما فارس ميدان المقامات والمجلى فى حليته الحريرى المتوفى
سنة ٥١٦ فأنشأ مقاماته الخمسين التى عارض فيها البديع فبذه فى صناعة
الكلام وإن اعترف له بفضل السابق فى هذا الفن، وهذى كلمة فى
التعريف بها .

بنى الحريرى مقاماته على الكدية كما فعل البديع، وجعلها خمسين مقامة
جاءت وفق العدد الذى بقى لنا من مقامات سلفه المذكور . وقد جاءت
فيها خمس عشرة فى الكدية وحدها ، ثمان خالصة لها وهى الكوفية
والبرقعيدية ^(١) والبغدادية والمسكية والصورية والتفليسية والمروية
والساسانية، وسبع فى التحليل لها وهى الدمشقية التى ادعى فيها خفر
القافلة بدعوى لقنها فى المنام، والفارقيه ^(٢) التى ادعى فيها حاجته إلى تكفين
ميت، والوبرية التى طلب فيها ناقة ادعى ضلالها، والواسطية التى ختم
فيها أهل الخان باطعامهم حلواء مخدرة، والزبيدية التى باع فيها ولده على
أنه غلام، والعمانية التى علق فيها عزيمة الطلق على حامل لتضع، والحرامية ^(٣)
التي ادعى فيها أن ابنته فى الأسر وطلب فداءها. وجاءت فيها ست للوعظ
هى الصنعانية والساوية ^(٤) والرازية والرميلية الأولى والتنيسية والبصرية.
وأربع فى الوصف الخالص الصريح هى الدينارية فى الدينار والسنجارية
فى النمام، والكرجية فى الشتاء، والبكرية فى البكر والثيب، ولا تخلو
هذه المقامات الأربع من وصف أشياء غير التى بنيت عليها كما لا تخلو
مقامة غيرها من أن يكون فيها وصف، ولو لم يكن للحريرى من أوصاف
غير افتتنانه فى وصف أبى زيد بما يلائم شخصيته فى كل مقامة لكفاء
ذلك فى تقلد زعامة الوصف أمام الواصفين. وجاءت فيها عشر فى الحوار
والخاصمه هى الخلوانية فى محاسن التشبيهات، والدمياطية فى المواصلة

(١) برقعيد قسبة فى ديار بكر (٢) نسبة إلى ميفارقين مدينة بالشام

(٣) نسبة إلى بنى حرام بالبصرة وهى أولى المقامات انشاء (٤) نسبة إلى

والقطيعة، والاسكندرانية في أثاث زوجته وحليها إذباعة، والرحبية^(١) في دعوى القتل على برىء والفراتية في صناعات الانشاء والحساب والشعرية في دعوى سرقة شعر والصعدية^(٢) في عقوق الابن والتبريزية في نشوز الزوجة والرملية الثانية في عصيانها والحجرية^(٣) في الحجامة. وجاءت فيها تسع في التكنية والالغاز، فمقامات التكنية أربع هي المعرية في الكناية عن الابرّة والميل والنصيبيّة في الكناية عن بعض ألوان الطعام وما يتعلق به والشيرازية في الكناية عن الحجر بذكر ربها والنجرانية في الكناية عن أشياء عشرة هي المروحة والخابول^(٤) والقام والميل والدولاب والمزملة^(٥) والظفر وطاقة الكبريت وخمر العنب ومعيّار الذهب. ومقامات الالغاز خمس، هي الفرضية في مسألة توريث والنحوية في مائة لغز نحوي والطيبية^(٦) في مائة لغز فقهى والمملطية^(٧) في عشرين مقايضة كلامية^(٨) والشتوية في خمسين تورية ملمغة ضمنها قصيدة بائية في كل بيت لغز سوى بيت المطلع وثلاثة أبيات ختمها بها معجبا بنفسه وكم فيما أتى به حقاً من عجب. على أن الأعجب منه ما جاء في المقامات الست الباقية من التلاعب بالصناعات اللفظية التي ابتكرها لا التي أتى بها علم البديع وهي المقامة المغربية للعبارات التي تقرأ رداً وطرداً.

(١) نسبه إلى رحية مالك بن طوق (٢) نسبه إلى صعدة باليمن (٣) نسبه إلى حجر بالجمامة (٤) هو حباله الصائد (٥) جرة يركب في ثقب بها قصبه للشرب منها (٦) نسبة إلى طيبة مدينة الرسول (٧) مملطية من بلاد الجزيرة (٨) المقايضة هي الأحاجي وتكون بطلب كلمة واحدة تؤدي معنى كلام كطوامير في معنى «جوع أمد يزاد» والفاشية في معنى «أهل حلية» وهكذا.

والقهقرية لرسالة التي تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه. والخيفاء
لرسالة التي إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة، والرقطاء لرسالة التي أحد
حروف كلماتها معجم والآخر مهمل، والسمرقندية للخطبة العارية من
النقط، ثم الحلبية لعشر مقطعات من الأبيات، وأولها عواطل من النقط،
والثانية حوال به، والثالثة أخيف أي كلمة مهملة وأخرى معجمة، والرابعة
متائيم أي كل كلمتين مجستان جناسا خطيا، والخامسة مطرفات أي بطرفي
كل بيت جناس بين كلمة وكلمتين، والسادسة لما أشكل من ذوات السين،
والسابعة لما أشكل من ذوات الصاد، والثامنة لما يجري عليه هذان
الحرفان، والتاسعة لعقد هجاء الأفعال الناقصة، والعاشرة وهي طويلة لما ورد
من الكلمات فيه ظاء.

X هذا ما نحا إليه الحريري في مقاماته من الفن المعجز الذي غطى على
كل فن قبله وقطع الطريق على كل فن بعده. وهو مع هذا بعيد عن التكلف
المعقوت، ولذلك كان منصفاً للحقيقة بل غير موفياً بحقها حين قال من وصفها
في مقدمتها (وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية
ناضبة وهموم ناصبة، خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله، ورقيق
اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، إلى ما وشحتها
به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية
واللطائف الأدبية، والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية، والرسائل
المبتكرة والخطب المحبرة، والمواعظ المبكية والاضاحيك الملهية، مما
أملت جميعه على لسان أبي زيد السروجي وأسندت روايته إلى الحارث

ابن همام البصري^(١) وما قصدت بالأحماض^(٢) فيه إلا تنشيط قارئيه
وتكثير سواد طالبيه، ولم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا بيتين فذين
أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية، وآخرين توأما بين ضمنتهما خواتم
المقامة الكرجية، وما عدا ذلك فخاطري أبو عذره ومقتضب حلاوه
ومره^(٣) هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب
آيات وأن المتصدي بعده لإنشاء مقامة ولو أوتي بلاغة قدامة لا يغترف
إلا من فضائله ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالاته والله در القائل^(٤).

فلو قبل مبكها بكيت صباية بسعدى متفيت النفس قبل التندم
ولكن بكيت قبلي فهيج لي البكا بكها فقلت الفضل للمتقدم
فمقامات الحريري بالنسبة إلى مقامات البديع. وإن كانت هذه أكثر انطبعا،
وأشد انسجاما، وأبعد عن زخرف الصناعة وغريب اللغة. أبداع فنونا
وأبرع خيالا وألطف فكاهة وأكثر أمثالا، ولذلك جذبت إليها طلاب
اللغة للاستفادة منها، وأعلام الأدب للعمل فيها، فخطيت بمثل ما حظي
به شعر المتنبي وشرحها كثير. منهم الشريشي المتوفى سنة ٦١٩ والمطرزي
والعكبري والطرائفي والزبيدي والطبلي والناصرى والباجسى وغيرهم،

(١) أبو زيد السروجي هو المطهر بن سلام البصري النحوي لزم الحريري
وتأدب عليه وتخرج به فأمل مقاماته على لسانه. أما الحارث بن همام فيعنى به
نفسه لقوله عليه الصلاة والسلام (كلكم حارث وكلكم همام). فبطلا مقاماته
ليساخيا ليين كبطلي البديع (٢) التلوين والتنويع (٣) بالمقامات من الشعر ما يزيد
على ما الكثير من الشعراء ولذلك عد الحريري من الشعراء المكثرين على أن له
ديوان شعر (٤) قيل هو عدى بن الرقاع وقيل غيره

وأشهرهم الشريشي، وقد طبع شرحه أكثر من مرة بمصر وبغير مصر أما شروح غيره فبين معدوم ومخطوط ببعض مكاتب أوربة. وقد نشر أصلها العربي بالغرب في القرن التاسع عشر ثم ترجمت فيه إلى بعض لغاته وإلى بعض اللغات الشرقية كالفارسية والتركية وغيرها. ولم يك العجب بها في القديم بأقل منه في الحديث فهذا علي بن الحسن المعروف بشميم الحلي المتوفى بالموصل سنة ٦٠١ وكان معجبا بنفسه لا يكاد يرى لأحد من المتقدمين عليه فضلا يقول « لا أعلم أحدا من المتقدمين جاء بما يرضى إلا أن يكون المتنبى في مديحه، وابن نباتة في خطبة، والحريري في مقاماته، فهو لاء لم يقصروا » وقل له بعض إخوانه قد عجبت أن لم تصنف مقامات تدحض بها مقامات الحريري فقال « إن الرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل، قد عملت مقامات مرتين فلم ترضني، فأعرضت عنها وأهملتها، وما أعلم أن الله خلقني إلا لأظهر فضل الحريري » وقال جاز الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ صاحب الكشف وهو من هو بلاغة، في الحريري ومقاماته.

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقانه
أن الحريري حري بأن نكتب بالتبر مقاماته
معجزة تعجز كل الوري ولو سروا في ضوء مشكاته

وللزمخشري هذا مقامات خمسون أيضا، ألفها قبل مقامات الحلي المذكور، وكذا لأبي منصور أحمد بن جميل البغدادي المتوفى سنة ٥٧٧، والأولى هي الباقية دون الثانية، وكلها في الوعظ والارشاد بأسلوب وعلى طريقة غير ماعرف فيهما للحريري والبديع، فأسلوبها ليس فيه محدث

ومحدث عنه وطريقتهما خلو كل الخلو من القصة . وقد جاء بعد هذين
من تصدى لعمل المقامات في العصر العباسي ، ولكن لم يشهر مع مقامات
الحريري والبيديع فقبر أوضاع ، كأحمد بن الأعظم الرازي المتوفى
سنة ٦٣٠ .

ثم تعدى عمل المقامات رجال العصر المذكور إلى رجال العصور
بعده حتى العصر الحديث ، كزين الدين بن صقيل الجزري المتوفى سنة ٧٠١ ،
وعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ ، وجلال الدين السيوطي المتوفى
سنة ٩١١ ، والشهاب الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ ، والشيخ ناصيف
اليازجي المتوفى سنة ١٢٨٧ ، ثم المنشئ الأديب محمد بك المويلحي في
كتابه حديث عيسى بن هشام الذي حذا فيه حذو البيديع ، واختار له اسم
راويته المذكور فأعاد إلى الأذهان ذكره ، وأشهد لقد فاقه في أن جاء
حديثه هذا أدخل في باب القصة من المقامات ، لما عالج من تصوير
الحوادث وتحليل الشخصيات ، فهو بطل المقامة في الحديث كما كان البيديع
والحريري بطلها في القديم .

تدوين العلوم والكتابة العلمية

علمت من الخلاصة التي أثبتناها عن تدوين العلوم في العصر الأموي، أن ذلك العصر انقضى ولم يدون فيه شيء من العلوم الشرعية إلا التفسير الذي نسبته مجاهد إلى ابن عباس، وحديث رسول الله الذي دونه محمد بن عمرو بن حزم، وأذاعه عمر بن عبد العزيز في الأمصار، والأول باق والثاني غير معروف، أما الفقه فلم يدون فيه شيء ومثله القراءات. كما علمت أنه لم يدون من العلوم اللسانية إلا بعض كتب في النحو ليس لها الآن وجود. وكذلك كان الشأن في العلوم الأخرى من تاريخ وكيمياء وفلك وطب، فلم يصل إلينا مما ألف فيها إلا ترجمة ماسويه لكتاب أهرن السرياني في الطب الذي أذاعه أيضا عمر بن عبد العزيز، ولذلك يحكم المؤرخون على ذلك العصر بأنه لم يكن عصر تدوين للعلوم، ويعتبرون العصر العباسي هو العصر الحق للتدوين.

ذلك بأن الحال السياسية لم تكد تستقر أول العصر العباسي بعد خلافة السفاح وقليل من خلافة أخيه المنصور، حتى أحس هذا الخليفة العظيم بشدة الحاجة إلى تدوين العلوم، فحمل علماء الدين واللغة على جمع العلوم الشرعية واللسانية، وأوعز إلى المترجمين من السريان والفرس أن ينقلوا من اليونانية والفارسية ما تحتاج إليه الدولة من علوم أخرى كالطب والفلك وغيرها، وبذل في ذلك على جمود كفه المال الكثير. وتبعه في هذا أولاده وأحفاده حتى زخر تيار العلوم والفنون على أيدي طبقة واصعة انتهى مجراها بعصر الرشيد. ثم جاء المأمون ففضل

آباءه وأجداده في تشجيع حركة التأليف والترجمة؛ فنشأت طبقة ثانية يصح أن تسمى طبقة التهذيب والتفصيل ، لما أنتجته طبقة الوضع ، فأتمت العصر الأول وساخت نصف الثاني . وبعدها نشأت طبقة ثالثة تم فيها استواء الملكات ، وصح لذلك تسميتها طبقة التصنيف ، لأنه صار عندها صناعة أخرجت البسيط والوسيط والوجيز في شتى العلوم والفنون ، وبها انتهى العصر الثاني .

ولما جاء العصر الثالث نشطت حركة التأليف بعامل المنافسة بين رجال الدويلات ، واشتدت المنافسة بين القاهرة وبغداد ، فنمت العلوم وتعددت فروعها حتى تجاوزت الثلاثمائة ، ووجدت علوم لم تكن موجودة ، ومن ثم سمي عصر نضج العلوم ثم سمي عصر المكاتب لأنها كثرت فيه ، كما سمي عصر توطن العلوم لأنها عمت جميع الحواضر ولم تعد وقفا على بغداد ، وفيه انتشرت المؤلفات الشيعية بمظاهرة الفاطميين غربا والفرس شرقا فسمى لذلك عصر المذهب الشيعي . ثم جاء العصر الرابع فاستمرت العلوم سائرة به في طريق النماء حتى اتسعت الأبحاث وأخرجت المؤلفات الضخمة والمصنفات الجامعة ، فعرف بعصر الموسوعات . ثم انتشرت فيه حركة التعليم وأنشئت المدارس المنتظمة فعرف بعصر المدارس أيضا ، غير أنه قد حدث فيه انقلاب كبير ضد المذهب الشيعي الذي كان سائدا في سلفه كما تقدم ، قضى على قوته وأحل المذهب السني محله بعون السلاجقة شرقا والأيوبيين غربا ، بعد ذهاب آل بويه والفاطميين ، ثم كانت العلوم الأدبية فيه في المرتبة الثالثة بعد العلوم الأخرى من شرعية وكونية ، وقد سبق ذاك كله مفصلا في صدر الكتاب . ولا يفوتنا

أن ننبه هنا إلى أن الحركة العامة في الممالك الشرقية ونظيرتها في الممالك الغربية كانتا في العصر الثالث سواء ، أما في العصر الرابع فكانت في الشرق خيرا منها في الغرب ، غير أنها اضمحلت في الأول قبل اضمحلالها في الثاني .

هذا والعلوم التي خلفها المسلمون في العصر العباسي من وضعهم أو ترجمتهم نوعان . إسلامية من شرعية كالتفسير والقراءات والحديث والفقه والاصول والكلام والمنطق وغيرها ، ولسانية كالنحو والصرف واللغة والبلاغة بأقسامها ، والادب ويلحق به التاريخ^(١) وغيرها . ثم كونية من طبيعية ورياضية وإلهية وسياسية . وإليك كلمة موجزة عما ذكر من علوم النوع الاول بقسميه ، وأخرى مجملة عن النوع الثاني بأقسامه الاربعة .

العلوم الشرعية

١ — التفسير والقراءات

كان أول تفسير وضع ، التفسير المنسوب إلى ابن عباس برواية مجاهد من التابعين الذين كانوا يتلقون ذلك عن الصحابة في العهد الاموي كعجاهد هذا وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وطاووس بن كيسان وعطاء بن أبي رباح وغيرهم من أصحاب ابن عباس بمكة والمدينة ، وكابرهيم النخعي والشعبي من أصحاب عبد الله بن مسعود بالكوفة ، وكلاك بن أنس والحسن البصري من أصحاب زيد بن أسلم بالبصرة .

(١) من مباحث الادب أيضا العروض والقافية وسيأتي القول عنهما بما فيه الغناء حيث الكلام على ألفاظ الشعر وأساليبه .

وقد أدرك بعض التابعين العصر العباسي على عهد المنصور، فدونوا مع تابعي التابعين أمثال سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج وزيد بن هرون وآدم بن أبي إياس وإسحق بن راهويه ومحمد بن إسحاق ومقاتل بن سليمان وغيرهم، تفاسير للقرآن، كما كتب بعضهم في غريبه وبعضهم في تأويل آياته وبعضهم في مجازه، ولكن تفاسيرهم جاءت حاوية لبعض التأويل الباطلة التي أخذوها من غير تحقيق عن أسلم من اليهود، كوهب بن منبه وعبد الله بن سلام وكعب الأحبار. ثم جاءت في العصر الثاني طبقة حققت ذلك كان منها المفسر العظيم أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ صاحب «جامع البيان في تفسير القرآن» الذي يعد أول كتاب صحيح للتفسير المنقول، واقتدى به في ذلك جماعة، ومنهم استعمل الناس. ثم جاء العصر الثالث فنشأت طبقة رغبت في تجريد الروايات من الأسانيد وإضافة كثير من مباحث العلوم المختلفة التي كانت قد انضجت إذذاك إلى التفسير، كالنقاش الموصلي صاحب «شفاء الصدور» وإبراهيم الثعلبي صاحب «الكشف والبيان» والحوافي المصري صاحب «البرهان». ولما جاء العصر الرابع بقيت هذه الطريقة ردحا كما في البسيط لأحمد الواحدي تلميذ الثعلبي المذكور، ثم لم تلبث الزيادات العلمية أن أخذت اتجاها يمثل روح المفسر كالبلاغة والاحتجاج للمعزلة في كشف الزخشرى، والكلام والأصول في مفاتيح العلوم للرازي، كما ظهرت التفاسير بالرأى والقياس دون تقييد بأراء السلف.

أما القراءات فقد تعددت وجوهها في أوائل العصر العباسي، ولكن الناس في جمهورتهم كانوا يرجعون في قراءتهم إلى سبعة، هم أبو عمرو بن

العلاء وأبو محمد يعقوب بن إسحق وحمزة بن حبيب وعاصم بن أبي النجود وعبد الله بن عامر وعبد الله بن كثير ونافع بن أبي نعيم . وقبيل الثلاثمائة أحلوا في هذا الاقتداء على بن حمزة الكسائي محل يعقوب ، فأجهد يعقوب نفسه في الحصول على جديد في رواية القراءات فنال ونال معه يزيد بن القعقاع وخلف بن هشام ، وعرفوا بالقراء الثلاثة بعد السبعة المذكورين . ثم عرفت قراءات أربع قبل انقضاء العصر منسوبة إلى قراء أربعة آخرين هم ابن محيصن المكي والأعمش الكوفي والحسن البصري ويحيى اليزيدي . وعلى هذا بقيت القراءات ^(١)

٢ - الحديث

كان أول تدوين للحديث مقام به ابن حزم بأمر عمر بن عبدالعزيز ، ولكنه ضاع كما تقدم فجاء العصر العباسي وليس هناك تدوين . ولما كان الافتراء على رسول الله قد ازداد بعمل الزنادقة والضلال ، أمر المنصور مالك بن أنس بجمع كتابه الموطأ الذي أثبت فيه الحديث مرتباً على أبواب الفقه ، فكان أول كتاب فيهما معا . وقد حمل تمييز الصحيح من الموضوع أئمة العصر الثاني على اقتفاء آثار الرواة بالجرح والتعديل ، فكان من ذلك وضع مصطلح الحديث على يد كثير ، أشهرهم إسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ . ثم عمدوا إلى تدوين الأحاديث الصحيحة مجردة من الموضوعة وكانوا قبل ذلك يدونونها معا اكتفاء بالتنبيه ، فوجدت كتب شتى أصحها ، جامع الصحيح للبخاري والجامع

(١) قد فصلنا القول في القراءات حيث الكلام على جمع القرآن وروايته

الصحيح للنيسابوري والسنن لابن ماجه والقزويني والسنن كذلك لأبي داود
السجستاني، والجامع لأبي عيسى الترمذي والسنن أيضا لأبي عبد الرحمن
النسائي، وبعده ذلك الكتب الستة لم تزد رواية الحديث في العصر الثالث واتجه
اهتمام أئمة إلى ترتيب شيوخه وتبيين مراتبه والتوسع في مصطلحه. ومن
كبار المحدثين فيه، الحاكم النيسابوري وأبو الفتح الرازي وتلميذه أبو بكر
البيهقي وكان كل جهدهم خدمة الكتب المذكورة فلم تعرف لهم مؤلفات مستقلة
أما في العصر الرابع فقد وجد من المحدثين ذوي التأليف كثير منهم البغوي
صاحب مصابيح السنة، والجزري صاحب جامع الأصول في أحاديث
الرسول، والنهاية في غريب الحديث
٣ - الفقه وأصوله

عرفت أن أول كتاب دون في الفقه موطأ مالك بن أنس إمام
الحجازيين الذين غلب عليهم التشدد وعدم إعمال الرأي لوقوفهم عند
الرواية وكانت كثيرة عندهم، أما أهل العراق البعيدون عن الرواية فقد عملوا
بالقياس والرأي فيما لا يخالف الكتاب والسنة وراء إمامهم الأعظم
أبي حنيفة النعمان، ولكن لما انتقل المحدثون إليه بالعراق مزجوا بالرواية
الرأي وظهر ذلك جليا في صاحبيه أبي يوسف ومحمد. واتفق أن رحل
الشافعي إلى العراق فأخذ عن محمد وغيره ووضع مذهبا وسطا بين مذهب
مالك وأبي حنيفة. ثم رحل إلى مصر فرجع عن بعض ما رأى ووضع
مذهبا آخر فكان له مذهبان قديم وجديد. ثم جاء أحمد بن حنبل فأخذ
من بعض أصحاب الحديث عن الشافعي، ومن بعض أئمة القياس والرأي
عن أبي حنيفة، فكان مذهبه المحروف. وبذلك تمت في العصر العباسي

الأول المذاهب الأربعة . المالكي بالحجاز ، والحنفي بالعراق ، والشافعي بمصر ، والحنبلي في نجد والبحرين وبعض الشام . ولكل إمام من هؤلاء بقية من كتبه أهمها الموطأ للمالك ، والفقه الأكبر لأبي حنيفة ، والألم للشافعي ، والمسند لابن حنبل . وفي العصر الثاني تغير كثير من الآراء في مسائل الفقه لانتشار العلوم المختلفة وبخاصة الفلسفة فتولدت مذاهب لم تكن موجودة كمذهب الطبري القريب من الشافعي ، ومذهب داود بن علي الظاهري القريب من المالكي . وليكنها تضاءلت أمام المذاهب الأربعة التي لم يستجد بجوار أصولها في العصر الثالث أيضا غير التلخيص والشرح والتعليق ، ومن خيار الفقهاء في هذا العصر أبو الحسن الماوردي صاحب كتاب الحاوي الكبير في الفروع في فقه الشافعي وهو مطبوع ، وكذلك كانت الحال في العصر الرابع ، ومن فقهاء أبو حامد الغزالي وله تأليف كثيرة في الفقه منها البسيط في الفروع ، والوسيط المحيط بأقطار البسيط ، والوجيز في فقه الشافعي ، ثم الأحياء ونحو نصفه في الفقه .

أما الأصول فقد حمل على نشأته رسوخ مملكة الفقه في الأئمة رسوخا جعلهم يحصرون مسائله في أصول خمسة هي : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ثم الاستحسان على خلاف يسير في الأخيرين ، ويسمون الكلام فيها أصول الفقه . وأول من ألف فيه الشافعي رحمه الله ، ومن بعده انتشر لدى الحنفية بالعراق وفي مقدمتهم أبو زيد الدبوسي . ومن اشتداد الجدل فيه بين المذهبين نشأ علم الجدل والخلاف . وقد ساهرت هذه العلوم الفقه في سائر العصور لأنها متفرعة عنه .

٤ - الكلام والمنطق

نشأ علم الكلام في العصر العباسي على أثر تنكب بعض المتأخرين طريق السلف في التوقف عن البحث في المتشابه وما يوهم التشبيه . فانهم حين تناولوا البحث في الأمرين ضل كثير منهم في التأويل ووقع في التجسيم المنافي للتنزيه ، فهب الآخذون برأى السلف إلى مقاومتهم ولكنهم لم يقنعوا الداخليين في الاسلام ممن امتلأت دياناتهم القديمة بالشبه والأوهام ، فدخل الدين كثير من العقائد الفاسدة ، واضطر العلماء المحافظون أن يخرجوا عن التوقف إلى الجدل والمعارضة بكثرة القول فكان هذا مبدأ علم الكلام . وظهر الخلاف أول ما ظهر من واصل بن عطاء الذي اعتزل حلقة الحسن البصري واتبعه في ذلك أناس عرفوا باسم المعتزلة لهذا الاعتزال . وقد نمي هذا العلم ما كان عليه الخلفاء من اختلاف ، فبعضهم كان ينصر أهل السنة ، كالمهدي وبعضهم ينصر المعتزلة كالأمويون . ثم زاد الاعتزال نموا في العصر الثاني وفرة الفلسفة ، لما كثر من ترجمة كتبهم ولم يقف تياره إلا ظهور أبي الحسن بن إسماعيل الأشعري الذي استعمل أدلة العقل مع النقل وأتم مباحث هذا العلم ، كما ألحق به مبحث الإمامة فكان له مذهب خاص اتبعه فيه جماعة عرفوا بالاشعريين . وقد أيدته في العصر الثالث أبو بكر الباقلاني فنسخ كل مذهب إلا مذهب الشيعة الذي بقى عليه كثير من الاتباع . ثم لقي مثل هذا التأييد في العصر الرابع على يد كثير أشهرهم الرازي وحجة الله الغزالي صاحب التأليف الكثيرة الواسعة في هذا الباب ، ومنها كتاب الاحياء . وفيه كثير من مباحث الكلام

هذا وقد حملتهم الحاجة إلى البرهنة والاحتجاج في علم الكلام، على
شق الطريق إلى عالم المنطق فنبغوا فيه ومساعدتهم على هذا النبوغ ما نقلوه
عن اليونان في جميع مباحثه من فصول : ولعله لهذا السبب استمر
طوال العصور العباسية خاضعا للنظام اليونانية بل بقي عليها من بعدها
إلى الآن .

العلوم اللسانية

١ - النحو والصرف

وضع أبو الاسود الدؤلي النحو بالبصرة في العصر الاموي كما
عرفت في كتابنا الثاني، فاختلف إليه عدد من رجالها يتعمونه عليه ،
كان منهم عنبسة الفيل وعبد الرحمن بن هرون الاعرج ونصر بن عاصم
ويحيى بن يعمر وميمون الاقرن وغيرهم ممن عرفوا بالطبقة الاولى .
وعنهم أخذت طبقة ثانية منها عبد الله بن أبي اسحق ، وأسماء الحضرمي
وأبو الخطاب الاخفش الاكبر وأبو عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر النخعي
وعن هذه الطبقة الثانية انتقل النحو إلى الكوفة فكون بها طبقة أولى
منها أبو مسلم معاذ الهراء وابن أخيه أبو جعفر الرؤاسي ، وقد تبارت في
التأليف مع الطبقة البصرية الثانية ولم يك للطبقة البصرية الاولى فيه
سوى أوراق ، فكان لعيسى بن عمر كتابا الجامع والاكمل ، وهما أول ما ألف في
النحو البصري ، وكان لأبي جعفر الرؤاسي كتاب الفيصل أول ما ألف في
نحو الكوفيين ، وقد أدركت هاتان الطبقتان العصر العباسي فتشقت
عليهما الطبقة التي وضعت أساس التأليف في النحو وسائر علوم اللغة ، وكان

رأسها الخليل بن أحمد مستخرج مسائل النحو ومصحح قياسه ومخترع العروض ومدون اللغة . وعن طبقة الخليل نشأت بالبصرة طبقة سيبويه صاحب الكتاب ، وبالكوفة طبقة الكسائي ، ودب بين الطائفتين اختلاف واشتد الجدل حتى كانت تعقدينيهما المناظرات . وكان منشأ الخلاف أن البصريين يقدمون السماع على القياس الذي لا يأخذون به إلا الضرورة ، وقد ساعدتهم على الاكتفاء بالسماع كثرة فصحاء العرب بالبصرة لقربها من البادية ، في حين أن الكوفيين يعتمدون في أكثر مسائلهم على القياس لقلة جالية العرب بالكوفة وقربها من الأعجم . ثم نشأت بالبصرة طبقة الاخفش الأوسط^(١) شارح كتاب سيبويه ، وبالكوفة طبقة الفراء صاحب كتاب الحدود ، وعنه انتشر المذهب الكوفي ببغداد قبل أن يعرف بها المذهب البصري . وبعدهما كانت في البصرة طبقة التوزي والجرمازي والجرمي والمازني والسجستاني ، وفي الكوفة طبقة ابن السكيت وابن سلام ثم ختمت طبقات البصريين بطبقة المبرد وطبقات الكوفيين بطبقة ثعلب وإليهما انتهى علم هؤلاء وعلم هؤلاء . وعلى هذا انقضى العصران الاول والثاني . ولما توالى فتن الزنوج والقرامطة على المصريين جلا علماءهم إلى بغداد ، ومن اختلاطهم انشأت طريقة البغداديين وهي خليط من المذهبين ولكن مع جعل مذهب البصريين الأساس . ولم يجد في العصر الثالث جديد إذ كان أكثر مادون شروحا وتعليقات على المذهبين

(١) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة تلميذ سيبويه ، أما الاكبر المذكور آنفا فهو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد أستاذ سيبويه ، والاصغر هو أبو الحسن علي بن سليمان تلميذ المبرد .

من غير تعصب ولا خلاف ، ومن علماء النحوفيه ابن خالويه صاحب كتاب « ليس في كلام العرب » وصاحب رسالة في إعراب ثلاثين سورة من القرآن ، وابن جني صاحب الخصائص في أصول النحو ، وسر الصناعة في النحو ، وشرح تصريف المازني واللمع في النحو ، والمحتسب في إعراب الشواذ وعلل التثنية ، ثم ابن درستويه والسيرافي والرماني ولكل هؤلاء مؤلفات . وفي العصر الخامس وضعت أهم كتب النحو والصرف التي عليها معول العلماء الآن كالكافية في النحو ، والشافية في الصرف وهما لابن الحاجب ، وتصريف العزى لعز الدين الزنجاني في الصرف ، ومفتاح العلوم للسكاكي وغيرها

٢ - متن اللغة

كان المرجع في معرفة معاني المفردات طوال العهد الأموي ، مشافهة الأعراب أو سؤال الأديب . ولما جاء العصر العباسي فكر بعض الأئمة في تدوين رسائل صغيرة في فئات من الالفاظ كالتي تجمع أعضاء الانسان أو بعض الحيوان أو النبات أو الجماد . ثم جاء الخليل بن أحمد ففكر في اختراع طريقة جامعة سهلة تحصى بها كلمات العربية وتكتب معها معانيها ، فوضع كتابه العين الذي رتبه على حسب مخارج الحروف من الخلق إلى الشفة مبتدئا إياه بحرف العين ، ولكن يظهر أنه لم يتمه و بقيت طريقة الرسائل جارية حتى أتمه جماعة بعد وفاته ، أشهرهم الليث بن المظفر فكان أول كتاب منظم في متن اللغة . وفي العصر الثالث ألف ابن دريد كتابه الجهرة منه ومن الرسائل المذكورة ومن كتب أخرى الأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما ، ورتبه على حروف الهجاء من الهمزة إلى

الياء، وألف أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري كتابه التهذيب على ترتيب الخليل في عشر مجلدات ، كما ألف الصاحب بن عباد المحيط في سبع مجلدات ، وأحمد بن فارس المجلد حاذفا للشواهد ، والجوهري الصحاح الذي جمع فيه أربعين ألف مادة . ثم حل العصر الرابع فألف الفيروز آبادي القاموس المحيط ، والزنجشري أساس البلاغة ، وبعدهما ألف الصغاني المتوفى سنة ٦٥٠ كتابيه تكملة الصحاح والعياب ، ثم جمع بينهما في مجمع البحرين . على أن التأليف لم ينقطع بالانكباب على المعاجم عن أن يتناول نواحي أخرى من اللغة كالأجناس في فقه اللغة للنعالي ، وشرح غريب الحديث للجزري وغيرها .

٣ — البلاغة

تطلق البلاغة في عرف العلماء على علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع ، ولكل مباحث خاصة به كما هو معروف . وقد كان الدافع إلى نشأتها الدفاع عن إعجاز القرآن الذي خاض فيه كثير من الزنادقة والفلاسفة بانكاره أو بالحيدة عن أن سببه التناهي في البلاغة . وقد تقدمت هذه العلوم مباحث منها قبل أن تكتمل كأنها إرهاب لها قبل هذا الحال ، دعت اليها أسباب طارئة كتأليف أبي عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ كتابه « مجاز القرآن » على أثر سؤال وجه اليه في معنى قوله تعالى « طلعها كأنه رعوس الشياطين » وإجابته السائل بأن ذلك على حد قول الشاعر :
أيقطني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال^(١)

(١) استعمل أبو عبيدة في تلك التسمية كلمة مجاز بمعنى طريق التعبير لا بالمعنى الذي اصطلح عليه بعد ولذلك جاءت أبحاث كتابه خليطا من النحو

وكالذي كان من الجاحظ في تأليف كتابه « إعجاز القرآن » الذي بقيت منه أبحاث كثيرة منقولة في كتاب الفصول المختارة من كتبه لعبيد الله ابن حسان، وفي كثير من كتابه البيان والتبيين، وكالذي كان من المبرد حين قال له الكندي الفيلسوف « أراي أجد في كلام العرب حشوا إذ أجدهم يقولون عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال له أبو العباس « بل المعاني مختلفة، فالأول إخبار عن قيام والثاني جواب عن سؤال سائل والثالث جواب عن إنكار منكر وقد تكررت الألفاظ لتكرار المعاني » إلى غير ذلك من متعلق البيان والمعاني. ثم جاء ابن المعتز فراه ما كان يقع للشعراء من محسنات دون أن تعرف لها أسماء، فخصر منها سبعة عشر نوعا سمي كلا منها وسماها في مجموعها البديع، وإن كان فيها بعض ما هو الآن من البيان كالاستعارة والكناية. ولهذا كله يمكن أن يقال إن البديع وضع قبل انتهاء العصر الثاني، وإنه وضعت أبحاث كثيرة خلاله وخلال الأول والمعاني والبيان. وقبيل انتهائه عقب قدامة بن جعفر على بديع ابن المعتز في كتابه « نقد قدامه » الذي أتى فيه بعشرين محسنا وافق ابن المعتز في سبعة منها، واختص بثلاثة عشر كما اختص ابن المعتز بعشرة، فتمت المحسنات ثلاثين. وفي العصر الثالث ألف ابن هلال العسكري كتابه الصناعتين في معظم أبحاث هذه العلوم الثلاثة فكان أول كتاب جامع لها وإن لم يميز بعضها عن بعض. وفي الرابع

والبلاغة وإن كان للثانية الكثرة وبخاصة البيان لأن السبب الحافز لوضع الكتاب كان منه كما رأيت.

ألف إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني كتابه « دلائل الإعجاز »، وكتاباه « أسرار البلاغة » مغلبا على الأول أبحاث المعاني، وعلى الثاني أبحاث البيان، فعد هذا أول تفرقة بينهما، وكان البديع قد تميز كما مر آنفا، وبهذا تكاملت هذه العلوم وتميزت تقريبا. ثم حدث بعد عبد القاهر أن زاول البلاغة كثير من الأعجم متأثرين بالعجمة من جهة، وبالفلسفة والمنطق من أخرى. فكتبوا فيها بأساليب مثلت الناحيتين المذكورتين فكانت عثرة في طريق الفصاحة والبلاغة، ومن هؤلاء السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ صاحب مفتاح العلوم في النحو والصرف والبلاغة والعروض. وقد لخص قسم البلاغة منه الخطيب القزويني في كتابه « تلخيص المفتاح » ذى الشهرى الذائعة والشروح المتعددة، وعنده وقف نمو هذه العلوم قبل أن يتم نضجها وهى فى حاجة إلى الانضاج الذى كان منظورا لها لولا ما دها العرب والعربية من أحداث^(١)

٤ - الأدب والتاريخ

عالجنا فى أول موضوع من كتابنا عن العصر الجاهلى، التعريف بالأدب وتاريخه علاجا طويلا فهم منه أن أول معنى عرفته العرب لكلمة الأدب صنع طعام يحتفل بالدعوة إليه فى مأدبة، وأنها قبيل

(١) مما ذكر عن علوم البلاغة هنا ترى أنها من صنع علماء المشاركة، أما علماء الممالك الغربية فقد كاد ينحصر عملهم فيها فى كتابى « المثل السائر » للموصلى وهو خير كتبهما وبخاصة فى البيان والمعاني و « تحرير التهجير » لعبد العظيم بن أبى الاصمعى المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ فقد أوصل فيه محسنات البديع إلى التسعين.

الاسلام أخذت تستخدم في التهذيب والتثقيف ، وأن الاسلام أذاع هذا المعنى ونشره لكثرة تعامله الداعية إلى مكارم الأخلاق ، وأن الناس توسعوا عقب ذلك فأطلقوا الأدب على كل ماله أثر في التهذيب ، وبذلك تناول مآثور اللغة من كل نثر وشعر يحض على المحامد ويكره في المذام . وعرف من يروى ذلك بالأديب ، ومن هنا جاء تعريف الأدب منذ صدر الاسلام بأنه « معرفة كلام العرب نثرا وشعرا وكل ماله صلة به من أيام وأنساب وأخبار وغيرها » وعلى هذا كان التأديب في عصر الراشدين ، ثم أخذ ينمو ويتسع مدة بنى أمية شاملا معه ما وضع من قواعد النحو إذ ذاك . وقد عظمت رواية الادب بهذا المعنى لما كان من تشجيع الخلفاء عليها ، فنشأت الطبقة الأولى للرواة كما ذكرنا ذلك تفصيلا بكتابنا الثاني . والذي نريد أن نقوله الآن ، إن ما روى في العصر الأموي بقي غير مقيد في كتاب حتى إذا ما جاء العباسي ودخل الاسلام كثير من الأعاجم الذين تعلموا لغة العرب ، وجدت الحاجة إلى التوسع في قواعد النحو وللتحرز من الأخطاء ، وإلى الاكثار من الرواية للشواهد والمرانة ، وقد دفع الحرص على هذين الأمرين معا إلى تقييدهما بالتدوين ، كما حبيب بعد مواطن العباسيين عن البوادي ، إلى طائفة من فصحاء الأعراب ، التردد على حواضر العراق لمداواة والمتعلمين لقاء ما كانوا ينالون من رزق ومال فكان من أشهرهم بالبصرة أبو البيداء الرياحي ، وأبو مالك بن كركرة ، وأبو الجاموس بن يزيد ، وأبو عدنان بن عبد الأعلى ، وشبيل بن عريرة الضبعي . وكان من أشهرهم بالكوفة والحيرة أبو خيرة بن زيد ، وأبو محم الشيباني . ثم تعدى سبلهم المصريين إلى بغداد فكان منهم فيها أبو زياد وأبو ضمضم الكلابياني

وأبو شبيل العقيلي والفقعي الأسدي . بن تجاوزها إلى خراسان كأبي
العبيث مؤدب الطاهريين . واكثر من هؤلاء كتب لم يصل منها شيء
لضياعها ، ولكن معظم أدبهم وأدب غيرهم ممن لم يرحلوا عن البادية
وإنما كان الرواة يرحلون إليهم ؛ قد دونه الرواة في العصر العباسي الأول فكان
مرجع الناس . وأهم هؤلاء الرواة إذ ذاك أبو عمرو بن العلاء ، وعنه أخذ
أكثر النحاة والأدباء ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى صاحب نقائض جرير
والفرزدق والشعر الشعراء ، والاصمعي عبد الله بن قريب صاحب
الاصمعيات ورجز العجاج وعشرة كتب أخرى في الانسان وكثير من
الحيوان والنبات والجماد ، وأبو زيد الأنصاري صاحب النوادر في اللغة
وكتابي المطر والابن ، والقاسم بن سلام صاحب كتب غريب الحديث وغريب
المصنف والامثال وفضائل القرآن والمواعظ . على أن هناك طائفة من
الرواة غلبت عليهم رواية الشعر ، أشهرهم حماد جامع المعلقات ، والضبي
صاحب المفضليات ، وخلف صاحب كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر ،
والشيباني جامع أشعار القبائل . وقبيل أن ينتهي العصر الأول العباسي
نشأت طبقة ثانية كانوا يجمعون بين الروايات ويفاضلون بينها ، منهم
محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء ، وأبو زيد بن أبي الخطاب
صاحب جمهرة أشعار العرب ، وله في صدرها مقدمة تبلغ نحو الأربعين
صفحة ، تكلم فيها عن الشعر واللغة كلاما انتقاديا له في عالم الأدب مكان ،
ثم كانوا يحيدون في كلامهم عن الاكثار من اللغة التي بدأت تتميز عن
الادب ، كما حاد أسلافهم أوله عن الاكثار من النحو ، فتميز منذ أول العصر .
ولما حل العصر الثاني أخذ الأدب يستقل عن هذين

العلمين إلا لماماً ، ويعني بالمأثور وبالكلام عليه شرحاً وتعليقاً وبالأخبار التي تتعلق برجاله ، ثم جلا الأديباء في أوله عن المصريين للأحداث النازلة بهما إلى بغداد التي استبحر فيها العمران ، وكانت الكتب المترجمة في الأدب الفارسي وغيره ، قد أنارت للناس سبل التأليف فتغيرت بذلك كله وجهة الأدب وظهر هذا التغير في أمور ، منها في المأثور تجاوز الرواية إلى التدبر في المروي بما يحل معناه تحليلاً ينتهي بحكمة أو عظة ، ومنها في الخبر جمع أشتات الأخبار العربية على اختلافها مع ترتيبها أبواباً في كل باب طائفة ، ومنها غيرها الميل إلى تدوين الحكم وأخبار الحكماء ومنافع العدل وسير العادلين والحث على الاقتداء بهم ، ولعل الدافع إلى هذا الميل ما ظهر في ذلك العصر من فساد الحكم وتوالي الظلم حتى على الخلفاء ، إلى غير ذلك مما اضطبغت به كتب الأدب وتوخاه في التصنيف الأديباء ، كالجاحظ وإمامهم وفتح الفتوح في التأليف ، فله كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء وكتاب المحاسن والاضداد على خلاف ، وأخلاق الملوك وتنبيه الملوك ، وسحر البيان وفضائل الأتراك ، وسلوة الحريف والعرافة ، والزجر والفراسة عند الفرس ، وطبقات المغنين والتاج وغيرها ، سوى الرسائل الكثيرة المتنوعة ، وكان قتيبة المقفي للجاحظ في هذا الباب وصاحب هذه المؤلفات . عيون الأخبار في عشرة كتب ، والمعارف في التاريخ العام والشعر والشعراء وأدب الكاتب والامامة والسياسة والشراب والاشربة والتسوية بين العرب والعجم وتفضيل العرب وغيرها ، وكقدمة بن جعفر صاحب كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر وغيرها ، محمد بن أحمد الوشاء صاحب الموشى ، وهو كتاب فريد في باب فيه

غير المواعظ الكثيرة ، وصف الازياء وألفاظ المكاتبات وما يكتب من
الأشعار على الثياب والأدوات ، وقد طبع باسم الظرف والظرفاء وغيره .
إلى سائر أدباء هذا العصر وهم كثير وكتبهم أكثر .

ولما جاء العصر الثالث كان أكبر ظواهر الأدب فيه .

أولاً : - انتشار الروح القصصية التي أحيها في العصر الأول
ابن المقفع ، ونماها في الثاني من اقتفوا أثر فيها كالجاحظ ، وقد قدمنا القول
على ذلك مبسوطاً في الكتابة حيث الكلام على القصص والمقامات .

ثانياً : - انتشار روح النقد وتعدد موضوعاته بعد أن فتحه في
العصر الثاني بالمعني الذي نريد ، قدامة بكتابه المذكورين فكان في أدبائه من
انتقد الرواية والأخبار ، كأبي الفرج في كتابه الأغاني أضخم كتب
الأدب وأحفلها بمواده وأجمعها لتراجم الشعراء والمغنين . ومن انتقد
الشعراء كحسين بن بشر الأمدى المتوفى سنة ٣٧١ في كتابه « الموازنة
بين أبي تمام والبحتري » فإنه لم يترك لكليهما شيئاً مما يقوله متعصب
له أو عليه ، إلا أورد في أسلوب جلد ممتع ونقاش حصيف ، وكالصاحب
ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ في كتابه « مساوى المتنبي » الذي كان شديد
التحامل عليه فيه لعدم مدحه إياه مع عرضه عليه مشاطرته ماله ،
وكعبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ في كتابه « الوساطة بين
المتنبي وخصومه » الذي تصدى فيه لدحض ما ذكره الصاحب وغيره
من سائر الخصوم ، فانتصف المتنبي انتصافاً مؤيداً بالحجة والبرهان .
كما كان فيهم من انتقد الكلام انتقاداً مبنياً على قوانين البلاغة التي وضع

بعض قواعدها في العصر الأول وتمت في الثاني واطرد فهوها في الثالث،
 كأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ في « كتاب الصناعتين الكتابة
 والشعر » فقد ملأه نقدا مؤسسا على ضوابط الفصاحة والبلاغة في
 الأساليب والمعاني، بل كن فيهم من طبق ذلك كله على نوابع الشعراء
 وكبار الكتاب، كالشعالي المتوفى سنة ٤٣٩ في كتابه « يتيمة الدهر »
 الذي سبق القول عنه، وفي كثير من كتبه المعروف منها نحو الاربعين
 كالأعجاز والإيجاز، وخاص الخالص، ونثر النظم، وحل العقد، وشمس
 الادب في استعمال العرب، والكناية والتعريض، وأجناس التجنيس،
 وسحر البلاغة، وغرر البلاغة، والنهاية في الكناية، ولا ندس من نقاد هذا
 العصر خاتمة شعرائه وكبير فلاسفته أبا العلاء المعري الذي جاءت
 « رسالة الغفران » له مبنية عليه لحمة وسدى .

ثالثا - نضج نوع من الادب هو المحاضرة، وغايته اقتدار الأديب
 على إيراد كلام غيره المناسب لما يطرأ في محضره، وعماده كثرة الحفظ
 وجودة البديهة، ومن المؤلفات فيه « المحاضرات والمناظرات » للتوحيدي
 المتوفى سنة ٤٠٠ و « التمثيل والمحاضرة » للشعالي و « الدرر والغرر »
 للشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ .

ولما جاء العصر الرابع اطر دق هذه الظواهر الثلاث . فأما القصة
 فقد علمت ذلك عنها، وأما النقد فكان من أصحبه وأمتعته ما وقع من
 عبد القاهر في كتابيه « دلائل الإعجاز وأسرار البيان » وما وقع للموصلي
 في كتابه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » فقد أجاد فيه نقد

الألفاظ والمعاني^(١) : أما المحاضرة فقد جاءت فيها « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء » لأبي القاسم الراغب الاصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢هـ، خزانة أدب لكل ما يقال عن الشيء وضده في خمسة وعشرين بابا - سمي كلا منها حدا - في العلوم والصناعات والاخلاق والاجتماع والصفات وغيرها من أنواع البحوث .

هذا وإنما عددنا التاريخ من الأدب، لأن كل من تعرض للعرب فيه تعرض لأدبهم . وقد غني بتدوينه منذ العصر العباسي الأول في الانساب والسير والطبقات والفتوح . فكان من مؤرخي الانساب أبو المنذر هشام بن محمد السكبي صاحب جمهرة الانساب، ومن مؤرخي السير أبو محمد عبد الملك بن هشام راوى السيرة النبوية لأبي بكر محمد ابن إسحق ، ومن مؤرخي الطبقات أي التراجم، أبو عبد الله محمد بن سعد صاحب طبقات الصحابة والتابعين ، ومن مؤرخي الفتوح أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي صاحب المغازي وغيرها في الفتوح .

وفي العصر الثاني توسع المؤرخون فخرجوا في الانواع المذكورة إلى أنواع كثيرة ، من تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين كأبي جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المشهور ، أو خاص بالناس أو البلدان كأبي الفضل أحمد بن طيفور صاحب تاريخ بغداد ويوسف بن الداية صاحب سيرة ابن طولون وابنه خماوريه، أو غيرها من تاريخ العرب

(١) ثم ما وقع بالمغرب لأبي العباس الحسن بن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦ في كتابه «العمدة» الذي جاء أجل كتاب في صناعة الشعر ونقده، وفي كتابه «قراصة الذهب في نقد أشعار العرب» .

المتصل بأدبهم كـ محمد بن حبيب صاحب كتاب القبائل والأيام في أكثر
من أربعين جزءاً ، أو تاريخ الفتوح كأبي جعفر أحمد بن يحيى البلاذري
— خاتمة مؤرخي الفتح — صاحب فتوح البلدان .

وفي العصر الثالث ساد التاريخ العام شىء من الرحلة لكثرة ما كان فيه
من رحلات ، ومن كبار الرحالة فيه ، على بن الحسين المعروف بالمسعودي .
كما تكاثرت التواريخ الخاصة للأمم أو الأشخاص أو المدن ، فمن رجالها
في تاريخ الأمم ، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي صاحب تاريخ مصر ،
ومنهم في تاريخ الأشخاص ، أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتيبي صاحب
اليميني في تاريخ يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي وأبيه ، ومنهم في
تاريخ المدن أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد
« غير السالف لابن طيفور » .

أما في العصر الرابع فقد تعددت الموضوعات لتعدد الخلفاء
والسلطين ، وتنوعت الكتب وتبارى المؤرخون في تدوين المعاجم
والمطولات . فكان منهم ، مؤرخو الدول كلوزير جمال الدين علي بن ظافر
الازدي المصري صاحب الدول المنقطعة - يعني عن العباسية - ، وأصحاب
السير كمؤيد الدولة مجد الدين أبي المظفر أسامة بن مرشد المنقذي
صاحب كتاب الاعتبار في سيرة حياته ووصف رحلاته ، و مترجمو
الجماعات كأبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر صاحب
الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، وفيه أكثر من ثلاثة آلاف ترجمة
للصحابة ورواة الحديث ، ومؤرخو البلاد والمدن في مختلف الاقطار
كأبي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر الدمشقي صاحب

تاريخ دمشق ، ثم المؤرخون العامون كأبي الحسن علي بن محمد المعروف
بعز الدين ابن الاثير صاحب السكامل أشهر كتب التاريخ ومن أوثقها
وأوضحها وأوسعها، وهو منذ الخليفة إلى سنة ٦٢٨ في اثني عشر جزءا

العلوم الكونية

عرفت أن العلوم الكونية أربعة أقسام ، طبيعية ورياضية وإلهية
وسياسية . فمن الطبيعية الكيمياء والطبيعة والطب والصيدلة والفلاحة
والمواليد الثلاثة « الحيوان والنبات والجماد » ، ومن الرياضية الجبر والحساب
والهندسة والحيل « الميكانيكا » والفلك والجغرافية النظرية ، ومن الإلهية
صفات الاله والسمعيات وقوى النفس وكل ما وراء الطبيعة ، ومن
السياسية تنظيم الملك وتدبير المنزل وتدبير المال والاخلاق . وإليك كلمة
مجملة عنها مجموعة كما وعدنا ، لأنها ليست ذات صلة مباشرة بالأدب
تخرج إلى أفرادها كما أوردنا مواد العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية قبل .
ذكرنا في صدر الكتاب حيث الكلام على غلبة الفرس فيما طرأ
على العرب ولغتها من جراء امتزاج الاعجام بها ، أن الفرس أحرزوا
منذ القديم قسما وافرا من العلوم أوجدوا بعضه ، ثم ورثوا بعضا عن
الآشوريين والبابليين ، وترجموا بعضا منذ القديم عن الهند والصين ، كما
ترجموا بعضا آخر عن اليونان على يد بعثة أرسلها سابور بن أردشير إلى
بلاد اليونان ، وعلى أيدي العلماء الوثنيين الذين رحلوا من اضطهاد
جوستيان قيصر إلى بلاد الفرس أيام كسرى أنوشروان . وبذلك كان
العلم القديم كله تقريباً مستقراً في بلاد الفرس . فلما اختلط العرب بهم

على العهد العباسي اختلاطاً كبيراً؛ ورأى أبو جعفر المنصور حاجة الدولة الجديدة إلى هذه العلوم ، عمل على ترجمتها كما تقدم وتبعه في ذلك خلفاؤه إلى أن جاء المأمون فوجه إلى الترجمة اهتماماً ليس فوّقه اهتمامه ، حتى أعاد ترجمة كثير من الكتب اليونانية والهندية عن لغتيها الأصليتين لا عن اللغة الفارسية كما حدث قبله ، وبذلك تم للعرب على عهده جل ما كان من علوم عند أمم الحضارة القديمة ولا سيما الفرس واليونان والهنود على أيدي ترجمة ماهرين .

وقد كان خلفاء الدولة يتخيرون من علوم كل أمة ما نبغت فيه ، فكانوا يعتمدون في السير والحكم والتاريخ والموسيقى والآداب على الفرس ، وفي الفلسفة والمنطق والهندسة والطب على اليونان ، وفي الحساب والنجوم والعقاقير والأقاصيص على الهنود ؛ على أنهم نقلوا علوماً أخرى عن أمم غير هذه الثلاث كانت فيها ذات نبوغ ، كالزراعة والتمنجيم والسحر والطلاسم عن الانباط والسككدان ، وكالكيمياء والتشريح عن المصريين . ثم مزجوا ذلك كله ببعضه ببعض وأخرجوه في طابع عرفوا به ونسب إليهم في العصر العباسي الأول ، فكانوا في ذلك مثار الدهش والاعجاب . ومما ينبغي أن ينبه إليه هنا أن اعتزازهم بأدبهم جعلهم لا يعنون بنقل آداب غيرهم من تلك الأمم إلا ما تسرب إليهم من آداب الفرس بعمل أبناء فارس أنفسهم حين شاركهم النفوذ وأرادوا إظهار ما أثر أسلافهم فيها كما ظهرت في سائر العلوم ، ولو كان لا بُدَّ بناء الأمم الأخرى مثل ما لا بُدَّ للفرس في هذه المشاركة لنقلوا آداب أممهم كما فعل هؤلاء .

وقد كان معظم النقلة من أهل العراق والشام وفارس والهند غير المسلمين الذين استحضروهم الخلفاء وأغدقوا عليهم المال . فكان أشهر المترجمين من اليونانية . آل بختيشوع طبيب المنصور ، وآل حنين ابن إسحق وابن أخته حبيش الأعسم ، وآل سرجويه ، وآل ثابت الحراني وأفراد غيرهم كقسطا بن لوقا ، والحجاج بن يوسف بن مطر ، ويوحنا البطريق واسطفان بن باسيل ، وموسى بن خالد وأبو عثمان الدمشقي وأبو بشر بن يونس ويحيى بن عدي . وكان أشهرهم من الفارسية ابن المقفع وآل نوبخت وخاصة الفضل ، وموسى ويوسف ابنا خالد وأبو الحسن علي بن زياد التميمي ، والحسن بن سهل وأحمد بن يحيى البلاذري ، وإسحق ابن يزيد ، ومحمد بن الجهم ، وهشام بن القاسم ، وموسى بن عيسى ، وعمر بن الفرخان ، وجبله بن سالم . وكان أشهرهم من الهندية منكه وابن دهن الهنديان . وكل هؤلاء نقلوا للخلفاء ومشاركيهم في النفوذ . وكان ممن نقل للعلم ولنفسه بنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن وأبناؤهم من بعدهم .

هذا والكتب التي نقلت تعد بالآلاف ولكن الباقي منها لا يتجاوز العشرات ، وأشهره المجسطي لبطليموس ترجمة الحجاج بن يوسف بن مطر ، والسياسة في تدبير الرياسة ترجمة يوحنا الطريق ، ورسائل في الطب ترجمة قسطا بن لوقا ، والمدخل في الطب ورسائل أخرى فيه ، والنواميس لحنين بن إسحق ، ومنطق أرسطو لابنه إسحق . وقبل أن ينتهي هذا العصر الأول اشتغل المسلمون أنفسهم بهذه العلوم الدخيلة فنبغ فيها من فلاسفتهم أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي الملقب فيلسوف العرب ، وامتد زمنه من المأمون إلى المتوكل ، فهو قد أدرك

العصر الثاني وله تأليف كثيرة في معظم العلوم الدخيلة ، عد منها ابن النديم في الفهرست ٢٣١ كتابا موزعة على ١٧ علما وممدودة في كل علم ولكن الباقي منها إلى الآن لا يبلغ العشرين ، منها إلهيات أرسطو والمد والجزر واللون اللازوردى في السماء وذات الشعبتين « آلة فلكية » واختبارات الأيام ورسالة في الموسيقى ، ومقالة في تحاويل السنين . وفي العصر الثاني زاد اشتغال المسامين بهذه العلوم . ومن نبغائهم فيها أبو نصر الفارابى الذى يلى الكندى في المكانة ، ومن كتبه الباقية ١٢ كتابا في المنطق و ٨ في السياسة والأدب و ٣٧ في الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى وأبحاث أرسطو وموضوعات أخرى . وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى وله كثير من المؤلفات والمخترعات . فمؤلفاته تزيد عن المائتين ولكن الباقي منها بضع وعشرون أغلبها في الطب الذى يقال فيه « كان معدوما فأحياه جالينوس ، وكان متفرقا فجمعه الرازى ، وكان ناقصا فكماله ابن سينا » ومنها كتاب الحاوى في الامراض ومداواتها ، والطب المنصورى ألفه للأمير منصور السامانى ، والطب الملوكى ألفه لصاحب طبرستان ، والمرشد والكافى وبرء الساعة في الطب أيضا والجدرى والحصبة وهو أول كتاب أجاد تشخيص هذين الداءين ووصف الدواء لهما

ومن مكشوفاته الكيميائية زيت الزاج « حامض الكبريتيك » ولا تزال طريقة استحضاره له باستقطار كبريتات الحديد مستعملة إلى الآن ، والكحول وقد استخرجه باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة . وله في الكيمياء مؤلفات .

ولما جاء العصر الثالث زاد المشتغلون بهذه العلوم من المسلمين فيه، فنبتح
كثير أشهرهم أبو علي الحسين بن سينا الملقب بالشيخ الرئيس المتوفى
سنة ٤٢٨؛ فقد انفرد بقوة العقل وسعة العلم وألف في كل فن حتى زادت
مؤلفاته على المائة، وقد نقل الباقي منها إلى اللغات الاوربية فأثر في نهضتها
الحاضرة تأثيرا يينا. منها في الطب القانون في ١٤ جزءا والشفاء في ١٨
جزءا « بعض أجزائه في علوم أخرى » وفيها في الفلسفة الاشارات
والنجاة وفي الالهيات والنفس الالهيات وقصيدة النفس، وفي المنطق
الاشارة والعروس، غير كتب أخرى في الطبيعة والرياضة والسياسة
والموسيقى وغيرها، ومن المبرزين فيه أيضا جماعة إخوان الصفا ولا تزال
رسائلهم إلى اليوم مرجعا في كثير من مباحث هذه العلوم وخاصة
الفلسفة. وقد تقدمت في هذا العصر الكيمياء فأُنشئت حوانيت الصيدلة
وعرف كثير من المركبات كما تقدم علم النبات، فولدت أنواعه واستخرجت
منه الأدوية المختلفة، وكذا النجوم فبنيت المراصد وأبطلت صناعة
التنجيم ثم الرياضيات والفنون الجميلة ثم استمر تقدم هذه العلوم سائرا
إلى الامام بالمشرق في هذا العصر حتى نقل إلى الأندلس وبخاصة رسائل
إخوان الصفا فاهتم الاندلسيون بها.

وفي العصر الرابع طرد نمو هذه العلوم كذلك بالشرق والغرب
ولكن الاندلس في أواخره فاقت المشرق الذي كان له السبق في أوائله
فكان معظم الفلاسفة منها، ويكفي أن تعلم منهم أبا الوليد بن رشد المتوفى
سنة ٥٩٥ صاحب الكتب الكثيرة التي كان فضلها على نهضة أوربة كفضل
كتب ابن سينا المذكور.

وإن المقام لمضييق عن عدد علماء هذه العلوم من المسلمين شرقا وغربا خلال العصرين الثالث والرابع ، فلذلك كثف العلماء المذكورين « ابن سينا وابن رشد » اللذين جاء أولهما نحر المشرق في العصر الرابع ، وجاء ثانيهما نحر المغرب في الخامس .

هذا - وقد خالق تدوين العلوم بنوعيتها كتابة عامية هي لغة التأليف . كما حمل تقدمها على إحياء مجالس العلم والمناظرة التي انتهت بإنشاء المدارس في العصر الأخير بالمعنى الذي نعرفه الآن ، وهذي كلمة عن كليهما تلائم المقام .

الكتابة العامية أو لغة التأليف

جاءت كتابة التأليف مختلفة باختلاف نوع العلوم من إسلامية وكونية . فكانت في العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية في العصر الأول العباسي ، عبارة عن جمع الروايات وتصنيفها طوائف تقع كل منها تحت بحث خاص . وقليل ما كان يزيد المصنف على هذا الجمع ما يربط بعض الروايات ببعض أو يشرح الغريب . وقد كانت هذه الزيادات أظهر في اللسانية منها في الشرعية ، كما كانت ذات فصاحة وبلاغة لرسوخ المصنفين إذ ذاك إلا في الفقه والكلام ، فقد كانت فيهما أقل درجات في البيان . ولما جاء العصر الثاني نمت هذه الزيادات على ما رأيت آنفا في تاريخ العلوم واطرد نموها في الثالث لنمو العقاية واتساع الأبحاث ، فظهرت شخصيات المؤلفين وازدادت ظهورا باغفال الأسانيد في الرواية وبخاصة في علوم اللسان مع بقائها ذات قوة في التعبير وجمال في الأداء ، حتى إذا ما جاء العصر الرابع فسد هذا الجمال في أوله بالصناعة اللفظية التي أضرت

بالتعابير ، وفي آخره بالصناعة المنطقية التي أصابته بالتعقيد .
وكانت في العلوم الكونية المترجمة منذ العصر الاول - ماعدا الادبية
التي كانت آية في البيان - لاتعدو العبارة الأعجمية الأصلية في ثوب
ترجمتها العربية دون تصرف كبير . ولكن حينما نهضت الترجمة في آخره
على عهد المأمون بما أغدق من ذهب على المترجمين ، وجد فيهم الخدائ
الذين أعادوا ما ترجم من قبل بعبارة صحيحة ترافق صحتها الجودة في
معظم الاحيان . وعلى هذا كانت العبارة في العصر الثاني ، أما في الثالث
حيث هضم المسلمون هذه العلوم وعمدوا إلى التأليف فيها بعد أن
اختتمت معانيها في نفوسهم ، فقد اقتربت لغة التأليف في العلوم المترجمة ،
من لغته في العلوم الاسلامية الشرعية ، بل في بعض اللسانية لأن
التأليف حينذاك كان وضعاً لا ترجمة ، ولهذا ظهر فيه تصحيح كثير من
الاغلاط ، غير أن النهوض لم يستمر طويلاً في العصر الأخير الذي
تسرب فيه من الفساد مثل ما تسرب إلى العلوم الاسلامية ، ولكنه
كان في تعقيد المعاني شراً منه في تكلف اللفاظ .

هذا ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى ما استحدثه تدوين العلوم بنوعها
وخاصة الكونية في اللغة من تأثير في اللفاظ . فقد خرج كثير منها
عن معانيه الأصلية إلى معان اصطلاحية جديدة تراها منبثة في جميع
العلوم ، وهأنذا تعرف طوائف منها في العلوم الاسلامية شرعية
ولسانية ، وهالك بعضها في الكونية وخاصة الطب والفلسفة .

فمن الطبية ، الكحالة والسيدلة ، والتشريح والجراحة والتوليد ، في
فنون الطب ، والرطوبات والمزجة والاخلاط كالخار والبارد والجاف

واليابس والسوداء والصفراء في مصطلحات هذه الفنون ، والمسخن والمبرد والمرطب والمخفف والمسهل والمخدر وسائر مشتقاتها في الأدوية ، والفسخ والرض والخالج والفتق والجبر في الجراحة ، والصداع والصرع والسرطان وغيرها كثير في الامراض ، ومثلها ما جاء في وصفها كالمزمنة والحادة والغيب والربع وغيرها في أوصاف الحمى مثلاً .

ومن الفلسفية القدم والحدوث والحركة والسكون وغيرها في الكلام ، والمريد والسالك والأنس والمشاهدة في التصوف .

وقد نقلت ألفاظاً أعجمية كثيرة بالتعريب أو على حالها في أسماء العقاقير والامراض والأدوات والفلسفة . كلبقيدونس والمصطكي من العقاقير اليونانية ، والبابونج والزرنيخ من الفارسية ، وكالقولنج والمنتخوليامن الأمراض اليونانية ، والرسام والمارستان من الفارسية ، وكالاصطراب والانبقيق من الأدوات اليونانية ، والبركار والاسطوانة من الفارسية . وكالهيولى والطلسم في الفلسفة . إلى غير ذلك مما زخر تياره حتى ألفت فيه كتب كالمعرب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ .

وقد جاوز التأثر بالعجمة الألفاظ إلى الأساليب لتأثر المترجمين بلغاتهم الأصلية . فكثير استخدام فعل الكون ، وأدخات آل المعرفة على لا النافية ، وزيدت الألف والنون قبل ياء المتكلم ، كما زيد ضمير الغائب بين المبتدأ وخبره ، وصيغت كلمات من الاسم أو الضمير أو منهما معاً كالكمية والهوية والماهية . وكثير استعمال الجمل المعترضة والفعل المبني للمجهول والألقاب وهكذا .

م - ٣٠ أدب

مجالس العلم والمناظرة وإنشاء المدارس

قد عرفت ما كان من عناية خلفاء المسلمين منذ الصدر الأول إلى آخر العصر الأموي بالأدب والشعر، وما كان على عهدهم من علم، فيما ذكرناه وسبقنا الشواهد عليه بكتابنا الثاني، كما عرفت أن دوره فيهما كانت المساجد، ولتعرف الآن أنها بقيت في العصر العباسي كما كانت في سابقه، ولكن ضم فيه إلى الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى والمسجد الأموي، وجامعي البصرة والكوفة والمسجد العتيق بالفسطاط وسواها، مساجد بغداد ومسجد أحمد بن طولون والازهر وجامع الخاتم وغيرها.

ولكن لما زخر الأدب وفاض العلم منذ العصر العباسي الأول وولع خلفاؤه بهما ولعاشديدا، أكثروا استقدام العلماء إلى مجالسهم وحاكمهم في ذلك الأمر، والوزراء، فصارت تعقد تلك المجالس للمناظرات في العلوم اللسانية والشرعية وتفدق المطايا على المتناظرين، وكان هذا أكبر حث للأدباء والعلماء على أن يهيئوا أنفسهم لتغذية هذه المجالس طمعا في المال.

قال أسامة بن معقل « كان السفاح راغبا في الخطب والرسائل يصطنع أهلهم ويتيهم عليها حفظت ألف رسالة وألف خطبة طلبا للحظوة عنده فنلتها، وكان المنصور بعده معنيا بالاسمار والاخبار وأيام العرب، يدني أهلها ويجيزهم عليها، فلم يبق شيء منها إلا حفظته، طلبا للقرب منه، وكان الهادي مغرما بالشعر يستخلص أهلها فآثر كتبيتا نادرا ولا شعرا فاخرا ولا نسيبا سائرا إلا حفظته، ولم أر شيئا أدعى إلى تعلم الآداب غير رغبة الملوك في أهلها وصلاتهم عليها » ولو نحن نقول بلغت حياة أسامة

الرشيده لتحدث عنه أضعاف ما تحدث عن هؤلاء .

ولما فاضت العلوم الكونية على عهد المأمون امتلأت مجالسه ومجالس غيره بالمناظرات وبخاصة الفلسفة، ولكن لم تكن المناظرة في هذه العلوم الفلسفية على هدوء نظيرتها الادبية ، فقد احتدم فيها النقاش واشتد الخلاف كما احتدم فيما يتصل بالفلسفة من علوم الدين كالكلام وبعض مسائل الفقه . وقد أشعل جذوة هذا الاحتدام إطلاق المأمون حرية البحث وانغماسه في أعقد مسائله كخلق القرآن إلى الهامة، وتشده في ذلك تشددا أوقع الناس في الفتن والحزن طوال عهده وعهد المعتصم والوائق من بعده ، ولم ينجهم منها إلا المتوكل الذي قضى على ما كان يخالطها من أذى يستبيح الدماء . على أنه قد بقيت في العصر الثاني الذي بدأه المتوكل بهذا النسكين ، خلافاً كانت تثور حيناً وتهدأ حيناً بين الحنابلة المتشددين وأبناء المذاهب الأخرى المعتدلين ، فكانت المناظرات الدينية حية إزاء الادبية فيه . ثم جاء العصر الثالث فخلق خلافاً صحبه من المناظرات الدينية بين الشيعة وغيرهم شيء كثير كاد يقضى على الادبية لولا شغف رجال الدويلات بالأدب . وقد أدالت الأيام في العصر الرابع للسنة من الشيعة بما كان من قيام السلاجقة والايوبيين ، فحي للسنة فيه مثل ما كان للشيعة في سابقه ، ولكن مع خمول المناظرات في الأدب وسائر العلوم .

وإليك مناظرتين قصيرتين من النوعين الأدبي والعلمي، أما النوعان المذهبي والفلسفي فنماظراتهما طويلة يمكن الرجوع في منلهما فيهما إلى ماكان من المأمون في علويته وفي قوله بخلق القرآن .

١- حضر عند الرشيد الأصمعي والكسائي فسأل الرشيد عن بيت الراعي :
قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثله مخذولا
فقال الكسائي كان قد أحرم بالحج فضحك الأصمعي وتهانف ، فقال
الرشيد ما عندك ؟ فقال والله ما أحرم بالحج ولا أراد أيضا أنه دخل في
شهر حرام كما يقال أشهر وأعام إذا دخل في شهر أو عام ، فقال الكسائي
ما هو إلا هذا وإلا فما المعنى للأحرام ، قال الأصمعي نخبرني عن قول
عدي بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يتمتع بكفن
أي إحرام لكسرى فقال الرشيد فما المعنى ؟ قال يريد أن عثمان لم يأت شيئا
محرما يوجب تحاميل دمه ، فقال الرشيد أنت يا أصمعي ما نطاق في الشعر .
٢- جاء عيسى بن عمر النخعي مجلس أبي عمرو بن العلاء فقال
ما شئ بلغني عنك أنك تجيزه قال وما هو ؟ قال بلغني أنك تجيز « ليس
الطيب إلا المسك » بالرفع فقال له أبو عمرو هيهات نمت وأدج الناس
ثم قال ليحيى بن المبارك وخلف الأحمر امضيا إلى أبي مبيدة فلقناه بالرفع
فأنه يأبى وامضيا إلى المنتجع بن نبهان فلقناه بالنصب فأنه يأبى ، فمضيا إلى
أبي مبيدة فقال ما خطبكما قالا جئناك لنسألك عن شئ من كلام العرب
قال ها تياها ، فقالا كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك » فقال أنا امرأني
بالكذب على كبر سني فأبى الزعفران وأبى الجاوي قال خلف « ليس الشراب
إلا العسل » قال فما تفعل سودان هجر ما لهم غير التمر ؟ قال يحيى « ليس
ملاك الأمر إلا طاعة الله » فقال هذا كلام لا دخل فيه ليس ملك الأمر
إلا طاعة الله والعمل بها ونصب فلقناه بالرفع فأبى . ثم جاءا إلى المنتجع

فقال له كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك » ونصبا فقال ليس الطيب إلا المسك ورفع، فجهدا به أن ينصب فلم ينصب فرجعا إلى أبي عمرو وعنده عيسى فأخبراهما بما سمعا فأخرج عيسى خاتمه من يده فدفعه إلى أبي عمرو وقال بهذا سدت الناس يا أبا عمرو .

إنشاء المدارس - انقضى العصر الأول ثم مضى الثاني والثالث كذلك ومتلقى العلم المساجد والمجتمعات العامة في مثل المربد، ثم المجالس الخاصة في دور الخلفاء والعظماء، وفيها جميعا كانت تدور المناظرات دون أن يكون للعلماء أو الطلاب دور خاصة أو أرزاق مفروضة، إنما كانت نفقة الطلاب على أهليهم ونفقة العلماء مما يحترفونه مع العلم، أو يمنحونه من صلة نظير تأليف كتب أو استفتاء في موضوع، مع غلبة التقشف في المعيشة والزهد في الدنيا على الجميع . ولكن ذلك لم يلبث أن أحدث في الدروس اضطرابا وفي النفوس قلقا لكثرة من أصبحوا في حاجة إلى التعلم وقلة من بقوا يزاولون التعليم، فما كاد يحل العصر الرابع حتى هال هذا الأمر نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقي ووزير ابنه ملكشاه وكان فيه ميل إلى العلم وأرخت له الأيام في وزاره نحو ثلث قرن فشرع سنة ٤٥٧ في تأسيس المدرسة النظامية نسبة إليه ببغداد فأنشأها بعد سنتين وافتتحها في حفل حافل بجميع الطبقات وولى أبا إسحق الشيرازي رئاسة التدريس بها، وفرض لأساتذتها وطلابها المراتب فكانت أول مدرسة بالمعنى المعروف الآن في الاسلام^(١) ثم بنى أخرى باسمها

(١) أنكر الحافظ الذهبي في كتابه تاريخ الاسلام هذه الأولوية لنظام الملك وذكر بعض مدارس في نيسابور، منها البيهقية نسبة إلى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠، والسعيدية التي أسسها فيها الأمير نصير أخو محمود الغزنوي واليه بها،

فى نيسابور وعهد بها إلى إمام الحرمين ، فكان عمله هذا سنة حمئة
اتبعه فيها ذوو الامر بجميع الاقاليم ، فأنشأ السلطان نور الدين صاحب
دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ مدارس فى معظم بلاد الشام ، والسلطان صلاح
الدين المتوفى سنة ٥٨٩ مثلها فى القدس والاسكندرية والقاهرة .
ومما كان يحجب فى هذا الانشاء ، رغبة الخلفاء والولاة اكتساب قلوب العامة
بتقريب العلماء وتعليم الفقراء ، ثم رغبة كثير من ذوى اليسار ببلاط
السلاطين فى وقف أموالهم على سبيل الخير وأهمها التعليم مع الإبقاء
على شىء من غلتها لأسرهم ليكسبوا بذلك الثواب على ما فعلوا من الله ،
ويضمنوا لبنيتهم بقاء هذا الشىء بعيدا عما كان يحدث كثيرا من الاغتصاب ،
ثم التحزب لنصرة مذهب على آخر كما فعل صلاح الدين المذكور بأنشائه
حين أبطل المذهب الشيعى من الأزهر ، مدرسة لكل مذهب من
المذاهب الثلاثة الشافعى والمالكى والحنفى . وقد استمر عدد المدارس
يتزايد كلما تعددت أسباب الانشاء حتى غصت بها المدن الكبرى قبل
انتهاء القرن السادس - ذكر ابن جبير فى رحلته أنه شاهد عشرين
مدرسة فى دمشق وثلاثين فى بغداد - فكانت هذه الكثرة ماطفة
للأحداث الخطيرة التى نزلت بالمسلمين منذ أواخر العصر العباسى
وتعدته إلى ما بعده من العصور .

على أن تاج الدين السبكى قد وفق بين الأمرين بقوله فى طبقاته « قد أدت
فكرى وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من رتب فيها - أى فى المدارس -
المعالييم للطلبة ، فانه لم يصح لى أكان للمدارس قبله معالييم أم لا ، والظاهر أنه
يكن لهم - أى للطلبة - معلوم »

الشعر

أولا - نماذج

- ١ - قال بشار المتوفى سنة ١٦٧ ينسب وهو من مخضرمى الدولتين^(١)
- ياليلة نزداد نكرا من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت إليك سقتك بالعينين خمرا
تنسى التقى معاده وتكون للحكام ذكرا
وكان رجوع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهباً وعطرا^(٢)
وكانها برد الشرا ب صفا ووافق منك فطرا
جنينة إنسية أو بين ذاك أجل أمرا
وكفاك أنى لم أحيط بشكاة من أحببت خبرا
إلا مقالة زائر نثرت لى الأحزان نثرا
متخشعا تحت الهوى عثمرا وتحت الموت عشرا^(٣)

(١) هو بشار بن برد الفارسي أصلاً ، العقيلي ولواء الضمير الشاعر المتصرف
فى فنون الشعر الذى أجمعت الرواة على تقدمه طبقات المحدثين المجيدين . وهو
من مخضرمى الدولتين ، وقد عمر نيفاً وتسعين سنة (٢) نقاء لون وطيب رائحة
(٣) ليس هذا العدد مراداً لذاته إنما يريد أن يسوى بين ألمه لهواها وألمه خلوف
موتها من شكاها .

٣ — وقال العباس بن الأحنف المتوفى سنة ١٩٢ ينسب أيضا (١)

أزين نساء العالمين أجيبى
كسبت كتابي ما أقيم حروفه
أخط وأحوما خططت بعبرة
أيا فوز لو أبصرتنى ما عرفتني
وأنت من الدنيا نصيبي فاز أمت
وإني لا أستهدي الرياح سلامكم
وأسألها حمل السلام اليكم
أرى البين يشكوه المحبون كلهم
أقول ودارى بالعراق ودارها
وكل قريب الدار لا بد مرة
سقى منزلا بين العقيق وواقم
أجش مديم الرعد دان ربابه
أزوار بيت الله مروا بيثرب
وقولوا لهم بأهل يثرب أسعدوا
فانا تركنا بالعراق أخا هوى

دعاء مشوق بالعراق غريب
لشدة إغوالى وطول نحبي
تسح على القرطاس مسح غروب
لطول نحولى بعدكم وشحوبى
فلميتك من حور الجنان نصيبي
إذا أقبلت من نحوكم بهبوب
فان هى يوما بلغت فأجيبى
فيارب قرب دار كل حبيب
حجازية فى حرة وسهوب (٢)
سيصبح يوما وهو غير قريب
إلى كل أطم بالحجاز ولوب (٣)
بجود نسيمى شمال وجنوب
لحاجة متبول الفؤاد كئيب
على جانب للحادثات جايب
تذهب رهنا فى حبال شعوب

(١) هو الفضل أبو العباس بن الأحنف الحنفي الشاعر الرقيق الحاشية

اللطيف الطباع الغزل المخاص للغزل . فجميع ديوانه فيه وكله جيد .

(٢) الحرة الأرض الصلبة السوداء الحجارة ، والسهوب جمع سهب بالضم

وهو الأرض المستوية السهلة (٣) العقيق وواقم موضعان بالمدينة ، والأطم القصر
أو الحصن أو كل بيت من حجارة ، واللوب جمع لوة كاللاب جمع لابة وهى الحرة

به سقم أعيا المداوين عامه سوى ظنهم من مخطيء وه صيب
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجه وإن نحن نادينا فغير مجيب
خذوا لي منها جرعة في زجاجة ألا إنهم ألو تعاملون طيبين
وسيروا فإن أدرككم في حشاشة

لها في نواحي الصدر وجس ديب^(١)

فرشوا على وجهي أفق من بليتي يثيبكم ذو العرش خير مثير
فإن قال أهلي ما الذي جئتم به وقد يحسن التعليل كل أريب
فقولوا لهم جئناهم من ماء زمزم لنشفيه من دأه بذنوب
وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم وبين يوم المنون عصب
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة حايف صفيح مطبق وكثير
فرشوا على قبري من الماء وانكبوا قتيل كعاب لا قتيل حروب

٣ - وقال أبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ يصف سلاف الشهيد ونحله^(٢)

لا يصرفنك عن قصف وإصباء مجموع رأي ولا تشتيت أهواء
واشرب سلافا كعين الديك مذهبة من كف ساقية كالريم حوراء
لها ذيول من العقيان تتبعها في الشرق والغرب في نور وظاماء
ليست إلى النخل والاعناب نسبتها لكن إلى العسل الماذي^(٣) والماء
نتاج نحن خلأيا غير مقفرة خصت بأطيب مصطاف ومشتاء

(١) صوت خفي لنفس يدب

(٢) هو أبو علي الحسن بن هانيء الفارسي أصلا الحكيم ولواء أرق الشعراء

حاشية، وأجودهم بديهة، وأفتحهم لأبواب الحديث من المعاني الرقيقة، وثاني
الشعراء المحدثين بعد بشار عند الجاحظ (٣) الأبيض

ترعى أزاهير غيطان وأودية
فطس الأنوف مقاريف مشمرة
من مقرب عشراء ذات زمزمة
تغدو وترجع ليلا عن مسارها
كل بمقله يعضى حـ ومنه
حتى إذا اصطاك من بنياها قرص
وآن من شهدها وقت الشيار^(٢) فلم
وصفقوها بماء النيل إذ برزت
حتى إذا نزع الرواد رغوتها
استودعوها رواقيدا^(٤) مزفنة
وكم أفواهما زهر على ورق
وعمرت حقبيا في الدن لم يرها
حتى إذا سكنت في دنها وهدت^(٦)
جاءت كشمس ضحى في يوم أسعدها
كانها ولسان الماء يقرعها
لهما من المزج في كاساتها حدق
كان مازجها بالماء طوقها
فاشرب هديت وغن القوم مبتدئا

وتشرب الصفو من غدروا أحساء
خوض العيون بريثات من الداء
وعائد متبع منها وعذراء
إلى ملوك ذوى عز وأحياء
في حزبه بجميل القول والراء^(١)
أروينها عسلا من بعد اصداء
تلبث بأن شيرت في يوم أضواء
في قدر قس كجوف الجب روجاء^(٣)
وأقصت النار عنها كل ضراء
من أغبر قائم منها وغبراء
من حر طينة أرض غير ميثاء^(٥)
حي من الناس في صبح وامساء
من بعد زمزمة منها وضوضاء
من برج لهو إلى آفاق سراء
نار تأجج في آجام قصباء
ترنو إلى شربها من بعد إغضاء
منزوع جلدة ثعبان وأفعاء^(٧)
على مساعدة العيدان والناء^(٨)

(١) مقلوب رأى (٢) جنى العسل (٣) واسعة (٤) جمع راقود أو راقودة،
الدن والخابية (٥) غير سهلة مفككة (٦) من هدأت سهل وحذف (٧) ممدود أفعى
(٨) مهموز ناي .

٤ - وقال مسلم المتوفى سنة ٣٠٨ يمدح يزيد الشيباني في قتله الوليد
ابن طريف (١)

لولا يزيد وأيام لنا سلفت	عاش الوليد مع الغارين أعواما
كالدهر لا ينثنى عما يهم به	قد أوسع الناس إنعاما وإرغاما
نرى العفاة عكوفاً ولحجرتة	يرجون أروع رحب الباع بساما
منية في يدي هارون يبعثها	على أعاديه إن سامى وإن حامى
خير البرية آباء إذا ذكروا	وأكرم الناس أخوالاً وأعماما
تظلم المال والأعداء من يده	لا زال للمال والأعداء ظلاما
لا يستطيع يزيد من طبيعته	عن المنية والمعروف إحجاما
أذكرت سيف رسول الله سنته	وبأس أول من صلى ومن صاما

إن يشكر الناس ما أوليت من حسن

فقد وسعت بنى حواء إنعاما	إذا الخلافة عدت كنت أنت لها
عزا وكان بنو العباس حكما	يصيب منك مع الآمال صاحبها
حاموا وعلموا ومعروفا وإسلاما	كم بلدة بك حل الركب جانبها
وما يلم بها الركب أن الماما	إذا علوا مهمها كان النجاء لهم
إنشاد مدحك إفصاحا وتراناما	

(١) هو صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر المتصرف، البالغ المدح، الجيد القول في الشراب، كأبي نواس وهو على ما قيل أول من أكثر البديع، واخترع له هذا الاسم فاتبعه في ذلك الشعراء وبخاصة أبو تمام، وقد مات وهو يلى برید جرجان للأموين . وجل مدائمه في البرامكة والمهالبة ويزيد ابن مزيد الشيباني .

لو كان يفقه رجع القول طائرهما غني بمدحك فيها بومها الهاما
لو لم تكونوا ابني شيدبان من بشر كنتم رواسي أطواد وأعلاما
٥ - وقال أبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١ في الحكمة^(١)

الحرص داء قد أضر م بمن ترى إلا قليلا
كم من عزيز قد رأيت الحرص صبحه ذليلا
فتجنب الشهوات واحذر أن تكون لهاقتيلا
فلرب شهوة ساعة قد أورثت حزنا طويلا
من لم يكن لك منصفما في الود فابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعا واكسب لها فعلا بخيلا
ولقلما تلقى اللئيم عليك إلا مستطيلا
والمرء إن عرف الجميل وجدته يبغى الجميلا
اضرب بطرفك حيث شئت فإن ترى إلا بخيلا

٦ - وقال أبو تمام المتوفى سنة ٢٣١ يرثي محمد بن حميد الطوسي^(٢)
كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض مأوها عذر
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخـر
وما كان يدري مجتدى جود كفه إذا ما استهلكت أنه خالق العسر

(١) هو أبو اسحاق اسماعيل بن القاسم الفارسي أصلا، العنزي ولاء شاعر سهل الالفاظ حكيم المعاني، أ كثر الشعراء زهدا وحكمة .

(٢) هو حبيب بن أوس الطائي واحد عصره في ديباجة اللفظ ومناعة الشعر وكثرة الحفظ وإجادة الرثاء وقد لاقى شعره شبه مالا لاقى شعر المتنبي من عنايه

ألا في سبيل الله من عطيات له فجاج سبيل الله وانشغل الغفر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة

دما ضحككت عنه الاحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينويه فنى بأسه شطر وفى جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه

من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فردة اليه الحفاظ المر والخلق والوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروح أودونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجلاه وقال لها من تحت أخمصك الحشر^(١)
غدا غدوة والحمد نسج ردائه فلم ينصرف إلا وأ كفانه الأجر
ترى ثياب الموت حمرا فما دجا لها الليل إلا وهى من سندس خضر
كأن بني نهران^(٢) يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثاو تعزى به العلا ويبكى عليه البأس والجود والشعر
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى الى الموت حتى استشهدا هو والصبر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرا أن يقال به كبر
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها وبزته نار الحرب وهو لها جمر
وقد كانت البيض الماء يثر فى الوغى بواتر فى الآن من بعده بتر
أمن بعد طى الحادثات محمدا يكون لاثواب الندى أبدا نشر
إذا شجرات العرف جذت أصولها فنى أى فرع يوجد الورق النضر

(١) الأخص كاصبع مالم يصب الأرض من باطن القدم (٢) عشيرته من طيء

لئن أبغض الدهر الخئون لفقده لعمدى به ممن يحب له الدهر
لئن غدرت فى الروح أيامه به فما زالت الأيام شيمة الغدر
لئن ألبست فيه المصيبة طيء فما عريت منها تميم ولا بكر
كذلك ما ننفك نفقد هالكا يشار كنا فى فقده البدو والحضر
سقى الغيث غيثا وارت الأرض شخصه

وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر وكيف احتمالى للغيوث صنيعة
باسقائها قبرا وفى لحده البحر مضى طاهر الأواب لم تبق روضه
غداة ثوى إلا اشتبهت أنها قبر ثوى فى الثرى من كان يحياه الثرى
ويغمر صرف الدهر نائله الغمر عليك سلام الله وقفا فانى
رأيت الكريم الحر ليس له عمر ٧ — وقال ابن الزيات المتوفى سنة ٣٣٣ آخر شعراء العصر الاول وكتابه
يرثى أم ابنه عمر وقد تركته ابن ثمان^(١)

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنهما غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا فى الفراش تجنه بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحيانى أن بكيت فأنما أداوى بهذا الدمع ماتريان
فهذى عزمت الصبر عنها لأنى جليد فمن الصبر لابن ثمان
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة

ولا يأتسى بالناس فى الحدثنان

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات الكاتب البليغ والشاعر

فلم أر كلاً قدار كيف نصبني ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى
أعيني إن لم تسعدا اليوم عبرتي فبئس إذن ما فى غد تعدانى
٨ — وقال البحترى المتوفى سنة ٢٨٤ يمدح الخليفة جعفر المتوكل
ويصف خروجه فى عيد فطر^(١)

الله مكن للخليفة جعفر الله مكن للخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضله نعمى من الله اصطفاه بفضله
فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل
عمت فواضلك البرية فالتقى عمت فواضلك البرية فالتقى
بالبر صمت وأنت أفضل صائم بالبر صمت وأنت أفضل صائم
فانعم بيوم الفطر عينا إنه فانعم بيوم الفطر عينا إنه
أظهرت عز الملك فيه بحجفل أظهرت عز الملك فيه بحجفل
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت
والخيل تصهل والفوارس تدعى والخيول تصهل والفوارس تدعى
والأرض خاشعة تميد بثقلها والارض خاشعة تميد بثقلها
والشمس مائعة^(٢) توقد بالضحي والشمس مائعة^(٢) توقد بالضحي

حتى طلعت بضوء وجهك فأنجلمت

تلك الدجى وأنجباب ذاك العشير

(١) هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى شاعر مطبوع متصرف فى فنون الشعر وخاصة الممدح إلا الهجاء وهو نقي الكلام ذو بدائع فى غير تكلف يعده أبو العلاء المعرى، الشاعر ويعد أبا تمام وأبا الطيب حكيمين .

(٢) يقال تمتعت الشمس إذا بلغت ذاية ضوئها قبل الزوال

وافتن فيك الناظرون فاصبم
يجدون رؤيتك التي فازوا بها
ذكروا بطاعتك النبي فهللوا
حتى انتهيت إلى المصلى لأبسا
ومشيت مشية خاشع متواضع
فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما
أيدت من فصل الخطاب بحكمة
ووقفت في برد النبي مذكرا
ومواعظ شفت الصدور من الذي
حتى لقد علم الجاهول وأخلصت
صلوا وراءك آخذين بمصمة
الله أعطاك المحبة في الوري
فلأنت أملا للعيون لديهم
٩ - وقال ابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٤ أو ٢٨٣ يهجو إبراهيم بن
المدير^(٢)

يا بن المدير غرني الرواد
أدعو على الشعراء أخبث دعوة
قل لي بأية حيلة أعملتها
هتفوا بأنك «لاحفظات» جواد
عمرا وليس لهم سواك مراد
إذ مجدوك وغيرك الأبحاد

(١) المفكر (٢) هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي ، شاعر
فياض ذو نظم عجيب وتوليد غريب ، يقع على المعاني النادرة فيستخرجها ثم
يوفيها ويحسن عرضها ، أجاد في كل فنون الشعر ولا سيما الوصف والهجاء

ما أنت والمعروف أو مفتاحه
 لكن إخال معاشرا خيبتهم
 أثنوا عليك ليستميجك غيرهم
 أرويت بالأصدار عنك حوائجهم^(١)
 وسلوت ذكراك التي من مثلها
 خيبتني ثقة بلؤمك إنه
 عن مثله نكص الهجاء مقمقرا
 لا أن لؤمك جنة لكنه
 فاهرب وأين بهارب من طالب
 خذها إليك من الملابس ملبسا
 ضنكا إذا زرت عليك زروره^(٢)
 ولئن شقيت بابس برد مثلها
 شنعاء تضرب فيك نار شناعة
 تحبوك بدأتها بذكر نابه
 ولقما يجدي على متبجح
 ما ينفع الخطب المحرق في الصلي
 ١٠ - وقال ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ يصف العقار وساقياها ومجلسها
 والصييد لشواها^(٥)

(١) جمع حائة وهي العاطشة (٢) تحرق (٣) جمع زر أخى العروة

(٤) أضواؤها (٥) هو الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز بن المتوكل، العالم

وحلوا الدلال مليح الغضب
سقاني وقد سل سيف الصبا
عقارا إذا ما جلتها السقا
فأصلح بيني وبين الزما
وما العيش إلا مستهتر
يهم إلى كل ما يشتهى
وليسخو بما قد حوت كفه
فكم فضة فضها في سرو
ولا صيد إلا بوثابة^(١)
وإن أطاقت من قلاذاتها
فزوبعة من بنات الريا
تضم الطريد إلى نحرها
لها مجلس في مكان الرديف
فظلت لحوم ظباء الفلا
وطافت سقاتهم يمزجو
وحثوا الندامى بمشمولة
فراحوا نشاوى بأيدي المدا
إلى مجلس أرضه نرجس

يشوب مواعيده بالكذب
ح والليل من خوفه قد هرب
ة ألبسها الماء تاج الحب
ن وأبدلني بالهموم الطرب
تظل عواذله في شغب
وإن رده العذل لم ينجذب
ولا يتبع المن ما قد وهب
ريوم وكم ذهب قد ذهب
تطير على أربع كالغذب
وطار الغبار وجد الطلب
ح تريك على الأرض شدا عجب
كضم المحب لمن قد أحب
ف كتركية قد سببها العرب
ة على الجمر معجلة تنتهب
ن بماء الغدير بنات العنب
إذا شارب عب فيها قطب
م قد نشطوا من عقل التعب
وأوتار عيـدانه تصطنب

الأديب والكاتب البليغ والشاعر المتصرف القدير ذو التشبيهات الفائقة
والنخيلات الرائعة في شتى الأوصاف بعبارات مطبوعة كأنها مصنوعة .
(١) يريد كلبة سلوقية نسبة إلى سلوق بلدة باليمن مشهورة بهذا النوع .

وحيطانه خرط كافورة وأعلاه من ذهب يلتهب

١١ - وقال المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ فأنحة شعراء العصر الثالث يمدح
سيف الدولة ويصف نصرته على الروم ويذكر مركزه من الخلافة
سائقا للمثل والحكمة في ثنايا ما يقول (١)

هنيئاً لأهل الثغر (٢) رأيك فيهم وأنت حزب الله صرت لهم حزبا
وأنت رعت الدهر فيها وريبه فان شك فليحدث بساحة باخطبا
فيوما بخيل تطرد الروم عنهم ويوما بجود يطرد الفقر والجدا
سر اياك تترى والدمستق (٣) هارب وأصحابه قتلى وأمواله نهبي
أني مرعشا (٤) يستقرب البعد مقبلا وأدبر إذ أقبلت يستبعد القربا
كذا يترك الاعداء من يكره القنا ويقفل من كانت غنيمته رعبا
وهل رد عنه باللقان (٥) وقوفه صدور العوالى والمطهمة القبا
مضى بعد ما التفت الرماحان ساعة كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا
ولكنه ولى وللطعن سورة إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبيا
أرى كلنا يبغى الحياة بسعيه حريصا عليها مستهما بها صبا
حب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا

(١) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي البغدي شاعر أشهر من أن
يعرف به ، نشأ بالكوفة ولكنه ملأ بطوافه أرجاء المملكة العربية وبشعره
العالم بأسره (٢) يعني مدينة بالشعر حلب (٣) قائد الروم (٤) مدينة بالشام
قرب أنطاكية (٥) بلد بالروم

وما الفرق ما بين الأنام وبينه (١)

إذا حذر المحذور واستصعب الصعب
لأمر أعدته الخلافة للعدا وسمته دون العالم الصارم العضيا
إذا الدولة استكفت به في ملمة

كفاهما فكان السيف والكف والقلبا
تهاب سيوف الهند وهى حداثد فكيف إذا كانت نزارية عربا
ويرهب ناب الليث والليث وحده فكيف إذا كان الليوث له صحبا
ويخشى عباب البحر وهو مكانه فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبا
ومن تكن الأسد الضواري جدوده

يـ كن ليله صبحا ومطعمه غصبا
فيوركت من غيث كأنك جلودنا به تنبت الديباج والوشى والعصبا
١٢ - وقال أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧ يفتخر ويعتذر عن
أسر الروم له (٢)

سيد كرنى قومي إذا جد جدهم وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

(١) الضمير لسيف الدولة . (٢) هو الحارث بن أبى سعيد بن حمدان بن حمدون فارس مغوار وشاعر عظيم يجمع بين السهولة والجزالة والظرف والعزة، وهو ابن عم سيف الدولة وملك الشعر الثانى فى قول صاحب بن عباد « بدىء الشعر بملك وختم بملك » والأول امرؤ القيس ، ويغلب على شعره الحماسة والفخر وقد أسر بالروم أربع سنين قال فيها كثيرا من الشعر عرفت قصائده بالروميات .

ولو سد غيري ماسددت اکتفوا به

وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر^(١)

وإني لجرار لسكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر
فأصدي إلى أن ترتوى البيض والقنا

وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر

ولا أصبح الحى الخلوف بغارة أو الجيش ما لم تأته قبلى النذر
ويارب دار لم تخفنى منيعة طلعت عليها بالردى أنا والفجر
وساحبة الأذيال نحوى لقيتها فلم يلقها جافى اللقاء ولا وعر
وهبت لها ما حازه الجيش كله

ورحت ولم يكشف لأبياتها ستر

ولا راح يطغيني بأثوابه الغنى ولا بات يثنيني عن الكرم الفقر
أسرت وما صحبى بعزل لدى الوغى

ولا فرسى مهر ولا ربه غمر

والكن إذا حم القضاء على امرىء فليس له بر يقيه ولا بحر
وقال أضحى الفرار أو الردى فقلت لها أمران أحلاهما مر
ولكننى أمضى لما لا يعينى

وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

ولا خير فى دفع الردى بمذلة كما ردها يوما بسوآتة عمرو
يمنون أن خلوا ثيابى وإنما على ثياب من دمائمهم حجر
ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا فى المعالى نفوسنا ومن بخطب الحسناء لم يغلبها المهر

١٣ - وقال السرى الرفاء المتوفى سنة ٣١٢ يرثى فتى من بني شيبان كان له صديقا فقتل وصلب^(١) :

أبدر دجى غالته إحدى الغوائل	فأصبح مفقودا وليس بأفل
أنته المنايا وهو أعزل حاسر	خفى غرار السيف بادی المقاتل
غلام إذا حاينت طاق ثوبه	رأيت عليه شاهدا للجمائل
يمسح بالمسك الذكى مرجلا	يرف على المتنين مثل السلاسل
سواء عليه فى السوابغ مرة	ثنى عطفه أم فى رقاق الغلائل
وعز على العلياء أن حيل بينه	وبين ظبا أسيفه والعوامل
وعرى من برديه كالسيف منتضى	فلم يعر من بردى عفاف ونائل
فأحبب به من راكب غير سائر	مقيم ولاكن زيه زى راجل
يعنبر أنفاس الرياح بشلوه	فتعقب من أنفاس تلك الشمايل
هو القدر المحتوم، والسيف لم يكن	ليخضب الا من دماء الأفاضل
أحلك من أعلى الهواء محلة	نأت بك عن صنك الثرى والجنادل
وليس بعار ماعراك وإنما	حماك اتساع الصدر ضيق المنازل

١٤ - وقال الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ وهو فى سجن عضد الدولة يعزى نفسه عن حبسه ومصادرة ماله، بنفسه وهمته^(٢) :

(١) هو أبو الحسن السرى الرفاء بن أحمد بن السرى الكندى، كان يرفو الثياب بالموصل ولكنه لم بالشعر حتى أجاده ولم يكن يعرف سواه، ولذا كان مطبوعا عذب الألفاظ، وله افتنان فى التشبيهات والأوصاف .

(٢) هو أبو اسحاق الصابى ابرهيم بن هلال، الكاتب المترئس على ديوان الانشاء للخلفاء وملوك توبه، والشاعر المطبوع المكنار فى جميع الفنون، ومصاحب المنزلة العالية على صابئته فى النفوس

يعيرني بالخبس من لو يحله
ورب طليق أطلق الذل رقه
وإني لقرن الدهر يوما تنوبني
ومن مد نحو النجم كما يناله
ولا بد للساعي إلى نيل غاية
وإني وإن أودت بمالي نكبة
فما كنت كالقسطار^(١) يثرى بكيسه
ولكن كليث الغاب إن رام ثروة
ببيت خيمصا طاويا ثم يغتدى
كذلك مثلي نفسه رأس ماله
وللمال آفات يهنأ ربه
ومن يكن السلطان فيه خصيمه
وما خسرني أن غاض ما ملكت يدي
إذا كان مالي من طريف وتالد
ولي بين أقالمي ولي ومنطقي
١٥ - وقال ابن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ يتحدث عن قصة ناسبا^(٢)
كيف العزاء وأين بابه والحي قد خفت ركابه

(١) جمع سطوة (٢) شجاع (٣) ناقد الدراهم كالقسطر . (٤) جمع مذوب وهو كل ما يذاب فيه

(٥) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة السعدي التميمي الشاعر المجيد ذو السمك الحسن والمعجم الجمدي النسب والمدح والوصاف

بأعز منتقب ينم م على محاسنه نقابه
 والبدر في قزع^(١) يشف م كما تشف به ثبابه
 متأود حلو السما ثل من أساوره حقابه^(٢)
 زعم الخبر أنه ضربت على سماع^(٣) قبابه
 فطلبته كالآيم^(٤) أو كالسيل في الليل انسيابه
 فاذا أحمر المقلتين يشين أنمله خضابه
 يهتز مثل السمهرى م تدافعت فيه كعابه
 وقف الولائد دونه كالقلب يستره حجابه
 أقبلت أسأله وأء—لم أن حرمانى جوابه
 ويلي على متلون ال أخلاق يعجبه شبابه
 لارسله تترى الي—نا بالسلام ولا كتابه

١٦ - وقال الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وقد مر على قبر الصابي
 فى الجنينة ببغداد من غير القصيدة الطويلة التى رثاه بها حين موته :^(٥)
 أيعلم قبر بالجنينة أننا أقننا به ننعى الندى والمعاليا
 حططنا فحيننا مساعيه إنها عظام المساعى لالعظام البواليا

(١) سحاب خفيف (٢) وشاح خصره (٣) جبل بالمدينة (٤) الثعبان.
 (٥) هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ويلقب بالموسوى نسبة إلى جده موسى
 السكاظم الراجع بنسبه إلى الحسين بن على . نبغ فى الشعر يافعا وأكثرم منه مبدعا حتى
 أجمع الأدباء على أنه أشعر قريش لأنه أكثر مجيدا ، وهم بين مجيد مقل أو
 مكثار غير مجيد . وكان ذا هيبة وجلال ، تولى نقابة الطالبين فى حياة أبيه وله
 ديوان شعر كثير الأبواب حافظها ثم هو عالم ذو مؤلفات .

وما لاح ذاك الترب حتى تحلبت
 نزلنا إليه عن ظهور جيانا
 أقول لركب رائحين تعرجوا
 ألموا عليه طافرين فأننا
 وقفنا فأرخصنا لدموع وربما
 ألا أيها القبر الذي ضم لحده
 هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا
 وتلك البنان للمورقات من الندى
 هو الخاضب الأقالم نال بها علا
 مفيد ضراب باللسان لو أنه
 مرير القوى نال المعالي واثبا
 خلا بعدك الوادى الذى كنت أنسه
 ملأت بمحياتك البلاد فضائلا
 ١٧ - وقال التهامي المتوفى سنة ٤١٦ ينسب ويذكر الطيف^(١)

قالت أنساك نجدا حب مطرف
 أخذت طرفى وسمعى يوم يبنكم
 وقد أخذت فؤادى قبل فاطمى
 فان وجدت سوى التوحيد فيه هوى
 بيضاء تسحب ليلا حسنه أبدا
 فى الطول منه وحسن الليل فى القصر
 فقلت خبرك يغنينى عن الخبر
 فكيف أهوى بلاسمع ولا بصر
 هل فيه غيرك من أثى ومن ذكر
 إلا هواك فلا تبقى ولا تدرى
 فى الطول منه وحسن الليل فى القصر

(١) هو أبو الحسن على بن محمد التهامي، كاتب معروف وشاعر محسن ذرب

اللسان مشهور، له ديوان يغلب عليه المدح والثناء والنسيب .

يحكى جنى الأقيحوان الغض مبسمها
لوم يكن أقيحوانا ثغر مبسمها
أهتز عند تمنى وصلها طربا
تجنى على وأجنى من مرأشها
أهدى لنا طيفها نجدا وساكنها
فبات يجلو لنا من وجهها قرا
وراعها حر أنفاسى فقلت لها
فما نكرنا من الطيف الملم بنا
فسرت أعر فى ذيل الدجى ولها
وللمجرة فوق الأفق معترض
وللثريا ركود فوق أرحلنا
وأدهم الليل نحو الغرب منهزم
فروع السرب لما ابتل آكرعه
ولو قدرت وثوب الليل منخرق
١٨ - وقال مهبّار المتوفى سنة ٤٢٨ يمدح أبا القاسم الحسين بن على المغربي
عند تقليده الوزارة وهنئه بالنيروز ، وقد جاء لذلك من بابل إلى بغداد
سنة ٤١٤ (١)

(١) هو أبو الحسن مهبّار بن مرزويه الديلمى أحد من أسلم من نبغاء
المجوس ، وكان إسلامه على يد الشريف الرضى ، وعليه تخرّج فى الشعر نجاء على نحو
منه فى جزالة القول وطول النفس ورقة الحاشية ، وقد فضل شعراء عصره ، وله ديوان
ضخم بكثير من فنون الشعر وأخصها المدهح فالنسيب فالهزجات

قد رفعت في بابل راية
يصيح داعي النصر من تحتها
جاء بها الله على فترة
لم تألف الأبصار من قبلها
فارتبعوا بعد مطال الحيا
وزارة قلبها شوقها
قمت بمعناها وكم جالس
وهي التي إن لم تقدر رأسها
مزلة ركب سيسائها^(٢)
راحت على عطفك أثوابها
فتحت في مبهم تدبيرها
رد بنو يحيى وسهل لها
فاضرب عليها بيت ثاوبها
وامدد على الدنيا وجهها
واطلع على النيروز شمسا إذا
يوم من الفرس أتى وافدا
فاغرس ونوه منعما واصطنع
ولوفة الاعطاف لم تعسف^(٤)

للهجد من يلق بها يغلب
ياخيل محي الحسنات اركي
بآية من يرها يعجب
أن تطلع الشمس من المغرب
وروضوا بعد الثرى المجذب
منك إلى حولها القلب
يكفيه منها سمة المنصب
بمحصدات الصبر لم تصحب^(١)
راكب ظهر الاسد الأغلب
طاهرة المرفع والمسحب
تنفس البلجة في الغيب
والطاهريون بنو مصعب
قبلك لم يعمد ولم يطنب^(٣)
ظلال حلم لك لم يعزب
ساق الغروب الشمس لم تغرب
فقاتل العرب له قرب
ترض مضاء الصارم المقضب
بالكلم المر ولم تعيب

(١) لم تسلس وتذل (٢) ظهرها (٣) لم يقم عمودا ولم يمد طنبا

(٤) الولوفة اللامعة يريد القصيدة وهي مفعول لاصطنع.

جاءك معناها وألفاظها

في الحسن بالأسهل والأصعب

أفصح ما قيل ولكنها فصاحة تهدي إلى يعرب

١٩ - وقال المعري المتوفى سنة ٤٤٩ خاتمة شعراء العصر الثالث

يسجل رأيه في النساء^(١)

ترنم في نهارك مستعينا	بذكر الله في المترنات
ولا ترجع بإيما سلاما	على بيض أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم	وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غي	لقينك بالأساور معالم
وسام ^(٢) ماقتنعن بحسن أصل	فجئتلك بالخضاب موسمات
رأبن الورد في الوجنات خيا	فغادين البنان معنات ^(٣)
وشنفن المسامع قائلات	وكلن القلوب مكلمات ^(٤)
نخور الريق لسن بكل حال	على طلابهن محرمات
ولكن الاوانس باعنات	ركابك في مهالك مقمات
صحبك فاستفدت بهن ولدا	أصابك من أذاتك بالسلمات
ومن رزق البنين فغير ناء	بذلك عن نوائب مسلمات
فن نكل بهاب ومن عقوق	وأرزاء يجئن مصمات

(١) هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخي المعري الشاعر الحكيم الفيلسوف خاتمة شعراء العصر الثالث ، الغنى كسلفه المتنبي فاتحة العصر المذكور عن التعريف . وقد خلف لنا من شعره سقط الزند والزموميات

(٢) جمع وسيمة وهي الحسنة (٣) مخضوبات كالغنى (٥) جرحنها متحدثات

وإن تعط الأناث فأى بؤس
يردن بعولة ويردن حليما
يلدن أعاديا ويكن عارا
ولا ترمق بعينك رائحات
فمك حلت عقود النظم وهنا
ولا تحمد حسانك إن توافقت
فحمل مغازل النسوان أولى
سهام إن عرفن كتاب لسن
ويتركن الرشيد بغير لب
وإن جئن المنجم سائلات
ليأخذن التلاوة عن عجوز
فأبعدهن من ربات فكر
ولا يتأهلن شيخ مقل
فان الفقر عيب إن أضيفت
وواحدة كفتك فلا تجاوز
وإن أرغمت صاحبة بضر
وصن في الشرخ نفسك عن غوان
فقد يسرى الغوى إلى مخاز
وما حفظ الخريدة مثل بعل

تبين في وجوه مقسمات
ويلقن الخطوب ملومات
إذا أمسين في المتهمات^(١)
إلى حمامن مكمت
عقودا للرشاد منظمات
بأيد للسطور مقوسات
هن من اليراع مقلمات
رجعن بما يسوء مسمات
أتين هديه متعلقات
فلسن عن الضلال بمنجات^(٢)
من اللأى فغرن مهمات
سواحر يفتدين معزومات
بمعصرة من المتنعات
إليه السن جاء بمعظمت
إلى أخرى تجيء بمؤلمات
فأجدر أن تروع بمعزومات^(٣)
يزرن مع الكواكب معلمات
بجنح في سحائب مشجات
تكون به من المتحرمات

يحور ذمارها ^(١) من كل خطب ويمنعها مصائب مقرمات ^(٢)
 إذا الغاران غرتهما ^(٣) بحمل فدينك بالتورع والصمات ^(٤)
 فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة وللهمات
 ٢٠ - وقال صردر المتوفى سنة ٤٦٥ يستهدي مدادا ويصف الدواء
 والقلم والقرطيس ^(٥)

إليك أشكو مشيبا لاح بارقه في فرع دهاء تجرى بالأساطير
 كانت مفارقها مسكا مضمخة فما لها بدلت منه بكافور
 ومقلة عهدت كحلاء مرهها طول البكاء على بيض الطوامير
 يا حبذا هي والأقلام واردة فيها وصادرة سحيم المناقير
 كأنما كرعت في ناظري رشأ أو في سويداء قلب غير مسرور
 تحوى القرطيس منهار وضة أنفا بها مفاخرة الظلماء للنور
 فكيف لي بخضاب تسترد به من الشبيه لونا غير مهجور
 لو أن صبغته فاز الشباب بها لما رمى الدهر فوديه بتغيير
 وحاجة النفس إن قلت وإن كثرت إذا سمحت بها مثل الدنانير
 ٢١ - وقال الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ يمدح سعد الدولة بن مقلد أحد

(١) يسترحاها ويحفظه (٢) نهات (٣) الغاران النهم والفرج وغرتهما سدتهما
 (٤) الصمت (٥) هو الرئيس أبو منصور علي بن الحسن من فارس كاتب شاعر،
 لشعره طلاوة وبهجة في جودة سبك وحسن معنى، وكان أبوه الحسن يلقب صربع
 لشحه فلما نبغ هو في الكتابة والشعر لقب صردر . ويغلب على ديوانه المدح
 والنسيب والثناء .

أمراء الشام ويهنئته بالبرء من مرض كان قد ناله ويعتذر من تأخره عنه فيه ^(١) : —

ذم الزمان فما وجدت صروفه إلا ذلولا في القياد وريضا
صفحت نوائبه عن ابن مقلد كرما فكيف ألومه فيما قضى
ولقد ألم به فأظهر فضله والنار لا تشتب حتى تحتضى ^(٢)
راض الزمان فأصحبت أخلاقه وأعاد صبغ شبابه لما نضا
من معشر بذلوا النفوس سماحة وجهوا بيوت المجد أن تنقوضا
عادت بهم ظلم الخطوب مضيئة والجذب موشى البرود مروضا
لولا مخالطة الصوارم والقنا منع السماح أكتفهم أن تقبضا
قوم إذا استنجدتهم للممة ملأت عليك جيادهم رحب الغضا
أسيافهم في راهط ^(٣) معروفة منعت دعائم عزهم أن تدحضا
يامن إذا ما زاد عن أحسابهم يوم النضال أصاب لما أنبضا ^(٤)
خفض عليك فكم ظفرت بغاية وكبا وراءك جاهد ما خفضا
بيني وبينك ذمة مرعية حاشا مرأر عهدا أن تنقضا
فأصخ إلى وللحديث شجونه حتى أثبك ما أمض وأرمضا
ما أخرجتني عن جنابك همة وجدت من الاهواء عنك معوضا
لكنه قدر أناخ ركائي قسرا وقيد همتي أن تنهضا

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي من شعراء الشام، أجاد المديح والنسيب ولكن غلب عليه الاول، وله ديوان ليس بالكبير،
(٢) يلهب جمرها بالحضى وهو الكور أو يقلب بالحضاً وهو العود (٣) مرج معروف بالشام (٤) حرك الوتر للرعى .

وعلمت أنك كالنسيم مخلد أبدا وليس يصح حتى يمرضنا
 فاعفر لنا — لو أبيع هواكم بحياته هجر الحياة وأعرضنا
 ٢٢ - وقال ابن حيوس المتوفى سنة ٤٧٠ يصف دار تاج الملوك
 محمود بن نصر المرداسي وما فيها من تصاوير^(١)

لك في العلاء محجة^(٢) لا يهتدى فيها الملوك وحجة لا تدفع
 وخصصت في زمن الحياة بجنة حسن المصيف بها وطاب المربع
 دار بها اكتست البسيطة زينة وزينها منك الأمام الأروع
 مازال مبصرها يعود بخادار يشكو الكلال وناظر لا يشبع
 وترى. طيور الجو في جنباتها بعض محلة وبعض وقع
 وسوابقا ليست تفارق أوضها وكأنها تحت الفوارس تمزع^(٣)
 بالمصليتين صوارما لا تعتدى واللابسين يلامقا^(٤) لا تنزع
 رهط نضوا ببيض السيوف وآخر قد جر قوسا ليس فيها منزع
 وسهامه لا تستطيع فراقها وحباله أبدا لطير مصرع
 وزرافتان أقيمتا كلاتهما قرنو إليك بمقلة لا تهجم
 وظعان تخشى العيون وتتقى نظر المريب فدهرها تتبرقع
 أبدا يقاد بها ويبدى عيسها وخدا حثيثا للنواظر يخدع
 هل طاقها ما طابنته فلم تسر أو راقها هذا الجنب الممرع

(١) هو الأمير أبو الفتيان محمد بن سلطان بن حيوس الملقب بصفي الدولة
 أحد شعراء الشام المحسنين وفحولهم المبرزين وكان منقطعا إلى آل مرداس
 الكلايين أصحاب حاب وله ديوان كبير جله مدح وما جاء من غيره جد قليل
 أو تبديع. «٢» طريقة (٣) تعد ومسرعة (٤) دروعا

وابن الملوح قائم وسقامه ال — يادى طليعة ماتجن الأضلع
 يشكو إلى ليلي الغرام إشارة شكوى لعمر ك لم تهنها أدمع
 ومواضع فيها كعرضك وضح ثلجية الألوان بل هي أنصع
 ومن النضار بها سحائب حجة لزمت أماكنها فما تنقشع
 سحب جوامد قد أظلمت عارضا تحيا بصيبه البسلاذ وتمرع
 وبدت بأعلاها رياض حاكها حسن اقتراحك لا الغيوت الهمع
 روض على الأفواه يعسر رعيه لكن للأبصار فيه مرتع
 فابجح^(١) فانك أوحده الزمن الذي لم يفترق في أهله ماتجمع
 ٢٣ - وقال الطغرائي المتوفى سنة ٥١٤ يصف هاجرة وغديرا^(٢)

وهاجرة سجراء^(٣) تأكل ظلمها^(٤) ملوحة المعزاء^(٥) رمضى الجنادب^(٥)
 ترى الشمس فيها وهي ترسل خيطها

لتمتاح^(٦) ريا من نطاف المذائب^(٧)
 سفعنا^(٨) بها وجه النهار فراعنا بنقبة مسود المقاديم شاحب^(٩)

(١) افرح غير مبال (٢) هو مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن علي الطغرائي
 نسبة إلى الطغرى وهي الطرة التي ترسم في أعلى الكتب بنعوت الملك لأنه كان يرسمها. وقد
 لقب بالاستاذ وبالمنشيء لجودة إنشائه، ووزر السلطان مسعود السلجوقي بالموصل.
 وكما كان فخر الكتاب كان نابغة في الشعر وله ديوان كبير تصرف فيه في كثير من
 الفنون وخاصة المديح والنسيب والحكمة والوصف، ولا ميته المعروفة بلامية العجم
 ذات مقام عظيم (٣) حامية (٤) مسودة لحصا (٥) محروقتها (٦) لتستقي (٧) ن
 صافيات الجداول (٨) حرقنا (٩) بلون وجه ليل مسود الأوائل متغير

فأما اعتسفنا^(١) ظل أخضر غاسق على قع الآكام^(٢) جون المناكب
وردنا سحيرا بين يوم وليلة

وقد علفت بالغرب أيدي الكواكب
على حين عرت منكب الصبح جذبة

من الشرق واسترخى عنان الغياهب
غديرا كهرأة الغريبة تلتقى بصوحيه أنفاس الرياح الفرائب
إذا ما نبال القطر تاحت له اتقى بموضونة حصداء من كل جانب
بمنعرج من ريد عيطاء^(٣) لم نزل وقائعا يرشفن ظلم السحائب
تقبل أفلاذ الحيا وتكنها بطامية الأرجاء خضر النصائب
بعيس كأطراف المدارى^(٤) نواحل فرقنا بها الظماء وحف الذوائب^(٥)
نشحن به^(٦) عذبا نقاها كأنما مشافرها يغمدن بيض القواضب
رأين جمام الماء زرقا ومثلها سنا الفجر فارتابت عيون الركائب
فكم قامح^(٧) عن لجة الماء طامح

إلى الفجر ظن الفجر بعض المشارب
إلى أن بدا قرن الغزالة ماتعا كوجه نظام الملك بين المواقب
٢٤ - وقال ابن الخياط المتوفى سنة ٥١٧ ينسب من بائيته التي سارت
بذكرها الركبان^(٨)

(١) اقتحمنا (٢) مرتفعات الهضاب (٣) من حرف هضبة (٤) الأمشاط
(٥) غزيرتها (٦) شربنا منه (٧) رافع (٨) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبي
الدمشقي شاعر مجيد طاف البلاد واستقر بفارس يمدح العظماء وأغلب ديوانه
مدح ورثاء ونسب .

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رباها يطير بلبه
 وإياكما ذاك النسيم فانه إذا هب كان الوجد أيسر خطبه
 خليلى لو أحبيتما لهما محل الهوى من مغرم القلب صبه
 تذكر فذو الذكرى يشوق وذو الهوى يتوق ومن يعلق به الحب يصبه
 غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه
 وفي الركب مطوى الضلوع على جوى متى يدعه داعى الغرام يلبه
 إذا خطر من جانب الرمل نفحة تضمن منها داءه دون صحبه
 ومحتجب بين الأسنة معرض وفي القلب من إعراضه مثل حجه
 أغار إذا آنست فى الحى أنه حذارا وخوفا أن تكون حبه
 فيا السقامى من هوى متجنب بكى عاذلاه رحمة لمحبه
 أهيم إلى ماء بركة عاقل^(١) ظمئت على طول الورود بشربه
 وأستاف حر الرمل شوقا إلى اللوى وقد أودعتنى السقم قضبان كتيه
 ولست على وجدى بأول عاشق أصابت سهام الحب حبة قلبه
 ٢٤ - وقال الغزى المتوفى سنة ٥٢٤ هـ مدح شرف الدين أبا الحسن على
 ابن الحسن البيهقى^(٢)

أرى الخلق متفقاً فى الهوى ومختلفاً فى المنى والمنى
 فراعى حقوق وراعى حقائق وبانى معال وبانى مدنى
 وإنى لأكره مدح الورى ويشغانى عنه هجو الزمن

(١) احدى برق نجد (٢) هو أبو إسحق إبراهيم بن يحيى الكلبى أقام
 بخراسان يقول الكثير الممتع فكان يضرب المثل بجودة شعره . وله ديوان ضخم
 غلب عليه المدح والوصف وفيه هجاء ونسيب .

ولكن دعيتي فليمتها خلال أبي الحسن بن الحسن
غريب وإن كان في داره وفقد النظير كفقده الوطن
يقوم الرجاء بتعويلنا عليه وبالروح قام البدن
على العلا وظهير الندى إذا لم تمد بضبعي فمن
كلامي سلافة أهل العراق وصيتي عرافة أهل اليمن
ومن كل هزة ذي هممة تعلمت الريح هز الفن
بمسالك رميت التقاط النجوم وأملت للضرع رد اللبن
وكنت امرأاً رخص النفس في هواها وأغلى بنات الفطن
فخرج على أملى قبل أن يزيد الملام وتقوى الأحن
فأنت المبرز في الحالتين بنظم القريض ونظم المنن
ومن جعل الشمس خريته كفته التماس وضوح السنين

٢٦ - وقال الأرجاني المتوفى سنة ٥٤٤ هـ هجو أهل زمنه ويصف
سوءهم (١)

ومعشر شرهم دان وخيرهم مكان بدر الدجى من باع معتنيق
أدى إليهم خلو الربع من أنس وطالما كرع الظمان في الرنق
قل للذي شخسه في القصر محتجب وعرضه الدهر مطروح على الطرق
يشري الثناء ولا يعطى به ثمنه وذلك مبلغ رأس الجاهل الحق
لحاكم الله من أغصان عارية من الندى والجنى والظل والورق

(١) هو القاضي ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني شاعر مكثار
في رقة لفظ وجودة وصف وله ديوان على ضخامته يقال إنه لم يجمع عشر شعوره
وهو متصرف في كثير من فنون ولا سيما المدح والنسيب والوصف .

إذا مدحناهم لم يوقظوا كرما
ونسيتك إذا ازوروا مسامعهم
مدائح لا تقاها الشر تحسبها
أعناقكم ماؤها درى وليس لكم
وما خلقنا حمامات فنطربكم
والله لو لا محاماتي وإن لؤموا
إذا لسارت بما يخزيهم كلام
إذا شذنت على عرض أو أبدها
تهتز منهن أعطاف الورى طربا
كالسيف بحمده غير القتييل به
٢٧ - وقال البيوردي المتوفى سنة ٥٥٧ يفتخر بقومه وأوليته (١)

أنا ابن الأكرمين أبا وأما
أشدهم إذا اجتلدوا قتلا
وأرجحهم إذا قدروا حلوما
وأصلبهم لدى الغمزات عودا
وإن دعيت نزال مشوا سراعا
يكبون العشار لمعتفيهم
ويثنون المغيرة عن هواها
وهم خير الورى عما وخالا
وأوثقهم إذا عقدوا حبلا
وأصدقهم إذا افتخروا مقالا
إذا الخفرات خلين الحبالا
إلى الاقران وابعدروا النزلا
وبروون الأسنه والنصلا
إذا الوادى بظعن الحى سالا

(١) هو أبو المظفر محمد بن أحمد البيوردي نسبة إلى أبيورد بخراسان وهو
سفياني كان رواية نسابة شاعرا رقيقا قسم أشعاره أفساما منها العراقيات والنجديات
ولق شعره خدمات من الأدباء وأغلبه مديح وفخر ونسب

ويحتقبون أعماراً قصارى
على أثباج مقربة تمطت
فجروا السمر راجفة صدورا
بأيدي يستشف الجود فيها
وهم فتحو البلاد بيارات
ولولا هم لـ — ادرت بفيء
وقد علم القبائل أن قومي
وأصرحهم اذا انتسبوا أصولا
مضوا وأزال ملكهم الليالى

ويمتقلون أرماحاً طوالا
بهم وردعها تنضو الرعلا
وقادوا الجرد راعفة نعلا
تفيد محامدا وتفيد مالا
كان على أغرتها نمالا
ولا أرعى بها العرب الفصالا
أعزهم وأكرمهم فعلا
وأعظمهم إذا وهبوا سجلا
وأية دولة أمنت زوالا

٢٨ - وقال عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ يصف دارا لآل رزيك^(١)
فتمل دارا شيدتها همة
جملتها وتجملت مصر بها
فاقت على الأطلاق كل بنية
وسقيت من ذوب النضار سقوفها
لم يبد فيها الروض إلا مزهرا
وبها من الحيوان كل مشهر
وكان صولتك المخوفة أمنت

يغدو العسير بأمرها متيسرا
لما علت بك عزة وتكبرا
وسمت فما استثنت سوى أم القرى
حتى لكاد نضارها أن يقطرا
والنخ — ل والرمال إلا مشمرا
لبس الوشيح العبقري مشهرا
أسرا بها ألا نراع وتذعرا

(١) هو الفقيه نجم الدين أبو عمارة بن علي الحكيم اليمنى العالم الأديب
الشاعر المجيد ، استوطن مصر ونال حظوة كبيرة لدى الخليفة العاضد الفاطمي
وزيره طلائع الدين صالح بن رزيك. ومعظم شعره مدح فيهما ولما ملك صلاح
الدين صلبه فيمن صلب

أنشأت فيها للعيون بدائها
فمن الرخام مسيرا ومسهما
والعاج بين الآبنوس كأنه
قد كان منظرها بهيا رائقا
وكذاك جيد الظبي يحسن عاطلا
ألبستها بيض الستور وجرها
فجالس كسيت رقيما أبيضاً
لم يبق نوع صامت أو ناطق
فيها حدائق لم تجدها ديمة
والطير قد وقعت على أغصانها
لا تعدم الابصار بين مروجها
أنست نوافر وحشها بسباعها
وبها زرافات كأن رقابها
نوبية المنشأ^(١) تريك من المها
جبلت على الأقعاء من أعجابه
٢٩ - وقال ابن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ من مدحة للخليفة الناصر
يصف غلمانه الأتراك^(٢)

(١) المسير المخطط بصفرة، والمسهم المخطط بسواد، والمنمنم المنقط ببياض، والمدرهم المشبه الدرهم، والمدنر المشبه الدينار (٢) مرقع خصب للوحش لأنها اربعون ميلا لا منزل فيها بين مكة والبصرة (٣) مسهل المنشأ (٤) هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب بديوان المقاطعات ببغداد ولكنه شهر بسبط ابن

القائد الغلب^(١) الحجة عوا بسا والبيض في أيمانهم تبيس
سيان سلمهم وحرهم فما ينفك يقطر من أكتفهم الدم
ترك اذ لبسوا الترائك^(٢) أيقنت صم العوالي أنها ستحطم
يزداد إشراقا ضياء وجوههم والجو بالهبوات أربد أقم
فهم إذا حسروا ظباء خمي——لة

وهم أسود شرى إذا ما استلأموا^(٣)
ركبوا الدياجي^(٤) والسروج أهلة وهم بدور والاسنة أنجم
وكان إيماض السيوف بوارق وعجاج خيلهم سحب مظلم
من كل من بجباله نار الهوى وبأسه نار الوغى تتضرم
في ثني رده قضيب نقى وفي الد م رع المفاضنة منه طود أيهم^(٥)
بشر أرق من الزلال وتحتة كالصخر قلب لا يرق فيرحم
يصمى الخلى^(٦) بطرفه وبكفه يصمى الكمي فجؤذر أم ضيغم
هو تارة للحسن في أتراه علم وطورا في الكتيبة معلم

٣٠ - وقال ابن عنين المتوفى سنة ٦٣٠ يذكر جهاد شرف الدين
عيسى بن أبي بكر الايوبي ، الروم بشعر دمياط وطردهم منها^(٧)

التعاويذي نسبة إلى جده لأمه أبي محمد المبارك ابن المبارك الزاهد المعروف
بابن التعاويذي لأنه كفله صغيرا . كان شاعر وقته وله ديوان ضخم جمعه وبوبه
بنفسه في المدح والذم والصفات والرثاء والهجاء وأكثر هذه القنون فيه
المدح (١) الشجعان جمع أغلب وهو الأسد (٢) جمع تريكة وهي البيضة أكثر
(٣) ليسوا اللأمت وهي الدروع (٤) يعني الخيل السود كالدياجي
(٥) أصم صعب المرتقى (٦) يرميه فيقتله (٧) هو شرف الدين أبو العباس

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت
عليهم من الماذى ^(١) كل مفاضنة

دلاص ^(٢) كقرن الشمس قد أحكمت وضمنا ^(٣)
وأطعمهم فينا غرور فأرقلوا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا
رأوا ^(٤) الموت من زرق الأسننة أحمر
منحنا بقاياهم حياة جديدة
ولو ملكوا لم يأتلوا في دمائنا
وقد جربونا قبلها في وقائع
فكم من مليك قد شددنا إسهاره
وكم يوم حر قد لقينا هجيره
بصبر وقر ما طلبنا له كنا

محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين بن عنين الانصارى الدمشقى . كان
أديبا واسع الاطلاع ذا مكانة أوصلته إلى الوزارة بدمشق وكان ربحانة شعراء
عصره ثم لم يأت بعده من هو مثله ومعظم شعره جاء مدحا وهجاء ونسيبا .

(١) الدروع البيضاء (٢) لينة ماساء (٣) نسجا (٤) بضم الهمزة قبل الواو

ضرورة وأصلها الفتح

فان نعيم الملك من شظف الشقا يسير بنا من آل أيوب ماجد
ينال وحلو العيش من مره يجني أبي عزمه أن يستقل به مغني
لعمرك ما آيات عيسى خفية هي الشمس للأقصى سناء والأدنى
سري نحو دمياط بكل سميدع نجيب يرى ورد الوغى المورد الأهنأ^(١)
فأجلى علوج الروم عنها وأفرخت قلوب رجال حالفت بعدها الحزنا
وطهرها من رجسهم بحسامه همام يرى كسب الثنا المغنم الأسنى
مآثر مجد خافتها سيوفه لها نبأ يفني الزمان ولا يفنى
لقد عرفت أسيافنا ورقابهم مواقعها فيهم فان طودوا عدنا

٣١ - وقال البهاء زهير المتوفى سنة ٦٥٦ « عام زوال الخلافة العباسية
من بغداد » يصف تلهفه على حبيبه وإعراض حبيبه عنه^(٢)

يعاهدني لاخاني ثم ينكث وأحلف لا كلمته ثم أحث
وذلك دأبي لا يزال ودأبه فيا معشر الناس اسمعوا وتحدثوا
أقول له صاني يقول نعم غدا ويكسر جفنا هازنا بي ويعبت
وماضى بعض الناس لو كان زارني وكنا خـلونا ساعة نتحدث
أمولاي إني في هواك معذب وحتام أبقى في العذاب وأمكث
نخذ مرة روحى ترحنى ولم أكن أموت مرارا في النهار وأبعث

(١) مسهل الأهنأ (٢) هو أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المهلبى
نشأ بالحجاز قرب مكة ثم رحل إلى مصر قبيل العشرين فعاش بها واتصل
بالملك الصالح نجم أيوب فولاه ديوان الإنشاء وكان فوق أجادته النثر شاعرا مكشارا
جمع شعره بين الطبيعة العربية والرقعة المصرية وديوانه مليء بفنون الشعر الذى
يمثل البيئة المصرية تمثيلا ليس له فيه من نظير .

وإني لهذا الضيم منك لحامل ومننتظر لطفها من الله يحدث
أعبدك من هذا الجفاء الذي بدا خلأثقتك الحسنى أرق وأدمث
تردد ظن الناس فينا وأكثروا أقاويل منها ما يطيب ويخبث
وقد كرمت في الحب منى شمائلي ويسأل عني من أراد ويبحث

ثانيا - حياته

لم يزل الشعر وما زال في كل عصر مرآته الصافية التي تنطبع فيها صورته الحقة ، لأنه فيض الشعور ونبع الوجدان ، ولأن رجاله أدق الناس شعورا وأرقهم وجدانا . ولذا رأيت في الحياة الجاهلية صورة ناطقة لما كان فيها من حس ومعنى ، حتى عده المؤرخون ديوانها وسجلها . ورأيت في صدر الاسلام قد بقي كما كان فيما بقي ، وحاد عن الخوض فيما ترك ، وتلون فيما تلون على شاكلته وغراره . ثم رأيت في العصر الأموي قد جنح جنوحا قويا إلى ما اختطه العصر حتى كاد يكون قصرا على ما كان الغرض الذائع فيه . فجاء في العصبية والسياسة تأييدا ومعارضة ، وفي رفع الأولياء ووضع الخصماء مدحا وهجوا ، ثم بين ذوى البطالة المبعدين عن ميادين العمل ، غزل إباحة ومتعة من ذوى الجدة المترفين ، ونسيب تصوف وعفة من ذوى العدم المتقشفين . على أنه في هذين العصرين الاسلاميين لم يعتمد كثيرا عما اختطه له العصر الجاهلي لأن الدولة فيهما بقيت عربية خالصة نظارة إلى عروبتهما وبدائتهما بقوة حادت بها عن التأثير الكبير بما سواها . أما في العصر العباسي الذي اختط عاصمته في ديار الأعجم واختلط بل امتزج بالفرس أتم امتزاج

واتخذ منهم بدل العرب ، الوزراء وسائر الأئمة ، حتى تغير بذلك نظام الحياة إلى ما شرعنا آنفاً في الجنس والدين واللغة وشئون الاجتماع ، فلم يك مفر للشعر وهو كما ذكرنا مراعاة العصور أن ينطبع كل ذلك فيه ويظهر أثره به ظهوراً يبدوا يخالف ما كان لماضيه في الأغراض والمقاصد ، وفي المعاني والأخيلة ، ثم في الألفاظ والأساليب ، على ما ستري في هذا البيان الذي يتناول على ما يسمح المقام ، تفصيل ما يخص الشعر فيما أجهلنا سابقاً من تأثير اللغة في هذه النواحي الثلاث .

١ - ناحية الأغراض والفنون

لعله من المألوم وقد عرفت الأغراض الثلاثة التي كانت أهم أغراض الشعر في العصر الأموي أن نبدأ بها الآن في هذا العصر العباسي ، وبعدها نزجى القول إلى ما كان له فيه من سائر الفنون .

١ - العصبية والسياسية - أحييت الدولة الأموية العصبية وكانت أقوى ما تكون بين اليمنية والمضرية منذ تقريب معاوية اليمن وإبعاده قيساً ، فكانت الملاحاة بين العنصرين قوية شديدة ، وكانت تزداد شدة كلما تقدمت بالدولة الأيام ، حتى ورثتها الدولة العباسية بالغة منتهاها ، وقد زاد العنصر اليمني قوة على المضري أن أم السفاح كانت منه - ولذلك خلفه أبوه قبل أبي جعفر وهو أكبر منه لأنه ابن أم ولد - هذا مع من انضم إلى شعراء اليمن العرب من الموالى الذين كانوا ينتمون إلى قبائله ولواءهم كثير منهم أبو نواس الحكيم الذي يقول فيهم :

وقد ناخفت عن أحساب قومهم ورثوا مكارم ذى نواس
فإن تك أوقدت للحرب ناراً فما غطيت خوف الحرب راسي

سأبلى خير ما أبلى محام إذا ما النبيل أُلجم بالقياس^(١)
فما بال النعاج نُغت بشتمى^(٢) وفي زمعاتهن دم الفراس^(٣)
وما حامت عن الأحساب إلا لترفع ذكرها بأبي نواس

غير أن ظهور الشعوب الأخرى بمعاذة هذين العنصرين العربيين مما
كان من شأنه أن يخضع شوكة هذا الخلاف ويضعف منه ، على أن
تبقى الصولة لمضر لبقاء الخلافة بعد النبوة فيها كما كانت ، ولذا بقي الفخر
لها وحدها دون اليمن حتى على السنة الخلفاء الذين ينبغي أن يكونوا
آخر المتعصبين كما نسمح ذلك في قول ابن المعتز مفتخرا :

إذا شئت أوقرت البلاد حوافرا وسارت ورأى هاشم ونزار
وعم السماء النقع حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار
وقد استغل العباسيون الشعر في تأييد ملكهم ضد الطامعين فيه من
آل على كما كان يفعل الأمويون ، فقبول شعراؤهم المواليون أمثال مروان
ابن أبي حفصة وعلى بن الجهم وأبان بن عبد الحميد بطبقة من الشعراء
المعارضين الذين يتعصبون لآل على ، كالسيد الحميري ودعبل الخزاعي
ومسلم بن الوليد ، وطالت الملاحاة بين الطبقتين في شدة واحتدام كما
تري في هذين المثلين :

قال مروان يخاطب بني على طالبا اليهم تخلية الطريق لبني العباس :
خلوا الطريق لمعشر عاداتهم حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الاله لكم به ودعوا وراثته كل أصيد حامى

(١) جمع قوس (٢) صوتت به (٣) الزمعات هنات زائدات وراء الأظلاف

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام^(١)
وقال الحميرى وكان يفضل عليا على الراشدين كما يفضل أبناءه على العباسيين

(١) شاع استعمال هذا المعنى الذى ألم به مروان تأييدا ونقضا

قال الطاهر بن على العباسى فى تأييده زائدا عليه

لو كان جدكم هناك وجدنا فتنازما فيه لوقت خصام
كان التراث لجدنا من دونه خواه بالقربى وبالإسلام
حق البنات فريضة معلومة والعم أولى من بنى الأعمام

وقال محمد بن يحيى التغلبى فى نقضه زائدا أيضا

لم لا يكون وإن ذاك لكائن لبنى البنات وراثة الأعمام
للبنات نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام
ما للطليق والتراث وإنما صلى الطليق مخافة الصمصام

وذكر صاحب الأغاني أن بيت مروان الأخير هذا، كان السبب فى قتله، فقد روى
عن حدثوه عن عطية الأصبجيم أنه قال « لزم مروان لما قال هذا البيت
وحادثت الله أن أغتاله فأقتله أى وقت أمكننى ذلك، ومازلت ألاحظه وأبره
وأكتب أشعاره حتى خصصت به فأنس بى جدا، وعرفت ذلك بنو حنفصة
جميعا، فأنسوا بى ولم أزل أطلب له غرفة حتى مرض من حمى أصابته فلم أزل أظهر
له الجزع عليه وألأزمه وألأظفه حتى خلا لى البيت يوما فوثبت عليه فأخذت
بمقلقه فما فارقتة حتى مات، فخرجت وتركته فخرج اليه أهله بعد ساعة فوجدوه
ميتا وارتفعت الصبيحة فحضرت وتباكيت وأظهرت الجزع عليه حتى دفن وما فطن
بما فعلت أحد ولا أتهمنى به »

إذا أنالتم أحفظ وصاة محمد ^x ولا عهدده يوم الغدير المؤكدا ^(١)
 فان كن يشرى الضلالة بالهدى تنصر من بعد التقى وتهود
 ومالى وتيم أوعدى وإنما أولو نعمتى فى الله من آل أحمد
 تم صلاتى بالصلاة عليهم وليست صلاتى بعد أن أتشهد
 بكاملة إن لم أصل عليهم وأدع لهم ربا كريما مجبدا
 بذات لهم ودى ونصحتى ونصرتى ماى الدهر ما سميت يا صاح أحمد
 وإن امرأ يلجى على صدق ودهم أحق وأولى فيهم أن يفند
 فان شئت فاختر حاجل الغم ظلة والا فأمسك كى تصان وتحمدا
 وقد حرك ماجد للموالى فى العصر العباسى من تقريب ، ما كان ماله
 نفوسهم من حقد على العرب طوال العهد الاموى ، فأخذوا يفاخروهم
 ويذكرون مثالبهم وأخذ العرب يردون عليهم ما يقولون ، حتى نشأت
 عصبية أعم من السابقة بين العرب والعجم ، قوى فيها سلطان العجم
 لنفوذ الفرس وكثرة شعراء الموالى . فعان أمر الشعوبية وصار لها
 شأن خطير ، وتعصب لها عدد وافر من الشعراء كبشار وديك الجن ^(٢)
 والخريمى ^(٣) وغيرهم ، وقام من ينافح عن العرب ويرد على هؤلاء ، أمثال

(١) يعنى غدير خم بين مكة والمدينة فعنده أخذ رسول الله بيد على بن أبى طالب وقال لمن معه ألسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال فمن كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وهذا حديث يدفعه غير الشيعة (٢) هو عبد السلام بن رغبان ابن عبد السلام الحمصى .
 (٣) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان مول آل خريم المريين الذين

يزيد المهلبى ولكنهم قليل وهاك مثاين مما كان يقال .
دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوس فتنقص الموالى أمام
بشار فقال بشار .

خليلي لا أنام على اقتسار	ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الأعراب غنى	وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزا	ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يابن راعية وراع	بنى الاحرار حسبك من خسار
وكنيت إذا طمئت إلى قراح	شركت الكلب فى ولغ الاطار ^(١)
تريغ ^(٢) بخطبة كسر الموالى	وينسيك المكارم صيد فار
وتغردو للقفاز قدريها	ولم تعقل بدراج الديار ^(٣)
وتتشح الشمال للابسيها	وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بيننا دنس علينا	فليتك غائب فى حر نار
ونحرك بين خنزير وكلب	على مثلى من الحدث الكبار

ولما قتل الخدم الخليفة المتوكل قال يزيد المهلبى من مرثيته يعيب على
بنى العباس إبعاد العرب وتقريب الموالى

لما اعتقدتم أناسا لاخلوم لهم	ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الاحرار نعمتكم	حملتكم السادة المذكورة الحشد
قومهم الجذم والانساب تجمعهم	وانجد والدين والارحام والبلد
إذا قریش أرادوا شد ملكهم	بغير قحطان لم يبرح به أود

(١) خليط من دم ورماد تلطخ به القدور (٢) تريد (٣) الدراج كرمات طائر

أضحى شهيد بنى العباس موعظة لكل ذى عزة فى رأسه صيد
خليفة لم ينل ماناله أحد ولم يضع مثله روح ولا جسد
قد وتر الناس طرا ثم قد صمتوا حتى كأن الذى نيلوا به رشد
من الألى وهبوا للمجد أنفسهم فما يبالون مانالوا اذا حمدوا ؟
وقد ضعف أمر هذه العصبية جئما بتغلب الأتراك على العرب فى
العصر الثانى ثم بالحلل الدولة إلى دويلات فى الثالث إلا ما كان من الأشادة
بالعلوية فى مصر أيام الفاطميين وبالعربية فى الشام أيام الحمدانيين على
أن هذه الأشادة لم تلبث أن زالت فى العصر الرابع الذى تملك فيه
الأتراك شرقا والأكراد غربا

٢ - المدح والهجاء - وكما فى الشعر السياسى فى المدح والهجاء
على العهد الأموى فأصبح لهما تبعا لا استقلالا له ، لم يلبث أن صار
كذلك فى العهد العباسى منذ عصره الأول لميل النفوس بطبعها إلى
حب الثناء وغلوها فى هذا الحب واتخاذ الشعراء هذا الميل أحبولة
لتصيد المال ثم سخاء ذوى الأمر لهم ببذله سخاء منقطع النظير . ولهذا
كثر قائلو المديح وطالبوه وتعدى الشعراء التكسب بالشعر للعيش
والحياة ، إلى التكسب به لاقتناء الثروات الواسعة ومجارات ذوى اليسار
والبنخ فى مظاهر الرفاهة والتمتع بنعمى الحياة ^(١) ومن ثم هجروا

(١) ذكر صاحب الأغاني أن سلما الخامر خلف ثروة مقدارها خمسون
ألف دينار وألف ألف وخمسمائة ألف درهم غير الضياع . وقد خلف مروان
أكثر من ذلك ومثلهما فى هذا جمهرة من الشعراء غير مبذريهم الذين كانوا
بفوقونهم كسبا ولكنهم لا يبقون على شىء كأبى نواس

مواطنهم الأولى وأقاموا في بغداد متحضرين يتمتعون فيها بأجزل
العطايا وأسنى الصلات حتى من الخليفة المنصور على ما كان مهروفا
به من التشدد في خزن المال . روى أن أبا دلامة لما أنشده قوله

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقييل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلهم إلى السماء فأنتم أطهر الناس
وقدموا القائم المنصور رأسكم فالعين والأنف والأذن في الراس
قال له بأى شيء تحب أن أعينك قال تملأ لي هذه الخريطة دراهم
فلئت فوسعت أربعة آلاف درهم

ومنذ عهد ابنه المهدي أخذت الأموال تتدفق على الشعراء .
فقبل دخل عليه عمرو بن سلم الخاسر فأنشده
أليس أحق الناس أن يدرك الغنى مرجى أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدي عدلا ونائلا كأنهما عدل النبي ونائله
فقال له أما ما ذكرت ياسلم من الجود فوالله ما تعدل الدنيا عندي خاتمي
هذا ، وأما العدل فإنه لا يقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحد فيه ، وإني
لا تحراه جهدي . ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب .
ودخل عليه بعدها فأنشده

إن الخلافة لم تكن بخلافة حتى استقرت في بني العباس
شدت مناكب ملوكهم بخلافة كالدهر يخلط لينه بشماس
فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوبا . ثم دخل عليه بعدها فأنشده
أفنى سؤال السائلين بجوده ملك مواهبه تروح وتغتدى
هذا الخليفة جوده ونواله نقد السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوبا .
وقد أعطى ابنه الهادي عشرين ألف درهم لشاعر أجاد وصف الصمصامة
سيف عمرو بن معديكرب الزبيدي حين حصل عليه وكان مغرما
باقتناء السلاح وسيأتي هذا الوصف

أما الرشيد فقد غطى في ذلك على ما كان لأبيه وأخيه .
مدحه مروان بقصيدة يقول فيها

وسدت بهارون النغور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائر *
وما انفك معقودا بنصر لواؤه له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية على الرغم قسرا عن يدوهو صاغر
ترى حوله الأُملاك من آل هاشم كما حفت البدر النجوم الزواهر
فأعطاه خمسة آلاف دينار وكساه خلعتة وأمر له بعشرة من رقيق
الروم وحمله على برذون من خاص مراكيه . ثم كان جوده على الشعراء
يجاوز كل أمل في محافل البيعات

وكذلك كان أبنائه الأُمين والمأمون والمعتصم ولاسيما المأمون
على طول مدته في الخلافة قال لمحمد بن الجهم يوما أنشدني ثلاثة أبيات
في المديح والهجاء والرثاء ولك بكل بيت كورة فأنشده في المديح
يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وأنشده في الهجاء

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم حسنت مناظرهم لقبح الخبر
وأنشده في الرثاء

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

وعلى مثل هذا كان الشعراء، الواثق والمتوكل ابنا المعتصم وبخاصة المتوكل، ومدائح البحترى فيه وعطاياه للبحترى مما ضربت به الأمثال، ومن بعده تغير مجرى التاريخ

وقد اقتدى بالخلفاء في ذلك، الأمراء والوزراء، وأخبار آل برمك في هذا أشهر من أن تذكر أو يناها تعداد، وكفى أنها كانت من أهم بواعث الحقد عليهم في نفس الرشيد.

بذلك وغيره كثرت المدائح وجادت وكثرت فيها المبالغات كما قرأت بالتماذج في مدحتي مسلم وأبي تمام

هذا وإذا كان من شأن الشاعر المتكسب بشعره، أن يتخذ الهجو عصا في هذا الباب يهيب بها على المفاطين، وينال بأذاها البخلاء والمنايعين، لم يك مفر من أن يكثر الهجاء مع المدح، على أن مما أكثره غير ذلك، تحاسد الشعراء وما أنتجه في نفوسهم من عداوة أعادت ذكرى ما كان بين الفرزدق وجربير وحلبتهما بصورة أوسع أفقا وأشد بشاعة ونكرا، ولا يجوز أن نغفل هنا ذكر العصبية الماضية وما خلفته من ألوان الهجاء. ثم قد وسعت حرية المأمون الشعراء الهاجين إلى درجة أنه كان

يسمع هجوه بنفسه ويصفح. روى أن دعبلًا حين هجاه بقوله :

أيسومني المأمون خطبة عاجز	أو ما رأى بالأمس رأس محمد
يوفي على هام الخلائف مثل ما	توفي الجبال على رءوس القرد
وبحل في أكناف كل ممنع	حتى يذلل شاهقا لم يصعد
إن الترات مسهد طلابها	فاكفف لعبك عن لعب الأسود
إني من القوم الذين سيوفهم	قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الاوهد
لم يزد أن قال « قاتل الله دعبلا متى كنت خاملا وفي حجر خلافة ولدت
وبدرها غذيت، وفي مهدها ربيت »^(١) فتزل الشعراء لذلك في عهده -
كما تزلوا قبل عهده إرضاء للسياسة والمصدييات - إلى الاقتداع في
الهجو والبذاءة في الألفاظ، وقد جعلهم يغاون في ذلك أشد غلو، ضعف
الوازع الديني وما جرت به مثالب المدنية على النفوس من الانغماس في مفاصلها
والفتنة بها إلى أن عد بعضها من المحاسن وهو من المقابح في الحضيض.
هذا إلى أن التسابق في التهاجي كان رغبة بين بعض الشعراء وبعض
دون أن يركز في نفوسهم إلى أحقاد أو أسباب سواء

قال بشار يهجو المهدي ويحرض على وزيره يعقوب بن داود :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
صنعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وقال أبو نواس يهجو المفضل بن سميابة بالبخل

أصبحت أجوع خلقي الله كلهم وأفزع الناس من خبز إذا وضعا
خبز المفضل مكتوب عليه ألا لا بارك الله في ضيف إذا شبعنا
إني أحذركم من خبز صاحبنا فقد ترون بحلقى اليوم ما صنعنا
وقال أبو العتاهية يهجو معن بن زائدة بالجبن :

فصغ ما كنت حليت به سيفك خالخالاً

« ١ » روى أن أبا سعد الخزوعي دخل على المأمون وأنشد، شعر دعبيل هذا

ثم قال « أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أجيبك برأسه » فقال له « لا ، هذا رجل
نفر علينا فانفر أنت عليه فأما قتله بلا حجة فلا » .

فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا
 وشاع هجؤهم بدمامة الخلق كما قال المجترى يذم بكبر الأنف
 رأيت الخشعي يقل أنفا يضيق بعرضه البلد الفضاء
 سما صعدا فقصر كل سام لهيئة وغص به الهواء
 هو الجبل الذي لولا ذراه إذن وقعت على الأرض السماء
 وقد ساد الهجاء المديح في العصر الثاني لقلة الأجواد وعدم معرفة
 ذوى اليسار ببلاغة القول ، فظهر تبرم الشعراء من هذه الحال والاكتناز
 من هجو الناس والزمن ، ونبغ في هذه الناحية ابن الرومي نبوغا لم يصله
 سواه كما رأيت في ذمه ابن المدبر أنفا وكما ترى الآن حيث يذم رؤساء
 زمنه لبيخلهم على مدحه لهم ، فيقول

قل للذين مدحتهم فكأنما مسخوا كلابا غير ذات خلاق
 ردوا على صحائفها سودتها فيكم بلا حق ولا استحقاق
 ما كان مثلي مادحا أمثالكم لولا اتهامى ضامن الأرزاق
 أسخطت خلاق البرية فيكم فباغتم منى رضا الخلاق
 أغرقت في نزعى لكم ولربما حرم الرماة الصيد بالأغراق
 ولما أقبل العصر الثالث تفجرت ينابيع الجود من جديد على أيدي
 حكام الدويلات وعظماء رجالها ، فتسأبق الفواطم والحمدانيون وآل بويه
 في الاغداق على الشعراء ، وبذلك بلغ المدح الذروة التي ليس فوقها ارتفاع ،
 ولما سكن مع بقاء الهجو مسائرا له إذ لا غنى عنه في تقريع اللؤماء .
 قال المتنبي يهجو كافورا وقد سمعت كيف كان مدحه لسيف الدولة بن
 حمدان بالماذج

أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله في مصر تمهيد
صار الخصى إمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
من علم الأسود المخصى مكرمة أقومه البيض أم آباؤه السود
أم أذنه في بد النخاس دامية أم قدره وهو بالفاسين مردود
غير أن حال الشعر عادت في العصر الرابع إلى الكساد لتغلب العجمة
على الحكام فالتفت الشعراء عداوتهم إلى القديم ومن ذلك نشأ شعر
التصوف بالغزل في ذات الله ومدح النبي والخلفاء

٣ — الغزل — لقد ابتعد الغزل أول العهد العباسي عما كان له
في عصر بني أمية ابتعادا كثيرا لم يحدث مثله للفنين السابقين معه ،
وكان المنشأ الأول لهذا الابتعاد فتن المدنية ومفاسد الحضارة التي
تعدت الطبقة العليا إلى مادونها من سائر الطبقات فبات بذلك المنسحب
العدري ولم يعد يظهر إلا على السنة القليل كالعباس بن الأحنف وقد
رأيت له قصيدة فيه . أما جبهة المتغزلين فقد انساقوا وراء المتعة
والأباحة إلى حد أباح لهم ما كان غير موجود حتى في الغزل اللاهني أيام
بني أمية ، من كشف في الوصف ، وتبذل في القصة ، وفش في اللفاظ ،
كما يقول بشار في معشوقته فاطمة

عجبت فاطمة من نعتي لها هل يجيد النعت مكفوف البصر
أذرت الدمع وقالت ويلتي من ولوع الكف ركاب الخطر
أمتا بدد هذا نقبي ووشاحي حله حتى انتثر
فدعيني معه يا أمتا علمنا في خلوة نقض الوطر
أقبلت مغضبة تضر بها واعتراها كجنون مستعر

بأبي والله ما أحسنه دمع عين يغسل الكحل قطر
وقد حملهم الاستهتار باللذة والاستمتاع بالغم ان استمتعاهم بالنساء،
أن يتغزلوا في المذكر كما يتغزلون في الاناث ، وتلك عادة سيئة قدرة
كانت شائعة بين الفرس وانتقلت إلى العرب بفسادة الموالي ومن لف
لفهم من ذوى الأباحة والمخننين ، كأبي نراس وحماد عجرد ومطيع بن
اياس ويحيى بن زياد وحسين بن الضحاك وأمثالهم ممن كان همهم الاجتماع
على الشراب مع القيان والغلمان ، يشربون ويمزحون ويصفون الخمر
ويهزلون لا يردعهم عن دناءات النفوس خلق ، ولا يزعمهم دين ، فكان
غزلهم دعاة وعهرا ، وقوى ذلك فيهم انحطاط المستوى العام للأخلاق.
قال أبو نواس العاهر في غلام :

يا بدعة في مثال	يجوز حد الصفات
فالوجه بدر تمام	بعين ظبي فلاة
والقد قد غلام	والغنيج غنيج فتاة
مذكر حين يبدو	مؤنث الخلوات
زها على بصدغ	مزرفن الحلقات ^(١)
من فوق خد أسيل	يضيء في الظلمات

وقال ابن الضحاك الخليل في غلام يستحم

وأبأبي أبيض في صفرة	كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن درة	تلوح فيها عكن بذه
غصن تبدى يتثنى على	مأكمة مثقلة النهضه

«١» زرفن صدغه ، جعله مستديرا كالزرفين بالضم وهو حلقة الباب

كأنما الرمش على خده طل على تفاحة غضه
صفاته فائدة كلها فبعضه يذ كرني بعضه
وقد أنتج الانحدار في هذه الجملة القدرة ، وصف محاسن المذكور
كالعذار ^(١) وشيوع هجو الناس باللوطية والأبنة ، مع الاسترسال في هذه
السبل بصراحة في الوصف والحكاية ، صارت سبة للأدب العربي وقضى
في عيون قارئيه . ثم كان أن محمد المتغزلون إلى إظهار المتغزل فيه
بصورة المذكر ، وإن كانت الصفات صفات إناث كما يقول أبو نواس
ياقرا أبصرت في مآثم يندب شجوا بين أتراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب
أبرزه المآثم لى كارها برغم دابات ^(٢) وحجاب
لأنبك ميتا حل في قبره وابك قتيلا لك بالباب
وعلى ذكر الغزل وما وقع فيه من جديد نذكر الجملة التي وجهت إلى ما كان
من ابتداء القصائد في كل الأغراض ما عدا الرثاء بما كانت تبدأ به إلى هذا
العصر من تشبيب يتناول الوقوف بالديار والأطلال والتألم لفارقة
أصحابها لها وسير الابل مفرقة أو محقة للاقاء ، مع ما يأتي خلال ذلك كله
من محاسن المحبوبة وصفاتها على أسلوب الغزالي فنقول : إن أول من قادها
أبو نواس ^(٣) فقد رفع عقيرته ينعى على الشعراء هذا التشبيب بالقديم

« ١ » من ذلك قول بعضهم

أيا قراء من شمس طلعة وجهه وظل عذاريه ، الدجى والأصائل

« ٢ » جمع دابة وهي الظئر أى الموضع واستعمل في العاطفة على ولد غيرها

« ٣ » قيل إن أول من تنبه إلى ذلك مطيع بن إلياس وقد اجتمع بفتى من

ويطلب إليهم في سخرية لاذعة هجره إلى ما أصبح ملأنا من جديد .
كأن يجبه من يقف على الطلول فيقول :

تبكى على طلال الماضين من أسد لادر درك قل لي من بنو أسد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد
أو يشمت بتفاعيل الرياح والامطار في الرسم فيقول :

دع الرسم الذي دثرا يعانى الريح والمطرا

ألم تر مابنى كسرى وسابور لمن غبرا

ثم يطلب أن يكون البديل صفة الحمر فيقول :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ويفعل هذا في قصائده مشركا معه هذا التنديد تارة كطاعه :

لا تبك رسما بجانب السند ولا تجدد بالدموع للجرد

ولا تعرج على معطلة ولا أئاف خلت ولا وتد

ومل إلى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد

مهمد صفقت نمارقه في ظل كرم معرش خضد

ثم اصطبغ من أسيرة حجبته عن كل عين بالصون والرصد

محجوبة في مقيل حوبتها تسعين عاما محسوبة العدد

أو مكتفيا بالتنبيه تارة كطاعه :

دع الربع ما للربع فيك نصيب وما إن سبتنى زينب وكعوب

أهل الكوفة ودار الحديث بينهما في هذا الشأن فقال مطيع

لأحسن من بيد يحاربها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلعا

تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه زعى

ولكن سبتني البابلية إنها لمثلي في طول الزمان سلوب
وكثيرا ما كان يقصد إلى الخمر قصدا كان يقول :

X دع عنك لومي فإن اليوم إغراء ودواني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحران ساحتها لو مسها حجر مسته سراء^(١)
ولما حبسه الخليفة لذلك عاد إلى الأطلال ولكن بهذا الأسلوب
أعر شعرك الأطلال والمنزل الفقرا

فقد طالما أزرى به نعتك الخمر
دعاني إلى نعت الطلول مساط تضيق ذراعي أن أردله أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا
وقد أثرت هذه الجملة في شعراء العصر الأول أشد تأثير فاتبعه
فيها كل ذي هوى للخمر ، وابتدأ بالمقصود في القصيدة من صد عنها ، إلا
طائفة قليلة بقيت على عرف الأقدمين في الابتداء ، واستحدث الجميع
المعاني إلا طائفة أقل منها كانت تنزع أحيانا منزع البدو في المعنى المراد
كدعبل إذ يقول من قصيدة مطلعها :

بانت سليمي وأمسي حبابها انقبضا وزودوك ولم يرثوا لك الوصبا
في بذل المال للثناء :

قالت سلامة ابن المال قلت لها المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا
هذي سبيلي وهذا فاعامى خلقي فارضى به أو فكوني بعض من غضبا

« ١ » نرى أن ثبت هنا البيت الثالث بعد هذين البيتين ، مثلا لما طالما

نبهنا عليه من الفحش في المعنى والابتداء في اللفظ وهو

من كسف ذات حر في زي ذي ذكر لها محبان لوطي وزفاء

وقد استمرت المبادئ على هذه الانحاء طوال العصر الثاني بعد الاول، ولما جاء الثالث بقيت عليه تقريبا في العراق وفارس وخراسان وعادت إلى القديم في الجزيرة والشام ومصر مع نزوع القول في جميعها إلى هذا المنزع الجديد. ولما حل العصر الرابع نشأ بجانب هذا الغزل المكشوف غزل عف بعث به أخوه العذري القديم لانتشار الروح الصوفية فيه كما رأيت في قصيدة ابن الخياط.

هذا - ولقد كان للشعر منذ العصر العباسي الاول جولات واسعات في فنون أخرى غير هذه الفنون الثلاثة، وجاء بعضها أول ما جاء نتيجة لها، كالنثر الذي دفعته إليه العصبية، والمجون الذي أنشأه الاستهتار، والخرجات التي شغلت المطالع أولا واستقلت بعد بسائر القصيد، وجاء بعضها مستقلا عنها كالرثاء والزهد والصفات. فهذه ستة فنون غير الثلاثة السابقة وإليك كلمة عن كل فن منها على سبيل الإجمال

١ - الفخر - حالف الفخر العصبية منذ العهد الجاهلي إلى آخر

العصر الأموي وكان ينزع فيها جميعا عن الحسب والنسب ولا يكن استمرت منازعه الحسبية العظامية غالبة على النسبية العصامية حتى العصر العباسي الأول الذي قامت فيه الشعبية على قدم وساق فانعكست الآية بسنته المعفية على كل قديم. ثم توارى الأمران تقريبا في العصر الثاني وعادا إلى الظهور كفرنسي رهان في الثالث الذي حظى الفخر فيه بعدد وافر من الشعراء نذكر منهم المتنبي وأبافراس والشريف الرضي وأبا العلاء، فقد جمعوا في مفاخرهم بين المظهرين وإن كان المتنبي دونهم حاد بعض الحيدة عن الأحساب. ثم جاء العصر الرابع فنضبت فيه الصفات

الشخصية وأصبح الفخر إما بالعظام كما رأيت في مفخرة اليايوردى
بسفينايتته أو بانتحال الصفات على غير أساس كما شاهدت فيما سياتى
لابن سناء الملك . وهذا مثل لمن لم يتقدم له نخر من تلك الشخصيات

قال المتنبي من قصيدة

ما مقامى بأرض نخلة^(١) إلا ك مقام المسيح بين اليهود
مفرشى صهوة الحصان ولكن م قيصى مسرودة من حديد
أنا رب الندى ورب القوافى وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله م غريب كصالح فى ثمود

وقال الرضى من قصيدة

أنا من عانت قديمه وحديثه علم اليقين وإن جهلت فسائل
قوى الملوك وخيم نفسى خيمها أفلج بمثل أو آخرى وأوائلى^(٢)
نحن الولاة العادلون ولم نزل آثارنا حلّى الزمان العاطل
واذا الخصوم تجادلوا فى مجدهم ظهرت دلالة مجدنا فى كامل

وقال أبو العلاء من قصيدة

وكم من طالب أمدى سيلقى دوين مكاني السبع الشدادا
يؤجج فى شعاع الشمس نارا ويقدح فى قلمبها زنادا
ويطعن فى علاى وإن شسمى ليأنف أن يكون له نجادا
فلا وأبيك لا أخشى انتقاصا ولا وأبيك لا أرجو ازديادا

٢ - المجون - كان منشأ المجون وهو من مستحدثات العصر
العباسى كما قلنا : الاستهتار الذى استهان بالدين فكانت الزندقة والألحاد،

(١) موضع بجنوب الشام (٢) أسبق بهم وأظفر

واستهمتر بالأخلاق فكانت الرذيلة والفساد ، ثم استهزأ بالعرف فكان
الفحش في المعاني والبذاء في الألفاظ . وشياطينه الأثايل وغارسو
بذوره هم تلك الطائفة التي ذكرنا في الخروج على القديم

وقد ساعد على انتشار هذه السموم ما غر البيئات العربية من الآراء الفلسفية
المختلفة ، والاباحية الداعية إلى مشاركة الانسان لأخيه الانسان في كل
شيء ، ثم عبادة المادة وعدم المبالاة بزواج الأديان ، ذكروا أن مطيع
بن إلياس مر ببجي بن زياد وحماد بن إسحق وهما يتجادلان فقال لهما فيم
أنتما قالوا في قذف المحصنات فقال « أو في الأرض محصنة تقذفانها »
كما ساعد عليها أيضا ما كان يعقده بعض الأثماء والوزراء من مجالس
الشراب والندامة التي يحضرها أمثال هؤلاء فيعمرونها بالتهتك والخلاعة
وبما كونهما في صورة أشنع منها بمنازل بعضهم ، كما كانوا يفعلون في منزل
إسماعيل القراطيسي بالكوفة . ولقد جرت صحبة هؤلاء إلى إفساد كثير
من أبناء الخلفاء ، فالأغاني يذكر أن جعفر بن المنصور أفسده مطيع بن
إلياس ، ومحمدا الأثمين أفسده أبو نواس وحسين بن الضحاك . ولم يلبث
اضطراب الحركة الفكرية وتزاحمها في أذهان الناس بما نقل واستنبط
من حقائق فلسفية مختلفة في الدين والرياضة والفلك والطب وسائر
العلوم ، أن فصل ذوى المجانة في الدين عن مجان الفضيلة والعرف ، فكان
من الأولين طائفة الزنادقة الملاحدين الذين كان دأبهم التشكيك في
حقائق الدين بشكل جدي لا مجانة فيه كصالح بن عبد القدوس وأبان
ابن عبد الحميد وعمار بن حمزة وغيرهم ، وكان من الآخرين مجان الهزل
الذين دأبهم التضحيك كمن ذكرنا مع أبي نواس . ومن أمثلة مجونهم

قول دعبل عن ديك له أخذه صالح ~~المرثي~~ لضيوفه .

أُسِرَ المؤذن صالح وضيوفه أُسِرَ الديك ههنا خلال المايط^(١)
 بعثوا عايه بناتهم وبنينهم ما بين نائفة وآخر سامط
 يتنازعون كأنهم قد أوثقوا خاقان أو هزموا كتائب ناعط^(٢)
 نهشوه فانتزعت له أسنانهم وتهشمت أقفاؤهم بالحائط
 وقد كان لهذا النوع من المجون شأن كبير في العصر العباسي الثالث
 ومن مشهورى رجاله بالعراق أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن
 سكرة الهاشمي وأبو عبد الله الحسن بن أحمد بن حجاج ، ومنهم بالشام
 أبو الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي . فمن مجون ابن سكرة قوله في
 جارية بخراء تدعى خمرة جعلها محطاً لكثير من مجونه

هل لك يا خمرة في تجرة مربحة ما مثام — ما تجره
 سيرى إلى البصرة واسترزق ربك بالنكبة في البصره
 يزكو بها النخل وتحمر في غير أوان الحمرة البصره
 ومن مجون ابن حجاج قوله لرجل دعاه إلى عرس ثم أخلف
 أين نصيبي من الطعام وما طمعت في لعقة من المرقه
 أشفقت منى وكان يقنعنى عندك ما ليس يوجب الشفقة
 قطعة لحم فى وزن خردلة على رغيىف كأنه ورقه
 ومن مجون أبى الرقعمق قوله عن قيادته من قصيدة .
 فأطيب العيش كان عندى أيام للفسق قلدونى

«١» بالتسهيل ، مكان الصراع ومفعول أسرو وهو الديك ~~المرثي~~ «٢» خاقان لقب
 ملك الترك ، وناعط هو ربيعة بن مرثد الهمداني صاحب مخلاف باسمه

وكننت طبيا به بصيرا وأقود الناس في سكون
فكم غزال أخذت قسرا وكم مليح حوت بميني
والناس يسعون نحو داري من كل أرض ويقصدوني

٣ - الخمریات - قلنا إن الخمریات شغلت مطالع القصائد أولا مكان
التشبيبات القديمة، ثم استقلت بعد بسائر القصيدة، ولذلك تعد من
الفنون الجديدة في العصر العباسي. نعم إن الخمر نالها في عهد بني أمية
شيء من أيام يزيد بن معاوية، وأشياء على أيام الوليد بن يزيد، ولكن ذلك
لم يصل بها إلى أن تكون فنا من فنون الشعر مستقلا حتى جاء أبو
الهندي عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحي، وكان شاعرا مطبوعا من
مخضرمي الدولتين، فأشاد بذكرها لأدماة المعاقرة وشغفه بالشراب
مع ما كان يرمي به فن الفسق وفساد الدين حتى كاد شعره يكون كله
فيها وكان في تلك الامتداد كثير الخوض عليها كقوله

قل للسرى أبي قيس أتتهجرنا ودارنا أصبحت من داركم صديدا
أبا الوليد أما والله لو عملت فيك الشمول لما فارقتها أبدا
ولانسيت حمياها ولذتها ولا عدلت بها مالا ولا ولدا
ثم جاء أبو نواس فلم يعدل بوصفها شيئا من الفنون، حتى بلغ ما قاله
فيها من القصائد والمقطعات والمطالع بضعة آلاف من الأبيات ولذا عد
إمام واصفها بالأجماع، واقتدى به في ذلك عدد ممن عاصروه وإن لم
يساووه. وكذلك كانت الخمریات في العصر الثاني ثم استفحل أمرها
في الثالث على عهد آل بويه الذين كان أغلب شعرهم فيها حتى لم تبق
زيادة لمزيد. وعلى هذا الطغيان كانت في العصر الأخير. وقد رأيت

من ذلك نماذج لأبي نواس ولا بن المعتز وقبلها مثلها لمعز الدولة وأبي العباس بن ركن الدولة ، فلم يبق إلا نموذج نأى به من العصر الرابع نخذة للطغرائى يصفها فى شبيهه ويجعلها بديلة الشباب

قد كان لى فى شبىبتى مرح	يحدث لى بغتة بلا سبب
فـذ تولى الصبا تبين لى	أن الصبا كان موجب الطرب
حظ تولى فلست أدركه	إلا بعون من ابنة العنب
فهاهما من شبىبتى بدلا	أقضى بها بعض ذلك الأرب
صفراء مثل النضار ألبسها	مزاجها لؤلؤا من الحب
فأسعد الناس من حوت يده	ما شاء من لؤلؤ ومن ذهب

٤ - الرثاء - ليس الرثاء محتاجا بعصر ما فى وجوده إلى تعليل ، مادامت رضى المنايا دائرات وما دام الدهر نقادا يستتاب النفيس ويفجع بالعزى . وكل ما نريد أن ننبه عليه الآن ، أن الرثاء فى رقيه وانحطاطه كان سائرا وراء المديح ، وأنه لذلك بلغ فى العهد العباسى من جودة المعانى وحسن التعبير ، ما لم يصل إليه فى سابق أو لاحق من العصور ، وقد رأيت من مرأى العصر الأول قصيدة أبى تمام فى ابن حميد وهى مضرب الامثال فى عظمة المعانى وقوة الأداء ، ورأيت فى الثانى مقطعة ابن الزيات فى رثاء أم ابنه عمر ، وهى فيض من العاطفة الباكية والشعور المحزون ، ثم رأيت فى الثالث - وهو أرقى العصور رثاء لأنه أرقاها مدحا - رثاء الرفاء لصديقه المصلوب ، وهو نوع من الرثاء جديد ، ورثاء الرضى للصبا ، ولعله أروع رثاء ، يتبين فيه صدق الأخاء . وإليك فى الرابع نموذج لابن

سنان الخفاجى فى والدته، وكان الرثاء متطامنا فيه تطامن المديح قال :

قبحا ليومك فالنوائب بعده جنل وكل رزية لا تفجع
لو كان ينفعني السلو نبذته أسفا عليك فكيف إذ لا ينفع
هيمات يجمع شمل صبر نافر قلب بأيدي الحادثات مروع
أحنو الضلوع على بواعث غلة ضمن اذكارك أنها لا تنقمع
عجبا لمن يبقى ذخائر ماله ويظل يحفظهن وهو مضيع
لا يغبطن على البقاء مرزا إن المودع إلفه لمودع

٥ - الزهد - من النواميس المقررة فى حياة الجماعات، أن نزوع طائفة ما إلى ناحية ذات غلو وإفراط، يقتضى نشوء أخرى مضادة لها فى الاتجاه، ولذلك لما كان الوازع الدينى على عهد الراشدين وبنى أمية قويا يكاد يشترك فى الخضوع له الناس جميعا دون استهتار أحد بالخروج عليه فى تبجح وتظاهر، لم نك ترى الزهد والغلو فى الدين باديا للعيان . أما حين غزت الأباكية الشعب العربى على عهد بني العباس للأسباب الكثيرة التى ذكرناها فيما قدمنا، ونشأت من غزوها طائفة المستهترين، فلم يك مفر أن توجد طائفة تقاوم تلك، همها التزهيد فى هذه الحياة بتجسيم مقابحها وتكذيب زخارفها، وعدم الاغترار بما فيها من متاع إن هو إلا حطام، بقدر ترغيبها فى الآخرة وما فيها من لذة وخلود. نعم جدت هذه الطائفة، وعلى أنها كانت إزاء تلك قليلة العدد محدودة الأشخاص، أمكنها بقوة الدين ومدده القويم، أن تنتج من المواعظ ونواحي الارشاد ما أنار السبيل على أيامهم، وبقي بعدهم هدى للناس . ثم كان أشخاصها ذوى مكانة فى نفوس الخلفاء وسائر الحكام، إن لم يكن لدى بعضهم عن

عقيدة وإخلاص، فلا أقل أن يكون استرضاء للعامة بتقريب هؤلاء
الوعاظ، وقد كان إمامهم في العصر العباسي الأول أبو العتاهية الذي
سلف من قصصه ووعظه ما فيه الغناء ولقد تفرع عن هذا الوعظ
بالتزهيد، نوع آخر من الحكمة، هو تأديب النفس بضرب الامثال وقص
الحكايات، وأول من فعل ذلك أبان بنظمة كيلة ودمنة، وتبعه من
ذكرنا آنفا حيث الكلام على هذا الكتاب. ثم اتصل الزهاد والمؤدبون
فلم تخل الأرض من حجاج منهم لله على نوال العصور. على أن التأديب
بالتزهيد لم يعدم أن يصدر على لسان كثير من المستهترين فيكون حجة
عليهم وتقوية للزاهدين. وهذا أبو نواس يقول:

سهر أخى ما بال قلبك ليس ينقى كأنك لا تظن الموت حقاً
ألا يابن الذين فنوا وبادوا أما والله مبادوا لتبقى
ومالك فاعلمن فيها مقام إذا استكملت آجالاً ورزقا
ومالك غير ما قدمت زاد إذا جعلت إلى اللهوات ترقى
وما أحد بزادك منك أحظى وما أحد بزادك منك أشقى

٦ - الصفات - وعلى قدم الوصف في الشعر العربي منذ العهد الجاهلي
لم يبلغ فيه ولا في العصرين بعده شيئاً مما بلغ في عصر بني العباس. ذلك
بأن منابعه الحسية من مظاهر طبيعية وآثار حضارة، والمعنوية من
مشاعر نفوس ومدركات عقول، كانت محدودة في الأول واقفة عند
حدود قريبة في الآخرين. أما في العصر العباسي وقد تجلت فيه
مظاهر الطبيعة وآثار الحضارة، وخطت فيه الوجدانات والعقول
خطوات لم تكن في حساب، فقد أصبح الشاعر إذا غار في أعماق الفكر

لا ينتهى بقرار ، واذا طار مع الخيال لا يصل إلى سماء ، ولذلك بلغوا فى الناحيتين مبلغا يدهش عقل من لا يحيط بنواحي هذا الانقلاب الشمول . وليس يالو ما ذكرنا من نماذج ، وما استشهدنا به فى معظم ماضى وبخاصة فى ناحية المعانى والأخيلة أن يكون دلائل ناطقة ، وآيات بينة على صدق ما نقول ، فارجع اليه وإنه لقريب . ويكفى أن الوصف قد خاق بعض نواح منذ العصر الأول وأنضجها فيه حتى صارت فنا مستقلا كما تقدم فى الحمريات . ولم يقف دون السير فى هذا العصر نفسه بفن آخر جديد هو وصف الرياض وما تحوى من آيات جمال كما رأيت فى بعض ما اخترنا ، ثم ماكد الزمن يخطو إلى العصر الثانى حتى استوى هذا الفن على سوقه يعجب الزراع ، وصدر فيه على السنة كثير من الشعراء ما يبهز الناظرين ، وإليك بعض ما قيل

قال ابن المعتز يصف إقبال الربيع

ما ترى ^(١) نعمة السماء على الار

وغناء الطيور كل صباح

وكان الربيع يجلو عروسا

وقال على بن الجهم يصف الورد

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه

بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها

وقابلته يد المشتاق تسنده

كان فيه شفاء من صبايته

ض وشكر الرياض للأمطار

وانفتاق الأشجار بالأنوار

وكأننا من قطره فى نثار

حسن الرياض وصوت الطائر الفرد

وراحت الراح فى أثوابها الجدد

إلى الترائب ^(٢) والأحشاء والكبد

أو مانعا جفن عينيه من السهد

بين النديمين والخلين مصرعه وسيره من يد موصولة بيد
 ما قابلت طلعة الريحان طلعتة إلا تبينت فيه ذلة الحسد
 قامت بحجته ربح معطرة تشفى القلوب من الأوصاب والكمد
 لا عذب الله إلا من يعذبه بمسمع بارد أو صاحب نكد
 وقال ابن الرومي - وكان مولعا بالخلاف - يفضل النرجس على الورد
 خجلت خدود الورد من تفضيله خجلا توردها عليه شاهد
 لم يخجل الورد المورد لونه إلا وناحله الفضيلة^(١) عائد
 للنرجس الفضل المبين إذا بدا بين الرياض طريفه والتالد
 فصل القضية أن هذا قائد زهر الربيع وأن هذا طارد
 شتان بين اثنين هذا موعد بتصرم الدنيا وهذا واعد
 فاذا احتفظت به فأمتع صاحب بحياته لو أن حيا خالد
 ينهى النديم عن القبيح باحظه وعلى المدامة والسماع مساعد
 اطلب بعقلك في الملاح سميته أبدا فانك لا محالة واجد
 والورد إن قتشت فرد في اسمه مافي الملاح له سمي واحد^(٢)
 هذى النجوم هي التي ربتهما بحيا السحاب كما يربي الوالد
 فانظر إلى الولدين من أدناها شهما بوالده فذاك الما جد
 أين الحدود من العيون نفاسة ورياسة لولا القياس الفاسد
 وحين أقبل العصر الثالث صارت الزهريات من أوسع فنون
 الشعر ، فلم تبق زهرة ولا ريحانة ولا أى شىء مما تنبت الرياض على
 اتساع الرياض إلا أشبعه شعراؤه نعتا ووصفا . استمع إلى القاضى

(١) ناسبها إليه (٢) يظهر أن التسمية كانت شائعة بيننا حين دون ورد

علي بن محمد التنوخي يقول :

ورياض حاكّت لهنّ الثريا حلّلا كان غزلها للرعود
نثر الغيث در دمع عليها فتجلّت بمثل در العقود
أقحوان معانق لشقيق كئفور تعض ورد الحدود
وعيون من نرجس تتراءى كعيون موصولة التسميد
وكان الشقيق حين تبدى ظلمة الصدغ في خدود الغيد
وكان الندى عايبها دموع في عيون مفجوعة بفقيد
وعلى هذا الافتنان بقيت الزهريات في العصر الرابع، قال الأرجاني
يصف روضة في مطلع قصيدة غزلية
ماروضة أضحكّت صبحاً مباسمها دموع قطر عايبها الليل ينسفك
فالنرجس الغض عين كلها نظر والأقحوانة ثغر كله ضحك
وللشقائق زى وسطها عجب إذا تمايان والأرواح تأتفك^(١)
حمر الثياب تطير الريح شائلة أذيا لها وهي بالأزوار تمتسك
إذا الصبا نبهت أحداً سحرا حسبت مسكا على الآفاق ينفرك
أتم طيباً وحلياً من ترائبها^(٢) إذا اعتنقنا وخيل الليل تعترك
ولم يترك الوصف شيئاً بعد هذين الفنين من سائر فنونه إلا
أجاد فيه كما ترشد إلى ذلك بعض النماذج والمستشهد به من الأبيات،
ومن العسير أن نتعرض للاستقصاء فإن الباب طويل .

١٠ — وأخيراً هذا فن عاشر لا يصح إغفال التنبيه عليه هنا وهو
ضبط قواعد العلوم والفنون على اختلاف أنواعها بالمزدوجات وغير

(١) تتناوح في تصرفها (٢) أتم خبر ما النافية المفتتح بها الشعر

المزدوجات. نعم إن هذا الفن قد ابتذل الشعر وخط من قدره لأنه أخرجه في معناه من أودية الخيال ومشاعر الوجدان، وبعد به في لفظه عن أناقة التعبير ورشاقة الأسلوب، ولكن ذلك ليس بمخرجه عن أنه من فنون الشعر على أية حال، وإذ قد فاتنا التمثيل له فيما مضى فلنأت منه في تل من العصرين الثالث والرابع بمثال لكثرة فيهما نظراً لتقدم العلوم.

قال ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ في الحد من منظومة له في المنطق
إذا أردت أن تحد حداً فرتب الجنس القريب جداً
فانه يحصر كل ذاتي يكون المحدود في الصفات
ثم اطلب الفصول فهي الحادة من صورة أخذتها أو مائة
وقال الحريري في أدوات الشرط من ملحة الأعراب

هذا وإن في الشرط والجزاء تجزم فعلين بلا امتراء
وأختها أي ومن ومهما وحيثما أيضاً وما وإذما
وأي منهن وأنى ومتى فاحفظ جميع الأدوات يافتي
٢ - ناحية المعاني والأخيلة

لقد كان نضج العقول واتساع الأفكار بما حدث في العهد العباسي من تدوين العلوم وترجمتها، عاملاً مهماً على تفسيح ميادين المعاني وتفجير ينابيعها، وكان وضع القصة المعتمدة على الفرض والتخيل، ومظهر الحضارة المصحوبة بحسن الطبيعة وجمالها، منبياً للملكة التصور ومكثراً لأنواع الأخيلة. كما كانت الملاحاة الدائبة بين الجماعات من جنسية ومذهبية، والخصومة القائمة بين الزهاد والمستمتعين من أقوى البواعث

على نشر المباحثة والمناظرة ، وخلق القدرة على الجدل والسفسطة في النفوس ، فلم يعد الناس يتقبلون القضايا مجردة من الحجة والدليل . وكل هذا عاد على المعاني والاختيلة بتقديم واضح ورقى كبير أجملنا مظاهره حيث الكلام على ما كان لحياة اللغة في ذلك من نصيب . وهانحن أولاء مفصلوه في الشعر تفصيلا يعتمد أول ما يعتمد في التمثيل له على ما أسلفنا من نماذج .

١ - استنباط الدقيق والجديد من المعاني - جال الشعراء في هذا الميدان جولات بعيدة المدى ، ظهر أثرها متشعب النواحي في كل ما عالجوا من فنون الشعر ، حتى لقد تراحم الكثير منها في القصيدة الواحدة تراحما كان غير معروف ، كما فعل ابن الرومي في قصيدته السابقة التي تصدى فيها لهجاء إبراهيم بن المديبر ، حيث جعل ثناء زواده عليه شركا ليستميحه غيرهم فيخيب خيبتهم ، وحيث جعل نكوص هجائه عنه لنجاسة لؤمه لا لأنه جنة ، وحيث جعل هذا الهجاء لباسا يظنى روحه ويشقيها انتقاما للأبرار التي طالما أشقاها جسده ، وهكذا من سائر المعاني الدقيقة التي عالجها . وكما فعل الرفاء في رثائه صديقه الفتى المصلوب من بني شيبان ، إذ تصوره بدرا مفقودا مع أنه غير آفل ، وإذ سوى بين ثنى عطفه في غلالة الصلب وسابغة الحرب ، وإذ جعله معرى كالسيف منتضى ، وإذ اعتقد أن القدر أحله الهواء ضنا به عن ضنك الثرى ، إلى آخر ما عالج^(١) وكما فعل الصابي في قصيدته التي يعزى بها نفسه وهو

(١) معظم ما وقع من معان في المصلوبين جاء جديدا ، لأن التمثيل بقتلاه لم يكن شائنا ، ومن أسير القوائد فيه قصيدة أبي الحسن الانباري في أبي

في السجن، من تفضيل من سجنه عزه على من أطلقه ذله ، ومن جعله
هذه النائية أثرا لمنازلته الدهر ، وتلك اليد ضده والسعاية به أثرا لمده يده
إلى النجم وسعيه نحو النجد ، إلى آخر ما تناول وهو كثير . ولغير هؤلاء
فيما تقدم من نماذج تناول دقيق السعاني وإن لم يك في القصيدة بالكثير
كالذي رد به التهامي تهمة حبيلته إياه أنه نسيها بجديد ، من أنها أخذت
حواسه وعقله ، فكيف يعشق لو أراد ، وكالذي ألم به مهبّار في تهنتته
ابن علي المغربي بالنيروز وهو يهنئه بالوزارة ، وكالذي عاجله الغزي في
مدحه البيهقي من خاطه مدحه ببيان أنه يكره مدح الناس ، في شبه تخويف
بما قد يحمله عليه المظل من هباء ، ثم كالذي قاله الأرجاني في هجو أهل
زمانه وسوء حالهم من عدم إعطائهم إذا مدحوا وحنقهم إذا لم يمدحوا .

طاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة بين بويه ، حين قبض عليه عضد الدولة إذ
انتصر على ابن عمه المذكور وقتله وصلبه .

علو في الحياة وفي الممات	لحق تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا	وفود نذاك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا	وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء	كمدها إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن	يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجوق بك واستعاضوا	عن الألفان ثوب السافيات

ومن جيده أيضا قول عمارة اليمنى في عاص قتل وصلب

ومد على صليب الصلب منه	يمينا لا تطول إلى شمال
ونكس رأسه لعتاب قلب	دماه إلى الغواية والضلال

وهذه طائفة ثانية من الممان الدقيقة التي تظهر عليها الجدة مع دقتها .

قال بشار يذنب العشق إلى الأذن كالعين

يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقال في إهلاك ما به بعدوى كفه من كف ممدوحه

لمست بكفى كفه أبتغي الفنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى

فلا أنا منه ما أفاد ذور الفنى أفدت وأعداني فأثلفت ما عندى

وقال أبو نواس يشبه نفسه وقد حرم عليه الخليفة الشراب - فكان يمدح

الخمر ولا يشربها - بقعدي الخوارج يحرض على الخروج ولا يحمل السلاح

فكأنى بما أزين منها قعدي يزين التحكـمـا

كل عن حملة السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيق ألا يقيما

وقريب من هذا قول الغزى بعد

أنا في الحلة الغداة كئانى علوى في قبضة الحجاج

وقال إسحق بن ابرهيم الموصلى في فلسفة الهجر

أخاف عليها العين من طول وصلها فأهجرها الشهر بن خوف من الهجر

وما كان هجرانى لها عن ملالة ولا كنى أملت عاقبة الصبر

أفكر فى قلبى بأى عقوبة أعاقبه فيها لترضى فما أدرى

سوى هجرها والهجر فيه دماره فعاقبته فيها من الهجر بالهجر

فكنت كمن خاف الندى أن يبله فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

وقال ابن المعتز جاءه لا تحم الضيف بربعه أنفذ من تحم آبائه على الأئم

حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من حكم الخلائف آبائي على الأئم

فـكـل مافيه مبدول لطارقه ولا زمام له إلا على الحرم
وقال أبو فراس في أثر سنن أصاب خده فعز ذلك على حبيبته

لما رأيت أثر السنن بخده ظلت تقابله بوجهه عابس
خلف السنن به مواقع لثها بئس الخلافة للمحب البائس
حسن الثناء بقبح ما صنع القنا يوم الطعان بصحن خد الفارس
وقال ابن الرومي يحلل لنفسه عدم تغاضيه عن خطأ صديقه

يا أبا القاسم الذي كنت أرجو هـ لدهري قطعت ثمن الرجاء
أنت عيني وليس من حق عيني غص أجفانها على الأقداء

وقال في الحبيبة تقتل بنظرها وإعراضها
نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنه فظل يهيم
فالموت إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزعته أليم
وقال أبو تمام يجعل نعمة الطالب تعويذة لعطايا الممدوح كيلا تجن
تسكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنعمة طالب

وقال يذكر فضل الحاسد على المحسود
وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
وقال يذكر فضل قبور بني مالك على الثرى

بني مالك قد نبهت خامل الثرى قبور لـكم مستشرفات المعالم
غوامض قيد الكف من متناول وفيها علا لا يرتقى بالسلام
وقال يجعل المجد شفيعه في عدم التقاضى

وإذا المجد كان عوني على المرء تقاضيته بترك التقاضى

وقال المتنبي يذكر أنه رأى الماضين من فلاسفة وملوك في ابن العميد
من مبلغ الأعراب أنى بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس راوى كتيبه متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الاله نفوسهم والأعصرا
نسقوا كما نسق الحساب مقدا وأنى فذلك^(١) إذ أنى متأخرا
إلى غير ذلك مما لا يتناولُه إحصاء

هذا - ولقد كانت رغبة المحدثين في تدقيق المعاني حاملة لهم على
استخراج المكنون وتجلية المستور، فجاءت لذلك لابسة ثوب الجدة
والابتكار، ولعلمهم لهذا كانوا إذا ألما بقديم جعلوا لأنفسهم فيه ميزة
أو يدا بمجديد، وهذه ناحية حافلة بالأمثال المشرفة لكثير منهم في كثير
من أبواب الأدب ولا سيما باب السرقات. وقد ذكر منها طائفة صالحة
أبو هلال العسكري في كتابه الصناعاتين، وهذا بعض ما جاء فيه وفي
غيره كالعمدة لابن رشيق

قال أبو نواس، وله في هذا الباب باع طويل

وإذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام
فكان أوثق وأسخى وأرق من الفرزدق حيث يقول
متى تأتي الرصافة تستريحى من الانساع والدبر الدوامى

وقال في محاسن حبيب باك

يبيكى فينذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب
فكان فاضلا الأسود بن يعفر بالزيادة والركة إذ يقول

(١) يريد أنى في النهاية جامعاً لما سبقه من فذلك حسابه إذا أنهم بقوله فذلك جهلته.

يسمى بها ذو توأمين كأنما قنأت أنامله من الفرصاد^(١)
كما كان معبد الطريق لأن يزيد عليه غيره كلواواء الدمشقي في قوله .
وأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد
وقال في دقة أخذ

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
فكان بيته أعم معني وأشد مبالغة من بيت جوير
إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا
ومثل هذا في دقة الأخذ قول أبي تمام
فتى مات بين الطعن والضرب ميمته تقوم مقام النصر إن فاته النصر
فانه جعل الموت في الحرب انتصارا ، كما جعل ابن الوردي اجتهاده عذرا
في قوله

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا أو ينال رغبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح
وقال في تمنى الطير غزوة ممدوحه لتاكل من لحم قتلاه

تمنى الطير غزوته ثقة باللحم من جزره
فكان له فضل الایجاز مع الايضاح على النابغة حيث يقول .
إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله اذا ماالتقى الجيشان أول غالب
وقال في ذلك مسلم

(١) الضمير راجع إلى دور المناذرة بعد خلوها منهم وتهديمها ، وقنأت
اشتدت حمرتها ، والفرصاد التوت الأحمر أو صيغته الأحمر

قد عود الطير عادات وثقن بها فمن يتبعنه في كل مرتحل
وقال فيه أبو تمام
وقد ظلمات أعناق أعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كاثها من الجيش إلا أنها لم تقاثل
ثم جاء المتنبي ففضل الجميع بما زاد فيه اذ يقول
يفدى أتم الطير عمرا سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم
وماضرها خلق بغير مخالب وقد خلقت أسيفه والقوائم
وقال أبو تمام في إعراض ممدوحه عن الدنيا للسؤدد
يصد عن الدنيا اذا عن سؤدد ولو برزت في زى عذراء ناهد
فكان قوله بزيادته أقوى من قول المعذل بن غيلان .
ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر
وقال منصور النيرى
فلو كنت كالعنقاء أو كسموها خلعتك إلا أن تصد ترانى
ففضل النابغة حيث يقول
فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
وهذا معنى أكثر فيه المحدثون غير منصور فأجادوا، قال سلم الخاسر .
ولو ملكك عنان الريح أصرفها في كل ناحية ما فاتك الطالب
وقال البحتري .
ولو أنهم ركبو الكواكب لم يكن ينجيهم من خوف بأسك مهرب
وقال علي بن جبلة .
وما لامرئ حاولته منك مهرب ولو رفعته في السماء المطالع

بلى هارب لا يهتدى لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع
على أنا لا نغمط المتقدمين حقهم في أن لهم من المعاني ما لم يزد فيه
المتأخرون قلوا أم كثروا كقول جرير

ولا يمنعك من أرب لحام سواء ذو العمامة والخنار
فقد أخذه المتنبي دون زيادة إذ يقول

ومن في كفه منهم قناة كمن في كفه منهم خضاب
وكقول عمر بن أبي ربيعة .

لقد دب الهوى لك في فؤادي ديب دم الحياة إلى العروق
فقد أخذه مسلم كما هو في قوله

تجري محبتها في قلب عاشقها جرى السلامة في أعضاء منتكس
وأخذه أبو نواس كذلك ولكن نقله إلى الخمر بقوله

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

٢ - الا كمنار من ضرب النمل وحسن التعليل - كن من أهم الدواعي
إلى طلب الأمثال حاجة العقلية الجديدة إلى شفع القضايا بما يوضح
معناها ويؤيد دعواها ، وقد ساعد القائلين على ضربها ما انتشر في
البيئات الجديدة منذ الصدر الأول من ترجمة الأقاصيص في الحكم
والأمثال ، ووضع قواعد العلم في مختلف الفنون ، ولذلك نعد منها ما سبق
آنفا في استخدام مصطلحات العلوم . وأنت إذا رجعت إلى ما أسلفنا
من نماذج ألفيت ذلك كثير الانبثاق في ثناياها ابن الرومي والمتنبي وأبي
فراس والصابي والخفاجي والأثرجاني وابن عنين ، فارجع إلى ما اختير
لهم تجدها بارزة فيه . وهذه طائفة ثانية .

قال أبو العتاهية

يارب ذى نسب تكنفه حب الحياة وغره نشبه
قد صار مما كان يملكه صفرا وصار لغيره سلبه
يا صاحب الدنيا المحب لها أنت الذى لا ينقضى تبعه
إن استهانتها بمن صرعت لبقدر ما تسمو به رتبه
وان استوت للنمل أجندة حتى يطير فقد دنا عطبه

وقال أبو تمام

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لذي باجتيه فاغترب تنجد
فانى وأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقال

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ — دى الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلماذا يجف بعد اهتزاز قبل روض الوهاد روض الروابي

وقال

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

وقال

يا أيها الملك النأى برؤيته وجوده لمراعى جوده كشب
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

وقال البحتري

دنوت تواضعا وعلوت مجدا فشانك انحدار وارتفاع
كذلك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

وقال

دان على أيدي العفاة وشاسع عن كل ندى في الندى وضريب
كالبدور أفرط في العلو وضوءه للعصبة السارين جدد قريب

وقال

وقد زادها إفراط حسن جوارها خلأئق أصفار من الحسن خيب
وحسن دراري الكواكب أن ترى طوالع في داج من الليل غيب
وقال ابن الرومي

وما الحسب الموروث لأدر دره بمحتسب إلا بآخر مكتسب
إذا العود لم يشمر وإن كان شعبة من المثمرات اعتده الناس في الخطب

وقال

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقي من أذاها يهدد
والأفما يبكيه منها وإنها لأحسن مما كان فيه وأرغد
وقال المتنبي

وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعمل إلا ذو محل تعالى الجيش وأنحط القتام

وقال قابوس بن وشمكير

ياذا الذي بصروف الدهر عيرنا هل عاند الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم لأعداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر
وقال ابن المعتز

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من شدة الفتك نالها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت والدم في النصل شاهد عجب
وقال ابن فبائة السعدى من وصف فرس أغر محجل

وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير زهوا ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فأما خاف وشك الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيا
وقال ابن قلاقس الاسكندرى

مضى معهم قلبى فإله دره لقد سرنى إذ مر مع من يسره
وأطول من هجر الحبيب وصبوئى ويوم النوى ليلى وهمى وشعره
وليس دماء الجفون وإنما فؤادى بماء الدمع قد ذاب جمره
وقال ابن شبل البغدادى

يفنى البخيل بجمع المال مدته وللحوادث والأيام ما يدع
كدودة القز تبنيه ويهدمها وغيرها بالذى تبنيه ينتفع
٣ — استخدام البراهين العقلية والآراء الفلسفية — لم تكن شاعرية
الشاعر قبل العصر العباسى تعتمد منه على ثقافة علمية، ولذلك بقى شعره
فطريا ليس فيه أثر من تثقيف وتعاليم. أما فى العصر العباسى فقد انحرف
الشعراء فى زمرة العلماء، وأصبح منهم فى كل ناحية أعلام، وتأثر شعرهم
من هذه الناحية تأثرا شديدا، فكان ميدانا لأفكارهم العلمية ومجالا
لآرائهم الفلسفية، وظهر فيه العقل المثقف بمظهر الغلبة على العقل
الفطرى، وكان المجتمع الجديد بما فيه من حوار ونقاش فى الدين وغير
الدين منميا لهذه الظاهرة دافعا لها إلى الامام. ولعل أول خطوة فى سلوك
هذه السبيل كانت القدرة على صوغ الحكمة بعد ضرب المثل وإحسان

التعلييل على السنة كثير من شعراء العصر الاول كبشار وأبي العتاهية،
وبعدها كان اقتباس بعض المعاني الفلسفية لشيوع العلوم القديمة بين
المسلمين بعد ترجمتها منذ عهد المنصور إلى عهد المأمون . وقد ظهر هذا
الاقتباس على السنة بعض شعراء العصر الثاني كابن الرومي

ولما جاء العصر الثالث وفاضت فيه العلوم الفلسفية فيضا، اغترف
الشعراء منها اغترافا ظهر غزيرا على لسان أول شعرائه المتنبي ، ثم زاد
غزارة وعمقا بعقلانية فيلسوفه وآخر شعرائه المعري . ولكن بعد هذا
المعين في العصر الرابع على الشعراء فعمجزوا عن الامتياح ، ومن حاول
منهم السقيا على طول الرشاء أبعد التفكير ووقع في الخفاء .

وهذي بعض أمثلة لمن ذكرنا من الشعراء

قال بشار في الحكم القريبة من وحي الفطرة

إذا كنت في كل الامور معاتبا	صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فانه	مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى	ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها	كفى المرء نبلا أن تعد معائبه

وقال في فلسفة الخيرة وكان من أصحابها

طبعت على مافي غير مخير	هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد	وقصر علمي أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر	وأمسي وما أعقبت إلا التعجبا

وقال أبو العتاهية وكانت فلسفته في الزهد والدين - وله في ذلك الأرجوزة
التي قلنا آنفا إن بها أربعة آلاف مثل - يعظ ويذكر

يعجبنا للناس ، لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
 وعبروا الدنيا إلى غيرها فانما الدنيا لهم معبر
 الخير مما ليس يخفى هو السمعروف والشر هو المنكر
 والموعد الموت وما بعده الحشر فذاك الموعد الأكبر
 لاخر إلا نخر أهل التقى غدا إذا ضمهم المحشر
 ليعلم الناس أن التقى والبر كانا خير ما يندخر
 عجبت للانسان في نخره وهو غدا في قبره يقبر
 ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر
 أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر
 وأصبح الأمر إلى غيره في كل ما يقضى وما يقدر

وقال ابن الرومى فى الحيرة بين حب المال واخوف من طلبه
 اذاقتنى الأسفار ما كره الغنى إلى وأغراني برفض المطالب
 فأصبحت فى الاثراء أزهد زاهد وان كنت فى الاثر أرغب راغب
 حريصا جبانا أشتهى ثم أنتهى بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب
 ومن راح ذا حرص وجبن فانه فقير أتاه الفقر من كل جانب
 تنازعني رغب ورهب كلاهما قوى وأعيانى اطلاق المغايب
 فقدمت رجلا رغبة فى رغبة وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
 أخاف على نفسى وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب
 ألا من يرى غايتى قبل مذهبي ومن أين والغايات بعد المذاهب
 وصبرى على الاقتار أيسر محملا على من التغيرير بعد التجارب

وقال أيضا وكان شغوفا بمخالفة المؤلف في فلسفته^(١) بمدح الحق وبيحسنة
 وخير سجييات الرجال سجية توفيك ما تسدى من القرض بالقرض
 ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها بل العيب أن تدان ديننا ولا تقضى
 ولو لا الحقوق المستكنات لم يكن لينقض وترا آخر الدهر ذو نقض
 وما الحق إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
 فحيث ترى حقدا على ذى إساءة فثم ترى شكرا على حسن القرض
 وقال المتنبي - وقد مزج الفلسفة بحياته مزجا - يعبر عن آماله وآلامه
 أود من الأيام مالا توده وأشكو إليها بيننا وهى جنده
 أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه فلا طلبي منها حبيبا ترده
 وأسرع مفعول فعلت تغيرا تكلف شيء فى طباعك ضده
 وأتعب خلق الله من زاد همه فقصر عما تشتهى النفس وجده
 فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده
 وفى الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه والثوب جلده
 ولا يكن قلبا بين جنبى ماله مدى ينتهى بى فى مراد أحده
 وحكمه أشهر من أن تدون وأكثر أن تحصى
 أما أبو العلاء فقد خلق فيلسوفا وفلسفة عاش، وحسبه أن خلف

(١) يدل على تأصل هذه الهوية فى نفسه قوله

فى زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير
 تقول هذا مجاج النحل تمدحه وإن ذمت فقل قىء الزناير
 مدحا وذما وما جاوزت وصفهما حسن البيان يرى الظلماء كالنور

في آرائه الفلسفية ديوانه الضخم « اللزوميات » وحسبك أن تتعرف الآن غزارة آرائه الفلسفية وتزاحمها على الموضوع الواحد بالرجوع إلى تائيته التي اخترناها بالنماذج من هذا الديوان عن فلسفته في المرأة . فقد قرر فيها أن النساء ذوات خداع ، وأنهن فوارس فتنة للرجال وآيات إغراء وأنهن الظالمات وإن ادعين أنهن المظلومات ، ثم ذكر أن الرجل يصحبهن فيخرجن له الأولاد وفيهم النوائب المسقمت وأبان وجه ذلك في الذكور والإناث وعاد يحذر من تستر المرأة وخداعها بالحجاب . ثم انتقل إلى تعليم المرأة الفصاحة والبيان ، فجعله في يدها أداة شر ومحول فساد ، وأبان أن خير ما تتعلمه القراءة والتلاوة على عجوز ، وأن خير ما تعمل حمل المغزل لأهل الأقاليم ، ثم غادر هذا إلى تحذير الشيخ المقل أن يتزوج من المهصر المرفهة ، وإلى الرجل مطلقاً أن يجاوز الواحدة إلى ضرة ، وإلى الشاب أن يسرف في شبابه للغانيات . ثم ختم آراءه في ذلك بتقريره أن حفظ الخريدة لا يكون إلا بعمل يسد غارها فتفديه بالورع والسكوت . كل هذه النواحي قد عالجها في تلك القصيدة معالجة فليسوف خبير في تحديد معان وبسط آراء ، فجاءت عنواناً ظاهراً لمعالجته الفلسفية ودليلاً واضحاً على انضوج عقله وغور فكره ، وعليك أن ترجع إليها لترى أن ما ذكرناه عنها أقل مما تقف عليه بقراءتها .

٤ — الأبداع في التصوير والاغراب في الخيال — كانت هذه الناحية أظهر النواحي في شعر العصر العباسي منذ أن بدأ إلى أن زال . ذلك بأنه ورث إذ بدأ حضارة فارسية صاربة في القدم إلى عهد سحيق ، وفيها من آثار الخيالات الواسعة والتصاوير البارعة ، ومن صناعات الأيدي

الصناعات ذات المهارة والنقش ، الشيء الكثير ، هذا إلى ما جادت به الطبيعة تلك البلاد من مناظر ذات بهجة وسحر ، فكان شعراء بغداد حيث تلتفتوا وجدوا منابع الخيال على بعد قرارها أجرى من السلسال وأصفي من الزلال ، ولذلك جروا في ميدانه وطاروا في سمانه إلى مدى بعيداً تتج من التصاوير الهائلة والخيالات المبدعة ما جاء فننة للناظرين ، وصار لمن خلفهم من الشعراء بعد انتشار الآداب في الحواضر والأقطار ، المأخذ ومحل المحاكاة ، في مصر والشام وغيرهما من سائر الأقاليم مع الاحتفاظ لكل إقليم بسعة حضارته وطبيعة أرضه إلى حد ما . واليك بعض ما كان لهؤلاء وهؤلاء من آثار نفيسة مشكورة في هذا الباب بعد أن نشير إلى ما برز منه في النماذج قبل .

رأيت فيما رأيت وصف بشار لحبيبتة وكيف أبدع في تشبيهات محاسنها ، ووصف أبي نواس سلاف الشهيد ونحله كيف انسجم فيه التصوير وتسلسل الخيال ، ووصف البحتري خروج المتوكل في عيد فطر للصلاة ، وكيف اشتق من شعائر الدين عن طريق الخيال ما خلع على الموكب جلالاته ليس بعده جلال . ووصف ابن المعتز الخمر وساقيتها ومجلسها والخروج لصيد شوائها ، وتخيله في وصف الكأس والبذل والاستهتار بالشراب ، وفي السلوقية كيف تصيد وفي طواف السقاة ونشوة الشاربين ، ثم في مجلس الشراب أرضه وسمائه وحيطانه واصطخاب العيدان فيه . ووصف السمرى الرفاء لصديقه المصلوب وما تضمن من خيال جديد . ووصف التهامي للشعر والطيف ومظاهر الليل في ثباته أولاً وفي انهزام أدهمه أمام أشقر الفجر ثانياً إلى آخر ما أغرب به من خيال . ووصف صردر

لمداد دواته وقد بدأ يملوه المشيب وما اندفع إليه من وصف القلم
والقراطيس . ووصف ابن حيوس وعمارة اليميني : الأول دار تاج الملوك
المرداسى بالشام ، والثانى دار آل رزيك بقاهرة العزيز وما جرى إليه وراه
الخيال فيما عالجا من وصف النقوش والتهاويل على اختلاف أنواعها
وتنوع مرآئها . ووصف ابن التعاويذى غلمان الناصر الأتراك وصفها
عقد فيه بين فتنة الجمال وجراحة الأقدام . إلى غير هذه من مظاهر
الحضارة المختلفة الألوان . على أنه لا يفوتنا التنويه بتعرض الطغرائى
لمظهر بدوى دفعه إليه ذكر القديم والحنين إلى ديار الأعراب ، هو وصفه
هاجرة بدأ فيها مع صحبه رحلة جاوزتها إلى الليل فاستغرقته إلى المسجر
منه حيث وردوا غديرا اشتبه مأوه على عيسهم بضوء الفجر المنبعث
عليهم من الشرق ، إلى غير ذلك مما بالغ في تصويره حدا نرى من الظلم
له التعرض لوصفه دون ذكره ، فاطرجم إليه هناك ولنعد نحن إلى ما وعدنا
به من خيال وتشبيه بعد الإشارة إلى هذه الأوصاف .

قال بشار يشبه فؤاد المضطرب وعين المسهد الخائف

كأن الفؤاد ككرة ترمى	حذار البين لو نفع الحذار
يروعه السرار بكل شيء	مخافة أن يكون به السرار ^(١)
أقول وليأتى تزداد طولاً	أما ليل بعدهم نهـار
جفت عيني عن التغميض حتى	كأن جفونهمـا عنها قصار

وقال فى نوع شرابه ومحاسن محبوبته

أيها الساقيان صبا شرابى واسقيانى من ريق ثغر برد

(١) المسارة مصدر ساره يساره مرارا ومسارة

إن دائي الصدى وإن شفائي شربة من رضاء بيضاء رود^(١)
 عندها الصبر عن لقائي وعندي زفرات يأ كان قاب الجليد
 ولها مبسم كغمر الأقاليم وحديث كالوشى وشى البرود
 نزلت في السواد من حبة القلب ونالت زيادة المستزيد
 ثم قالت نلقاك بعد ليال والليالي يملين كل جديد
 لا أبالي من ضمن غنى بوصل إن قضى الله منك لي يوم جود
 وقال في تشبيهه العظام بالخيزران وهو جديد
 ودعجاء المحاجر^(٢) من معد كأن حديثها ثمر الجنان
 إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران
 وقال في معنى بدوى زاده قوة وأسرا
 ويوم كتنور الأمان سجرته وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما
 رميت بنفسى في أجيج سمومه وبالعيس حتى بض منخرها دما
 وقال أبو نواس في نواح من تشبيهات الخمر
 فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة من كيف لؤلؤة ممشوقة القد
 تسقيك من طرفها خمر او من يدها خمر افا لك من سكرين من بد
 كأسا إذا انحدرت في حلق شاربها رأيت حمرة في العين والحد
 وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي في غزو محاسن محبوبته إياه
 غزني بجيش من محاسن وجهها فمبي لها طرفي ليدفع عن قلبي
 فلما التقى الجيشان أقبل طرفها يريد اغتصاب القلب قسرا على الحرب
 ولما تجارحنا بأسياف لظننا جعلت فؤادي في يديها على الغصب

وناديت من وقع الأُسنة والقنا على كبدي يا صاح مالى وللحب
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر قتميل عيون الغانيات بلا ذنب
وقال أبو تمام في الغيث والسحاب
سحاب إذا ألقت علي خلفه الصبا يدا قالت الدنيا أتى قاتل المحل
إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندى له تبعاً أو يرتدى الروض بالبقل
إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت بطون الثرى منه وشينكا على حمل
وقال البحتري من وصف بركة المتوكل
تنصب فيها وفرد الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها
إذا علتها الصبا أبليت لها حبكا مثل الجواشن^(١) مصقولا حواشيها
فحجب الشمس أحياناً أيضاً حكامها وريق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها
وقال في لؤلؤ الثغر ولؤلؤ الحديث
ولما التقينا واللوى موعد لنا تعجب رائى الدر حسنا ولاقطه
فن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه
وقال ابن الرومي في خباز رقاق
ما أنس لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة وشك الملح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء^(٢) كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح^(٣) دائرة في صفحة الماء يرى فيه بالحجر
وقال في صانع زلاية

(١) الدرود جمع جوشن (٢) مستديرة مقورة (٣) تنبسط

ومستقر على كرسية تعب
رأيت سحرا يتلى زلايية
يلقى العجين لجينا من أنامله
وقال ابن المعتز في الحمر

وأمطر الكأس ماء من أبارقه
وسبح القوم لما أن رأوا عجبا
وقال في أثر النشوة

وفد شربوا حتى كأن رءوسهم
وقال في قيام الساقين على رءوس الندامى

وكان السقا بين الندامى
وقال في سيفه

ولى صارم فيه المنايا كوامن
ترى فوق متنيه الفرند^(١) كأنه
وقال في فرسه

ولقد وطئت الغيث يحملنى
وكانه موج يسيل إذا
وقال السرى الرفاء في حدائق

وحدايق يسبيك وشى برودها
يجرى النسيم خلالها فكأنها
باتت قلوب المحل تحفق بينها
وقال أبو الفرج البغاء في كانون

(١) ما يظهر على صفحته من موجات (٢) جمع سببية وهي الشقة الرقيقة كالخار

وذى أربع لا يطيق النهوض ولا يالف السير فيمن سرى
تحمله سهجاً^(١) أسوداً فيجعله ذهباً أحمرًا
وقال في ناره

إذا رمت بالشرار واضطربت على ذراها مطارف الذهب
رأيت ياقوتة مشبكة تطير منها قراضة الذهب
وقال في فمه

كان كالأبنوس غير محلى فغدا وهو مذهب الآبنوس
لقي النار في ثياب حداد فكسته مصبغات عروس
وقال أبو الفضل الميكالى في شرار النار

كأن الشرار على نارنا وقد راق منظرها كل عين
قراضة تبر إذا ماء - لا فاما هوى ففتات اللجين

وقال ابن بابك في غدير تعتدل عليه الغصون وتميل
وغـ - دير ماء أفعمت أطرافه كالدمع لما ضاق عنه مجال
قمر الرياض إذا الغصون تعدلت واذا الغصون تهذبت فهلال
وقال الصابى يصف يد كاتب

وكم من يد بيضاء حازت جمالها يد لك لا تسود إلا من النقس^(٢)
إذا رقشت بيض الصحائف خلقتها تطرز بالظلماء أردية الشمس
وقال أبو العلاء في ليالين مختلفين
وليالين ، حال بالكواكب جوزه
كأن دجاء الهجر والفجر موعده بوصل وضوء الصبح حب^(٣) مماطل

(١) خفا (٢) الممداد الاسود (٣) بكسر أوله المحبوب

وقال يرد على حبيبتة في حوار

هي قالت لما رأيت شيب رأسي
أنا بدر وقد بدا الصبح في رأ
أست بدرا وإنما أنت شمس
وأرادت تنكرا وازورارا
سك والصبح يطرد الأقدارا
لا ترى في الدجى وتبدونها را

وقال ابن سناء الملك

يا عاقل الجيد إلا من محاسنه
في سلك جسمي در الدمع منتظم
لا تخش مني فأني كالنسيم ضئي
وما النسيم بمخشي على الفصن
عظمت فيك الحشا إلامن الحزن
فهل لجيـدك في عقد بلا ثمن
هـ - المبالغة والتهويل - لعل أول ما حبيب الى شعراء العصر

العباسي المبالغة والتهويل ، أن معظمهم كانوا من المولدين الراجعين في نسبهم الى أصل فارسي ، وللفرس واع بالمبالغة والاغراق شديد . وإذا كانت هذه الفئة المولدة في العصر العباسي الأول ، ذات شأن لدى الخلفاء ووزراء الفرس ورجالاتهم ذوي النفوذ فقد اكتسبوا رفعة جعلتهم القدوة أمام غيرهم من سائر الشعراء ، وانساق الجميع الى هذه الظاهرة رغبة في التحبيب وأكثروا منها في مدائحهم طمعا في ابتزاز المال . على أن هناك سببا آخر لشيوع المبالغة والغلو بين طبقات الشعراء بعيدا عن تلك الطبيعة الفارسية ، وهذه الرغبة في جذب المال ، هو تفتح أبواب المعاني واتساع مناحي التفكير ومسابقة الشعراء بعضهم بعضا في هذا الميدان وطمع كل أن يكون المجلي في تلك الحلبة أمام مناظرية . فان هذا الطمع لا بد يحدوه الى الايمان بجديد قلما تسعفه الحقائق الخالصة فيه فينزع عنها الى ضروب المبالغات والتهويل . وإن نظرة إلى ما أسلفنا من

نماذج اتريك هذه الظاهرة بادية للعيان وبخاصة كما ذكرنا في المديح .
فهذا مسلم قد رفع يزيد الشيباني في شجاعته إلى حيث شابه رسول الله
ثم جعله عز الخلافة وعدة بنى العباس . وهذا أبو تمام في رثائه ابن حميد
الطوسي قد بالغ في كثير من صفاته حتى جعل موته بين الطعن والضرب
نصرا وحياة . وزاد عنه البحترى من شعراء العصر الثاني في مدحه المتوكل
على الله . وما كاد يحل العصر الثالث حتى صارت المبالغات أساسا
للقول وارتفع بها شعراؤه إلى ما كان يمت قبلا من غلو وإغراق ،
فقد فتح هذا الباب فيه على مصراعيه للشعراء أول شعرائه أبو الطيب
المتنبي فأتى بما لم يدر بخلد في المدائح وفي غير المدائح على السواء
وهاهي تلك المديحة التي اخترنا آنفا من مدائحه في سيف الدولة
ابن حمدان قد بدأها بجعله حزب الله وبأنه راع الدهر ثم تحدى الدهر
أن يحدث خطوبا إذا شك فيما ذكر وعلى هذا النسق جرى إلى آخر
ما قال . وكذلك كانت مبالغاته وأشد ، في غير المديح كما سيأتي ، ثم كان
العصر الأخير أشد طغيانا وأكثر افتنانا في هذا الباب كما ترى ذلك في
قصيدة الأبيوردي التي اخترناها نموذجا للفخر فيما اخترناه

وإليك طائفة أخرى غير ما أشرنا إليه في النماذج من المبالغات
قال بشار في نحافته من أثر الحب

سلبت عظامي لحما فتركتها عواري في أجلادها تتكسر
وأخليت منها مخها فجعلتها أنابيب في أجوافها الريح تصفر
خذي يدي ثم ارفعي الثوب فانظري ضني جسدي لكنني أستر
وليس الذي يجري من العين ماؤها ولكنها نفس تذوب فتقطر

وقال المتنبي في ذلك

روح تردد في مثل الخلال^(١) اذا
كفى بجسمي نحولا أني رجل
وقال أبو نواس من مدح الرشيد
ملك تصور في القلوب مثاله
ما تنطوي عنه القلوب بنجوة
حتى الذي في الرحم لم يك صورة
وقات منصور النيري من مدحه أيضا

خليفة الله إن الجود أودية
إذا رفعت إمرأ فالله رافعه
من لم يكن بأمين الله معتصما
إن أخلف القظر لم تخاف مخايله
وقال ابن الرومي من هجائه ابن يوسف

لو أن قصرك يابن يوسف كله
وأذاك يوسف يستعيرك إبرة
وقال إبراهيم بن سيار النظام

توهه طرفي فألم خده
وصاحفه كفي فألم كفه
ومر بفكري خاطرا فجرحته
وقال ابن دريد يخاطب الدهر ويعلو عليه

(١) في جسم كعود الخلال نخافة (٢) مصدر كاللحظ (٣) بتسكين الناء

مارست من لوهوت الافلاك من جوانب الجو عليه ماشكا
ولو حمى المقدور منه مهجة لرامها أو يستبيح ما حمى
تغدو المنايا طائعات أمره ترضى الذى يرضى وتأبى ما أبى
وقال المتنبي

لو كان علمك بالاله مقسما فى الناس ما بعث الاله رسولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل التوراة والقرآن والانجيل
وقال أبو العلاء يمدح شريفا يسمى محمدا

لولا انقطاع الوحي بعد محمد قلنا عن أبيه بديل
هو مثله فى الفضل إلا أنه لم يأت به برسالة جبريل

وقال ابن سناء الملك من قصيدة طويلة .

سوى يهاب الموت أو يرهب الردى

وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا

ولكننى لا أرهب الدهر إن سطا ولا أحذر الموت الزؤام اذا عدا

توقد عزمى يترك الماء ججرة وحيلة حلمى تترك السيف مبردا

ويأبى إبائى أن يرانى قاعدا وأنى أرى كل البرية مقعدا

٦ - تمحيص الافكار وترتيب العناصر - أظننى فى غير حاجة أن

أعلل هذه الظاهرة الآن، لأن أسبابها أوضح من أن ينبه عليها . على أنى

أجل هذه الأسباب فى أن الشعراء العباسيين أصبحوا ينزعون فى

الفطرة الشعرية لا عن تلك الفطرة وحدها كما كان أسلافهم ، بل عنها

ممزوجة بثقافة تجمع الى مسائل الأدب والعلم والفلسفة وغيرها مما يوسع

العقل والفكر، فنون حضارة وارفة الظلال تنمى الذوق وترقى الاحساس

بالجمال . ولذلك كانوا يحصون أفكارهم وينظمون عناصر أقوالهم ثم يبرزونها في ثوب ذي جمال خلاب كما سبق ذلك بناحيته ظاهرا في النماذج أتم ظهوره .
فقصيدة العباس بن الأحنف قصة غزلية محكمة النسيج قوية الأداء . وقصيدة أبي نواس أجمع وصف يتناول صنع خمر الشهيد من خروج النحل يتغذى خلاياها الى أن غادرت الدنان بعد حطب الى آفاق السراء . وقصيدة ابن المعتز وصف يحكي العيان في الدعوة الى الخمر والصيد لها والجلوس عقب ذلك في مجلس شربها . وقصيدة ابن نباتة حكاية زورة ليلية لحبيب ذات تسلسل وانسجام . وقصيدة ابن حيوس وعمارة اليني تناولتا في دقة وإحكام كل مايجول في الخاطر من محاسن القصور . وقصيدة الطغرائي أحسن ما يصف به واصف رحلة بدوية في هاجرة نهار وظلام ليل ، ترد بعدها الابل غديرا في منبج الصباح . وقصيدة ابن عنين خير تعبير لما يجول في نفس هازم ومهزوم لكليهما من الشجاعة حظ ونصيب :

ولقد حملت هذه الظاهرة شعراء العباسيين أن يبرعوا البراعة كلها في ابتداء القصيدة ، وفي الانتقال خلاها من المطلع الى ما هو الغرض المقصود فيها ، ثم في إنهاؤها ، الى درجة حملت رجال البلاغة على تدوين هذه المحاسن الثلاثة في البديع باسم حسن الابتداء وحسن الانتقال وحسن الانتهاء ، ومن الاول تفرعت براعة الاستهلال .

فحسن الابتداء ويسمى براعة المطلع أن يتخير الشاعر لمطلع قصيدته المعاني الصحيحة الملائمة ، والالفاظ الرشيدة العذبة ويتحرز مما

يتطير منه من المعاني وما يستكره ويجفى من الألفاظ ، لأن المطلع أول
ما يقرع السمع فيسترعى الأذان أو توجه الأذان . فإذا أضاف الى هذا
الحسن جعل أول بيت من القصيدة مشعرا بالغرض منها في إشارة
لطيفة فقد ضم الى براعة المطلاع براعة أخرى هي براعة الاستهلال
وضمن بهذين حسن التقبل والاصغاء

فمن محاسن الابتداء قول أبي نواس
لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم
وقرل البحتري

بودى لو يهوى العذول ويعشق ليحلم أسباب الهوى كيف تعلق
وقول صريع الغواني
أجدرت ذيل خليع في الهوى غزل وشمرت هم العذال في عذلى
وقول أبي العلاء

ياساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعوانا على السهر
وقول التهامي

حازك البين حين أصبحت بدرا إن للبدر في التنقل عذرا
ومما ضم الى براعة المطلاع براعة الاستهلال قول أبي تمام في الرثاء

كذافليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفيض ماؤها عذر
وقول المتنبي في الشفاء من مرض

المجد عوفى إذا عوفيت والكرم وزال عنك الى أعدائك السقم
وقول أبي فراس على وشك رحيل

يا طول شوقى إن كان الرحيل غدا لا فرق الله فيما بيننا أبدا

وحسن التخلص ويسمى براعة المقطع هو الانتقال مما بني عليه مطلع القصيدة من نسيب أو غيره إلى الفرض الأصيل ، على معبر من قوة الاتصال بين المعنيين في دقة لطف وحسن وثام كقول مسلم في يحيى وابنه جعفر

أجذك هل تدرين كم رب ليلة كأن دجاها من قرونك تنشر
لهوت بها حتى تجلت بغرة كغرة يحيى حين يمدح جعفر
وكقول البحتري في الفتح بن خاقان

رياض تردت بالنبات مجودة بكل جديد الماء عذب الموارد
إذا رواحتها مزنة بكرت لها شأبيب مجتاز عليها وقاصد
كأن يد الفتح بن خاقان أقبات عليها بتلك البارقات الرواعد
وكقول المتنبي في سيف الدولة
خليلى مالى لأرى غير شاعر فكم منهم الدعوى ومنى القصائد
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة ولكن سيف الدولة اليوم واحد

وكقول البها زهير المتوفى سنة ٦٥٦ في صلاح الدين بن العزيز
أهوى التذلل فى الغرام وإنما يأبى صلاح الدين أن أتذللا
مهدت بالغزل الرقيق لمدحه وأردت قبل الفرض أن أتفلا
وحسن الانتهاء ويسمى براعة الختام أن تختم القصيدة بما يشعر بالانتهاء
فهو فى النهاية نظير براعة الاستهلال فى الابتداء وهو آخر ما يعنى السمع
ويرتسم فى النفس كقول المتنبي

فلا حطت لك الهيجاء سرجا ولا ذاق لك الدنيا فراقا

وكقول أبي العلاء

ولا تزال لك الأيام ممتعة بالآل والمال والعلياء والعمر

وكقول الأرجاني

علاك سوار والممالك معصم وجودك طوق والبرية جيد

وكقول الغزي

بقيت بقاء الدهر ماذر شارق وغار جديد المكرمات وأنجدا

وكقول ابن النبيه

دمتم بني أيوب في نعمة تجوز في التخليد حد الزمان

والله لازتم ملوك الوري شرقا وغربا وعلى الضمان

وقد كانت عناية الشعراء قبل العصر العباسي بهذه البراعات قليلة وما كان عليهم في إغفالها من عاب. أما في العصر العباسي فقد عنوا بها أتم عناية ولذلك كان من المآخذ عليهم إغفالها ثم كان من المآخذ الشديدة أن يأتوا فيها بما يعاب^(١)

(١) ظهر عيب المولدين أكثر ما ظهر في المطلع والانتقال دون الانتهاء فمن سوء المطلع ما كان من إسحق الموصلي إذ دخل على المعتصم وقد فرغ من بناء قصر فأنشده

يادار غيرك البلى ومحاك ياليت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتصم وأمر بهدم القصر

ومن الانتقال المقتضب قول البحتري

وهوى تجدد الدهالي كلما قدمت وترجمه السنون فيرجع

يأيها الملك الذي سقت الوري من راحتيه غمامة ما تقلع

ومن سوء المطلع وقبح الانتقال ما كان من أبي نواس إذ دخل على الفضل البرمكي فأنشده مبتدئا

٣ — ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان نصيب الشعر في العصر العباسي من الدقة في انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة للمعنى أتم تمثيل ، ومن التأنيق في صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهومة للغرض في إحكام وقوة أداء ، أوفر من نصيب النثر . ذلك لأن الشعر مجال الأناقة والظرف ، ولغة الحسن والجمال ومأخذ الغناء والاصوات ، وكل ذلك يستدعي عذوبة تنسجهم مع وجدان الشاعر ، ويطلب خفة تطير مع خياله ، كما يطلب نغما يتسق وموسيقية الوزن وجرس القافية إلى غير ذلك مما لا وجود له في نفس النثر ولا مطلب له في القول المنتور .

غير أن الشعراء في هذا العصر قد وقع لهم في ناحية الألفاظ

أربع البلى إن الخشوع لبادى عليك وإنى لم أخنك ودادى
ثم انتقل إلى مدح البرامكة بقوله

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من رأتين وغادى
فكان ذلك منه عجباً وهو البارع فى البراعات بجمعها فى قصائده جمعاً كما فعل
فى قصيدته إذ عزم على الرحلة من بغداد إلى مصر لمدح الخليفة فقد تحدث
عن زوجته فى مبدئها يقول

تقول التى من بيتها خف محلى عزيز علينا أن نراك تسمير
وتخلص من المدح بقوله مخاطباً لها

ذرينى أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخليفة أمير
ثم ختمها بقوله مخاطباً الممدوح

فإن تولني منك الجليل فأهله وإلا فاني طائر وشكور

والاساليب ما لم يكن لزملائهم السالفين ومن ثم وسميهم العلماء باسم
المولدين أو المحدثين^(١) وضنوا عليهم أن يكون كلامهم موطن حجة
واستشهاد .

١ — فهم قد تصرفوا في بعض الكلمات العربية تصرفا أخرجها عن
معانيها القديمة إلى معان لم تكن معروفة للعرب ثم كانوا كثيرًا ما يشتقون
منها بعد هذا الإخراج إلى المعنى الجديد ما هو منه كما فعلوا في كلمة
« قصف » وأصل معناها كسر الغصن الصغير فأنهم أطلقوها على اللهو
كما قال أبو نواس

لا يصرفنك عن قصف وإصبياء مجموع رأى ولا تشتيت أهواء
وكما قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد أراد الخروج عن بغداد
إلى اليمن لولاية

أيرحل آلف ويقيم إلف وتحيا لوعة ويموت قصف
على بغداد دار اللهو منى سلام ما سجا للعين طرف^(٢)
ثم استعملوا منها على هذا المعنى كل أنواع المشتقات

(١) المولد لغة اسم لكل من نشأ غير خالص العروبة مقرًا كان أم هجينًا،
ولكن المولدين أطلقوا في اصطلاح الأدب على الشعراء الذين نشئوا في العصر
العباسي ولو كانوا عربًا خالصًا دون من سبقوهم ولو كانوا غير خالصي العروبة
كما أطلق عليهم كذلك اسم المحدثين أي الذين حدثوا بعد الأصيلين

(٢) أشار إلى المعنيين في العصر المغولي عفيف الدين التلمساني حيث يقول
تبسم زهر البان عن طيب نشره وأقبل في حسن يحل عن الوصف
هلموا إليه بين قصف ولذة فان غصون البان تصلح للقصف

٢ — وهم قد استعملوا كثيرا من الالفاظ المعربة ولهل كثيرا منها
كان من تعريفهم أنفسهم، وأمثلة هذا كثيرة جدا . منها لفظ آذريون
معرب آذركون أى لون النار لورد أحمر الورق أو أصفره مع سواد
الوسط فيهما ، ولذلك يشبه الأحمر منه بكأس عقيق فيه مسك كقول
عبد الله بن المعتز

وطاف بهاساق أديب بمنزل كخنجر عيار صناعته الفتك
وحمل آذريونه فوق أذنه ككأس عقيق في قرارتهامسك
كما يشبه الأصفر بدهن ذهب فيه غالية ، وهى أخلاط طيب سوداء
كقوله أيضا

سقيا لروضات لنا من كل نور حاله
عيون آذريونها والشمس فيه كالیه^(١)
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية
والألفاظ المعربة أكثر من أن تحصى - وقد ذكرنا منها طائفة
كبيرة فى التعريب قبل .

٣ — وهم قد نقلوا بعض الالفاظ الاعجمية على حالها من غير
تعريب نظرفا وتملحا، كلفظة آب سرد بمعنى الماء البارد فى قول العمانى
لما هوى بين غياض الأسد وصار فى كف الهزبرالورد
آلى يذوق الدهر آب سرد
وكلفظة يرلكأس الملائى فى قول ابراهيم الموصلى
اذا ما كنت يوما فى شدا^(٢) فقل للعبد يسقى القوم يرا

(١) أى ناظرة من كلاً بصره فى الشيء رددته فيه (٢) كغراب تبلبل فكر

فان السقي مكرمة ومجد ومدفأة إذا ماخفت قرا
وقد ذاع استعمال كلتي نيروز معرب نوروز ومهرجان منقولة كما هي،
على السنة جهرة الشعراء ولا سيما في البيئات الفارسية^(١)

قال عبدالصمد بن بابك يمدح الصاحب بن عباد
لقد نشر النيروز وشيا على الربا من النور لم تظفر به كف راقم
كأن ابن عباد سقى المزن نشره فجاد برشاش من الوبل ساجم
وقال أيضا يمدح نحر الدولة بن بويه ويهنئه بالمهرجان
أيا شاهنشاه صل الأمانى بتجديد البشائر والتهانى
فقد حزت السعود وجاء يحدو سبوت الدهر سبت المهرجان
٤ - ثم هم قد استخدموا كثيرا من ألفاظ العلوم والفنون والصناعات
ومصطلحاتها . قال أبو الفتح البستي
عزلت ولم أذنب ولم أك جانبا وهذا لأنصاف الوزير خلاف
حذفت وغيرى مثبت فى مكانه كأنى نون الجمع حين يضاف

(١) كلاهما عيد من أعياد الفرس . فالنيروز ستة الايام الأوئل من
أول شهر سنتهم « أفرودين » وهم يزعمون أنه أول الزمان الذى ابتدأ الفلك فيه
الدوران ويسمون اليوم السادس منها النيروز الكبير لأن الأكاسرة كانوا ينصرفون
فيه الى مجالس أنسهم مع ظرفاء خواصهم بعد جاوسهم لرد المظالم فى أيامه
الخمسة الأولى وهو يتفق واليوم المعروف الآن بشم النسيم . والمهرجان يبدأ
فى منتصف شهرهم السادس « مهرماه » ويوافق آخر الخريف وهو ستة أيام كذلك
آخرها يسمى المهرجان الكبير . فالنيروز استقبال للربيع والمهرجان استقبال
للشتاء وهما خير فصول السنة

وقال الصباني في ساجور وزير بهاء الدولة وكان قد صرف عن الوزارة
ثم أعيد إليها

وقد كنت طلقت الوزارة بعدما زلت بها قدم وساء صنيعها
فغدت بغيرك تستحل ضرورة كما يحل إلى ثراك رجوعها
فالآن قد عادت وآلت حلقة ألا يبيت سواك وهو ضجيعها

وقال عبد الوهاب بن محمد البغدادي المتوفى بمصر سنة ٤٢٢
ونائمة قبلتها فتنبهت وقالت تعالوا فاطلبوا اللص بالحد
فقلت لها إني فديتك غاصب وما حكموا في غاصب بسوى الرد
وقال ابن الرومي :

مأذر معتزلى موسى منعت كفاه معتزليا معسرا صفدا
أزعم القدر المحتوم ثبطه إن قال ذلك فقد حل الذى عقدا
وقال أبو نهر أحمد بن يوسف المتوفى سنة ٤٥٣

ولى غلام طال فى دقة كخط إقليدس لا عرض له
وقد تناهى عقله خفة فصار كالنقطة لا جزء له

وقال أبو الحسن بن أبي الغنائم المتوفى سنة ٥٦٠
تعب الزمان فللغرام قضية ليست على نهج الحجا تنقاد
منها بقاء الشوق وهو بزعمهم عرض وتفننى دونه الأجساد

وقال كمال الدين بن النبیه المتوفى سنة ٦٠٨
وبى هندسى الشكل يسببك لحظه وخال وخد بالعدار مطرز
ومذ خط بيكار الجمال عذاره كقوس علمنا أنما الخال مر كز
٦ — ولم يتحرز شعراء هذا العصر وقد ابتدلوا الشعر بالقفاط العلوم

ومصطلحاتها ، أن يجعلوا منه لغة تأليفية في كثير من العلوم والفنون من نحو وفقه وتاريخ وطب وغيرها مما ألفوا فيه منظومات يسهل على الناشئين حفظها وتحصيل مسائل العلوم بتعليقها وهذه ظاهرة بدت منذ نظم أبان كنية ودمنة واستمرت تزايد وتنمو حتى بلغت مبلغها في نهاية العصر ، ومن مثلها في تلك النهاية ملحة الأعراب للحريى وقد سبقت الإشارة إليها

٦ - هذا وقد انحدر الشعراء الى استعمال كثير من ألفاظ السخف والبذاء وعبارات الخلاعة والمجانة كما اتضح ذلك آنفا حيث الكلام على الأغراض التي تستدعيه كالهجاء والغزل والمجون .

٧ - على أنهم قد أحسنوا الاحسان كله في استخدام ألفاظ التشبيه والمجاز والكناية مما رأيت حيث القول على الابداع في التصوير والاغراب في الخيال من الكلام على المعاني والأخيلة قبل.

٨ - ثم أكثروا من محسنات البديع على اختلاف أنواعها وبخاصة الجناس ، وسنكتفي بالتمثيل له لأنه أظهر المحسنات في اللفظ والاسلوب وأكثرها أنواعا .

فن الجناس المائل وهو المتفق اسمية وفعلية قول ابن الرومي وكان مولعا بالجوارى السود

للسود في السود آثار تركز بها وقعا من البيض يثني أعين البيض^(١)
ومن المستوفى وهو المختلف اسمية وفعلية قول البستي

(١) السود الأولى جمع سوداء للجارية والثانية جمع سوداء القلب ، والبيض الأولى جمع أبيض للسيف والثانية جمع بيضاء للمرأة

فَقَالَ لِي دَعْنِي وَلَا تُؤْذِنِي إِلَى مَتَى أَجْرِي بِلَا أَجْرٍ
وَمِنَ الْمَرْكَبِ وَهُوَ الْمُتَّفَقُ لَفْظًا وَخَطًا قَوْلُ أَبِي الْفَضْلِ الْمِيكَالِيِّ
تَفَرَّقَ النَّاسُ فِي أَرْزَاقِهِمْ فَرَقًا فَلَابِسَ مِنْ ثَرَاءِ الْمَالِ أَوْ عَارِ
كَذَا الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا وَسَا كُنْهَا مَقْسُومَةً بَيْنَ أَدَمَاتٍ وَأَوْعَارِ
مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ جَوْرًا فِي قَضِيَّتِهِ اقْتَرَعَنَ مَأْثَمَ فِي الدِّينِ أَوْ عَارِ
وَمِنَ الْمَفْرُوقِ وَهُوَ الْمُتَّفَقُ لَفْظًا لَا خَطًا قَوْلُ الْبَيْهَقِيِّ
كَمْ مِنْ أُخٍّ قَدْ هَدَمَتْ أَخْلَاقَهُ فِي آخِرِ مَا قَدَّ بَنِي فِي أَوَّلِ
يَرَى سَهَامًا إِنْ أُسِرَ الْمَقْتَلُ لِي بِالْكِيدِ لَا يَقْصِدُنَ غَيْرَ الْمَقْتَلِ
وَمِنَ الْمَطْرَفِ وَهُوَ الْمُخْتَلَفُ بِزِيَادَةِ حَرْفٍ قَوْلُ الْبَيْهَقِيِّ .
فَإِنْ صَدَفَتْ عَنْهَا فَرَبَتْ أَنْفُسُ صَوَادِلُ إِلَى تِلْكَ الْوُجُوهِ الصَّوَادِفِ
وَمِنَ الْمَذِيلِ وَهُوَ الْمُخْتَلَفُ بِأَكْثَرِ مِنْ حَرْفٍ قَوْلُ بَعْضِ الْعَبَّاسِيِّينَ
فِيَالِكَ مِنْ حَزْمٍ وَعِزْمٍ طَوَاهِمَا جَدِيدُ الرَّدَى تَحْتَ الصِّفَاوِ الصِّفَافِ
وَمِنَ الْمَشْتَقِ وَهُوَ مَا يَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ
وَأَنْجَدْتُمْ مِنْ بَعْدِ إِتْهَامِ دَارِكُمْ فَيَادِمُ أَنْجَدْنِي عَلَى سَاكِنِي نَجْدِ
وَمِنَ الْمَطْلُوقِ وَهُوَ مَا لَا يَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ قَوْلُ أَبِي نَوَاسٍ
فَمَا السَّلَافُ أَزْدَهْتَنِي بِلِ سَوَالِفِهِ وَلَا الشُّمُولُ دَهْتَنِي بِلِ شِمَائِلِهِ
وَمِنَ الْمَحْرَفِ بِاخْتِلَافِ الشَّكْلِ قَوْلُ الْمَعْرِيِّ
لِغَيْرِي زَكَاةٌ مِنْ جَمَالٍ فَإِنْ تَكُنْ زَكَاةٌ جَمَالٍ فَازْكُرِي ابْنَ سَبِيلِ
وَمِنَ الْمَضَارِعِ وَهُوَ مَا اخْتَلَفَ بِحَرْفٍ مُقَارِبِ الْخُرْجِ قَوْلُ الرُّضِيِّ
لَا يَذْكُرُ الرَّمْلَ إِلَّا حِينَ مَغْتَرَبٍ لَهُ إِلَى الرَّمْلِ أَوْ طَارٍ وَأَوْ طَائِنٍ
وَمِنَ الْإِلَاقِ وَهُوَ مَا لَا تَقَارِبُ فِي حَرْفِهِ قَوْلُ الْبَيْهَقِيِّ

لست عن ثروة بلغت مداها غير أنى امرؤ كفاًنى كفاًنى
ومن اللفظى وهو ما اختلف بحرف مقارب الخط قول الأرجان
وبيض الهند من وجدى هواز باحدى البيض من عليا هوازن
ومن جناس العكس أى القلب قول ابن نباتة السعدى فى الأئير بهرام
قيل كل القلوب من رهب الحب تضطرب
قلت هذا نخرص قلب بهرام مارهب
ومن جناس التلفيق أى التركيب من كلمتين قول ابن عنين
خبروها بأنه ما تصدى اسلو عنها ولو مات صدا
والقول فى الجناس يطول .

٩ - وقد حلال كثير من الشعراء فى هذا العصر أن يودعوا
أشعارهم تصرفات لفظية تدل على تملكهم زمام الصناعة الى حد كبير.
ومن أعلامهم فى ذلك، الحريرى الذى تعدى بتلاعبه فى هذا، ميدان النثر
الى الشعر فأثنى بالعجب العجاب
قال من مقطعة عاطلة الأبيات
أعد لحسادك حد السلاح وأورد الآمل ورد السماح
وقال من أخرى حالتها

شغفتنى بحفن ظبى غضيض غنج يقتضى تغيض جفى
وفال من ثلاثة إحدى كلماتها مهملة والاخرى معجمة
اسمح فبث السماح زين ولا تحب آملا تضيف
وقال من رابعة خطية الجناس
زينت زينب بقدر يهد وتلاه ويلاه نهى يهد

وقال من خامسة مطرفته

سم سممة تحسن آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسمه
وهكذا مما جاوز فنون البديع المعروفة على كثرتها إلى ما عدا ابتكارا
واختراها .

١٠ - ومما ظهر واضع الاثر بالفاظ الشعر وأساليبه في العصر العباسي
ما اخترع في أوزانه وقوافيه، وهذى كلمة عما جد في كل منهما .

الأوزان - حصر الخليل بن أحمد أوزان الشعر التي نظم عليها
العرب في خمسة عشر بحرا معروفة؛ وأجهد تلميذه الأُخفش نفسه أن
يمجد غيرها فلم يظفر إلا ببحر واحد سماه المتدارك لأنه تدارك به على الخليل .
وقد أثبت الاستقراء أن كل ما قيل من الشعر إلى آخر العهد
الأموي لا يخرج بحال عن هذه البحور . وبالرغم من أن جمهرة الشعراء
في العصر العباسي وبعده بقوا ينظمون عليها ، فقد نظم بعض المولدين
على أوزان غيرها جريا وراء الأنغام الموسيقية الجديدة التي نقاتها اليهم
الحضارات المختلفة ، أو رغبة في عدم التقيد بالقديم وولوعا باختراع جديد
في الأوزان كما اخترعوا في كل شيء للشعر غيرها .

وقد جاء هذا الجديد نوعين

أحدهما الأوزان المأخوذة من البحور بالقلب أو التحريف
فما جاء بالقلب ، المستطيل مقلوب الطويل وأجزاؤه « مفاعيلن
فعولن » أربع مرات مثل :

لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أحور

أدير الصدغ منه على مسك وعنبر

والممتد مقلوب المديد من غير جزء أى « فاعلن فاعلاتن » أربع
مرات مثل .

صاد قلبي غزال أحور ذو دلال كلما زدت حبا زاد مني نفورا
والمتمد مقلوب المجتث من غير جزء أى « فاعلاتن مستفع لن »
مرتين مثل .

كن لا خلاق التصابي مستمريا ولا أحوال الشباب مستحليا
وقد يقع القلب في تفاعيل البحر الواحد على صورتين تأخذ كل
صورة اسما كما حدث في المضارع وأجزاؤه « مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن »
مرتين فقد أخرجت فيه فاع لاتن من غير جزء باسم المنسرد مثل .

على العقل فعول في كل شأنا ودان كل من شئت أن تدانى
وقدمت باسم المطرد كذلك مثل

ما على مستهام ريع بالصمد فاشتكى ثم أبكاني من الوجد
ومما جاء بالتحريف، المنوافر المأخوذ من محرف الرمل وهو « فاعلاتن » ست
مرات فانه أبدل بنونها الساكنة كافا متحركة وحذف من تفعيائى الضرب
والعروض السبب فصاروزنه « فاعلاتك فاعلاتك فاعلن » مرتين مثل :

ماوقوفك بالركائب فى الطلل ماسؤالك عن حبيبك قد رحل
ماأصابتك يافؤادى بعدهم أين صبرك يافؤادى مافعل
والثانى ما جاء على أوزان غير أوزان البحور وهو فنون سبعة ،

ثلاثة لا يجوز فيها اللحن مطلقا وهى الدويبت والسلسلة والموشح ، وثلاثة
ملحونة دائما وهى الزجل والسكران وكان ثم القوما ، وواحد كالبرزخ بين
هذه وتلك يكون معربا وملحونا على ألا يجتمع الاعراب واللحن فى

دور واحد منه وهو المواليا

فالدوبيت أصله فارسي يأتي بيتين بيتين ومعنى دو اثنان وهو يسمى
الرباعي أيضا لأن في البيتين أربعة أشطر، وقد اقتبس به البغداديون ونظموا
منه على أوزان أشهرها « فعلن متفاعان فعولن فعلن » مرتين مثل
إن جئت ربالحى ولاحت نجد فاذكر وهى وماجنه البعد
قد كنت أقاسى الصداحتى رحلوا ياليتهم عادو وعاد الصدا
والسلسلة من مخترعات البغداديين ووزنه « فعلن فعلا تن متفعان
فعلا نان » مرتين ومنه

يامعتدل القد إن صبرى قد بان والدمع خلفى الغرام أظهر اذ بان
جددت شجونى وقد حكمت جفونى بالسهد فيبنى وبين نوى شتان
والموشح نشأ أول مانشأ بالأندلس ومنها انتقل الى المشرق فى
عصر بني بويه وهو ذو أوزان كثيرة منها « فاعلاتن فاعلن مستفعان فاعلن »
مرتين وعليه موشحة ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ ومطاعها
كللى ياسحب تيجان الربى يالحلى واجعلى سوارك منعطف الجدول
ومنها « مستفعان فاعلن فعيل » مرتين مثل .

ياجيرة الأبرق اليماني هل الى وصلكم سبيل

والزجل نظم العوام بالعامية على منوال الموشح وليس فى هذه الفنون
أكثر أوزانا منه على أنه لا ضابط لأوزانه ومثله

الفراق نار والوصال جنه والخلائق بعضهم يعشق

ولهيب الهجر يتوقد والوصال م الملاح يشفق

وقد تقصر أشطاره الثانية عن الأولى مثل

عن محرم شرابنا صمنا ونفطر بالثمار
حين وجدنا سفرجل البستان يذهب لـ صفرار
والسكان وكان نظم اخترعه أهل بغداد واستعملوه في النصيحة والوعظ
بحكاية ما كان وكان ، ولذلك أخذ هذه التسمية ووزنه واحد مستفعلن
فاعلاتن مستفعلن فاعلن وشطره الأول دائماً أطول من الثاني ومنه
قول بعضهم .

يا قاسى القلب مالك تسمع وما عندك خبر
ومن حرارة وعطى قد لانت الأحجار
أفنييت مالك وحالك فى كل مالا ينفعك
ليتك على ذى الحال تقلع عن الأصرار
والقوما نظم اخترعه البغداديون أيضاً ليغنوا به الناس فى رمضان كى
يقوموا للسحور ومنه قول بعضهم

يامن جنابه شديد ولطف رأيه شديد
ما زال برك يزيد على أقل العبيد
ولا عدمننا نوالك فى صوم فطر وعيد

٧ — أما المواليا فقد نشأ كما يقولون على لسان جارية للبرامكة كانت
ترثيهم به وتقول يا مواليا وهو كما قلنا دون سائر الفنون المذكورة يأتى
عاميا ويأتى صحيحا . فمن عاميه قول بعضهم

حلف على كجاره أن يقاطعنى وصد عنى وأقسم ما يطاوعنى
كم ذا يصد وكم يرجع يصد عنى إن كنت أنا المطلق لا يراجعنى
ومن صحيحه قول آخر :

باطعان الخيل والأبطال قد غارت
والمخصب الربع والأمواء قد غارت
هو اطل السحب من كفيك قد غارت

والشهب : إذ شاهدت أضواءك قد غارت
القوافي - التزمت العرب القافية في القصيدة الواحدة كما التزمت فيها
الوزن فلم يغيروا حرف القافية في قصيدة مهما طالت بل لم يجيدوا
عن نظم راعوها في مجموع الحروف التي تشملها القافية بنهاية البيت -
وهي من آخر حرف ساكن فيه إلى أول حرف متحرك قبل ساكن
بينهما مع دخول هذا المتحرك فيها - وقد استمر ذلك مراعى إلى نهاية
العصر الأموي كما كانت الحال في الأوزان ثم أفلت الشعراء بعده من
القافية كما أفلتوا من الوزن لأسباب قد تتحد مع بعض السابقة كالرغبة
في النزوع عن القديم إلى جديد ، وقد تختلف كالفرار من تضيق
الحرف الواحد في القافية لكل قصيدة إذ صار هذا من نصيب القافية
وحدها ، كما كان تنويع الوزن للغناء من نصيب الأوزان . على أنهم في هذا
الخروج عن القافية الواحدة لم يوسعوا المجال كما وسعوه في الأوزان
فانحصر فيما يأتي : -

١ - المزدوج وهو ما اقتصرت فيه التقفية في كل بيت على عروضه
وضربه دون ما حولهما في الأبيات ، وأهم ما حمل القوم عليه إطالتهم
الباسقة في نظم قواعد العلوم والكتب وطوال المواعظ وغيرها وقد
عرفت ما كان من نظم أبان بن عبد الحميد للكيللة ودمنة ، ووضع الحريري

ماحته في قواعد الاعراب وكلاهما من المزدوج . ولأبي العتاهية مزدوجة
سمها ذات الحكم والامثال اشتملت على أربعة آلاف مثل منها قوله :

لكل ما يؤذى وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم يزم
ولبشر بن المعتز مزدوجة في فضل على كرم الله وجهه على الخوارج
يقول فيها عنهم .

ما كان من أسلافهم أبو الحسن ولا ابن عباس ولا أهل السنن
غر مصابيح الدجى مناجب أولئك الأعلام لا الأعارب
وللصابي مزدوجة كتب بها إلى أبي الفرج البيهقي في وصف البيهقي
أولها .

ألفتها فصيحة مليحة ناطقة باللغة الفصيحة

وللبهقي رد عليه بمزدوجة أخرى يقول فيها .

تميزت في الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الإنسان
ولا بن المعتز مزدوجة في الشراب يقول فيها :

لي صاحب قد لا مني وزادا في تركي الصبوح ثم عادا
ولأبي فراس الحمداني مزدوجة في اللهو بالصيد يقول فيها

ما العمر ما طالت به الدهور العمر ماتم به السرور

وللحسن بن وكيع مزدوجة في فصول العام أولها .

ياسائل عن أطيب الدهور وقعت في ذلك على الخبير

٢ — المشطر وهو أن تتحد القافية في أشطار القصيدة أربعة أربعة

أو أكثر فيسمى مربعا أو خمسا وهكذا ، كقول الحسن بن وكيع

المذكور من مشطر مربع له

رسالة من كاف عميد حياته في قبضة الصدود
بلغه الشوق مدى الجهود مافوق مايلقاه من مزيد
جار عليه حاكم الغرام فدى أن يدرك بالأوهام
فلو أتاه طارق الحمام لم يره من شدة السقام

٣ - المسمط وهو أن يؤتى بأقسمة من قافية واحدة بعدها قسم
من قافية أخرى ثم يؤتى بمثل تلك الأقسمة عددا ووزنا من قافية
أخرى وبعدها قسم من قافية القسم المذكور ووزنه وهكذا من المخالفة
في الأقسمة المتعددة والاتحاد في القسم المفرد ثلاثة كانت الأقسمة كما
تقدم التمثيل لذلك صفحة ٤٦ أم أكثر كقول الأ ميرتيم بن المعز الفاطمي

دم العشاق مطلول ودين الحب ممطول
وسيف اللحظ مسلول ومبدي الحب معذول
وإن لم يصنع للأثم

وأحور ساحر الطرف يفوق جوامع الوصف
مليح الدل والظرف جنت الحاظه حتفي

فمن يعدى على الظالم

وقد يبتدأ بببيت مصرع غير الاقسمة يأتي عليه القسم الملتزم مثل
توهمت من هند معالم أطلال

عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي

مرابع من هند خلعت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعواذف
وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحهم من نوء السما كين هطال

ومستأنهم كسفت بالرمح ذيله أقمت بعضب ذى سفاسق^(١) ميله
 فجعت به فى ملتقى الخيل خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله
 كأن على سرباله نضح جريال^(٢)

كما قد يبتدأ ببيت غير مصرع يلتزم مثله قافية وضربا بعد كل قسم
 كقول ابن المعتز

أيها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع
 ونديم همت فى غرته وبشرب الراح من راحته كلما استيقظ من سكرته
 جذب الزق إليه واتكا وسقاني أربعا فى أربع
 ما لعيني غشيت بالنظر أنكرت بعدك ضوء القمر وإذا ما شئت فاسمع خبري
 غشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى^(٣)

(١) طرائق جمع سفسقة بفتح حين أو كسرتين مع سكون الثانى وفتح الثالث
 (٢) الجريال صبيغ أحمر قيل هو العصفور، وتعزى هذه الأبيات فى بعض الكتب
 إلى امرئ القيس وهى نسبة غير مسلم بها وغير متفقة مع طبيعة الأشياء
 (٣) بهذا الذى ذكرناه من تغير فى لفظ الشعر وأسلوبه نكون قد تناولنا
 كل ما عدناه من تغير حياة اللغة جملة فى ألفاظها وأساليبها بصفحتى ٤٤ ، ٤٥
 ما عدا الشغف باستعمال ألفاظ القرآن ، والتوسع فى ألقاب التعظيم ، والتغالى
 فى الاطناب والايجاز . لأن هذه الثلاثة كانت أظهر فى النثر منها فى الشعر
 وإن لم يخل بعض الشعر منها . فقد طالت القصيدة جدا فى العصر العباسى
 الثالث كما انتشرت الأبيات المفردة ، وأكثرت فيه الألقاب على ما رأيت فى
 بعض مامضى ، ثم وجد من الشعراء منذ العصر الأول من اقتبس ألفاظ القرآن
 كأبي العتاهية إذ يقول

المرء آفته هوى الدنيا والمرء يظنى كلما استغنى

هــذا

ومما تقدم عن الشعر نماذج وقولا في تلك النواحي الثلاث ، يتبين القارئ فضل المولدين عليه وكثرة حسناتهم فيه ، كما لا يعدم أن يجد لهم في كل ناحية بعض السيئات ، كنقل الأعمى على حاله ، واستعمال ألفاظ السخف والبذاء ، وتعمل الصناعة اللفظية ، وغيرها في الألفاظ والأساليب . وكتعمد الفلسفة إلى درجة الخفاء ، والتصور إلى حد الاغراب ، والغلو في المبالغات إلى قمة الاغراق ، وغيرها في المعاني والاختيلة ، وكعدم التعفف عن الغزل في المذكر ، والانحدار في الخريات ، والاسفاف في المجون ، وغيرها في المقاصد والأغراض . على أن ذلك لا يبرر لنا التعصب عليهم تعصبا يعمينا عما لشعرهم من حسن وجمال أو يجعلنا ننكره مع معرفتنا بوجودته كما كان يفعل في الحالتين كثير من القدماء^(١) فان العقل يقضى بالعدل في الحكم لهم وعليهم كالأقدمين سواء وقد أنصفهم ابن قتيبة وابن رشيق في ذلك بعض الانصاف^(٢)

-
- (١) من رجال الحالة الاولى أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ فقد كان بأنف أن يروى للشعراء الاسلاميين فضلا عن الحديث وهو الذي جالسه الاصمعي حياة طويلة فما سمعه يحتاج بيت اسلامي وكذلك كان الاصمعي ، ولكنه كان يستحسن بعض الشعر الحديث . ومن رجال الحالة الثانية ابن الاعرابي المتوفى سنة ٢٣١ فقد روى عنه أنه عرضت عليه أرجوزة لأبي تمام على أنها لأحد شعراء العرب فنالت منه نهاية الاستحسان حتى قال « هذا هو الديباج الخسرواني » واستكتبها فلما أنهاها قيل له إنها لأبي تمام فلم يحجل أن قال « من أجل هذا أرى عليها أثر الكفة » وألقى الورقة من يده وقال « خرق خرق يا غلام »
- (٢) كان ابن قتيبة يقدم القديم من ناحية الجزالة وسلامة العبارة ولأنه

وربع

فانا واجدون من الحتم ألا نهى الكلام على الشعر بعد الذى
أسلفنا عن نهضته من حيث المظاهر والأسباب فى تلك النواحي الثلاث
دون أن نتعرض إجمالاً لثلاث نواح أخرى تتصل بتلك النهضة .
هى مواطن الشعر وطبقات رجاله ، والعوامل المساعدة لأسباب نهوضه ،
ثم الغناء ومجالسه ، لاتصاله الوثيق بالشعر والشعراء
١ - مواطن الشعر وطبقات رجاله

عرفت مما ذكرنا عن طابع كل عصر من العصور العباسية الأربعة
فى حياة اللغة أن بغداد فى العصر الأول كانت محط الرحال وكعبة
الآمال ومظهر العظمة والجلال ، لقوة الخلفاء فيه قوة تجماهم مناط تحقيق
الآمال ومفزع تفريج الكرب والآلام ، ولذلك تركز فيها كل شىء وقصدها
ذوو الغايات من كل فن وفى مقدمة جمهور الشعراء قصد توطن
 وإقامة لزيارة وإياب . ومن هنا كانت كل طبقاتهم من أهلها وإن كانوا
فى النشأة والنسب متعددي الأوطان . كما عرفت أنها بالرغم مما أصابها
فى العصر الثانى بقيت مركز الادب وعش الشعر ولكن فى نطاق
وخضوع . وقد ظهر من الشعراء فى العصرين ست طبقات ، أولها

مرجع النحوى فى الشواهد واللغوى فى معانى المفردات والتراكيب ، ويقدم
الحديث لعذوبة ألفاظه وحلاوة معانيه وشدة ارتباطه . وكان ابن رشيق على
النحو من ذلك فقد جعل مثل القديم والحديث مثل رجلين ابتداءً هذا بناء
فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن
والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن

طبقة بشار من مخضرمي الدولتين وأشهر رجالها بشار وحماد مجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وصالح بن عبد القدوس وأبو دلامة والسيد الحميري ومروان بن أبي حفصة، ومن رجالها رؤبة بن العجاج. وثانيتها طبقة أبي نواس التي نشأت في صدر الدولة العباسية وأشهر رجالها أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع بن عمرو السلمي وسلم بن عمرو الخاسر والحسين بن الضحاك والعباس بن الأحنف وأبان بن عبد الحميد وكلثوم بن عمرو العتابي وأبو الشيص محمد بن رزين ومن رجالها عمارة بن عقيل، والثالث طبقة أبي تمام التي نشأت في آخر العصر الأول ومعظم رجالها أدراك العصر الثاني وأشهرهم أبو تمام ودعبل الخزاعي وديك الجن عبد السلام بن رغبان وعلي بن الجهم. والرابعة طبقة البحتري التي ظهرت شاعريتها في أول العصر الثاني وأشهر شعرائها البحتري وابن الرومي وابن الزيات. والخامسة طبقة ابن المعتز في وسط هذا العصر ومن شعرائها عبد الله بن المعتز وأبو الحسن علي بن محمد البسامي البغدادي. أما السادسة فهي الناشئة في آخره ومن شعرائها أبو القاسم نصر بن أحمد المعروف بالخبز أرزي وأبو بكر الحسن بن علي المعروف بابن العلاف. ومن الشعراء في الأول علمية بنت المهدي. ومنهن في الثاني فضل جارية المتوكل على الله العباسي وكان منزلها مجتمع الأدباء.

وقد عرفت أيضاً أنها بدأت منذ العصر الثالث تفقد نفوذها وسطوتها لتفكك أوصال الدولة بإنشاء الدويلات المزاحمة لها بمحاضرها فيما كانت به ذات استئثار فأخذ كل شيء يرحل عنها إلى تلك الحواضر حتى لم

يبقى لها إلا نصيب يسير، وكان أن توزع الشعراء على الأقاليم أكثر مما توزع الأدباء والعلماء فصار لشعراء كل إقليم من المزايا والخواص ما لم يكن لغيرهم من سائر الشعراء .

وإنك بالرجوع إلى ما ذكرنا في التصوير السياسي لهذا العصر تجدهم كانوا منضوين في الممالك الشرقية لآمارات غير عربية كآل بويه بالعراق وفارس ، والساسانيين فيما وراء النهر ، والغزنويين بخراسان ، في حين كانت الممالك الغربية عربية كالجمدانين بالجزيرة والشام ، والفاطميين بمصر ، أما الأخشيديون الأتراك بها فلم تكن مدتهم وهى ثلث قرن ذات تأثير . ومن ثم تحكم بأن الشعر في الممالك الغربية كان خيرا منه في الشرقية ، كما تحكم بأنه كان في العراق وفارس خيرا منه فيما وراء النهر وخراسان كما كان في الشام والجزيرة خيرا منه في مصر ، وأنه كان في الوسطين خيرا منه في الطرفين . وعلى هذا يكون الشعراء بالنسبة إلى الأقاليم أربع طبقات وإليك أسماء أشهرهم على هذا التقسيم

فمن شعراء الجزيرة والشام أبو الطيب المتنبي فاتحة شعراء هذا العصر وأبو فراس الحمداني وكثير غيره من آل حمدان وأبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله ابنا ورقاء الشيباني وأبو الفتح كشاجم محمود بن الحسين الرملي والسري الرفاء وأبو الفرج الواواء وأبو الفرج البغواء وأبو العباس النامى وأبو طالب الرقي وعبد المحسن الصوري وأبو الرقعمق وأبو القاسم الواساني وأبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان ثم خاتمتهم صاحب المعرة وأبو العلاء

ومن شعراء مصر أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع التنيسي وأبو

القاسم أحمد بن محمد اسماعيل بن طباطبا الحسنى وأبو القاسم بن أبي
العفير الأنصارى ومحمد بن عاصم الموقفى وأبو على الأمير تميم بن
المعز الفاطمى والتمامى وكان فى الشام قبل .

ومن شعراء العراق وفارس العصابى وتاج الدولة بن عضد الدولة
البويهى وكثير غيره من آل بويه والوزير المهلبى أبو محمد الحسن بن
محمد وابن دريد والقاضى التنوخى أبو القاسم على بن محمد وابن لنكك
أبو الحسن محمد بن محمد وأبو عبد الله الحسين بن على النمرى وأبو الحسن
محمد بن عبد الله السلامى وابن نباتة السعدى والشريف الرضى ومهيار
وأبو الحسن على بن زريق وابن سكرة وابن حجاج

ومن شعراء ماوراء النهر وخراسان أبو الطيب طاهر بن محمد
الطاهرى وأبو الحسن على بن الحسن اللحام وأبو محمد الحسن بن على
المطرانى وأبو طالب عبد السلام بن الحسن المأمونى وأبو محمد عبد الله
ابن عثمان الواثق وأبو محمد عبد الله بن ابراهيم الرقاشى والخوانسارى
والهمذانى وأبو الفتح البستى وأبو الفضل الميكالى وأبو النصر محمد بن
عبد الجبار العتبى وأبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل التعلابى،
وقد كان للتعلابى هذا على شعراء هذا العصر الثالث فضل ليس
لغيره مثله بتدوين أخبارهم فى كتابه الخالد « يتيمة الدهر » ذى الاقسام
الاربعة، فقد جعل القسم الاول وهو أضخمها لشعراء الشام وماحو اليها
من الجزيرة شرقا ومصر غربا وفيه عنى بآل حمدان، وجعل الثانى لشعراء
أهل العراق وفيه عنى بآل بويه، وجعل الثالث لشعراء فارس وما اليها
من بخرجان وطبرستان منشأ البويهيين، وجعل الرابع لشعراء ماوراء

النهر وخراسان مواطن السامانيين والغزنين . وعقد في أول القسم
الاول بابا في فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان كان مما
قال فيه

« لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب
العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام . والسبب في تبرز القوم
قديما وحديثا على من سواهم في الشعر ، قربهم من خطط العربية ولا
سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد
العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم .
ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة
الحضارة ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب
المشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف
والقلم وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد
منه فيمجزل ويفضل ، انبعثت قرائحهم في الاجادة فقادوا محاسن الكلام
بألين زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا » .

ولما حل العصر الرابع وطوحت أحداثه بآل بويه في العراق
وفارس ، ومن قبلهم بالسامانيين فيما وراء النهر وبالجمدانين في الجزيرة
والشام ، انضم حل الأدب والشعر في خراسان إذ لم يبق فيها إلا الغزنيون
وليسوا للعربية بنصراء ، وبقي ضعيفا في فارس والعراق ، ثم تنزل عن
الهامة التي كانت له في الجزيرة والشام ولكنه ارتفع اليها في مصر لبقاء
الفاطميين . حتى إذا ما زال الغزنيون من الشرق والفاطميون من الغرب
في نصفه الثاني تقلص نهائيا من القاصية واشتد ضعفه في فارس وصار

وسطا في العراق والجزيرة ثم نزل عن الهامة في مصر حتى كاد يصل
مستوى الشام ، ولكن ساعد على بقائه ناميا فيهما إذ ذاك الحروب
الصليبية أيام بني أيوب . وهذه أسماء أشهر الشعراء فيه بكل إقليم
مرتبة على حسب التنازل في القوة من الغرب الى الشرق

في مصر - ابن زقاق البلقيني وظافر بن القاسم الاسكندر
وأبو الفتوح نصر الله بن عبيد الله المعروف بابن قلاؤس الأزهرى
وعمارة البني وهبة الله بن جعفر المعروف بابن سناء الملك المصرى وكال
الدين بن النبيه المصرى وابن عنين وأبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة
وأبو حفص عمر بن الفارض وأبو الحسن جمال الدين بن مطروح
والامير سيف الدين اليازوقى ثم أبو الفضل بهاء الدين زهير المتوفى
سنة ٦٥٦ .

في الشام - ابن سنان الخفاجى وابن حيوس الغنوى ومهذب
الدين أبو الحسين أحمد بن منير الطرابلسى وبهاء الدين أبو الحسن بن
على الساماتى والملك الاتمجد أبو المظفر بهرام شاه الأيوبى وشهاب
الدين أبو المحاسن يوسف بن اسماعيل المعروف بالشواء الحلبي وأمين
الدين عبد المحسن بن حمود التنوخى الحلبي وصدر الدين محمد بن عمر بن
على بن حمويه الدمشقي ونور الدين محمد بن محمد الاسعردى ثم صدر الدين
على بن أبى فرج بن الحسن البصرى المتوفى سنة ٦٥٩

في الجزيرة والعراق - الطغرأتى ودلال الكتب أبو المعالى سعد
ابن على الخزرجى وابن التعاوىذى ونجم الدين أبو الغنائم محمد بن على
المعروف بابن المعلم الواسطى وحسام الدين أبو يحيى عيسى بن سنجر

الحاجري وأبو الطيب أحمد بن محمد المعروف بابن الخلاوى والصرصرى
أبو زكريا يحيى بن يوسف البغدادى والأثير علم الدين أيدمر المحيوى
التركى ثم محي الدين الوترى البغدادى المتوفى سنة ٦٦٢

فى فارس - صردر وأبو الحسن على بن الحسن الباخري ومعين
الدين أحمد بن عبد الرازق الطنطرانى وابن الهبارية السابق فى القصص
ثم ابن الخياط والغزى والارجانى والبيوردى السابقون فى النماذج^(١)

ب - العوامل المساعدة لأسباب نهوضه

نعنى بهذه العوامل المساعدة ، ماجاء مقويا لعوامل النهضة الاولى
التي شرحناها فى كل من الألفاظ والمعانى والأغراض وهى كثيرة
فلنكتف هنا بذكر أهمها :-

١ - تذوق الخلفاء ورجالات الدولة للأدب - فقد كانوا منذ
أوليتهم ذوى أذواق أدبية سليمة يعرفون بها الغث والسمين ويميزون
الحسن والأحسن ، قال الربيع بن زياد - قلت للمنصور يوما إن الشعراء
ببابك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم فقال اخرج اليهم
فاقرأ عليهم السلام وقل لهم عني ، من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد
فإنما هو كلب من الكلاب ولا بالحية فإنما هى دويبة منتنة تأكل التراب ولا
بالجبل فإنما هو حجر أصم ولا بالبحر فإنما هو لب غطامط فن ليس
فى شعره هذا فليدخل ومن كان فى شعره فلينصرف ، قال الربيع فأنصرفوا
كلهم إلا ابراهيم بن هرمة فإنه قال أنا له ياربيع فأدخلني فادخلته قال فلما
مثل بين يديه قال لى المنصور ياربيع قد علمت أنه لا يجيبك أحد غيره

(١) قد اكتفينا فيمن تقدم نسبهم بالاسم المشهور وأكملنا الاسم فى غيرهم :

هات يا بن هرمة فانشده قصيدته التي يقول فيها

له لحظات عن حفاي سريره إذا كرها فيها عذاب ونائل
له طينة بيضاء من آل هاشم إذا اسود من كوم التراب القبائل
إذا ما أتى شيئاً مذى كلذي أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل

فقال حسبك هاهنا بلغت هذا عين الشعر قد أمرت لك بخمسة
آلاف درهم. وقد تبعه في ذلك ابنه المهدي وحفيده الهادي والرشيدي
وتناهى ذلك في الرشيد فكان أعلم بالشعر من الشعراء . قال سعيد بن
سلم قدم على الرشيد أعرابي فثل بين يديه فقلت يا أعرابي خذ في
شرف أمير المؤمنين فاندفع في شعره فقال الرشيد يا أعرابي أسمعك
مستحسننا وأنكرك متهما فقل لنا بيتين في هذين - وأشار إلى
الأمين والمأمون وكان حفايه - فقال يا أمير المؤمنين حملتني على الوعر
القردد وأرجعتني عن السهل الحرد ، روعة الخلافة وبهر الدرجة ونفور
القوافي على البديهة فأرودني تتألف لي نوافرها ويسكن روعي قال
قد فعلت وجعأت اعتذارك بدلا من امتحانك فقال يا أمير المؤمنين
نفسك الخناق وسهلت ميدان السباق وأنشأ يقول

بنيت لعبد الله ثم محمد ذرا قبة الاسلام فاخضر عودها
هما طنباها بارك الله فيهما وأنت أمير المؤمنين عمودها
فقال الرشيد وأنت يا أعرابي بارك الله فيك فسل ولا تكن

مسألتك دون إحسانك ، قال الهنيدة يا أمير المؤمنين - والهنيدة مائة
من الابل - فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع . ودخل عليه سهل بن هارون
فوجدده يضاحك المأمون فقال اللهم زده من الخيرات وابسط له في

البركات حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه مقصرا عن غده
فقال الرشيد يسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده ومن الحديث
أصحّه وأبلغه ومن البيان أفصحّه وأوضحّه إذا رام أن يقول لم يعجزه
قال سهل يا أمير المؤمنين ما ظننت أحدا تقدمني الى هذا المعنى فقال
الرشيد بل أعشى همدان حيث يقول .

وجدتك أمس خير بنى لؤى وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غدا تزيد الخير ضعفا كذلك يزيد سادة عبد شمس
وقد كان المأمون كأبيه الرشيد ، أنشده مرة مروان بن أبي حفصة
قوله :-

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغلا
فلم يطرب له فساده ذلك وذهب الى عمارة بن عقيل يقول له أعلمت
أن المأمون لا يبصر الشعر فقال له عمارة ومن ذا يكون أعلم به منه
فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا الى آخره قال مروان فانه
لم يتحرك لقولى وأنشده البيت السابق فقال عمارة إنك والله ما صنعت
شيئا وهل زدت أن جعلته عجوزا في محرابها وفي يدها مسابحها فن
القائم بأمر الدنيا اذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال
عمك جرير في عبد العزيز بن مروان .

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله
فقال مروان الآن علمت أنى أخطأت .

لذلك كان الشعر شفيعا اليهم في عظام الذنوب ، خرج محمد بن البعيت
على المتوكل فأرسل اليه من أتى به أسيرا فأمر بضرب عنقه فأنشد .

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي إمام الهدى والصفوح بالناس أجمل
وهل أنا إلا جبلة من خطيئة وعفوك من نور النبوة يجبل
فإنك خير السابقين إلى العلا ولا شك أن خير الفعالين تفعل
فقال المتوكل جلسائه إن فيه لأدبا وأمر باطلاقة والعفو عنه .

وقد شايخ خلفاء العصر الأول في ذلك رجالا لدولة وأعيانها وقصص
البرامكة في هذا أمر يطول ، كان أبان على أيامهم يرتب لهم الشعراء
في التقدم بهم إليهم وإلى الخلفاء ثم بقي لخلفاء العصر الثاني من ذلك شبه
ما كان لأسلافهم في الأول ولكن غرض منه وخفض من همتهم جهل
الخدم الأتراك المستبدين عليهم ، بمعاني الشعر وأقدار الشعراء فلم
يظهر بمظهر أسلافه منهم إلا القليل كعبد الله بن المعتز صاحب
اليد الطولى على الأدب والشعر والفتوح الواسعة في نواحي البديع والمعاني
ومبادي الخيال ولكن لما جاء العصر الثالث وتعددت الخواضر نافس
ملوك الدويلات وأمرؤها وأعيانها بعضهم بعضا في النهوض بالأدب
كما عرفت ذلك حيث الكلام على ميزات العصر الثالث في صدر الكتاب
عن آل حمدان وآل بويه والفاطميين . فرقى الشعر بهذا النهوض .
أما العصر الرابع فقد أخذ حكمه يسرون نحو الجهل بالأدب إلى الوراء
فقلت رغبة الشعراء فيه وإن بقي للشعر على أيامه وجود في مصر
والشام والجزيرة والعراق وبعض فارس دون خراسان ، على النحو الذي
ذكرناه في مواطنه وطبقات رجاله مذ الآن .

٢ - عقدم لمجالس الشعر — لعل أول خليفة إسلامي عقد مجالس
للأدب عامة وللشعر خاصة بالمعنى الذي نريده الآن ، عبد الملك بن مرنوا

الخليفة الأموي العظيم وقد دونا عن مجالسه الأدبية في كتابنا الثاني الشيء الكثير ، وقد جراه في شبه ذلك أبنائه من بعده وخاصة هشام . ثم جاء العصر العباسي وخلفائه ميل شديد الى هذه المجالس ولكنه لم يظهر واضحاً أيام أولهم أبي العباس لقصر مدته مع اشتغاله فيها بالسياسة ليل نهار ، ثم ظهر في عهد أخيه المنصور صاحب الرسالة السابقة الى الشعراء على لسان حاجبه الربيع بطلب النزوع عن القديم الى الجديد . وقد سخا الوقت بهذه المجالس لابنه المهدي فعقد منها الكثير ، عقد يوماً مجلساً مروان بن أبي حفصة حشد فيه وجوه بني العباس فلما تمام الناس دعاه فأنشده .

كأن أمير المؤمنين حمداً رأفته بالناس للناس والد
على أنه من خالف الحق منهم

سقطته به الموت الختوف الرواصد

فأشار اليه فأمسك ، فقال يا بني العباس هذا شاعركم المنقطع اليكم المعادي فيكم فآتوه ما يسره فأعطاه موسى ابنه خمسة آلاف درهم وأعطاه هرون مثلهما وأعطاه سائر البيت كل على قدر حاله فبلغ ما أعطوه أربعين ألف درهم وأعطاه هو ثلاثين ألفاً ثم قال له وسيأتيك مني ما يؤدبك الى الغنى فقال له مروان قد رأيت من قبولك وبشرتك وسرورك بما سمعت مني ما سآزداً به شعرا وستسمع ويبغك ، فلا يبلغ ما أعطيتني لشاعر بعدى ، قال أجل قال فأذني في زيارتك قال آذنتك فقال لي فيك وفي أهل بيتك عدو فان رأيت ألا تجعل لأحد على سلطانا دونك قال لاسطان عليك دون أمير المؤمنين . وعقد ابنه موسى الهادي حين

وقم اليه سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي وكان معنيا بجمع السلاح
 مجلسا للشعراء اقترح عليهم فيه وصفه فقال بعضهم :
 حاز صمصامة الزبيدي من يمين جميع الأنام موسى الأمين
 سيف عمرو وكان فيما سمعنا خيرا ما أغمضت عليه الجفون
 أخضر اللون بين حديه برد من ذعاف يمس فيه المنون
 أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت به الذخاف القيون
 فاذا ما سلته بهر الشمس ضياء فلم تكد تستبين
 مايبالي من انتضاه حرب أشمال سطت به أم يمين
 يستطير الأَبصار كالقبس المشعل ما تستر فيه العيون
 وكأن الفرند والجوهر الجا رى على صفحته ماء معين
 فنحبه عشرين ألف درهم . ولما عقد الرشيد البيعة لابنه الأمين
 أخذ يستمع للشعراء فأنشده سلم

قد وفق الله الخلافة إذ بنى بيت الخلافة للهجان الأزهري
 فهو الخليفة عن أبيه وجده شهدا عليه بمنظر وبمخبر
 قد بايع الثقلان في مهد الهدى لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر
 فانها لت عليه العطايا من الرشيد والسيدة زبيدة حتى ناء ، وكذلك
 فعل حين عقد البيعة من بعده للمأمون . وحتى المعتصم على أميته كان
 يطرب للأدب ويعقد مجالس للشعر ، اجتمع الشعراء ببابه مرة فبعث
 اليهم من يقول لهم ، من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور
 النيري في الرشيد - وأنشد الأبيات التي تقدمت في المبالغات -

فليدخل فقال محمد بن وهيب الحميري، فينا من يقول خيرا منه ودخل
فأنشده قصيدته التي منها

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
فالشمس تحكيه في الاشرار طالعة إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه في الظلماء منبججا إذا استنارت لياليه به الغرر
فهش له وبالغ في جائزته . وكانت مجالس ابنه المتوكل للشعراء ومكانة
البحترى فيها مضرب الأمثال ، ولكن بعده كسدت مجالس الأدب
وقع الشعراء حتى أحياءها ملولا الدويلات في الشام ومصر والعراق
كما علمت آنفا . ثم عاودها الكساد في النصف الأول من العصر الرابع
حتى زالت في نصفه الأخير .

٣ - إثابة المحسنين من الشعراء وقد تقدم الكلام على ذلك مع المدح بما
فيه الكفاية .

٤ - رقى الغناء ومجالسه ، لما لذلك من صلة وثيقة برقى الشعر وإشهار
الشعراء كما سترى في الكلام عليه الآن

ج - الغناء ومجالسه

قد عرفت مما ذكرنا في العصر الأموي أن الغناء نهض فيه
وأنهض معه الشعر ، لحاجة الحياة المترفة إليه في مدن الحجاز ، وإذا كان
الترف منذ العصر العباسي الأول قد بلغ أقصى الغايات فلا بد أن يكون
الغناء قد بلغ فيه مثل ذلك وأثر في النهوض بالشعر أوضح تأثير
واليك البيان

اتخذ المغنون أصواتهم من الشعر فدفعوا بالشعراء إلى توخي

السهولة والرشاقة في الأساليب، وتطلب الجمال والركة في المعاني، وابتكار
الجديد اللائق في الأغراض . وقد كان الغناء بشعر شاعر في حضرة
خليفة ووزير أو ملك وأمير يثير في نفسه من المشاعر الكامنة والوجدانات
الخافية ما يقوى فيه ملكه الشعر حتى يظفر كل يوم بمزيد . كما كان
التسابق في هذا المجال يولد لدى كل منهم الطمع في أن يكون المجلي
في هذا السباق وفي ذلك للغناء على الشعر فضل كبير . على أن له عليه
فضلاً آخر هو إشاعته في الناس لما هو طبيعي في الإنسان من حب
الغناء والميل إلى استماعه سيمان في ذلك الفرح والحزون لحسن موقعه
في القلب ووصوله دون أن تفاهم آخر إلى أعماق النفس ، نعم كان ذلك
سبباً في أن يلهج الناس بالشعر الذي يغني فيه ويكثروا إنشاده في
المجتمعات وفيما بينهم وبين أنفسهم بتريد أبياته استمتاعاً بمعانيها أو
الترنم بها استعادة لا نغامها . ولهذا عقد بين المغنين والشعراء إزاء وثيق ،
بل لهذا وجد من المغنين من أجاد الشعر ومن الشعراء من أتقن
الغناء وإن كانت مجالس المغنين أحفل جمعاً وأكثر عدداً من مجالس الشعراء
وإليك مجلساً منها للرشيد

جمع الرشيد يوم ما بين المغنين المتعصبين للقديم منهم كإبراهيم الموصلي
وابنه إسحق ، ونصره الجديد كإسماعيل بن جامع^(١) ثم أمر إبراهيم أن

(١) كان الغناء كله أول العصر العباسي على القديم فلما جاء إبراهيم
ابن المهدي لم يتقيد به وقال أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهي وعلى ما ألتذ ،
وانضم إليه جماعة ، منهم إسماعيل المذكور وفليح بن أبي العوراء ويحيى المكي وعمر
بن نابه وحسين بن محرز وغيرهم ، وبقي إبراهيم الموصلي على القديم وانضم إليه

يغنى فغنى الصوت

وقفت على ربيع لينة ناقتي فإزلت أبكى عنده وأخطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبشه تكلمني أحجاره وملاعبه
فكان كل من من في المجلس يجيبه بترديد صوته وطرب الرشيد حتى كان

يقوم ويقعد ، فأشار مسرور الخادم الى ابن جامع فغنى

كأن أحور من غزلان ذى بقر أطارها شبه العيينين والجيـدا
أجرى على موعده منها فتخلفنى فما أمل ولا توفى المواعيدا
كأننى حين أمسى لا تكلمنى ذو بغية يبتغى ما ليس موجودا
فاستخف الطرب الرشيداً بما استخفاف ثم غنى إسحق

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويأسلوة الأيام موعذك الحشر
وإنى لتعرونى لذكراك هـزة كما انتفض العصفور بالله القطر
هجرتك حتى قليل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قليل ليس له صبر

فكاد الرشيد يخرج من ثيابه طرباً وقال « والله ما الغناء الذى يلين
العريكة ويفسح فى الرأس والصدر ويحدث فى النفس طرباً إلا غناء
إسحق » ثم أوماً إلى المغنين أن يحلوا صنفوفهم وفرق فيهم الجواثر بقدر
أهليتهم من ألف دينار إلى خمسمائة إلى مادون ذلك

هذا وقد اعتنى الخلفاء بالغناء أكثر من عنايتهم بالشعر ، وأكرموا المغنين

جماعة ، منهم إسحق ابنه وسليم بن سلام وزير بن دحمان ومحمد بن الرف و أحمد
بن يحيى ومحمد بن حمزة وغيرهم . ولم يلبث المجددون أن اتقنوا ما خرجوا فيه
فكان فى خروجهم فتح مبين للغناء

أكثر مما أكرموا الشعراء واتخذوا منهم الندمان والسجّار وأسقطوا
الكلفة عنهم وكانوا يزورونهم في منازلهم ويهبونهم أياما ينقطعون
فيها إلى لذتهم فلا يطلبونهم مع شغفهم بمجاورتهم ، ثم كان أن أقبل
بعضهم على الغناء يتعاهه ، كما أقبل كثير من أقربائهم حتى أجاده عدد
منهم كإبراهيم بن المهدي وأبي عيسى بن الرشيد وعبد الله بن المهدي
وعبد الله بن الأمين وأبي عيسى بن المتوكل وعبد الله بن المعتز .
بل من الخلفاء أنفسهم من اشتهر بالتأحين كالواثق والمنتصر والمعتز
والمعتد والمعتضد ، وكل ذلك ذكره صاحب الاغانى وساق على بعضه
الشواهد . ولعل أشد هؤلاء جميعا ولعا بالغناء أبو عيسى بن المتوكل
الذي كانت مجالسه فيه تجاوز حدود الوصف وإليك واحدا منها .

جمع مرة بين المشدود وزنين وديس فغنى المشدود

لما استقل بأرداف تجاذبه	واخضر فوق حجاب الدر شارب
وأشرق الورد في نسرين وجنته	واهتز أعلاه وارجت حقائقه
كلمته بحفون غير ناطقة	فكان من رده ما قال حاجبه

ثم سكنت وغنى زنين

الحب حباو أمرته عواقبه	وصاحب الحب صبب القلب ذائبه
أستودع الله من بالطرف ودعى	يوم الفراق ودمع العين ساكبه
ثم انصرف وداعى الشوق يهتف بي	ارفق بقلبك قد عزت مطالبه

ثم سكنت وغنى ديس

بدر من الأئس حفته كواكبه	قد لاح عارضه واخضر شاربه
إن يمنح الوعد يوما فهو مخالفه	أو ينطق القول يوما فهو كاذبه

عاطيته كدم الأوداج صافية فقام يشد وقد مالت جوانبه
ثم عادوا فغنوا بلحن واحد وقافية واحدة ، في كل ثلاثة أصوات
كما رأيت في هذه ، حتى تم لكل أحد عشر صوتا ، فطاب أبو عيسى من
المشدود وحده أن يغنى صوتا يكون ختام المجلس فغنوا إياه فأثابهم
جميعا ولولا أنه قطعهم ما انقطعوا ، وهذا هو الصوت :-

يا لجة الدمع هل للدمع مرجوع أم الكرى من جفون العين ممنوع
ما حيلتي وفؤادي هائم أبدا بعقرب الصدغ من مولاي ملسوع
لا والذي تلفت نفسي بفرقتة فالقلب من حرق الهجران مصدوع
ما أرق العين إلا حب مبتدع ثوب الجمال على خديه مخلوع
هذا وقد مال القوم استكمالاً للمتعة منذ الصدر الأول أن يؤدبوا
الجواري ويعلموهن الغناء فكان من ذلك قينات يجمعن إلى جمال الأنوثة
أدب الشعر أو صمعه المغنين ، واتخذ ذلك أرباب هذا الفن تجارة رابحة
إذ كانوا يستحضرون الجارية غفلا بنحو مائة دينار فإذا ما ثقفوها
باعوها بعشرات الآلاف^(١) وغالى الناس في اقتنائهم حتى كان عند
الرشيد ثلثمائة من المغنيات ، واليك حكاية عنان جارية الناطفي في أدبها
رواية بكر بن حماد وفي وصولها إلى الرشيد رواية إبراهيم بن عمر .
قال بكر - وقد انتهى إليه أدبها - خرجت معترضا لها فخار عني إلا الناطفي
مولاهما قد ضرب على عضدي فقال هل لك فيما سئح من طعام وشراب
ومجالسة عنان قلت ما بعد عنان مطلب فمضينا حتى أتينا منزله فدخل

(١) روى أن الرشيد اشترى إحدى الجواري بمائة ألف دينار بل روى
أن الأمين عن أخرى بألف ألف دينار وليس ذلك على تبيذره في لهوه ببعيده .

فقال لها هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم فقالت لا والله إني
كسلالة فحمل عليها بالسوط ثم قال لي ادخل فدخلت ودسها يتحدر
كالجمان في خدها فطمعت بها فقالت

هذي عنان أسبلت دمعها كالدر إذ ينسل من خيطه
ثم قلت أجيزي فقالت

فليت من يضربها ظالما تجف كفاه على سوطه
فقلت إن لي حاجة فقالت هاتها فمن سببك أودينا قلت لها بيت وجدته
على ظهر كتابي لم أقرضه ولم أقدر على إجازته قالت قل فأنشدتها
فما زال يشكو الحب حتى حسبته تنفس في أحشائه فتكلم
قال فأطرقت ثم أنشدت

ويبكي فأبكي رحمة لبيكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
فقلت لها فما عندك في إجازة هذا البيت

بديع حسن بديع صد جعلت خدي له ملاذا
فأطرقت ثم قالت

فعاثبوه فعنفوه فأوعدوه فكان ماذا

وقال إبراهيم - جالس الرشيد ليلة ومعه سماره فغناه بعض من
حضر من المغنين بأبيات جرير التي يقول فيها

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا

فطرب طرباً شديداً وأعجب بالأبيات وقال لجلسائه هل منكم أحد
يجيز هذه الأبيات بمثل من وله هذه البدرة - وكانت بين يديه بدرة من
دنابير - قال فقالوا فلم يصنعوا شيئاً فقال خادم على رأسه أنا بهاذلك

يا أمير المؤمنين قال شأتك فاحتمل البدره ثم أسرع الى الناطق فقال له
استأذن لي على عنان ، فأذنت له فدخل وأخبرها الخبر فقالت ويحك
وبما الأبيات فأنشدها إياها فقالت اكتب

هيجت بالقول الذي قد قلته داء بقلبي ما يزال كميناً
قد أينعت ثمراته في طينها ومسقين من ماء الهوى فروينا
كذب الذين تقولوا يسيدى إن القلوب إذا هوين هويننا
فدفع اليها البدره ورجع بالأبيات إلى هرون فقال له ويحك من قالها
قال عنان فقال خامت الخلافة من عنقي إن باتت إلا عندي ، وبعث إلى
مولاهما فاشتراها منه بثلاثين ألف دينار وباتت بقية الليلة عنده .

بهذا التشجيع وغيره رقيت صناعة الغناء حتى صارت فنا ذا
مؤلفات ^(١) وزادها رقياً اختصاص كل مغن باجن أو أكثر يضع فيه
الكثير من الأصوات ^(٢) كما رقيت بجوار الغناء مع الشعر الذي هو ممدد

(١) ذكر ابن النديم من مؤلفات الغناء كتباً جلها ضائع الآن منها كتاب
النغم للخليل ، وأخبار المغنين لإسحق وكتاب آخر له جمع فيه أغانيه ، والآداب
الرفيعة في الغناء والمناديات لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما ذكر أن لحظته
البرمكي وحسن بن موسى النصيبى تأليف فيه أيضاً . والباقي الآن هو الأغاني
ولكن أبا الفرج أخلاه من قواعد الغناء إلا ما كان إشارة ورمزا وعلب عليه
الصبغة الأدبية في أخبار المغنين والشعراء

(٢) كانفراد فليح بن أبي العوراء بالنواقيسى وإبراهيم الموصلى
بالمخوري وإسحق ابنه بلحن التخنيث . على أن إسحق افتن جداً فصنع الحاناً
لا يقدر عليها شبعان ، وأخرى لا يقدر عليها متكى حتى يقعد وثلاثة لا يجيدها

الاصوات ، صناعات استخدام آلات الطرب من عود وناي وطبل
وغيرها ، وانبرى الشعراء يصفون هذه الآلات كما يصفون القيان فيأتون
بأبداع الأوصاف . قال ابن الرومي يصف القيان وفي أيديهم الآلات

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بئسها حوائ

مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان

ملقات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان

كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران^(١)

أمه دهرها تترجم عنه وهو بادي الغنى عن الترجمان

وكان القيان أردن أن يقابلن ذلك الجميل من الشعراء بجميل مثله فكن

ينقشن بعض أبيات الشعر في أكتفهن بالحناء ، أو يكتبنها على ما يرتدين

من ملابس ويمسكن من أدوات . نقشت إحداهن بالحناء في كفها

ليس حسن الخطاب زين كفى حسن كفى زين لكل خضاب

وكتبت أخرى على عصابةها

ألا بالله قولوا يارجال أشمس في العصابة أم هلال

وحملت وصيفة للأمين مروحة عليها

بي طاب العيش في الصيف وبى طاب السرور

ممسكى ينفى أذى الحر م إذا اشتد الحـرور

الندى والجود فى وجهه أمين الله نور

ملك أسامه الشبهه وأخلاه النظير

قاعد حتى يقوم . وزاد عنه الفارابى بعد ، فقد روى أنه دخل مجلس سيف الدولة
فضرب لحنا أضحكهم وآخر أبكاهم وثالثا أنامهم ثم قام (١) الكران المنج

هذا وقد دام الرقى للغناء بالغيا الأوج العصرين الأول والثانى .
وناله فى الثالث ما نال الأدب عامة والشعر خاصة فكان فى إقليم خيرا
منه فى إقليم كما ذكرنا عن الشعر آ نفا . ثم انحط فى الرابع فكانت حاله
أسوأ من حال الشعر لأنه يحتاج فى رقيه إلى ما لا يحتاج اليه الشعر
من أسباب كانت فى هذا العصر والعدم سواء

السباعى يوصى



فهرس

تاريخ اللغة العربية في العصر العباسي

« بغير اندراس والمقرب »

مقدمات

٦٠ - ٣

٨ - ٣ تصوير عام للحال السياسية في هذا العصر الطويل وتقسيمه
أربعة عصور

٢٣ - ٩ طابع كل عصر وأثره العام في حياة اللغة من حيث الآداب
والعلوم

٣٤ - ٢٤ مائراً على العرب ولغتها من جراء امتزاج الأعجام بها

٤٦ - ٣٥ غلبة الفرس في هذا التأثير وإلى أي درجة كان في اللغة مداه

« من ناحية الأغراض والمقاصد ، وناحية المعاني والأخيلة ،

وناحية الألفاظ والأساليب »

٦٠ - ٤٧ انتشار العامية واختلافها باختلاف الأقاليم

الخطابه

١٠٨—٦١

نماذجها « ٢٢ نموذجها » ٨٤—٦١

حياتها « دواعيها وأغراضها ومميزاتها » ١٠٨—٨٤

الكتابه

٣١٠—١٠٩

أنواعها « رسائل ، توقيعات ، قصص ، مقامات ، كتابة عامية » ١١٠—١٠٩

نماذج الرسائل « في العصور الأربعة ٤٧ نموذجها » ١٤٩—١١١

نماذج القصص والمقامات « ٤ نماذج » ١٦٤—١٤٩

أساليب الرسائل ومميزاتها وطبقات رجالها في العصور ١٩٧—١٦٥

الأربعة مع التعريف الوافي بامام كل عصر

دواعيها وأغراضها ومكانة رجالها ٢٣٠—١٩٧

التوقيعات « نماذجها وحياتها منذ نشأتها إلى انقراضها » ٢٤٣—٢٣٠

القصص وحياتها منقولة وموضوعة مع الموازنة بينها ٢٦٣—٢٤٤

وبين القصة الآن

المقامات وحياتها منذ نشأتها إلى نهاية العصر ٢٧٦—٢٦٤

٢٧٧ - ٣١٠	تدوين العلوم والكتابة العلمية
٢٧٧ - ٢٧٩	تمهيد عام وبيان لأنواع العلوم وأقسامها
٢٧٩ - ٢٨٥	العلوم الشرعية . « التفسير والقراءات . الحديث . الفقه وأصوله . الكلام والمنطق »
٢٨٥ - ٢٩١	العلوم اللسانية « النحو والصرف . متن اللغة . البلاغة . الادب والتاريخ »
٢٩١ - ٣٠٣	العلوم الكونية « من طبيعية ورياضية وإلهية وسياسية »
٣٠٣ - ٣٠٥	الكتابة العلمية أو لغة التأليف في كل من العلوم الإسلامية « شرعية ولسانية » والعلوم الكونية
٣٠٦ - ٣١٠	مجالس العلم والمناظرة وإنشاء المدارس

الشعر	٣١١-٤٤٢
نماذج « في العصور الأربعة ٣١ نموذجاً »	٣١١-٣٤٧
تمهيد لحياته من النواحي الثلاث الآتية	٣٤٧-٣٤٨
ناحية الأغراض والفنون « من مناح عشرة »	٣٤٨-٣٧٥
« المعاني والأخيلة « من مناح ستة »	٣٧٥-٤٠٤
« الالفاظ والأساليب « من مناح عشرة »	٤٠٥-٤٢٠
توجيه النظر إلى مال المولدين في تلك النواحي من حسنات وسيئات	٤٢١-٤٢٢
مواطن الشعر وطبقات رجاله	٤٢٢-٤٢٨
العوامل المساعدة لأسباب نهوضه	٤٢٨-٤٣٤
الفناء ومجالسه وعلاقة ذلك بنهضة الشعر	٤٣٤-٤٤٢
الفهرس	١-٥